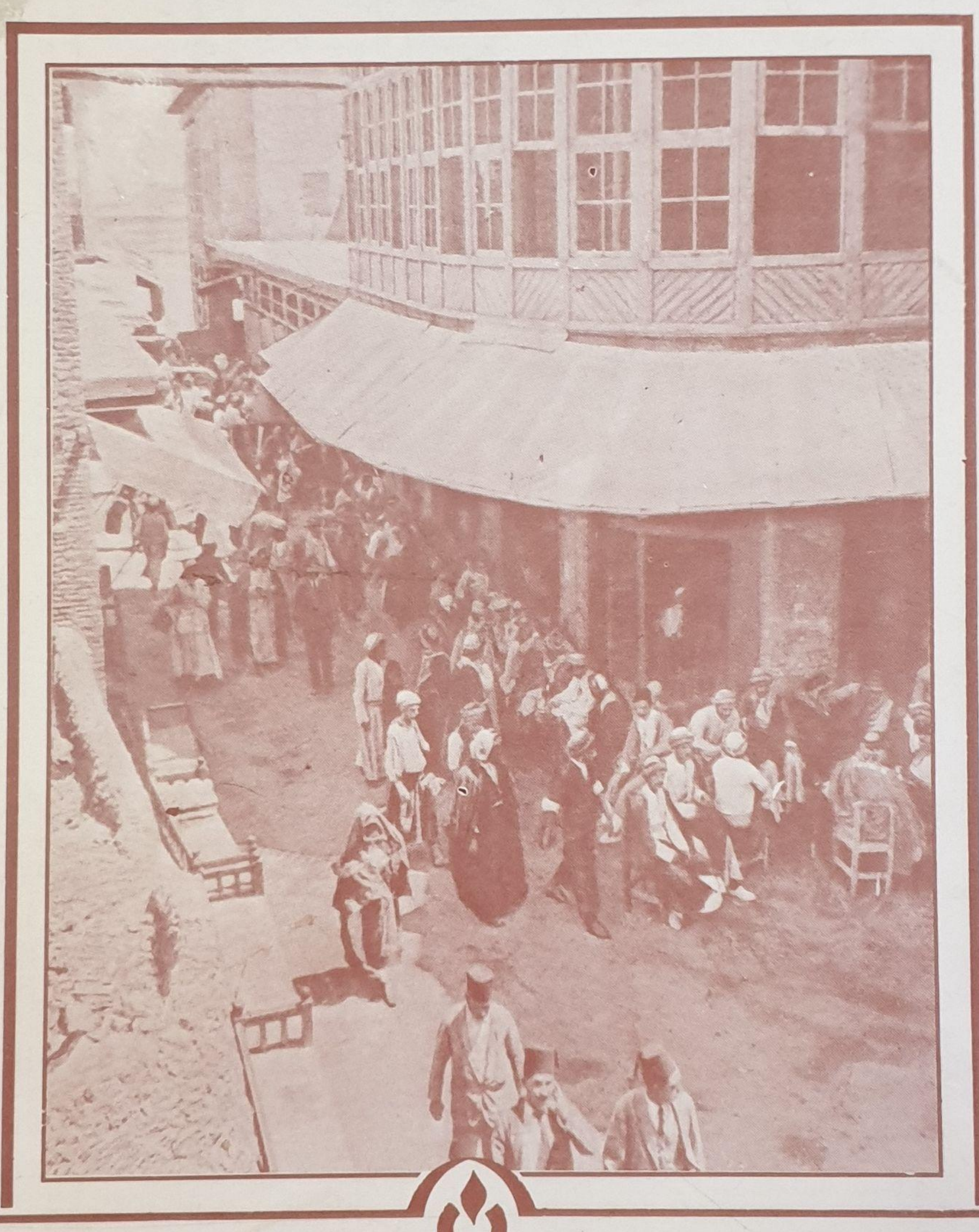
عباس بغدادي

بغداد في العشرينات



دار الشؤون الثقافية العامة

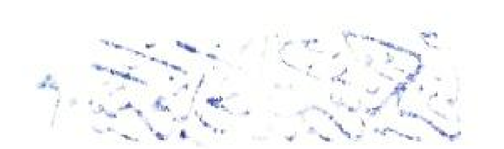
بغداد في العشرينات

وزارة الثقافة والاعلام



دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ٢٠٠٠





طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

تعنون جميع المراسلات
لرئيس مجلس ادارة الشؤون الثقافية العامة
العنوان:
العراق - بغداد - اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

عباس بغدادي

بغداد في العشرينات

ـ بغداد ٢٠٠٠

٩٥٦,٧٢١
ع ٢٢٥ عباس بغدادي

بغداد في العشرينات /عباس بغدادي
ـ بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ٢٠٠٠
ص ٣٣٤ ؛ ٢٣ سم
١ ء بغداد ـ تاريخ أ. العنوان

م . و
٢٣٥/٢٠٠٠

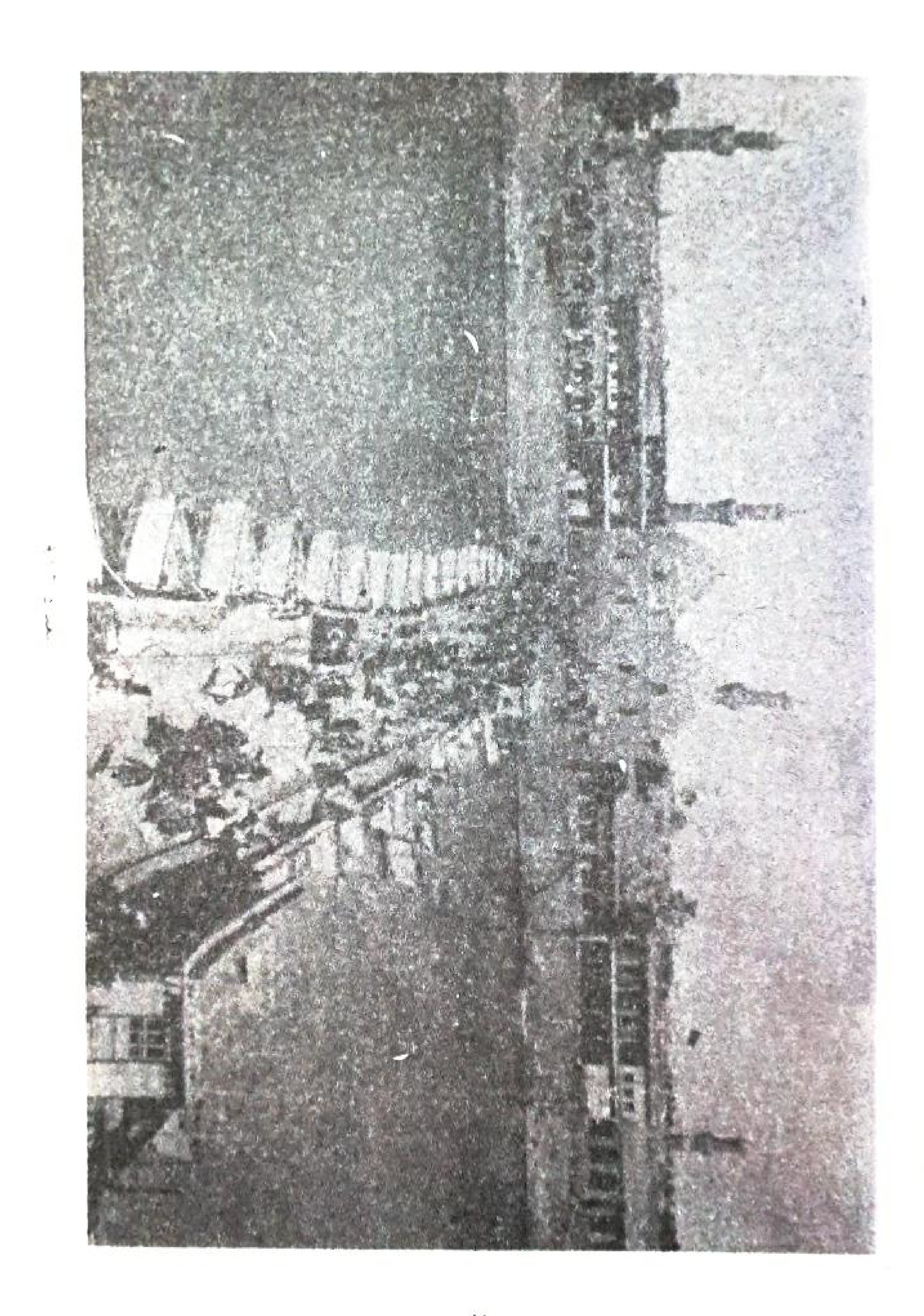
المكتبة الوطنية (الفهرسة اثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٣٥) لسنة ٢٠٠٠

اهــــداء

تيقنت تماماً بعد الجهد الذي بذلته زوجتي السيدة سولانج وديع تقلا انه لولاها ولولا حماستها ومثابرتها لظلّ هذا الكتاب حبيس الذاكرة أو الأوراق المتناثرة ولما تجسّد كتاباً بين أيدي القراء الكرام من محبي بغداد والمعنيين بتأريخها ، فلها شكري وامتناني .

المؤلِّف



سيرة ذاتية

أنا السيد عباس حسن السيد أحمد بغدادي من بيت خميس في عانة ، محلة الشريعة ، قرية زريق . أطلق علينا لقب بغدادي بزمن جدي الذي كان يتعاطى التجارة بين بغداد وعانة وحلب . وتفريقاً بينه وبين تاجر آخر يحمل الاسم نفسه ، فقد أعطي له لقب بغدادي . ولدت في محلة جامع عطا في جانب الكرخ من بغداد (قبل السفربر) بسنة واحدة ، أي في سنة ١٩١٣ ، كما قيل لي ذلك ، مع اني لم أجد في صفحات القرآن الكريم أو أحد الكتب تسجيلًا لتاريخ ولادتي . فقد كان أبي يوم ولادتي في مدينة حلب لأمور تجارية ، وأخي الكبير في بومبي بالهند للغرض ذاته . وكما هو متعارف في الكرخ وبعض مناطق بغداد فان سنين الولادة تُعرَف بحوادث تلك السنين المتميزة ، مثل سنة الثلجة أو سنة الجحيل (أي سنة البرد الشديد) أو سنة الجراد أو سنة أبو زوعة أو الطاعون الخ . ودخلت الملّا رجب في دربونة العنازية المجاورة لقهاوي عكيل . ثم ملّا مهناية المشهورة وختمت عندها القرآن ، وكان بيتها في محل مستشفى الكرخ للولادة ، وهي أشهر ملّا امرأة في جانب الكرخ . ولما كان عمل إخوتي التجاري في سوق الصفافير ، فقد نُقلت الى الملّا عارف في سوق الخفافين ، وهو الخطاط الشهير أستاذ المرحوم الخطاط هاشم الأعظمي . ودرست عنده القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وقواعد حُسن الخط ، وكنت أحضر صباحاً مع إخوتي وأعود معهم مساءً الى الكرخ . وبعدها دخلت مدرسة تطبيقات دار المعلمين الإبتدائية ، وكانت بجوار دار المعلمين (كوچك زابطان) ، كما كانت تسمى حينذاك ، ثم سكنّا في محلة جديد حسن باشا ، ودخلت مدرسة التفيض الأهلية وتخرجت فيها الى الثانوية المركزية ، حيث كانت الدراسة فيها أربع سنوات لا خمساً . ثم الى كلية الحقوق وأنهيت الدراسة فيها بثلاث سنوات قبل أن تكون أربعاً . واشتغلت باعمال ووظائف قد لا تخطر على البال منذ صغري . فقد كُلفت أن أجمع الاسبوعية من المدينين لنا في أسواق بغداد كل يوم جمعة ، وأبدأ عصراً بشغل الخان أو بتشغيلي فيه ، كي لا أعبث وألهو ، أو أقوم بخدمة الزوار والضيوف في

محلنا بالخان يومي الثلاثاء والجمعة . أما الأيام التي لا أذهب فيها الى الملّا أو الخان ، فيجب أن أعمل عند أقاربنا مثل صباغ المحلة ، أصبغ الملابس أو أنشرها على الحبال ، أو في دكان السيد محمد الحجي صالح خال الأديب أنور الناصري ، وكان يبيع السكاير وتتن النرجيلة . وكنت أملأ السيكاير وأدكمّها أو أثرم تتن النراجيل وأجهّزه للبيع في أكياس الشخاط الفارغة ، أو أذهب الى مسجد عطا الصغير المقابل لبيتنا لاخدم في المسجد الذي كان يقوم عليه رجل هندي عجوز كان مرافقاً وخادماً للعالِم الكبير غلام رسول الهندي . ثم باشرت في مختلف الوظائف الحكومية ، بعد الحقوق صغيرها وكبيرها في مختلف أنحاء العراق ، حيث عملت محامياً وتاجراً مستورداً ومصدراً من تجار الدرجة الثانية ، ومزارعاً ، وصحفياً محرراً دائماً في مجلة الوادي ، وصاحب امتياز مجلة الفلقة ، وشاعراً في العامية والفصحى ، ومشاركاً وبائعاً بدكان حلويات الشكرچي ، ومجهزاً للأقمشة أيام التموين الى مدينة المحمودية ، وشريكاً في مخبز في سوق الشاوي ، وسائقاً للتكسي ، ومضارباً في سوق السجاد مع الحجي ابراهيم الكردي وعباس فيلي ، وبائعاً للنفط الأبيض والأسود ، ووكيلًا عن شركة النفط أثناء غياب وكيلها المرحوم خطاب الخضيري ، ومديراً لمحلج القطن في العزيزية ، ومديراً لمعمل القطن الطبي في الوزيرية ، وخبيراً في شركة الغزل والنسيج (معمل الوصي) ، ومديراً لمكتب أنباء العالَم العربي في بيروت ودمشق وعمان . وخبيراً في الخطوط وفي تقدير الأملاك والمزارع في أمانة العاصمة وفي المحاكم المدنية ، ومربياً للاغنام ومالكاً لرؤوس من الخيل ، ونزيل معتقل الفاو والعمارة ونقرة السلمان مدة ثلاثين شهراً . ومديراً لتمور المنطقة الوسطى في جمعية التمور . ومديراً لرواتب المتقاعدين ، ومدوناً قانونياً في وزارة العدل ، ومفتشاً عدلياً ، ووكيلًا للفنادق ومستخدماً فيها ، وتلك كانت أشق الأعمال على نفسي وأمرّها مادياً ومعنوياً .

وملكت وأفلست وسقمت وعوفيت ، وصعدت ونزلت ، ولقيت من الأمور ما لقيت ولبست العرقچين والكشيدة والطربوش والسدارة والبرنيطة . وشرّقت وغرّبت وسكنت خارج بغداد سنين عديدة . وعرفت سوريا ولبنان ومصر وإيران وتركيا والأردن ، والسعودية والكويت والبحرين وأوروبا . ودرست في لندن سنة واحدة موضوع التسويق التجاري . وعاشرت مختلف طبقات الناس ، ملوكاً وصعاليك ، أغنياء وفقراء ، علماء وجَهَلَة ، إقطاعيين وفلاحين ، أصوليين ومتشككين ، رجالًا ونساءً ، صغاراً وكباراً .

وتزوجت ولي ولدان وابنتان . وقال الناس عني ما قالوا قدحاً ومدحاً . وذقت من الحياة حلوها ومُرها .

وحين جاوزت السبعين من العمر ألحَّ عليَّ أصدقاء كثيرون طالبين أن أكتب ذكرياتي عن أحوال بغداد وحوادثها في العشرينات والثلاثينات خوفاً من نسيانها . فلم أستجب للطلب ، ذلك ان كثيراً من المعمّرين أصدقائي أحياء يُرزقون وصور بغداد عندهم أوضح من صوري وهم صادقون في ما يروون . فتركت ذلك لهم . ولكن وبعد مرور السنين مات بعضهم ولم يبقَ إلا نفر قليل لا يستطيعون تسجيل ذلك . وخوفاً من فقدان الذاكرة أو عجزها ، واستجابة لإلحاح زوجتي اللبنانية الأصل سولانج تقلا ، بأن أسجل ذكرياتي ، لكي تعرف هي والأولاد والأحفاد بغداد القديمة وأحوالها الاجتماعية . وبعد أن أقنعني الصديق الكريم السيد فاتك الصافي بضرورة القيام بالتسجيل كي لا ينسى الناس بغداد في تلك المرحلة ، فقد استجبت طائعاً أو مكرهاً . لذلك ، والآن ومع كل كلمة أكتبها يغشاني الندم ، لأني لم أسجلها قبل عشرين سنة ، يوم كانت الذاكرة أنشط وأكثر استجابة . والآن ، وأنا أدلف الى الخامسة والثمانين من العمر أسجل ما لم يسجّل مستثنياً منها حديث السياسة والمساجد والمدارس والقوات المسلحة . فقد أُشْبِعَتْ هذه المواضيع بحثاً من أناس أقدر مني وأكفأ على معالجتها وتسجيلها . وكل ما أرجوه أن أنال الرضا والعفو عن أولاد أو أحفاد مَنْ جاء ذكرهم إذا رأوا في ما ورد عن آبائهم أو أجدادهم شيئاً لا يرضيهم . فلم أقصد منها غير التسجيل البريء وفي نية صافية . وإذا كنت مخطئاً في بعض الحوادث والصور ، فإن لي من شيخوختي عذراً في ذلك . فالعصمة لله وحده . كما اني أكتبها باللغة البسيطة المحكية غير ملتزم التزاماً تاماً بالصرف والنحو . واستعملت الكلمات العامية لغرض الإيضاح .

والآن ، وأنا جليس البيت أردد قول الشاعر :

وألقت عصـــاها واستقـرَّ بهـا النـوى
كمـــا قرَّ عينـاً بـالإيـابِ المسـافـرُ

وبعد كل هذا العمر الطويل العريض لم أرَ خيراً من العافية والرضا ، وشكراً لله على نعمته .

هامش

قد تكون لديّ الشيء الكثير من ممارساتي الكثيرة وأعمالي المتنوعة واتصالي بمختلف طبقات الناس ومذاهبهم ، خصوصاً عند قيامي بخدمة ضيوف إخوتي وزوارهم في بعض أيام الاسبوع في محلهم التجاري بالطابق الفوقاني من خان السيد حسين يحيى بسوق الصفافير ، وخصوصاً أخي السيد أحمد ، الذي كان على صلة وثيقة بادباء بغداد وأصحاب العلم فيها . فقد كان هو شاعراً وأديباً . ومن جملة رواد المحل أدباء وفقهاء وتجار مسلمون ويهود ومسيحيون ، وأذكر منهم السادة عبداللطيف ثنيان ، ومحمود عزة عبدالسلام ، وعبدالله القصاب ، وتوفيق الفكيكي ، وداود العجيل ، وداود السعدي ، والفقيه عبدالوهاب الملوكي ، وابراهيم المدرس ، ومحمد صالح الجرجيس ، والظريف البغدادي عبدالحميد الانكرلي ، والصوفي محمد رشيد الكردي ، والسيد محمود الاطرقچي ، والعالم الجعفري الحاج مجيد حمودي ، وابن الصندوقچي ، ونايف سليمان الشبلي ، وعبدالله أبو الخيل ، وتوفيق الخانچي ، وآل الخضيري ، والشيخلي ، والقزاء ، الملّا عبدالفتاح المعروف ، ومحمد أبو ندر مريد القارىء الحجي نجم الشيخلي . وكنت أستمع معجباً بأحاديثهم ورواياتهم وأخبار الناس في بغداد ، لذلك فليس غريباً تنوع المواضيع الواردة في هذه الذكريات .

وبعد ان احترق محلنا التجاري في سوق الصفافير انتقل الديوان الأدبي الذي كان يُعقد فيه الى قهوة الشط الفوقانية في القسم المطل على شريعة المصبغة . وزاد في الرواد حضوراً بعض قراء المقام ، مثل يوسف حوريش ، ومحمد العاشق (أما المرحوم القبانچي فلم يكن يحضر في المحل التجاري بسوق الصفافير ، وذلك لخلاف بينه وبين القبانچية في سوق الصفافير وما جاورها ، وخصوصاً القبانچي المصارع الفيلي الحجي صادق ، وجواد الكريعاوي أبو سلطان ، وريحان ، كما سيرد ذكره في باب التجار . وطبعاً لا يحضر رشيد القندرچي ، فكل منهما يرى في نفسه انه هو الاقدم والاحسن) .

واستمر التلاقي في قهوة الشط الفوقانية ، ولكن بصورة أخف من قبل . وانقطع قسم من الرواد لأسباب مختلفة حتى أواخر الاربعينات ، يوم انفجرت عبوة ناسفة في زاويتهم بقهوة الشط بفعل اليهود المتطرفين ، أثناء عملية التسقيط ، فانقطع الوصل وتفرق الصحب .

إن هذه التجمعات تعطي فكرة واضحة ، هي ان بغداد في العشرينات لم تكن كلها في ظلام دامس . بل كان فيها ما يدعو الى البهجة والمعرفة والحياة الاجتماعية الطيبة . ولقد كنت أستمع الى أحاديثهم ورواياتهم ، وأخبار كثيرين من الناس في بغداد ، لذلك أرجو أن لا يستغرب القارىء هذا الخزين الكبير من المواضيع المتنوعة والواردة في الكتاب ، برغم اني اختصرتها الى الحد الادنى .

خوفاً من ملل القارىء الكريم . والفضل في ذلك لذاكرتي التي أخذت الآن بالتلاشي والانهيار ، يوماً بعد يوم . فشكراً لكل مَنْ ألحَّ عليّ في تسجيل هذه الطائفة من الاخبار والحوادث ، منه شكر خاص للفنان السيد يوسف العاني الذي أكرهني على هذا التسجيل يوم قال لي : « أكتب الصفحة الاولى وسترى انك قد كتبت ألف صفحة » .

إني على يقين ان الكهول والشيوخ خاصة ، سيكونون سعداء بقراءة هذه المواضيع التي تذكّرهم بشبابهم وأيامهم الحلوة . وكذلك فانها ستعجب الشباب الذين يريدون أن يعرفوا ما هي بغداد ، ومَنْ هي بغداد قبل أكثر من سبعين عاماً .

أعود فاؤكد اني كتبت هذه الذكريات ببساطة المواطن البغدادي المتواضع . فلم أنسب لنفسي فخراً فارغاً أو أتباهى ببطولات زائفة ، بل سجّلت ما لي وما علي . فإذا جانبني الصواب وأخطأت ، فسبحان مَنْ لا يخطىء أو يتوهم ، والعصمة لله وحده وهو وليّ التوفيق .

٢ ـ حوادث في بغداد

هذه حوادث مختلفة ووقائع شاهدها أهل بغداد في العشرينات وهزت المجتمع في حينه ، وخوفاً من أن يطويها الزمن وينساها الناس نهائياً ، رأيت من الضروري ذكر بعضها بدون أن ألتزم بالتسلسل التاريخي أو الموضوعي .

أولًا :

استعراض الجيش البريطاني الأسبوعي في شارع الرشيد ، ويبدأ بالخيالة ، ثم المشاة ، ثم البغال الصغيرة التي تسحب عربات الرشاشات الفيكرز ، أو اللويس ، أو تحملها على ظهورها ، ثم البغال الاسترالية الضخمة ذات الحوافر الكبيرة جداً الممتلئة بالشعر الكثيف ، ولم نكن قد رأينا مثلها من قبل ، تتقدمهم الموسيقى العسكرية مع لاعب الصولجان بحركاته اللطيفة المتسقة مع المشية والموسيقى . وكان الجيش خليطاً من البريطانيين ، وهم القلة ، وعلى الأخص الضباط ، وكانوا يركبون الخيول . أما الضباط الهنود فكانوا يمشون يرافقون فصائلهم ، وكان الجنود من مختلف الجنسيات والأديان ، فمنهم السيخ والگرگة ، والبانيان والأفارقة والمسلمون ، ثم الشبانة العراقية وأكثرهم من عشائر العمارة أو الآثوريين . وقد دُرِّب أفراد الشبانة العرب تدريباً عسكرياً صارماً وصاروا في الأخير مدرّبين لأفراد الجيش العراقي ، وعلى وفق التقاليد البريطانية . وينتهي هذا الاستعراض الشتوي قرب الكنيسة البريطانية التي كانت موجودة في الباب الشرقي .

ثانيـــاً :

تصديق المعاهدة العراقية في المجلس التأسيسي ، الذي اجتمع في جانب الكرخ في محل مستشفى الغرباء سابقاً في محلة سوق الجديد . وقد هدم وصار من مفتربات جسر باب المعظم ، وركضنا نحن الصبيان الى مكان الاجتماع ، حيث سمعنا ان الشرطة والحكومة ستحضر هناك . وتجمعت الشرطة الخيالة في الشارع أمام المجلس وعلى رأسهم (السرجنت دين) ، وهي اختصار لكلمة السرجنت دائم ، أي

العريف دايم . وهو إنكليزي في شرطة بغداد . وكانوا يحملون المسدسات ، وقد عرفنا منذ ذلك اليوم مسدسات الويبلي وأبو التاجين . ثم بدأ اطلاق الرصاص من الشرطة ، ومن بيت الشيخ سالم الخيون ، وكان مقابل المجلس . فهربنا الى بيوتنا وأغلقنا أبواب أزقتنا الضيقة خوفاً من النهب والسلب . وحضر أولياء أمورنا ، ولم نستقر حتى صباح اليوم الثاني .

ومن المصادفات الغريبة ، وبعد مدة قصيرة من هذا الحادث ، انهيار المبنى الذي كان الملك فيصل يدير أمور الحكومة منه في القشلة ، وهو المكان نفسه الذي كان والي بغداد العثماني يشغله . وغطست الجدران في نهر دجلة وظهرت الجدران الباقية ، وهي مطلية باللون الأخضر ونراها واضحة من جانب الكرخ على شاطىء الجودي تحت المجلس التأسيسي . ويظهر ان تيار الماء القوي القادم من جهة خضر الياس هو الذي سبب تآكل السدة وانهيار البناء . وبعدها انتقل مكتب الملك فيصل الى قصر شعشوع في طريق الأعظمية ، ليكون مكتباً له ، علاوة على سكنه .

ثـــالثـــاً :

وفي سنة ١٩٢١ ، وفي الوقت الذي كان فيه ماء نهر دجلة عالياً ، بسبب الأمطار المبكرة ، كان المركب الحربي البريطاني المسمى عندنا (أبو السلة) ، لأن مدافعه الرشاشة كانت مركّبة على حامل يشبه السلة ويجلس فيها الرامي . وكان هذا المركب المطلي باللون الخاكي العسكري مخترقاً نهر دجلة باتجاه شاطىء المجيدية في باب المعظم . ومكان الجسر القديم مفتوحاً لمروره . وفي أثناء عبوره الفتحة ، لاحظ قدوم زورق بخاري بالاتجاه المعاكس . فحاول أن يتحاشاه خوفاً من الاصطدام به . وفي أثناء هذه المحاولة علّقت مروحته الخلفية بالسلك الحديدي الضخم الذي يربط الجسر بالانكر . وعندما حاول التخلص منه جرفه تيار النهر ، فجنح المركب الى جانبه وبدأ يغرق ماشياً مع التيار ، حتى استقر في قاع نهر دجلة على مسناة باب السيف في المحل نفسه الذي تقف فيه زوارق عبور نهر دجلة في الحال الحاضر . وكان دجلة ولم يزل حتى الآن عميقاً في هذا الساحل ، لذلك لم يبق من المركب ما يُرى ، عدا مدخنته وسلّة المدفع الرشاش والقسم الاعلى من سطحه . وعندما انتهى الفيضان وانحسر ماء دجلة حاول البريطانيون تعويم المركب ، ولكنهم فشلوا في ذلك . ثم جاء البريطانيون أخيراً بجنائب كبيرة جداً ونصبوا عليها مضخات الماء

لتمتلىء وتغوص حتى حافتها العليا . ثم نزل الغواصون وربطوا هذه الجنائب بالمركب الغارق ربطاً وثيقاً من جميع الجهات . ثم بدأوا بتفريغ الجنائب من الماء كي تطفو وترتفع الى الاعلى قالعة المركب الغريق من أرض النهر . وحين تحرك المركب الى الاعلى بدأ المهرجان والتصفيق من الناس الكثيرين والعمال والجيش البريطاني المزدحمين على الشاطىء للتفرج على العملية . ثم بدأوا يغسلون الطين في داخل المركب لتخفيف حمولته . وبعد بضعة أيام سحبوه الى شاطىء المجيدية . ولم نعرف ما حلّ به بعدئذٍ . أما صاحب الزورق البخاري الصغير ، الذي أثار الذعر في قائد مركب أبو السلة ، وكان اسمه (مهدي نعيمة الجبن) ، وهو من سكان الكرخ ، فقد ألقي القبض عليه وسُجِن . ولكنه خرج من السجن بعد بضعة أشهر .

رابعـــــاً :

غرق بغداد ، وذلك سنة ١٩٢٦ ، حين كان نهر دجلة في أوج الفيضان ، وذلك ان مضخة زراعية كانت تجاور البلاط الملكي لتسقي بساتين ومزارع الوزيرية ، ومنها المزرعة الملكية في الوزيرية ، وقد رأى السيد توفيق المفتي ، وكان مديراً للمزارع الملكية ان الوقت مناسب لفتح الناظم غير النظامي الموجود في السدة ، ولكن الكرادة وفلاحي بستان الدفاعي منعوه من ذلك . فهو يشكل خطراً كبيراً ، ولا يمكن وقف اندفاع الماءفي ذروة الطغيان ، ولكنه أصرّ على ذلك اقتصاداً في نفقات تشغيل المضخة . وحالما أوجد الفتحة في هذا الناظم ، تدفق الماء منطلقاً بقوة لم يستطع ، لا هو ، ولا الفلاحون إيقاف الاندفاع . وهرب الفلاحون لانقاذ أطفالهم وممتلكاتهم وتركوا السدة والماء الذي اجتاح الاراضي والبساتين وأحاط ببغداد حتى الباب الشرقي . وخرجنا نحن طلاب المدارس للمعاونة في إقامة السدود المؤقتة بأكياس كنا نملأها تراباً ، ووصل الماء الى حائط جامع الأزبك في باب المعظم . وكنا نرى صناديق البضائع والشخاط طافياً على سطح الماء ، هي وكل بضائع (البوند) ، وهو مخزن السكك الحديدية الذي كان في باب المعظم جوار مديرية السجون العامة . كما كنا نرى الأفاعي والجرذان وجثث الماشية الطافية على سطح الماء . وانخفضت مياه نهر دجلة وسيق المفتي للمحاكمة بعد توقيفه وانتهى الامر ونُقِلَ البلاط الملكي وسكن الملك فيصل في بيت مناحيم دانيال الكبير في محلة السنك .

ملاحظة :

وكاد أن يتكرر هذا الحادث المأساوي في الخمسينات ، حين حدثت كسرة صغيرة في سداد نهر دجلة بالكرادة الشرقية بالقرب من الجسر ذي الطابقين . ولكن همة أهالي الكرادة والموقف الحازم الذي وقفه حاكم الكرادة (القاضي) الأستاذ سلمان بيات ، حين أشرف على العمل بنفسه وظل يومين كاملين على السداد وبعدها أوقف تسرب المياه ، بعد ان غطت وملأت أراض كثيرة من الكرادة والجادرية ، وكادت تعبر الى داخل بغداد . وحين سألته عن سبب قيامه بهذا العمل ، برغم كونه قاضياً لا علاقة له بالفيضان والسداد ، أجابني : (أنا مواطن قبل أن أكون حاكماً ، وهذا واجبي) .

وباشرت الحكومة بعد انتهاء الفيضان وجفاف المياه والطين بتعديل طريق الأعظمية ما بين البلاط والأعظمية ، وما بين البساتين الكثيفة . وتبع الناس آل الجوربچي الذين بنوا أول بيت فخم على طريق الأعظمية بالقرب من ساحة عنتر . وإزداد بيع الأراضي والاعمار . وقد حاول مؤسسو نادي صيد الحمام الذي كان قرب جسر الصرافية ، مقابل بيت المميز إعادة النادي ونشاطه ، ولكنهم فشلوا في ذلك ، لأن بناية النادي قد تهدمت تماماً بمياه الفيضان ، وبقيت المياه راكدة في أرضه مدة طويلة ، حيث كان في منخفض من الأرض . وانتهى النادي بلا عودة . وفي السنة نفسها ذعر أهالي بغداد صباحاً على اطلاق نيران كثيفة من البنادق وظهر بعدئذ ان بعض المساجين في سجن بغداد المركزي في باب المعظم قد هربوا عن طريق المستشفى الملكي المجاور للسجن ، ومنهم الآثوريون المحكومون عن حوادث كركوك . لكن مستخدمي المستشفى والشرطة والناس أجمعين تمكنوا من القبض عليهم ، عدا أربعة منهم ظلوا مختفين حتى المساء في داخل القصب الكثيف النابت في الخندق المجاور لحائط القلعة (وزارة الدفاع) ، والذي أقيم عليه أخيراً بهو الأمانة وقاعة الملك فيصل .

خامساً : مأساة الفوج السابع :

حين اشتد النزاع والخلاف بين المندوب السامي البريطاني السير هنري دوبس والحكومة العراقية ، بسبب مشروع قانون التجنيد الإجباري ، الذي كان المندوب السامي يعارضه ، ولأجل احراج الحكومة العراقية ، افتعل لذلك أزمة كبرى ، ذلك ان

أفراداً من الفوج السابع ، ويسمى فوج موسى الكاظم ، ذهبوا يوم عاشوراء الى صحن الكاظمية لاداء الزيارة . وافتعل بعض الرعاع معركة مع الجنود غير المسلحين ، وبصورة فجائية انهالت الأسلحة من السطوح الى الرعاع . وبدأ الهجوم على الجنود فقُتل منهم عدد وجُرح آخرون وهرب قسم آخر ، حيث انتشلت جثثهم من نهر دجلة بعد يومين ، ولولا همة محيي الدين السهروردي آمر الانضباط الذي حضر مسرعاً الى محل الحادث واتخاذه حماية للباقين ، لكان عدد الضحايا أكبر ، وأشارت المعارضة والناس بصراحة الى مسؤولية المندوب السامي عن هذا الحادث . كما أيد هذه المسؤولية قائد موقع بغداد العسكري في ذلك الحين العقيد رؤوف الجيبچي ، وزاد في الأمر سوءاً ان وقعت بعد مدة معركة دامية بين موكب عزاء الكاظمية وموكب النجف الأشرف في زيارة الاربعين ، والتي أسفرت عن قتل الشقي النجفي (دعبول) . وكان لهذه الحوادث أثر كبير في مجيء السير جلبرت كلايتون مندوباً سامياً جديداً في بغداد . ولكنه مات بعد مدة قليلة من وصوله بغداد . وكان الناس يأملون الخير على يد هذا المندوب لصداقته الوثيقة مع الملك فيصل الاول منذ الثورة العربية الكبرى في الحرب العالمية الأولى .

سادســاً :

محاكمة الشيخ ضاري المحمود بعد القبض عليه غدراً من قبل السائق الارمني في شمال العراق . وقد تمت محاكمته ، برغم شيخوخته ومرضه ، حيث مات بعد بضعة أيام من الحكم عليه ، وحيث ان الكتب والصحف المحلية قد كتبت وبتفصيل عن محاكمته وموته وتشييعه الشيء الكثير ، لذلك أكتفي بهذه الإشارة .

ســابعــاً :

مظاهرات الطلاب ضد وزارة المعارف . وهي المظاهرة الأولى للطلاب والتي فتحت الابواب لبقية المظاهرات فيما بعد . والسبب في ذلك هو موقف وزارة المعارف من الاستاذ اللبناني أنيس النصولي ، الذي ألَّف كتاباً تاريخياً عن الدولة الإسلامية ، وعدَّ بعضهم ان مدحه لدولة بني أُمية إثارة للفتنة الطائفية . ففُصل من التدريس هو وبعض المدرسين الآخرين من السوريين والفلسطينيين . وعلى هذا فقد جاءنا طلاب المدرسة الثانوية ونحن في السادس الإبتدائي وأخرجونا من الصفوف ، يقودوننا الى وزارة المعارف ، وكانت في شارع المأمون جوار المتحف العراقي . وكنا نهتف بسقوط

الوزير والوزارة ، بدون أن ندرك أبعاد هذا الموضوع . وخلال تجمعنا هذا هجم علينا المستر فيشر مدير الأطفاء بسيارات الأطفاء ، ووجه علينا خراطيم المياه . فوقع مَنْ وقع وفرَّ مَنْ فر واستقال وزير المعارف ، ونظم الشاعر عبدالرزاق الناصري قصيدته المشهورة والتي مطلعها :

(سقط الـوزيـرُ فـمــــرحبـاً بسقــوطـهِ)

ثم عرف الطلاب ما هي المظاهرات . ففي زيارة الزعيم الدكتور عبدالرحمن الشابندر والمهرجان الضخم الذي أقيم في جامع الحيدرخانة تكريماً له ، والخطب والقصائد ، خصوصاً قصيدة شاعر البؤساء المرحوم كمال نصرت . والهتافات العالية بسقوط الصهيونية تتردد في شارع الرشيد ، عندما ابتدأت المظاهرة تسير في الشارع .

ثم المظاهرات الكبرى ضد (الفريد موند) ، وقد بدأت مسيرتها من المدرسة الثانوية المركزية ، بعد ان عبر اليها طلاب دار المعلمين من جانب الكرخ ، واستمرت في سيرها بشارع الرشيد (لم يكن قد تمَّ تبليطه كله) . ثم الى الصالحية ، حيث حديقة مود في ساحتها الكبيرة المفتوحة ، وألقيت فيه الخطابات من التلاميذ الكبار تنديداً بقدومه وتهديداً بإرجاعه ورميه خارج الحدود ، (وبالمناسبة جرى في هذه الساحة احتفال كبير تأبيني بمناسبة اعدام الشيخ سعيد النقشبندي في تركيا مع ستة وعشرين واحداً من أتباعه من قبل مصطفى كمال أتاتورك . وقد قام دراويش النقشبندية الذين حضروا بأعمال خارقة بالسيوف والخناجر ، مما اضطرنا الى الهرب خوفاً ورعباً) . ومن حديقة مود الى ساحة علاوي الحلة ، حيث نقطة تقاطع المرور الآن . وكانت الشوارع مفروشة بالحصى . وكانت السماء قد أمطرت قبل يومٍ واحد ، ولذلك ، وحين هجم علينا ضابط الشرطة حسام الدين جمعة مع خيالته زلقت كثير من الخيول ورميناها بالحصى ، وتقدم بقية المتظاهرين الى جسر الخر لمنع الفريد موند من دخول بغداد ، والذي أدخلته الحكومة الى بغداد عن طريق الكاظمية الخارجي . أما نحن الصغار ، فقد رجعنا الى المدرسة الثانوية عن طريق الجسر القديم هاتفين بسقوط الصهيونية . وما إن وصلنا ساحة الشرطة ومديرية الأوقاف العامة ، حتى أحاطت بنا قوات الشرطة المشاة وأشبعونا ضرباً ورفساً وسحلونا من أرجلنا الى غرفة التوقيف في مركز شرطة بغداد . وبقينا حتى الليل حين جاء أهلنا وأخرجونا من غرفة التوقيف ، وكان عددنا يناهز الاربعين .

ثامناً : فضيحة التعرفة الكمركية :

في صباح يوم من الايام شوهد تجار بغداد وأصحاب دكاكين الشورجة يتهافتون على شراء السكر الموجود في مخازن التجار أو محطات السكك الحديدية أو الدكاكين ، حين رأوا أحد التجار الكبار ، الذي يتصل بصلة قربى مع رئيس الوزراء يقوم بشراء السكر الموجود في السوق وفي مخازن السكك الحديدية . وبدأ سعر السكر بالارتفاع بعد هذا التزاحم الشديد . وافتضح الأمر وتبيّن ان رئيس الوزراء في طريقه لتقديم لائحة مستعجلة بتعديل التعرفة الكمركية وزيادة رسوم السكر المستورد . وسرعان ما تدخّل الملك فيصل الأول ودار المندوب السامي وساد الهرج والمرج في السوق . وبالتلفون سُحِبَتْ اللائحة من المجلس ولم يُنظر فيها . وخسر التجار الذين ضاربوا على السكر . وتشكلت لجنة للتحقيق في الأمر برئاسة المستر سوان مستشار وزارة المالية وعضوية الحاكم انطوان شماس ورئيس هيئة التفتيش المالي . وانتهى التحقيق بلفلفة القضية . ودفع المتضاربون ثمن عملهم وخسروا أموالهم ، لان أسعار السكر هبطت ورجعت الى مستواها الاصلي ، وبعد مدة استقال رئيس الوزراء لفضيحة أخرى . وأصر على الحكومة أن تُعينه بوظيفة كبيرة أخرى في حال استقالته تعويضاً له عن مركزه الادبي . وقد نفذت الحكومة ما طلب .

تاسعاً : الإفلاسات :

مرَّت على بغداد أزمتان تتعلق بالإفلاسات التجارية ، الأولى في بدايات العشرينات ، والثانية في نهاية العشرينات وأول الثلاثينات . والإفلاس التجاري نوعان : الحقيقي والاحتيالي . والحقيقي على نوعين : الأول ، افلاس معلَن بين الناس والتجار ، بسبب الخسائر التي لحقت التاجر في تجارته أو في مضاربة ، أو في هبوط كبير في الأسعار العالمية . يومها تقوم طائفة من التجار الخيِّرين لجمع الدائنين بالمفلس واجراء المصالحة بينهم ، مثل دفع مبالغ نقدية مقدماً ، ثم تقسيط الدين الى مدد مختلفة . ولكن بعد ان تحسم نسبة مئوية من مجموع الدين ، حيث يعفى التاجر المفلس عن دفعها مساعدة له عن خسائره الحقيقية . ويعود التاجر بعدها لاعتباره وأعماله الاعتيادية . ويقال في السوق ان التاجر (تساوى) ، أي عمل التسوية . وهناك تجار محترمون أفلسوا ورفضوا اجفاء التسوية ، وباعوا أموالهم وأملاكهم على أمل تسديد الديون . ولكنها لم تكفِ ، مثل بيت الشيخلي ،

وبيت الصندقجي ، وبيت الكفيشي ، وهم ضحايا نهاية الحرب العالمية الأولى ، حين تذبذبت الأسعار وانهار النقد التركي والنمساوي والالماني ، والذي كان السوق العراقي مرتبطاً بهذه العملات .

وهناك افلاس غير معلَن . كأنْ يلزم التاجر بيته ، ولا يذهب الى السوق ، وهذا اعلان عن توقفه عن الدفع لأسباب اضطرارية . وفي هذه الحالة يتعهد قسم من التجار الدائنين بعدم مطالبته بالديون ويتوقف عن المطالبة بها لمدة معينة . وحينذاك يلجأ التاجر الى عمله .

والافلاس بلغة السوق ، حيث كان اليهود هم المتنفذون يقال له : (فلان شَبُر) ، أو (الجماعة مشبُرين) ، أو (مشباريم) باللغة العبرية . أما الإفلاسات الثانية ، فكانت في نهاية العشرينات على أثر الأزمة الاقتصادية العالمية المعروفة والتي عمّت جميع أنحاء العالم وأصابت بغداد ، كما أصابت غيرها . وانتهت بعد ثلاث سنوات حين تجاوز العالم هذه الأزمة وانتعش الوضع الاقتصادي .

أما الإفلاس الاحتيالي ، فينتهي ، إما بالضرب والاعتداء على المفلس ، أو الشكوى في المحكمة المختصة ، حيث يُطبق القانون التجاري . والمفلس احتيالًا لا يعود أبداً الى السوق لممارسة أعمال التجارة .

عاشراً : الانتخابات :

كان موسم الانتخابات النيابية حافلًا بالاجتماعات والولائم والمظاهرات الطلابية . وكانت الانتخابات على درجتين : المنتخبون الثانويون أولًا ، ثم النواب ، حيث ينتخبهم هؤلاء . وكانت المنازعات تدور حول مَنْ سيكون المنتخَب الثانوي الذي ينتخب النواب ، وعدا عن تدخل الحكومة الواضح في الحالتين ، فان النزاع بين وجهاء المحلة والمتنفذين فيها والذين يسمون (مفاتيح الانتخابات) يبلغ أشده . وقد بلغ في أواخر العشرينات حد مقتل الأخوين بكر وعمر في نزاع انتخابي مسلح في المنطقة الانتخابية بمحلة الفضل وما جاورها . وجرح فيها ابن عمهما المرحوم ابراهيم شندل ، وحكم على أحد القَتَلَة بالإعدام ، وأنهى الآخر محكوميته وخرج من السجن أعرجاً لاصابته بطلقة نارية في ساقه . وجرت بعدها مظاهرة أخرى كبيرة في باب الآغا حول رويال سينما ، حيث كان المنتخبون الثانويون مجتمعين لانتخاب النواب . وهجم أفراد الشرطة علينا بالعصي والدونكيات ، لأننا كنا نهتف للمعارضة

يوم كانت المعارضة في رأينا عنواناً للوطنية ، ولو ان بعض رجالها لم يكونوا يعرفون معنى الوطنية لا من قريب ولا من بعيد . وفي تلك الانتخابات التي فشل فيها المرحوم الشيخ أحمد الشيخ داود ، ظهر الى الوجود المثل المشهور القائل (ولدي سلمان ترزلنا) ، وذلك عبر البرقية التي يقال انها أُرسلت من الشيخ الى ولده المحامي سلمان حين فشله . ومن الطبيعي ان البرقية لم يكن لها أساس من الصحة ، ولكنها تشنيع من المعارضة .

حادي عشر : قدوم فيصل :

جاء فيصل الى بغداد وكنا طلاباً في الصف الأول الابتدائي وطلب الينا أن نذهب لاستقباله في محطة غربي بغداد بملابس الكشافة والبنطلون القصير . ولكن لم يكن لدينا ملابس كشافة ، وان لبس البنطلون القصير كان حراماً . فان ساق الطفل وفخذه كانا يعدان عورة مثل عورة النساء ، فلم نذهب إلا حفاة وبالدشاديش . الأمر الذي دعا معلمنا المرحوم سلمان حكمة الى ضربنا وإرجاعنا الى المدرسة محبوسين فيها الى العصر . ومن المصادفات الحسنة ان فيصلًا لم يصل في ذلك اليوم ، بل تأخر الى اليوم الثاني ، حيث لم نخرج لاستقباله . وبعد مدة من الزمن أُقيم في الصالحية في المحل نفسه الذي أُقيم عليه المتحف العراقي الحالي مهرجان اسمه سوق عكاظ إحياءً لسوق عكاظ في الجاهلية . وحَضَرَتْ جماهير غفيرة الى هذا المهرجان . ونُصبت فيه الخيم وبيوت الشَعر . وأُلقيت فيه القصائد . ولم أزل أتذكر الطفلة الصغيرة التي جاءت تركب البعير وتحمل في يدها العلم العراقي (وهي صبيحة الشيخ داود) المرحومة ، وهي المحامية والصحفية المشهورة . وحين نزلت عن ظهر البعير ألقت محفوظة وهي قصيدة مطلعها :

عش هكـــــذا في عُلُـــوٍّ أيُّهــــا العَلَمُ
فــــإننــــا بــــكَ بــــدَ اللّــــهِ نَعْتَصِمُ

وجاءتنا موجة كاسحة من الجماهير أخرجتنا أنا وأخي الذي كان يحملني على كتفه الى خارج الاحتفال . وبعد سنتين أو ثلاثٍ كنت أذهب مع بقية الصغار الى الجامع الذي يختاره فيصل لصلاة الجمعة كي نتفرج عليه بلباسه العربي وعقاله المقصّب وخنجره الذهبي المعكوف وحذائه الأسود العالي الكعب ، (كان فيصل يميل الى القصر) . ثم استقر الأمر على ان تكون الصلاة يوم الجمعة في جامع السراي

مقابل القشلة . ولما انتقل سكناننا الى محلة جديد حسن باشا ، كنت أذهب كل ظهر يوم جمعة الى الجامع المذكور القريب منا ، لأرى الحرس الملكي بملابسه الحمراء الزاهية وآمره الضابط العملاق جميل قبطان الكرخي التكريتي . ومجيء الملك فيصل بالسيارة الصالون الفيات الحمراء اللون ذات الحاجز الزجاجي بين مقعده الخلفي ومقعد السائق الذيفكان سائقاً هندياً كما يبدو ويعتمر الطربوش الأحمر في رأسه . وبعد اداء الحرس للسلام الملكي نظل ننتظر حتى ينتهي من الصلاة ويعود من حيث أتى بالمراسيم نفسها . وقد تبدل السائق الهندي بعدئذ بسائق عراقي هو السيد عبدالله السامرائي من محلة سوق الجديد بالكرخ . وقد توسط في تعيينه ابن محلته الضابط جميل قبطان السالف الذكر .

ثاني عشر :

كانت تحدث معارك كثيرة في جانب الكرخ بسبب مياه الشرب ، ذلك ان الجيش البريطاني المحتل قام بنصب حنفيات مياه عامة في بعض المحلات من بغداد . وكانت واحدة منها بالقرب من سوق حمادة مقابل بيت السيد هاشم العلوي مدير الشرطة العام الأسبق . والثانية ، قرب جامع أبو السعد ، والثالثة في محلة الشيخ بشار . وكان الناس يستقون منها ويملأون الجرار والاواني ، تخلصاً من السقاقي والماء القذر المليء بالأوساخ . وكان بعض السقائين يزاحمونهم لملء القرب لأجل الماء النظيف أو اقتصاداً في الوقت ، حتى لا يذهب الى شاطيء النهر . وكانت تحدث المعارك الحامية بين المستقين من هذه المياه بسبب التزاحم ، حتى انهم هدّموا البناء الذي يحتوي الحنفية قرب سوق حمادة ، وهو بناء مربع يعلو متراً عن الارض مبني بالطابوق والاسمنت وفي أعلاه فتحة توجد فيها الحنفية المعدنية التي تتحرك الى أعلى وأسفل وليس بالدوران الى اليمين أو اليسار . ويتدخل الرجال في معارك النساء وتأتي شرطة الانضباط ويحملون على زنودهم قطعة من القماش الأبيض بالحروف أ. ش. وكانون يسمون (القانون) ويذهبون بالمتعاركين الى مركز الشرطة في باب السيف ويتصالحون ثم يتعاركون في اليوم الثاني . وعلى هذا ، وبعد مدة قصيرة هدمت الحكومة هذه الحنفيات ومدّت أنابيب المياه لبعض الناس وتخلصوا من شر المعارك .

وفي الوقت نفسه رأت الحكومة أن تتخلص من موضوع حراسة البيوت ليلاً

وتنهي أمر (البصوانية والجرخچية) ، وهم الحرّاس الليليون . وكان أمر الحراسة الليلية في الكرخ في القسم الشمالي منه ، أي من الجسر القديم حتى الجعيفر ، يُعهد الى ملتزمين اثنين من وجهاء الكرخ . وبعد مدة قصيرة لوحظ ان المتعهدين الاثنين قد يكونان متواطئين مع اللصوص . وقُبض على أعوانهم وألغي التعهد ورجع البصوانية الى عملهم وزال الاستياء والخوف من الناس ، حيث صاحبت عملية تعهد الحراسة فوضى واطلاق نار في الليل . أما في الأسواق ، فقد بقي الالتزام قائماً حتى ألغي في نهاية العشرينات وصار الحراس من جملة أفراد قوة الأمن يأخذون رواتبهم من الدولة ويتسلمون أسلحتهم من البنادق التركية القديمة ويسلمونها صباحاً . سواء منهم المصبحچية أو الأخشمچية ، أي الوجبة الصباحية والمسائية . (أقشام باللغة التركية تعني المساء) . وقد سهل الأمر على الحراس بعد انتشار الأضوية الكهربائية والغاء الفوانيس النفطية .

ثالث عشر : انتحار السعدون :

كان عبدالمحسن السعدون قد أمضى شبابه في اسطنبول بوظيفة (المابين) ، وهي وظيفة شرفية ،وتعني الياوران أو التشريفات ، يمنحها السلطان لأبناء الرؤساء والأمراء في الامبراطورية العثمانية ، وهي في حقيقتها ارتهان لأبناء الأمراء والشيوخ كي لا يثوروا على السلطة ، فيبقى الأبناء في اسطنبول بأسم المابين . ومن الرؤساء الكبار ذوي النفوذ والثائرين دوماً هم رؤساء قبيلة المنتفك (السعدون) . وقد أُعدم وسُجن كثير منهم . وكان عبدالمحسن ضعيف البنية ، عصبي المزاج ، وحين قَدِمَ العراق اعتمده الملك فيصل كسياسي محترم واختاره رئيساً للوزراء ومجلس النواب عدة مرات . وكان يلقى معارضة من بعض المتنفذين الذين يسعون الى المنافع الشخصية ، كما اعتادوا ، وهو يرفض ذلك حفظاً لسمعته وكرامته . وكانوا يتربصون به ليوقعوه في مشكلة . ويقال ان الموظف المتقاعد الذي طعن السعدون بالسكين حين صعوده الى مجلس الوزراء ، كان بتحريض من بعض السياسيين الذين استغلوا حاجة هذا المتقاعد الى عون غير قانوني . على ان السعدون عفا عنه وتنازل عن دعواه . وكانت المشكلة السياسية الكبرى بين العراق وبريطانيا ، هي مشكله تعديل المعاهدة العراقية البريطانية . وأراد السعدون تعديلها ، بما يفيد العراقيين ، ويخفف من قيودها ، وأصرّ الإنكليز على الرفض . وفي

إحدى جلسات مجلس النواب اتهمه بعضهم بكلمات جارحة بالخيانة واهدار حقوق البلاد ، لكي يثور ويستقيل . وفي المساء ، وكان السعدون يرتاد نادي حزب التقدم الذي يضم الوزراء والنواب وصائدي الوظائف والمنافع ، وكان يلعب الورق في بعض الأحيان ، وأعاد بعضهم ذكر مناقشة مجلس النواب وهاجمه النائب معروف جياوك بكلمات جارحة ، وكانت أعصابه ثائرة منذ الصباح ، علاوة على انه وصل الى النادي وهو منزعج عائلياً بصورة أفقدته توازنه ، فترك النادي هائجاً وقرر الانتحار . وبعد ان كتب وصيته باللغة التركية ، التي كان يحسنها أكثر من العربية ، بسبب اقامته الطويلة في اسطنبول أطلق على نفسه الرصاص في البيت الذي كان يستأجره في شارع أبي نواس (كرد الباشا) . وهبَّ الناس صباحاً على الخبر غير مصدقين ، فلم يسبق ان انتحر وزير أو موظف كبير أو رئيس وزراء في دولة من دول المشرق العربي .

ونشرت الجرائد ملاحق فيها صورة الوصية بالزنكوغراف مع ترجمتها الى اللغة العربية ، وكانت تبدأ بالتركية (ايكي كوزم يا روم ما دار استنادم علي) . وكانت هذه أول جملة تعلّمناها باللغة التركية ، ومعناها (يا عينيّ الاثنتين يا سندي علي) . وعلي هو ابنه . ثم الجملة المشهورة ، في وصيته وهي (أمت خدمت بكليور انكليزلر موافقت ايتم يور) . ومعناها (الأمة تطلب الخدمة والإنكليز لا يوافقون) .

وجرى تشييع السعدون بشكل مهيب وعلى عربة مدفع ودُفن في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني . وخوفاً من تشكيك الناس في الحادث الانتحاري ، فقد وقّع الوزراء تحت الوصية بتواقيعهم وشهاداتهم ، ومنهم ناجي وتوفيق السويدي وعبدالعزيز القصاب وغيرهم . وأُقيمت حفلة تأبينية كبرى بمناسبة الاربعين في الجامع نفسه ، وألقى الشعراء قصائدهم ، ومنها قصيدة الرصافي التي مطلعها :

شبَّ الأسى في قلوبِ الشعب مستعرا

ثم قصيدة الشيخ العلامة محمد بهجت الاثري التي أسميناها قصيدة (يد تحيي ويد في الحسام) . كناية عن السياسة البريطانية التي قال الشاعر الرصافي في وصفها :

ظاهرها فيه لنا رحمة
والويل في باطنها والعذابُ

ثم قصيدة الزهاوي الفلسفية ، والتي قال فيها :

ليـــــلٌ وزوبعـــــةٌ وبحـــــرٌ هـــائـــجٌ
أنـــــــا لا أرى السفينـــــــــةَ تسْلَم

وملأ الحزن والأسى جميع الناس وبقوا طويلًا يتذكرون هذه المأساة، والتي ضحى فيها رجل كريم بنفسه في سبيل فكره، وتجدد حزنهم بعد ان مات ابنه الوحيد (علي) منتحراً أيضاً، وماتت ابنته في حادث اصطدام دراجة بخارية. وإكراماً للسعدون قدّمت الحكومة بيتاً يقع على نهر دجلة مقابل مخزن حسو إخوان وقريباً من وزارة الاقتصاد، وأفرزت قطعة كبيرة من الارض وسمتها محلة السعدون (المعروفة الآن). ووزعت قطعها على الناس بثمن، وهبّ الناس لجمع التبرعات لصنع تمثال للسعدون يُنصب في إحدى ساحات بغداد. وتبرع الناس بمبالغ طيبة دفعوها الى اللجنة المكلفة بالجمع. وبعد تدقيق الحساب وجد ان المجموع الموجود ينقص حوالي ثلاثين ألف ربية. وقد جرى التحقيق بذلك، وتقرر سوْق المسؤول الى المحكمة، وكان شخصاً وجيهاً في بغداد، وستراً للفضيحة، فقد استشير القانوني الشهير صاحب الفتاوي حمدي صدرالدين، فأشار على الحاكم المختص بأن هذه القضية هي مدنية، وليست جزائية، وعلى كل متبرع أن يقيم الدعوى ويطالب بما تبرع به، وهذا غير قابل للتنفيذ. وهكذا لفلفت القضية، ولكن الحكومة بعدئذ عملت التمثال في إيطاليا ولم يزل قائماً في ساحة الباب الشرقي.

ولم تمضِ مدة طويلة حتى انفجرت مأساة أخرى في عائلة السعدون، حين أقدم عميدهم عبدالله الفالح السعدون على قتل عبدالله الصانع مدير الداخلية العام في مكتبه بوزارة الداخلية أثناء الدوام الرسمي. وكان السبب في ذلك هو ان عبدالله الصانع ابن أحمد باشا الصانع، صديق العائلة السعدونية، قد خطب بنتاً سعدونية للزواج منها، فرفض آل سعدون ذلك بحجة عدم التكافؤ بين العائلتين، خصوصاً وان السعدون عائلة هاشمية، بعكس الصانع التي كانت معتمدة على وجاهتها في البصرة وصداقة أحمد باشا لعائلة السعدون، وان الخاطب هو مدير عام للداخلية، وتلاسنا في الدائرة واضطر فالح السعدون الى قتل الصانع. واحتارت الحكومة في الامر، فالقاتل والقتيل في مركزين كبيرين عشائري وحكومي، وانتهت القضية عشائرياً، ودخل السعدون السجن مكرماً، ولمركزه وكبر سنه، فقد أصدر الملك فيصل الاول عفواً خاصاً بعد قضائه مدة يسيرة في السجن، وصدور تقرير طبي من لجنة طبية بان حالته الصحية لا تسمح له بالبقاء في السجن.

- والى الآن فالناس يعتقدون ان انتحار السعدون كان سببه الرئيس هو الخلاف السياسي بينه وبين النواب والسياسيين المعارضين ، ولكن أقول ان هذا ليس السبب الأساس ، بل ان السبب هو ان مزاج السعدون كان عكراً ، وكان عصبي المزاج بطبيعته ، وزاد على ذلك شقاؤه داخل بيته . فلم يكن مرتاحاً بعلاقاته الزوجية ، وكان يقضي وقته في بيته بشقاء كبير نتيجة سوء تصرف زوجته التركية وخشونتها في معاملتها له . أقول هذا نقلًا عن مصادر لا يرقى اليها الشك ، فهي مستوحاة من أقوال المرحوم مدير الشرطة مطشر عجمي باشا السعدون ، وكان صديقي وقضيت معه سبعة أشهر في دورة معاوني الشرطة وبغرفة واحدة وكان يخبرني عنه .

والمصدر الثاني هو المرحوم صالح السعدون ، والذي كان معتقلًا معي في الفاو والعمارة ، فقد كان ينقل لي تفاصيل حياة السعدون . والمصدر الثالث ، هو المرحوم توفيق السعدون مدير التشريفات في وزارة الخارجية العراقية سابقاً ، يوم كنت محامياً له في دعاوى ثلاث في محكمة بداءة بغداد في منتصف الاربعينات . والمصدر الرابع ، هو المرحوم عبدالستار أبو نايل رئيس الملاحظين في البلاط الملكي ، والسكرتير الخاص للأمير زيد حين وجوده في بغداد ، وكان ينقل له أخبار عبدالمحسن عن طريق زوجته التركية (فخر النساء) . فقد كانت صديقة مقربة الى زوجة عبدالمحسن السعدون ، وتنقل زوجة السعدون لها ما يجري بينها وبينه ، أو تنقل الى زوجها الامير زيد ما تراه من معاملة جافة للمرحوم عبدالمحسن . والغريب ان المرحوم ياسين الهاشمي كان يلقى معاملة تشبه معاملة زوجة عبدالمحسن ، إلا انه كان يلجأ الى الهروب من البيت تخلصاً من زوجته ويذهب الى نادي (لورة خضوري) اليهودي ليلعب لعبة البريدج مع بعض وجهاء اليهود الى ما بعد منتصف الليل ، فتهدأ بذلك أعصابه ويكون مرافقه العسكري المرحوم النقيب عبدالحكيم الموصلي في انتظاره ، ليبشره بنوم حرمه . ولقد رأيت حرم الهاشمي رحمها الله ، حين كانت تاتي الى المزرعة في مقاطعة الدير قرب ناحية العزيزية ، يوم كان يديرها المرحوم اللبناني محمود السفرتي ، وكنا أنا وبعض المزارعين المجاورين نزورها ونتحدث اليها طيلة بقائها في المزرعة أيام كنا جميعاً نسميها (الخاتون) ، أو (الخانم) ، وقد كانت مزرعتي في العزيزية قريبة جداً من مزرعة الهاشمي .

رابع عشر : مشاكل صحفية :

أصدر الصحافي ميخائيل تيسي صحيفته التي سمّاها (كناس الشوارع) ، وذلك في العشرينات ، وكانت انتقادية هزلية . وحين كتب في إحدى انتقاداته مستعيراً فيها جملة من القرآن الكريم ، وقال (قاب مكنستين أو أدنى) ، تشبهاً بما جاء في الآية الكريمة ﴿ قاب قوسين أو أدنى ﴾ ، أثار عليه الرأي العام والضجة الدينية ، وكان أول مَنْ أثار الموضوع هو المرحوم داوود العجيل صاحب جريدة (البدائع) الأسبوعية الهزلية ، قائلًا : « ان ميخائيل تيسي قد طعن في القرآن الكريم وأهان الدين » ، وبسبب هذا أطلقت النار على ميخائيل في محاولة لاغتياله واختبأ في إحدى البيوت في محلة (عقد النصارى) في بغداد . وتقرر سوقه الى المحكمة وجرى التحقيق معه ومحاكمته ، ثم أفرج عنه لتوفر حسن النية والقصد ، ولكن الجريدة أوقفت عن الصدور ، وقال الناس ان مداخلات عديدة قد جرت للإفراج عنه . وبعد مدة قصيرة ثارت مشكلة أخرى مثل هذه المشكلة يوم سجل المرحوم محمد القبانچي في برلين ولحساب شركة بيضافون كُمْپَني الأسطوانة الغنائية ، وفيها البستة القائلة (سودنوني هالنصارة) و (يا نصارة إشصار بيكم) والخ .

ورداً على مشكلة ميخائيل تيسي ، وانعكاساً لتأثيرها ، قال المسيحيون في بغداد : انهم أُهينوا ، وتردد ذلك في أوساطهمْ وطلبوا محاكمة القبانچي ، كما حوكم ميخائيل ، ولكن تدخل العقلاء ، مثل العالمين الكبيرين الكرملي ويوسف غنيمة ، وأُغلق الموضوع وأُسدل الستار على المشكلتين .

لم تكد تنتهي هذه المشاكل وينساها الناس تقريباً حتى برزت مشكلة المرحوم معروف الرصافي وكتابه (السيرة المحمدية) . وقد نشر فصل منه في إحدى الصحف المحلية ، وجاء فيه : « ان رسول الله (ﷺ) كان يحضر بعض حفلات الرقص التي يقيمها العبيد الأحباش من الذين أسلموا في مكة . وقد حضرت السيدة عائشة إحدى هذه الحفلات برفقة الرسول الكريم » ، وثار الناس في بغداد ، وتزعّم هذه الثورة الشاعران عبدالرحمن البنا وابراهيم أدهم الزهاوي ، كشعراء يتحدون الرصافي ، عدا عن بعض الادباء والمعممين ، وعلى رأسهم العالم الكبير مفتي بغداد يوسف العطا ، واستمرت معارك الهجاء والسباب بين الرصافي وخصومه ، واضطر الرصافي الى الاختفاء خوفاً من الاعتداء على حياته ، وتوقف نشر أي فصل من فصول الكتاب ، وقيل بعدئذ ان مسودات الكتاب قد أودعها الرصافي أمانة عند

صديقه المقرب الاديب مصطفى علي . ثم سكنت هذه الضجة وهدأ الناس ، ولكن في أواخر العشرينات كان السيد مزاحم الباجهچي ، وكان الممثل من الحكومة العراقية في لندن يتفاوض على تعديل اتفاقية النفط مع مدير الشركة السير جون كادمن، ولوجود كثير من خصوم الباجهچي في بغداد ، فقد اتهمه هؤلاء بأنه يأخذ جانب الشركة البريطانية وغمط حقوق العراق ، وتسلّم بعض الهدايا ، ومنهم قلم پاندن ذهبي ثمين ، غالي الثمن ، فتناوله الناقد الصحفي المرحوم ابراهيم صالح شكر بمقال عنيف في الجريدة وكان بعنوان (حفنة تراب على قبر مزاحم الپاجهچي)، فنفدت الصحيفة فور صدورها وتلاقفها الناس ، وبعد ان كان ثمنها آنة واحدة ، صار ثمنها ربية واحدة واختفت من الأسواق ، ثم أُغلقت الجريدة وتوقف تعديل الاتفاقية ، (وقد يكون لسبب آخر) . واستمر الهجوم على مزاحم في الصحف المحلية وفي أوساط الناس ، وتذكّر خصومه برقيته المشهورة التي بعث بها الى حكومة الهند يطلب ربط العراق بحكومة الهند البريطانية مباشرة . ثم تضاعف الهجوم الصحفي عليه لفشله في احتواء الاضراب العام ، يوم كان وزيراً للداخلية واتخاذه الإجراءات القاسية ضد العمال ورئيسهم محمد صالح القزاز ، مما أجبر نوري السعيد على القدوم من لندن وطلبه من مزاحم أن يستقيل ، فرفض الاستقالة واضطر نوري السعيد الى الاستقالة لاخراج مزاحم من الحكم . وقد حاول مزاحم الانتقام من نوري السعيد ومن الملك فيصل والبلاط في قضية الرسائل السرية التي حكم فيها بالحبس على الصحفي فاضل قاسم راجي ، ولذلك بحث آخر في محل آخر .

خامس عشر : الجراد والثلج في بغداد :

الجراد أنواع ثلاثة ، أولها الصغير الحجم ، النطاط ويُعرف في العراق بأسم (أبو دبيلة) ، وهو غير مؤذٍ وخطره قليل ، ذلك انه قليل النسل ويضع بيوضه فوق سطح الأرض غالباً ، إذ لا يستطيع أن يغرزها داخل الأرض ، لذلك تتلف قبل ان تفقس وتنتشر بكميات كبيرة علاوة على ان الجو الحار جداً والبارد جداً يقتل بويضاتها وصغارها ، وهذا النوع موجود دائماً في المزارع والبساتين . والنوع الثاني من الجراد هو الذي كان يجتاح العراق بأسراب من عشرات الملايين تكاد تغطي ضوء الشمس قادمة اليه من صحارى أفريقيا أو السودان أو جنوب الجزيرة العربية أو إيران ، وهذا الجراد كان خطراً ماحقاً لكثرته الهائلة ، خصوصاً بعد ان تفقس بيوضه وتخرج الى سطح الأرض زاحفة

على المزارع والأشجار ، فلا تبقى منها طرياً أو يابساً وتأكل لحاء الشجر القاسي ، إذ تفرز من فمها عصيراً أصفر داكناً يلين لها القشور . وكنا في المزارع نملأ السواقي ماء عسى أن يوقف الزحف ، ولكنه كان يعبر الماء بقنطرة من صغاره من الفدائيين الذين يصلون الى الضفة الثانية من الساقية بعد ان يموت الآلاف منهم غرقاً . وبالرغم من هذه المكافحة ، فان الجراد كان ينجح في القضاء على الزروع . أما الحكومة فكانت مكافحتها للجراد بدائية وتافهة ، ذلك انها تعلن عن رغبتها في متطوعين وتشكّل منهم فرقاً من خمسة أشخاص للفرقة الواحدة ، وتعطي كل فرقة مقداراً من النخالة المسمومة لرشها على الأرض ليأكلها الجراد حين يبدأ المسيرة . وهذا يعني ان القضاء على هذا الجراد لا يتجاوز الواحد بالمئة من مجموعه . وبعد ان تبلغ بها القوة للطيران تبدأ الاجتياح طائرة الى بقية مناطق العراق ، ثم الى الدول المجاورة ، حسب اتجاه هبوب الرياح مع بقاء قسم كبير منه ضيفاً كريهاً الى السنة القادمة . والنوع الثالث من الجراد هو الجراد النجدي . ففي أوائل ١٩٢٣ وصل الجرادالنجدي الى بغداد طائراً ، وكان وصوله عجباً ، ذلك ان هذا الجراد لا يستطيع الوصول الى بغداد ، لبُعد المسافة بينها وبين السعودية وصحارى نجد ، بسبب ثقل ذنبه الطويل العريض ويصعب معه قطع هذه المسافة طائراً . وفجأة وصل الى جانب الكرخ بأعداد كبيرة غطت الجدران وتخوت المقاهي والأشجار ، وكان قدومه عيداً لنا نحن الصغار وللطيور وللعصافير . وكنا معتادين على أكل الجراد النجدي ، إذ كنا نسلق ذنبه ونغليه في الماء المالح ونخزنه مؤونة للشتاء ، مثل التمر والفاصوليا ، وكان طعمه ومذاقه يشبه صفار البيض أو الروبيان ، لذلك جمعنا منه كميات كبيرة بعد ان فصلنا الرأس عن الذنب وتزاحمنا مع الطيور التي كانت في بهجة وسرور عظيمين . واختفى الجراد النجدي هذا بعد بضعة أيام .

وما إن انتهت سنة الجراد التي كانت سنة خسارة وأذىً زراعيين ، حتى سقط في السنة الثانية ، ١٩٢٤ ثلج كثيف على شمال العراق ووسطه وقسم من جنوبه . وكان الثلج كثيفاً وغطى سقوف البيوت وقمم الأشجار وسعف النخيل ، ناهيك عن سطح الأرض والزروع النابتة ، ولم نكن نرى غير البياض .

سادس عشر :

أيام زمان ، من الضروري أن نتطرق بشيء من الإيجاز الى موضوع شرطة بغداد لعلاقتها المباشرة بالحوادث التي مرت على المدينة العريقة بغداد في العشرينات . وكان واجب الشرطة حفظ الامن وتفريق الناس المتجمهرين وجمع الناس بالقوة لأجل السخرة والعمل المجاني والتحقيق في قضايا مقاومة الاحتلال . وقد أشغل مديرية الشرطة العامة أول مَنْ أشغلها بصورة مؤقتة هو نوري السعيد . ثم استلمها الحجي سليم ، ثم اسماعيل الصفار . وكانوا يعملون تحت إشراف الضباط البريطانيين وعلى رأسهم الكولونيل بريسكوت المسمى مفتش الشرطة الاقدم . وكذلك الميجر ويلكنز مدير التحقيقات الجنائي والميجر كوري وبعض الضباط الإنكليز الذين تدربوا على أعمال الشرطة في الهند وفي السودان ، ويعاونهم في ذلك بعض الضباط العراقيين الذين كانوا في الجيش العثماني ، مثل السيد هاشم العلوي ، وصبيح نجيب ، وحسن فهمي المدفعي ، ويوسف حنظل ، ومحمود شكري الحاج حسين ، وحسام الدين جمعة ، وبعض ضباط الشرطة الصفار ، مثل السيد أحمد الراوي ، وسلمان أفندي الكوميسير اليهودي ، الذي قُتل لسوء سلوكه واعتدائه على الناس . وكثير من العراقيين الذين لا مجال لذكر أسمائهم جميعاً . وفيما عدا خان دلة الواقع في شارع السموأل ، وكان المركز الرئيس للشرطة في بغداد (قبل انتقاله الى السراي) ، ومحلًا لتنفيذ عقوبة الجلد بالسوط أو المقرعة . كان هناك ثلاثة مراكز للشرطة في بغداد ، أحدهم بالكرخ . وقد أشغل أحد الخانات في باب السيف مقابل سيف بيت هندي في الحال الحاضر . ثم انتقل الى مُلك حمودي الوادي على شارع علاوي الحلة ، وقد دخل الآن في استملاكات شارع حيفا ، (مركز صدام للفنون) . ومن ضباطه المشهورين السيد رجب الراوي ، ونورالدين العاني ، وعبدالرزاق الفضلي ، وعبدالرزاق العسكري ، وعلي كمال . أما المركز الثاني ، فكان في العبخانة . وقد أشغله الضابط العراقي نعوم حشيشة ، وبقيَ مدة طويلة ، ذلك أن الكولونيل بريسكوت كان قد تزوج شقيقته . ثم جاء بعده السيد علي الحجازي .

أما المركز الثالث ، فهو مركز شرطة الكرادة . واتخذ مقراً له داراً كبيرة تقع

على نهر دجلة في المحلة التي بقيت تسمى حتى الآن محلة (البوليس خانة) . ومن ضباطها المشهورين عبدالرحمن القشطيني . أما التحقيقات الجنائية والتي كانت تسمى (س. آي. دي) ، فكان مديرها الميجر ويلكنز ، يعاونه الضابط العراقي علوان حسين ، وهو من محلة الشيخ بشار بالكرخ ، والمعروف بأسم الميجرعلوان . وقد صار بعدئذ مديراً عاماً للشرطة ، يعاونهما في ذلك ضباط الشرطة ، مثل عبدالمسيح جويدة ، ويوسف بيتر ، وميخائيل مروكي . ثم فُتحت مدرسة للشرطة ، وذلك في البتاوين التي صارت الآن مقراً لوزارة التربية والتعليم العالي ، والتي تسمى (الوايرلس) ، وفُتحت فيها دورات للشرطة المشاة والخيالة ، وشرطة المرور ، وطبع الأصابع . وتوسعت ملاكات الشرطة ومراكزها في أواخر العشرينات . أما شرطة الخيالة ، فقد بقيت واجباتها مقصورة على التبليغات والدوريات في المناطق المحيطة ببغداد ، حتى توفرت السيارات المسلحة . وكان لباس أفراد الشرطة يشبه الى حد كبير لباس الجنود مع نجمة بيضاء في مقدمة السدارة ورقم بالعربية والإنكليزية ويحملون العصي المسماة (دونكي) .

وتعتمد مراكز الشرطة في أعمالها على رئيس عرفاء المركز وعلى مأمور المركز الذي هو بدرجة مفوض . أما السجلات الرسمية ، فأهم سجل معتمَد ، هو سجل المركز اليومي المسمى (كيس داري) ، الذي يسجل فيه كل الوقائع اليومية صغيرة أو كبيرة . أما السجلات الأخرى ، فهي سجل الموقوفين وسجل الأسلحة وسجل الأمانات .

سابع عشر : تطور المفاهيم :

كان لدخول الجيش البريطاني وانتشار الموظفين البريطانيين والهنود ووجودهم في مختلف مرافق الحياة تأثير كبير على المفاهيم البغدادية التي ظلّت منغلقة على نفسها طيلة العهود العثمانية . وجاءت هذه الجيوش بكل مفاهيمها وثقافاتها وعاداتها . ونقلت أساليب الحياة البريطانية والهندية والاسترالية والافريقية . ورأى البغداديون كيف يعيش هؤلاء وكيف يلبسون وكيف يسلكون . والبغدادي ألمعي وذكي وسريع الالتقاط . وكان العامل البغدادي قبل الاحتلال يستوفي أجراً يومياً بحدود عشرين قرشاً ، وهو لا يكاد يسد حاجته وحاجات أولاده اليومية من الخبز والتمر والرقي ولا يذوق لحماً إلا مرة واحدة في الاسبوع أو

الاسبوعين . ثم نشرت الجيوش أموالها وصار العامل يستوفي أجراً لا يقل عن خمس أو عشر ربيات يومياً . مما جعله يغيِّر نمط حياته وحياة عائلته ، وصار يأكل ويلبس ويرى في نفسه انه كريم ومحترم ، وان العمل شيء ثمين ومجزي . وصارت الزوجات والأبناء يطلبون من الرجل شيئاً من الترفيه في المأكل والملبس والحياة الاجتماعية ، وعرفوا طريق الأطباء والصيادلة والنظافة والتعقيم . وعمَّ استعمال الكهرباء وأنابيب الماء الصافي المعقم ، وكثر النقد السائل ، حيث كانت الجيوش تدفع نقداً كل تكاليفها وخدماتها .

ثم كثُر ورود الصحف وتفتحت أذهان الناس على الحرية والاستقلال ، واشتعلت ثورة العشرين ، ونشط الأدباء والكتّاب والخطباء في إثارة الناس ، مما جعل الاضطراب الاجتماعي أمراً واقعاً وملموساً ، والرغبة في تبديل الحياة أمراً مرغوباً ، وزاد في ذلك مجيء فيصل الأول وجماعته من السوريين واللبنانيين يحملون معهم حضارة البحر المتوسط . ومنهم ساطع الحصري وعائلته ، وصفوت باشا العوا وعائلته ، وتحسين قدري وأخوه زكي قدري وعائلتاهما ، وعلي باشا الركابي وشفيق باشا حداد وعائلتاهما ، ورستم حيدر وراسم سردست ومحمود الهندي وعوائلهم ، وخليل المفتي وأخوه وعائلتاهما ، وغيرهم كثيرون لا مجال لتعدادهم . واتصل هؤلاء بالناس وبالعوائل البغدادية اتصالاً وثيقاً .

ولقد كنا نحن الصبيان نقف على سياج الجسر القديم لكي نرى الملك فيصل الأول وساطع الحصري وزوجته السافرة في الزورق البخاري المكشوف (الموتور) يمخر عباب دجلة ذاهبين ، إما الى قصر المندوب السامي ، أو الى الملك علي في قصره بالكرادة . أو نرى صفوت باشا العوا وأهله وبناته السافرات والجميلات جداً مع الملك فيصل ، أو وحدهم في بعض زياراتهم للعوائل العراقية .

وانتشر موضوع النقاش على السفور والحجاب وكلمة الحرام التي كانت على الالسن دائماً ، وقد خفَت حدتها . ولقد سمعنا بعد ان تزاورت هذه العوائل ، ودخل بعضها في بيوت بعضها الآخر ، وسمعنا وعلمنا ما لم نكن نعرفه عن المفروشات والطبخ والاثاث والسلوك الاجتماعي ، وأخذنا نقلّدهم ونبدل بعض العادات بما هو أحدث . وزاد ذلك كثيراً في منتصف العشرينات أو قبلها بقليل ، حين بدأت هجرة السوريين الى بغداد ، بعد ان قصف الجنرال (سرايل) دمشق بالقنابل في ثورتها وثورة جبل الدروز ، ووصل الآلاف منهم ، وخصوصاً من دمشق وسكنوا بغداد ، وزاولوا

أعمالهم التجارية والصناعية فيها الى ان انتهت المشاكل واستقرت الأمور في سوريا وعادوا اليها ، عدا بعض العوائل القليلة التي استقرت في بغداد ، ومنهم الحجي رشيد روماني التاجر الدمشقي الذي أصبح صهراً للعراقيين ، وكذلك أبو طلعت عبدالوهاب الحلبي ، تاجر القماش الكبير ، وغيرهما كثير . وصرنا نعرف الحلويات والأكلات والمرطبات السورية واللبنانية . وتعلّمنا من صحفهم التي كانت تصل ، مثل صحيفة (الإنشاء) و (القبس) و (أبابيل) و (بردى) و (الدبور) و (اليوم) و (بيروت) و (الاريون) و (النهار) . وبدأ قدوم الطلاب العراقيين الذين درسوا في الجامعة الأمريكية ، أو في الجامعة الوطنية في عالية أو الشويفات بالقدوم الى بغداد بعد تخرجهم . وأشغلوا كثيراً من الوظائف خصوصاً في التعليم . ونقلوا الينا بعض العادات الأمريكية واللبنانية . وهكذا اكتملت الصورة وأضفنا اليها خصالنا الحميدة وكرمنا وأخلاقناالعربية ، مما جعل المثل الذي يقول صار الصانع (أستاذ ونص) حقيقة .

ولاجل أن لا ننسى ما مرّ علينا في طفولتنا وصبانا من الحوادث السارة وغير السارة التي لم تزل ذكراها عالقة في أذهاننا ،ومنها :

أولا :

وصول شاه إيران أحمد قاجار الى بغداد بعد ان هرب من رضا بهلوي حين تسلمه السلطة في إيران ، والاحتفالات التي أقيمت له في بيت آل ايلچي (في قصره الكبير المطل على دجلة في محلة الشيخ بشار بالكرخ) . ولأول مرة رأينا الألعاب النارية في سماء بغداد ، وسميناها (الصعّادات) ، واعتبرناها في حينه نوعاً من السحر . وذهبنا صباحاً نتفرج على موكبه الكبير الذي تحرك من بيت الإيلچي بالعربات الفخمة مخترقاً شارع علاوي الحلة في طريقه الى محطة قطار غربي بغداد . وأعتقد انه سافر بالقطار الى البصرة ، ومن هناك الى باريس ، حيث أعلن عن خلعه فاستقر في باريس وفتح محلًا كبيراً لبيع العطور حتى توفي .

ثـــانيـــاً :

وصول أهل الجربيات الى بغداد . وكان موسم وصولهم يشبه موسم الأعياد عندنا نحن الصغار . والجربيات هم جماعة من عشائر بني لام في لواء العمارة . وبعض العشائر المجاورة لهم . وكانوا يأتون الى بغداد رجالًا ونساءً وأطفالًا مشياً

على الأقدام وهم حفاة من محل سكناهم ، وأكثرهم من شيخ سعد وقضاء علي الغربي قاصدين كربلاء والنجف للزيارة في أوائل شهر آذار . ولا يحملون معهم من الزاد والتموين غير جراب صغير من الجلد فيه شيء قليل من الطحين وبعض التمر ، وكانوا يعتاشون على المضايف في طريقهم الى العتبات المقدسة . وحيث ان الجراب الذي كانوا يحملونه صغير ، فقد سميناهم أهل الجريبات . والجريب هو تصغير الجراب . وكان لا بد من مرورهم في جانب الكرخ بطريقهم الى الزيارة . واتخذنا مرورهم هذا موسماً للتهريج والفرح والهوسات وراءهم نغني :

(يـــا أهـــل الجـــريبـــات ايش جـــايبكم
شـــايبفـــا يقتـــل شـــايبكم)

ويبدأ بعدها رمي الحجارة بيننا وبينهم حتى يغادروا جانب الكرخ ، ويستمر ذلك أسبوعين . وفي رجوعهم من الزيارة فانهم يرجعون فرادى ، ولكن أكثرهم يعودون عن طريق المحمودية ، ثم الصويرة عن طريق الحرية ، ثم الزبيدية ، وبعدها النعمانية والكوت ، ثم يعبرون دجلة الى مناطقهم .

وفي هذا الموسم نفسه ، أي في موسم الربيع ، هناك زيارتان مهمتان لنا ، نحن الأولاد . الأولى زيارة قبر النبي يوشع عند اليهود . وقبر النبي يوشع هذا هو الذي حصلت فيه المشكلة الكبرى بين اليهود ورئيس بلدية الكرخ عبدالله الزئبق ، ووالي بغداد العثماني ، حين رفض الزئبق السماح لليهود بدفن الحاخام الإسرائيلي في المقبرة ، ووصل النزاع الى اسطنبول ، ثم دُفن الحاخام واستقال رئيس البلدية . وكان مجيئهم للزيارة في جانب الكرخ فرصة لنا للتحرش بهم ومحاولة سرقة الطرابيش ، وقد ينالهم بعض الأذى من بعض الصبيان ، بالرغم من تدخل الأهالي والآباء لمنع الناس بالتحرش بهم بالقوة .

أما الزيارة الثانية في جانب الكرخ ، فهي زيارة قبر قديس الهنود السيخ (بابا نانك) ومقبرته قرب مرقد الشيخ جنيد . وكنا ننال منهم بعض الأذى عند تحرشنا بهم . ذلك ان الجنود الهنود كانوا يرجعون علينا ضرباً بالحجارة والعصي ، وكانوا قساة غلاظاً ، ولم نكن نسلم منهم إلا بصعوبة ، ونغنّي لهم من بعيد (أوه بابي ساسريكا دنبركا) ، بدون أن نفهم معناها . أما الحجارة فكنا نرميها من بعيد بواسطة (المعجال) .

ثــالثــاً :

نفط بابا گرگر : أما الرعب الذي أصاب بغداد في سنة ١٩٢٧ ، على أثر تفجر نفط بئر (بابا گرگر) في كركوك . وكان الرعب عاماً خصوصاً بعد ان جاء في جريدة (بغداد تايمز) خبراً عن ان النفط الذي تفجر من البئر سوف يصل الى بغداد عن طريق نهر دجلة ، ويحتمل أن تبقى بغداد عطشى ، نظراً الى فشل الجهود في اغلاق فتحة البئر الذي وصل علو التفجير فيه الى عشرات الأمتار ، واستمر سيلان النفط على الأراضي الى قرب نهر دجلة . فهرب كثير من الناس من بغداد وذهبوا الى مناطق الفرات خوفاً من ماء دجلة الملوث بالنفط ، ولكن ، وبعد مجيء الطائرات من لندن بكثير من الأدوات والآلات التي مكّنت الشركة من إيقاف تدفق النفط وسد فوهة البئر ، وأُعلن ذلك رسمياً وهدأ الناس وهاجموا جريدة الـ(بغداد تايمز) واعتدوا بالضرب على رئيس تحريرها ومديرها المسؤول (توفيق صالح) ، الملقب توفيق باني ، لنشره هذا الخبر غير الحقيقي . وقد اعتذرت الصحيفة عن هذا الخطأ غير المقصود في اليوم الثاني .

رابعاً النزاع اليهودي حول الغابيلة : :

ومن الحوادث التي لا تُنسى هو النزاع بين أفراد الطائفة اليهودية حول قضية (الغابيلة) . والغابيلة هي الرسوم التي تُؤخذ عن ذبح الأغنام في المسلخ على الطريقة اليهودية وفق تعاليمهم ، وتسمى عند الحكومة (رسوم الذبيحة) ، وهذه الرسوم تعود الى الطائفة اليهودية وتُعطى بطريق المزايدة بالالتزام . ويظهر ان الخصومات بين الحاخام ساسون خضوري وبعض أعضاء المجلس الجسماني اليهودي قد أدى الى حدوث هذه المشاحنات والمعارك التي تتصل بالمنافع المادية . وانقسم اليهود الى قسمين : قسم مع الحاخام ساسون ، وقسم مع معارضيه . وتشكلت عصابات من أشقياء اليهود ، الذين لم نكن نعرف شيئاً عنهم قبل ذلك . وانحاز بعض الأشقياء المسلمين الى فريق من الفرقاء واشتد النزاع ، وكثرت المعارك بالأيدي والعصي . وكنا نحن الصغار في فرح وسرور لهذه المعارك ، ثم تدخلت الحكومة والعقلاء من الطائفة وتمت التسوية بينهم ودخل بعض المعارضين من اليهود كأعضاء جدد في المجلس

الجسماني وانتهى الأمر على خير وبقي ساسون خضوري رئيساً للطائفة .
واشتهر من الاشقياء اليهود في ذلك الوقت خضوري أبو سويكة وشلوم
أبو السوتلي .

خامساً : الهيضة في بغداد : الكوليرا أو أبو زوعة :

ظهرت اصابات مرض الهيضة اللعين في أواخر العشرينات ، وأعلن عن بعض الوفيات ، خصوصاً في منطقة البصرة . ويبدو ان البواخر القادمة من الهند قد نقلت هذا المرض الفتاك . فأصدرت الحكومة أمراً بمراقبة الطرق الخارجية كافة وعدم السماح لأحد أن يدخل بغداد بدون إبراز وثيقة التطعيم ، وشددت على القادمين عن طريق بصرة عمارة كوت وهو طريق القادمين من الهند . وكذلك شددت على القادمين من إيران من مناطق المحمرة وعبادان . وأصبح التطعيم داخل بغداد إجبارياً ، ومَنْ لم يراجع الحكومة يركض الى الأطباء الموجودين في بغداد للتطعيم . وكانت أجور التطعيم ربية واحدة للابرة الواحدة ، فضلًا عن أربع حبات من أقراص (الكنين) مجاناً ، لغرض استعمالها ضد مرض الملاريا المنتشر في العراق . وصارت الناس تفهم وتخشى العدوى . فقد تذكّروا أيام الطاعون الماضية ، وأيام الهيضة (أبو زوعة) ومفعولها في أهالي بغداد . وامتلأ مستشفى العزل بالكرخ (مستشفى الكرامة الآن) . واستمرت الحملة الصحية حتى بدايات الثلاثينات أيام الاضراب العام ضد قانون رسوم البلديات وقساوة وزير الداخلية آنذا ، مزاحم الباجەچي ، وتوقيفه للعمال ، خصوصاً أعضاء جمعية أصحاب الصنائع ورئيسها محمد صالح القزاز (ممنوع ذكر جمعية العمال) ، وطال الاضراب وتوقفت الاعمال واضطر نوري السعيد ، رئيس وزراء آنذاك للحضور الى بغداد من لندن لتلافي الأزمة التي اشتدت بين أهالي بغداد ومزاحم الباجەچي . وطلب منه نوري السعيد أن يستقيل ، فرفض ذلك ، واضطر نوري الى الاستقالة واخراج مزاحم من وزارته والتي دفعت بمزاحم الى التحريض عليه وعلى فيصل في عملية (الرسائل السرية) ، والتي سبق المتهمون فيها الى المحكمة . وحكم على الصحافي فاضل قاسم راجي بالحبس . انتهت مشكلة الهيضة على خير ، وكان عدد الضحايا من القلة ، بحيث نسيهم الناس .

سادساً : مشكلة امتحان البكالوريا و (قِفا نبكِ) :

كانت امتحانات البكالوريا لصفوف السادس الابتدائي تجري في قاعة دار

المعلمين الابتدائية في الكرخ (بناية كوجك زابطان) لجميع مدارس بغداد .
أما امتحانات بكالوريا ، الصف الثاني متوسط وامتحانات بكالوريا رابع ثانوي ، ولقلة أعدادهما في العشرينات ، فكانت تجري في قاعة مدرسة الثانوية المركزية في بغداد . ففي امتحان اللغة العربية للصف السادس ابتدائي ، وفي موضوع الإعراب ، ورد فيه سؤال إعراب ما يأتي :

(قِفَا نَبْكِ مِن ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقطِ اللّوى بين الدخول فحوملِ)

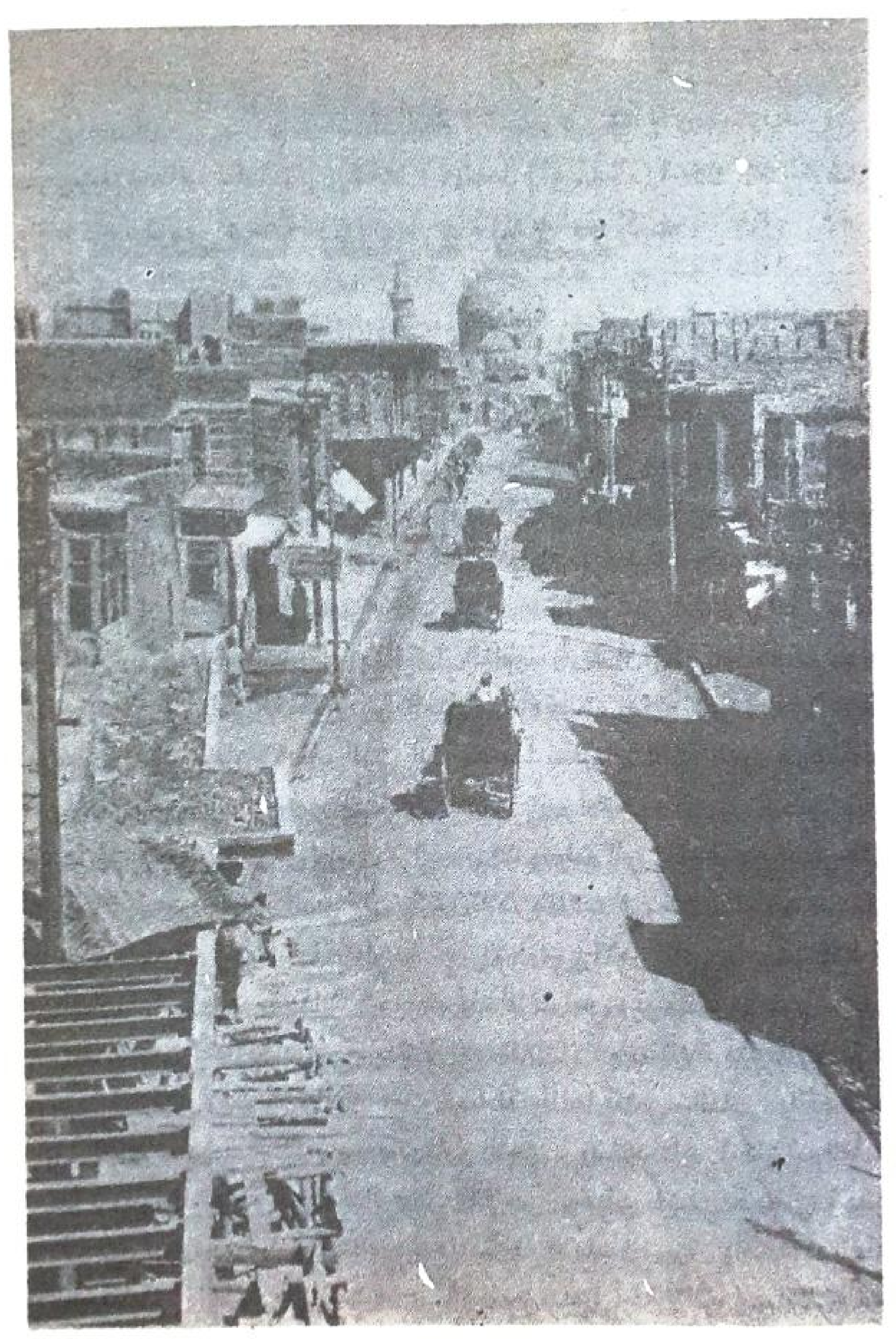
وهو مطلع المعلقة المشهورة لامريء القيس ، فلم يستطع التلاميذ أن يعرفوا أو يعربوا كلمتي (قِفا نبكِ) ، وإنما أعربوا الباقي من الجار والمجرور والمضاف والمضاف اليه ، ورسبت الأكثرية الساحقة من التلاميذ وقامت ضجة كبيرة في بغداد ، خصوصاً في مجلس النواب الذين طالبوا باستقالة الوزير واعتبر السؤال لاغياً وأُعطيت درجات النجاح في اللغة العربية لكل الممتحنين ، وهذا هو السبب في قول المثل المعروف والمستعمل حتى الآن ، حيث يقال عن الشيء المشهور (أشهر من قِفا نبكِ) . وفي السنة التالية عوضت وزارة المعارف عن السنة السابقة بسؤال سهل في الإعراب ، وقد جاء فيه : (الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء) ، وطُلب إعراب بيت شعر من قصيدة امريء القيس يدل على مستوى معرفة تلاميذ الابتدائية للعلوم بالنسبة الى تلاميذ الاعدادية لهذا الزمن . وقد كنا ندرس في الصف الخامس والسادس الابتدائي تفاصيل التاريخ الإسلامي وحروب الفتوحات ، القادسية واليرموك وأجنادين ومعارك المثنى وغيره . وفي السادس خصوصاً ندرس تاريخ الثورة الفرنسية ، ومدرسنا هو المرحوم رشيد رشدي . ومنذ ذلك اليوم عرفنا لويس السادس عشر وماري انطوانيت وميرابو وغيرهم . كما كنا ندرس تاريخ العراق القديم . واستمرت دراستنا في هذا التاريخ الى الصف الاول المتوسط ، ومنه تاريخ اليونان والرومان والفراعنة . وكان مدرسنا فيه المرحوم عوني بكر صدقي ، الذي ألّف كتاباً في هذه المواضيع . ودرسنا أيضاً في الصفوف الأولى الابتدائية ، وفي مدرسة الكرخ بالذات ، تشريح جسم الإنسان كاملاً . وكان مدرسنا فيه المرحوم نجيب الراوي نقيب المحامين الأسبق في العراق . كما درّسنا هو ولأول مرة نشيد (وطني والحق سينجده) .

أما مدرسنا في النشيد والموسيقى بالابتدائية ، فكان المرحوم بدري النقشلي ، وكان يجلب معه الى الصف العود ويضرب عليه . وقد توفيَ بعدئذٍ على إثر لوثة

عقلية . أما المرحوم نوري ثابت صاحب جريدة (حبزبوز) ، فكان مدرسنا في الجغرافية ، ويطلب منا أن نحفظ أسماء كافة العواصم في العالم ، والأنهار والمحيطات ، والجبال ، والبراكين ، والويل كل الويل لمَنْ لا يحفظها ، وإلا فان الضرب على قفا اليد بحافة المسطرة متوفر وحاضر . أما مدرس الحساب المرحوم أحمد ياسين الشيخلي ، فكان يضع قلم الرصاص في شحمة الأذن ، ثم يعتصرها بقوة . وهذه أنواع من العقوبات التي تجبر الطالب في الابتدائية على حفظ دروسه كاملة .

أما في اللغة العربية ، فقد درسنا في كتاب (مصطفى الغلاييني) . والآداب والمعلقات في الثانوية على يد الأستاذ بهجة الأثري ، رحمه الله .

لقد كنا منصرفين تمام الانصراف الى الدروس وحفظها تنفيذاً لأوامر أوليائنا وإرشادهم وخوفاً من العقوبات القاسية من قبل المعلمين ، علاوة على اننا لم يكن لدينا راديوات أو تلفزيونات ننتظر مسلسلاتها أو كارتونها . والأهم من ذلك ، لقد كان عند المعلمين وعند أهالينا ، وحتى نحن الصغار طموح كبير للتعلم والتعليم . وكنا نعد ان العلماء والأدباء هم مَثَلنا الاعلى .



بغداد ١٩٢٠

شخصيات بغدادية شعبية

في العشرينات وما بعدها بقليل ، لمعت في سماء بغداد العلمية والأدبية شخصيات بقيت خالدة ، إذ خلفت سجلًا من النشاط والأعمال ، مثل الزهاوي ، والرصافي ، وخيري الهنداوي ، وفهمي المدرس ، والملّا عبود الكرخي ، وحافظ جميل ، وعبدالكريم العلّاف ، والأب انستاس الكرملي ، وابراهيم صالح شكر ، ونوري ثابت ، وقد وفّاهم البغداديون حقهم من الاهتمام والذكر الطيب ، وكتب عنهم الكثير. ولكن المؤلم ان هناك نجوم لمعت وخبت ، ولم يرد ذكرها على لسان أو على صفحة متواضعة من جريدة أو نشرة ، إلا القليل النادر . وأريد أن أذكّر البغداديين ببعض هؤلاء ، عسى أن يلقى ذكرهم بعض العناية والاهتمام ، ومنهم على سبيل المثال ، المرحوم عبدالله ثنيان الأديب الذي ألّف معجماً بمفردات اللغة العربية وكتاباً في الأدب العربي . وقيل ان مسوداتهما قد أخذهما ابن أخيه يحيى عبداللطيف ثنيان لطبعها في مصر ، ولكن لا الطبع ولا المسودات وصلت الى بغداد ، وابراهيم حلمي العمر ، الصحافي البارع الذي كان يكتب ثلاث مقالات في اليوم الواحد في ثلاث جرائد تختلف في سياستها الواحدة عن الأخرى . الأمر الذي ينم عن قابلياته المدهشة . فعلى أولاده وأحفاده واجب تعريف الناس به . وعبدالغفور البدري ، وقاسم العلوي ، اللذين كانا يصدران جريدة (الاستقلال) ، يوم كانت منار الوطنية في العشرينات . وقد لاقت ولاقيا من عنت السلطة وأذاها الشيء الكثير . والقصاصون أمثال السيد محمود أحمد ، وعبدالوهاب الأمين ، وسليم داود (كان موظفاً في مديرية الواردات العامة) ، وعبدالرحمن الفلاحي ، وعباس فضلي خماس ، وحسين الرحال ، وسليم الخوري ، وعبدالله جدوع ، مترجم الآداب الغربية ، وأصدقاءهم مثل ، نوري روفائيل ، والسيد مكي الشيخلي ، اللذين سافرا أخيراً الى اسبانيا والتحقا بجيش الجنرال (مياجا) لمدة سنتين لمحاربة جيش الجنرال فرانكو .

أما الصحافي ميخائيل تيسي ، فلا يُعرف عنه إلا جريدة (كناس الشوارع) ، وهو الذي أُقيمت عليه دعوى (التجديف) بالدين ، لأنه استعار ما جاء بالقرآن

الكريم (قاب قوسين أو أدنى ﴾ بجملة (قاب مكنستين أو أدنى) . والصحفي داود العجيل صاحب جريدة (البدائع) المعارضة للإنكليز والانتداب ، والذي انتهى أمره بأن يكون معاوناً لمأمور الاستهلاك في علوة المخضر بالكاظمية . وعوني بكر صدقي صاحب مؤلفات التاريخ القديم وبطل مقالات السفور والحجاب ، والشعراء عبدالرحمن البنا ، وابراهيم أدهم الزهاوي ، ورشيد الهاشمي ، الذي أدخلته الحكومة الى مستشفى المجانين ، لأن أشعاره في الحكومة القائمة والإنكليز لا يقولها إلا مجنون كما تدّعي . وأمين خلف شوقي الداودي ، الذي كان يكتب العمود الدائم في جريدة (حبزبوز) بعنوان (مذكرات خجة خان) ، وبتوقيع (بابو جتر بنارجي) في مقالات (عراق إشلون سويك ترقي) ، وكان يحسن من اللغات أربعاً غير العربية . أما البائس شاعر البؤساء كمال نصرة ، فقد انتهى أمره وبالواسطة أن يعين في وظيفة كاتب أضابير في بلدية الكاظمية براتب قدرة ستة دنانير شهرياً ، ومع هذا فقد فُصل من هذه الوظيفة التافهة بحجة انه غير كفء لها ، كأنَّ مَنْ يُراد لشاغل هذه العملية البسيطة ان يكون ذا ثقافة عالية وتكنولوجيا متقدمة لا يملكها الشاعر البائس كمال .

وكذلك الشاعر عباس العبدلي ، الذي كان ينظم الشعر المسمى (البند) تشبهاً ببند ابن الخلفة ، وهو صاحب النقائض والمطاولات مع الملا عبود الكرخي . وكذلك الصحفي عبدالأمير الناهض . والأدباء ، مثل يحيى قاف ، والأديب الضرير علي غالب العزاوي شقيق المؤرخ عباس العزاوي ، وأحمد عزت العظمي ، وكاظم الدجيلي ، رائد الملك غازي في طفولته ، وشقيق جواد الدجيلي ، الذي اتهمه الناس بالشذون والجنون ، لأن عقليته وآراءه كانت فوق مستوى العامة . ثم محمود الملاح والخطباء ، مثل الحاج نعمان الأعظمي ، والسيد مصطفى الشيخلي ، والروزخون الشهير السيد محمد صالح الحلي ، والملا سلمان الكرخي . (وكان من اليهود شعراء وأدباء ، مثل أنور شاؤول ، ومير بصري ، الذي بقي في لندن يراسل أصدقاءه ، في بغداد شعراً ونثراً) .. ويضيق المجال بتعداد الأدباء والفضلاء ممن كانوا في بغداد في ذلك الوقت ونسيهم الناس ، ولو كان سليمان الدخيل ، ويوسف رجيب ، وعبدالكريم محمود الشيخ علي أول مَنْ ترجم ملحمة كلكامش العراقية شعراً . ومن الطرافة ان عبدالكريم تخرج من جامعة لندن في موضوع (الكنسروة) ومارس تعليب الأثمار مدة ثلاث سنوات في معامل إنكلترا ، ثم استدعي الى بغداد بعد كل هذه الدراسة

والخبرة ، وصدر أمر تعيينه معلماً في مدرسة باب السيف الابتدائية بالكرخ ، نكاية بأخيه علي محمود الشيخ علي . وكذلك فلو كان الصحفي سليم حسون ، والشاعر بسيم الذويب ، وأحمد قاسم راجي ، يعرفون ان مصيرهم النسيان لكانوا اختاروا طريقاً غير طريق الادب والشعر والصحافة ، ولكن لكل إنسان قدر واحد . وهذا هو قَدَرهم لا قدرهم .

وكانت في بغداد شخصيات تتردد أسماءهم على ألسنة البغداديين لاسباب مختلفة ، ولكنهم لا يشبهون من ذكرنا في أعلاه ، ولكن الواجب علينا أن نسجل ما كان موجوداً في بغداد في تلك الحقبة غثاً كان أو سميناً . فليس للمؤرخ أن يلتقط من المجتمع ما يلذ له . ومن هذه الشخصيات التي لا رابطة بينها . وكل واحد من طراز يختلف عن الآخر ، ومنهم :

أولاً : توفيق أجانص :

وهو من أشهر الشخصيات البغدادية في جانب الرصافة ، وأجنص معناها الاخبار ، فهو مغرم بنقل الأخبار من محل الى آخر ، ومن شخص الى آخر ، لدرجة ان جميع الموجودين بين باب المعظم والسيد سلطان علي وأصحاب الدكاكين والمصالح يعرفون الخبر نفسه . وتوفيق من سكان محلة الطوب في باب المعظم . وفي آخر أيامه صار وكيلًا لقبض الرواتب التقاعدية للعجائز والمسنين ، الذين لا يقدرون على مراجعة دائرة التقاعد ، التي كانت عبارة عن غرفة واحدة في شعبة المحاسبات في وزارة المالية ، ويديرها السيد محمد حسين النواب ، والد الدكتور ضياء النواب ، حيث كان عدد المتقاعدين قليلًا جداً . وبهذه الوكالات استطاع توفيق أن يلتقط من الأخبار التي كان يحصل عليها من البيوت ما لا يستطيع أحد التقاطه . لذلك أطلق عليه أحد الصحفيين لقب توفيق أبو هافاس (هافاس هي وكالة الأنباء الفرنسية) . وكان توفيق بسيطاً حسن السلوك يقضي حوائج الناس بقدر ما يستطيع . وكان رجاؤه ووساطاته لدى المسؤولين الكبار في الحكومة لا تُرَد .

ثانياً : جاسم أبو الهبزي ، وعرب وأحمد بنية :

وهؤلاء الثلاثة يشتركون في شيء واحد ، هو إدعاؤهم بما ليس فيهم . فجاسم أبو الهبزي يدّعي بالمراجل والشقاوة ، وكلما تحصل جريمة قتل ، يتردد على المقاهي ومراكز الشرطة ويسأل إن كان قد ذُكر اسمه في قائمة المشبوهين . وكان

يصادق المشهورين من الأشقياء ، مثل ابراهيم الاسود ، والحجي شاكر الخياط . وقد نال من التوقيف والضرب ما لم ينله أحد . ويساق الى المحاكم ، ولكنه يخرج بريئاً لعدم وجود أي دليل ضده . ولكنه لم يرتدع ويعود الى ادعاءاته الى ان تم توقيفه في حادث مقتل أحمد الشنان في باب الشيخ من قبل الحجي شاكر وعزيز الأقجم ، حيث أوقف لمدة سبعة أشهر وتلقى من العذاب ما جعله يتوب توبة صادقة . وبعدها اعتكف في بيته وقضى نحبه .

ثالثاً : أحمد بنية :

ولا أدري إن كان يقرب الى عائلته البنية المعروفة ، لكن اسمه كان أحمد بنية . كان يلبس آنذاك العرقچين وحده ويرمي اليشماغ باهمال على كتفه الأيمن ويمشي مسرعاً في شارع الرسيد باسماً متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال ، يسلِّم على الناس أو الناس تسلِّم عليه ، ويسمع عبارات (استريح أبو شهاب) ، وجوابه الدائم (لا والله عندي شغل مهم) . ولكن الحقيقة أن لا شغل لديه . وكان يوجد بالقرب من محلات وقوع الجرائم داعياً من الله أن يُتهم ، ولكنه لم يُتهم . وقد يبالغ في بعض الأحيان ، ويقول واليشماغ في يده دلالة على الارتباك (والله ما كو شي بس شوي جريبنا إذنه) . أي أشبعناه ضرباً ورفساً . والناس يعرفون أن لا صحة لكلامه . ومع ذلك فقد كان محبوباً عند الناس يتمتعون بأحاديثه عن البطولات والمراجل ، لكنه لم يشتهر عنه انه آذى أو اعتدى عليه .

رابعاً : عرب :

صاحب مقهى باب المعظم ، فقد كان من طراز آخر . فهو نفاج نفاخ لا يدّعي البطولات والشقاوة ، لكنه يدعي بالحلول السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يقدمها لكبار القوم . فيقول مثلاً انه كان مدعواً للعشاء عند الملك فيصل الأول ، وقدم له النصائح في كيفية حكم العراق . أو ان المندوب السامي البريطاني المستر هنري دوبس قد زاره في منتصف الليلة الماضية وشرب عنده الشاي . أو ان المسل بل قد عشقته وراودته عن نفسها ، ولكنه رفض ذلك بكل إباء احتراماً للحجي ناجي . وكانت هذه الأحاديث اللطيفة الفكهة تجعل مقهاه ، منتدىً لكثير من الأدباء والظرفاء في بغداد يتمتعون بالخيال الساحر لصاحب المقهى وسخريته من الأحداث ، كما كان يعرف وباصرار شديد كل مرتادي قهوته . فإن لم يكن يعرفه فانه يقدم له الشاي أو

الحامض مجاناً ويبدأ حديثه معه (بلا صغر بيك منو جنابك) ، ذلك ان قهوتي هي للأصدقاء والمحبين وستكون أنت أحدهم . وبحديثه المعسول جلب الناس اليه وكثر المريدون . أما ابنه ، فقد فتح مقهى في كمب الاعظمية وسمّاها قهوة عرب بأسم أبيه المرحوم . ولكن شتان ما بين الآب والابن .

خامساً : شيخان العربنچي :

هو أشهر عربنچي في بغداد حتى الخمسينات يوم انقرضت العربانين (الربل) تقريباً من شارع الرشيد ،ومات شيخان معدماً فقيراً ، واشتهر بـ (الزيق) الذي يخرجه من فمه . وقد واجهت شيخان في الثلاثينات واعترف لي بأنه من مواليد قرية (سركلو) في السليمانية ، وكان ميسور الحال ومن عائلة طيبة وله عائلة محترمة ، ولكن الزمن جفاه ونكبه بماله وعياله ، وجاء الى بغداد في أوائل العشرينات . ولما كان من مريدي الطريقة الطالبانية ، فقد التجأ أول مجيئه الى تكية الطالبانية في الميدان بجوار جامع المرادية . وكان بين الجامع والتكية اصطبل للعربانين ، وصار يجتمع الى العربنچية واشتغل معهم بأجرة كانت تكفيه للعيش في ذلك الزمن . وتعلّم المصلحة بصورة جيدة وصار (عربنچياً) ، وأصبح شاطراً جداً في اخراج (الزيق)(*) من فمه . كما اشتهر بذلك كل من جعفر العسكري رئيس الوزراء حين ذاك . ولفتة العبد ربيب السيد كامل الخضيري . ولما كان شيخان قد عرف الشاعر الكردي الكبير الطالباني واشتهر بشعر الهجاء باللغات العربية والتركية والكردية ، وتعلّم منه ان الحياة لا تساوي شيئاً وان الدنيا فانية وان عقوبة نكد الزمان هو الاستهتار بالزمان . وأخذ الناس يتحرشون به ويتحرش هو بهم ، وقال لي ان الناس يحاولون السخرية مني ولكني أنا الذي أسخر منهم ومن دنياهم . وها ان ابنتي متزوجة من أحد الرجال المعروفين في بغداد (ضابط معروف في الجيش) ، ولكني أرفض أن ألقاه وأرفض أي منّه من أحد . ولا أقبل إكرامية زائدة عن الحد عند نقل الناس في العربة من محل الى آخر . وهكذا فقد ألقى عليّ محاضرة في الحياة والناس . ولما سألته حين بدأنا في الافتراق ما هو موقفه مني : أجابني (بزيق) طويل من زياقته المشهورة ، رحمه الله . ومات فقيراً معدماً ودُفن في مقبرة باب المعظم باعتباره غريباً من الغرباء .

سادساً : عباس حلاوي :

وعباس هذا كثير الصنائع ، قليل الرزق . أهم أعماله اعلاناته في باب سنترال سينما قرب تكية البدوي عن الفيلم الذي يُعرض وعن المسلسلات الكوميدية وغير الكوميدية ، وهو صاحب القول المشهور (الليلة عدنا تبديل) أربع مناظر . ستة أدي بولو . اثنين طرزان . اثنين جاكي كوكان .وهي المسلسلات التي كانت تُعرض في ذلك الزمان . يساعده في الصياح في باب السينما ، حسقيل أبو البالطوات (البالطو : هو المعطف الشتوي) ، والذي يشتغل بعد ذلك في الليل بالفصول الهزلية التي كان يقدمها جعفر آغا لقلق زاده في ملاهي بغداد في محلة الميدان . وإذا لم يكن لعباس رزق في أحد الأيام ، فانه يركب العربة مع جوقة من الاولاد الصغار ، وقد صبغ وجهه بالأحمر والأخضر للاعلان عن أي شيء أو بضاعة مكلف بالاعلان عنها مصحوباً بالرقص والتصفيق . وكان يختلق البستات والأغاني ووراءه الصبيان مخترقين شارع الرشيد من الميدان حتى شارع باب الشيخ . وقد استخدمه بعضهم للسخرية من أحد الناس المعروفين بغرض التشهير . وقد نجح في المرة الأولى ، إذ شهَّر بأحد التجار ، ولكنه في المرة الثانية ، وقد شهَّر بأحد الروزخونية فنال جزاءه ونُقل الى المستشفى لمداواة جروحه ولم يعد اليها ثانية ، بل لم يرَ وجهه في بغداد مرة أخرى ، حيث اختفى والى الأبد .

سابعاً : دعبول البلّام :

أشهر بلّام في بغداد خصوصاً أيام الصيف ، حين ينزل الناس بالزوارق الى شاطىء الگاورية ترفيهاً عن النفس وأكل السمك المسگوف . وهو قارىء جيد للمقام العراقي وفكه ظريف ، وقد كفانا الأستاذ يوسف العاني مشقة الكتابة عنه تفصيلًا . فقد جاء ذلك في تمثيليته المشهورة (دعبول) .

ثامناً : شفتالو :

وهو قزم إيراني أقرع يتظاهر بالبله ويشتغل في مقهى حسن عجمي ، يسقي الماء ويقوم ببقية أعمال القهوة . وكان يعرف جميع روادها معرفة تامة . فهو يتساءل دائماً وبطريقة خبيثة عن أسمائهم وحسبهم ونسبهم ، ونقائهم وفضائلهم . وكان له صديق حميم وآخر عدو مبين . أما صديقه فهو القزم المعروف (خليلو) المشوه الخلق ، العارف جيداً بالمقامات العراقية والأغاني العراقية وغير العراقية .

والمعتاش على الصدقات والإكراميات من عارفيه والفنانين والفنانات ، وقد ظهر على شاشة التلفزيون العراقي في يوم من الايام ، مقلداً مختلف الاغاني ، كشخصية بغدادية غريبة متصلة بالفن ، برغم مظهره الخارجي . أ.ا عدو شفتالو اللدود ، فهو المرحوم حسن حراسة ، وكان يخافه خوفاً شديداً ويرتجف لمجرد ذكر اسمه . وحين يقترب حسن من المقهى بطريق المصادفة ، فإما أن يهرب شفتالو الى دربونة بيت الشابندر القريبة من المقهى وإما ان يختبىء في (الأوجاغ) ، بحماية حسن عجمي . والسبب في ذلك هو ان المرحوم حسن حراسة قد اشتهر بالمراجل والشقاوة ، وقد ألصقت به تهم قتل سياسية ، مثل مقتل الكوميسير اليهودي سلمان أفندي ، ومقتل وزير الداخلية توفيق الخالدي ، برغم كونه ملتزماً للحراسة . ولكن التحقيق الطويل الذي أجري معه لم يثبت انه قام بعمل من هذه الأعمال .

تاسعاً : الحاج خليل ابراهيم القهوچي الكروي القيسي :

وكان في صباه قهوچياً في قنبر علي مع أبيه . وأول ما بدأ عمله مستقلًا كان في المدرسة الثانوية المركزية في النصف الثاني من العشرينات . ثم انتقل الى دار المعلمين في الثلاثينات ، وبقيَ هناك حتى استأجر المقهى من الأوقاف في محلة الخشالات على شارع الرشيد . لقد كان خليل القهوچي مثلًا للكرم وحسن السلوك واللطف في المعاملة . واستمرت صداقاته الوثيقة مع جميع الذين عرفوه من طلاب الثانوية ودار المعلمين ، حتى بعد تخرجهم وإشغالهم الوظائف في الدولة ، المهمة منها وغير المهمة ، وخصوصاً ضباط الجيش . وبقيت علاقاته الوثيقة معهم قائمة حتى تقاعدهم من الخدمة . وصارت قهوته مركزاً للاستعلامات ومحطة للبريد والحوالات والأمانات ما بين بغداد والمحافظات . فقد كانت أكثر عناوين الرسائل وعناوين الحوالات المالية ترد وتصدر بواسطة قهوة خليل .

وقد اعتاد رواد القهوة ، كما اعتاد هو أن يترك التخت مع صينية الواردات مباحة للعموم ، حتى ان أخاه سلمان ، وهو من أم يهودية تزوجها أبوه في قنبر علي ، كان سلمان هذا يترك الصينية تحت رحمة كل مَنْ يجلس على التخت . وجاء في يوم من الايام أحد المزاحمين في المزاد الذي أقيم في مديرية الاوقاف العامة لاستئجار المقهى وزاد على الحجي في الإيجار ، فاستنكر خليل ذلك واستأجر مقهىً آخر بجوار المقهى الاول . ولكنه لم يستأنس في هذه المقهى وركبته الحسرة والكآبة وترك العمل نهائياً وتوفي الى رحمة الله .

الطب في بغداد

بالنسبة لنا نحن سكان الكرخ كان الطب الحديث غريباً علينا ولا نعرف عن الأطباء والطبابة شيئاً إلا في الأحوال الاستثنائية ، وأخيراً عرفنا الطبيب المسمى (أبو فينة) ، لانه كان يلبس الطربوش ، وهو إيراني الجنسية . كما عرفنا الدكتور نظام الدين وميرزة يعقوب ، وبدأ الناس يعبرون الى جانب الرصافة لمراجعة الاطباء ، وأشهرهم الدكتور مظفر البكتاشي ، وكان محله في الدنگچية (شارع المأمون) ، والدكتور اليهودي صموئيل اداتو في رأس القرية ، ساحة الغريري ، والجراح الدكتور الحجي كاني . ولم تكن كلمة الجراح تُستعمل ، بل يقال (اوبراتو) ، أي الذي يعمل العمليات ، والدكتور عبدالرحمن المقيد ، طبيب العيون ، والأسطة ناصر للأسنان ، والدكتور سامي سليمان ، صاحب اللوحة المشهورة : (سامي سليمان طبيب العيون والأبدان) وعيادته جوار الصيدلية الإسلامية في شارع المأمون ، وفي محلة الهيتاويين ، قرب العباخانة ، دكتوران ، هما داود نسيم ، والدكتور الأيراني ارسطو . وكان يداوي بالحشائش والأعشاب التي يستوردها من إيران ، أو يشتريها من سوق العطارين ، أو من المزارع الصغيرة حول بغداد ، ثم يخلطها ويطبخها بالقدور ويعالج بها المرضى .

أما الأطباء الإنكليز ، فكانوا الدكتور ودمان ودنلوب ، وسندرسن وهيكز . وفي المستشفى الملكي المسمى خستخانة (المجيدية) ، دار التمريض المسمى (نرسينك هوم) ، وتديره بسيطرة بالغة المس كينكستن العجوز الشمطاء ، وكانت أجرة الليلة الواحدة في النرسينك هوم ، عشر ربيات ، عدا أجور الأطباء ، وتقدم للمريض السعيد بوصوله هناك كل أنواع الأطعمة والخدمة لقاء هذه الربيات العشر . وكان الدكتور الحجي كاني يجري العمليات في البيوت حين الطلب ، وقد أجرى عملية البواسير لاخي الكبير السيد شاكر في البيت بأجرة مقدارها (١٥٠) ربية . ثم توالى وصول الأطباء العراقيين وعرفناهم وصرنا نراجعهم لبعض أمراضنا ، أو لزرق الأبر

ضد الملاريا . ومنهم الدكتور هاشم الوتري ، وعبدالهادي الپاچهچي ، وتوفيق رشدي وصائب شوكت ، واسماعيل الصفار ، وجوبانيان ، وجلال العزاوي وغيرهم . أما الدكتور حنا خياط الذي صار وزيراً للصحة ، والدكتور داود الچلبي ، فقد انصرفا الى الأدب والتأليف أكثر من انصرافهما للطب . وحين تفشى مرض الطاعون ، وزع الجيش البريطاني مصائد الجردان على البيوت ، وأجبرنا على الذهاب الى بيت المختار للتلقيح . أما الذين أُصيبوا بالمرض أو المجذومون ، فقد أخذوا الى مستشفى العزل في الكرخ ، الذي هو الآن (مستشفى الكرامة) ، والأمراض البسيطة كان علاجها الأعشاب الطبية ويصنعها المجربون من الناس أو العطارون الذين يقومون بتحضيرها . وكانت هناك امرأة اسمها رخيته تسكن في الجادرية وتشتهر بخلط الأعشاب والمداواة بها ، مثل البابونج ، وورد لسان الثور وعنب الثعلب والخوبيا وبذر الكتان والسنامكيْ والجكروتي وحب السفرجل وغيرها من الأعشاب . أما الجراحات البسيطة فيداويها الحلاقون ، ومن أهم مراهم الجروح ما يسمى (مرهم بومباي) ، وهي عجينة يجلبها القادمون من الهند لمداواة الناس بها كسباً للأجر ، وقد جلب أخي قطعة كبيرة من الهند في سنة ١٩١٩ ، عندما عاد وأحضر معه ماكنة خياطة سنجر ، وكانت من الأعاجيب في الكرخ . وفي الكرخ أيضاً امرأة مسيحية لها خبرة في التمريض والمداواة اسمها أُم سلمان ، وهي أُم الممرضة المعرفة مركريت ، الممرضة عند صائب شوكت . أما الكي ، وهو آخر الدواء ، كما يقال ، فله أهله المختصون وأشهرهم هو المرحوم محمد الوني العكيلي ، وهو جد الدكتور صلاح عبدالله طبيب الأسنان ، ولا أدري ، إن كان يعرف ان جده محمد كان الكاوي الأشهر بجانب الكرخ ، أو لا يعرف . أما الحجامة فيقوم بها الحلاقون ، أو بعض النساء الماهرات في مص الدماء من رقبة الشخص بواسطة الكأس من خلف الرقبة ، كما كانوا هم الذين يضعون الدودة ماصة الدماء (العلق) ، كدواء لارتفاع ضغط الدم . أما التمائم والتعاويذ وطب الملالي ، فهو منتشر والاعتقاد فيه قوي عند الناس . واشتهر من الملالي ابن ملا جواد ، وابن شيخ گمر ، الذي سيق الى المحكمة في سنة ١٩٢٩ ، لتسببه في موت التلميذ بالثانوية المركزية صبري درويش ، وكان قد أصيب بالتيفوئيد وارتفعت حرارته وصار يهذي ، فتصورت أمه الجاهلة الفقيرة الحال ان شيطاناً قد ركبه فأودعته الى ابن شيخ گمر ، ليستخرج الشيطان ، وسخّن (طاوة الدهن وجعل يكوي بها رأسه ليهرب الشيطان) . فقضى صبري نحبه ،

وذهبنا نحن طلاب الثانوية مع مديرنا طالب مشتاق لتشييعه . أما ختان الأولاد ، فهو من اختصاص الزعرتية ، وهم من منطقة (سعرت) على الحدود العراقية التركية ، وهم معروفون بألبستهم الخاصة وحقيبتهم اليدوية . وكان اليهود يزاحمون الزعرتية في ختان الأولاد ، لأنهم أكثر مهارة منهم . ولكنهم يتساوون في نقل الأمراض الى الصبي المختون لوساخة أدواتهم وعدم تعقيمها . واليهود كما هو معلوم لا يؤخرون ختان الأولاد كثيراً و[illegible]ا يتم في السنة الأولى . وليس في العراق عادة ختان البنات مثل مصر والسودان والصومال ، أما الكولنج ، وهو التيفوئيد ، فدواء الأعشاب الطبية ، ابتداءً من البابونج الى نهاية القائمة ، ويقال للسرطان (الآجلة) ، ويعتقدون ان كبد الأطفال وقلوبهم هي الدواء الناجح له ، لذلك كان الناس والأمهات خصوصاً ، يخافون من الخناق الذي يخنق الأطفال أو يسرقهم لاستخراج أكبادهم أو قلوبهم . أما الكسور فانها تُعالج عند (المجبرچي) ، وأشهرهم في بغداد الأسطى محمد الصفار ودكانه في وسط سوق الصفافير ، والحاج خليل الكردي في محلة الصدرية . أما طب النساء ، فالقابلات يقمن بالواجب ، وإذا استعصى الأمر وعسرت الولادة فان المؤمنين يصعدون الى المنابر ويهتفون (يا قريب الفرج يا عالي بلا درج عبدتك بشدة وتطلب منك الفرج) . الى ان تلد ، أو تموت . وكان اليشتمال الأحمر علاجاً لمرض الحصبة مع التجوال بالمصاب في الأزقة والدرابين .

ومرض التراخوما والحبة في الجفون ، ويقال لها (حدقدقه) ، فدواؤها أن تُباع الى يهودي ، سواء كان متجولاً أو صائغاً في سوق الصاغة .

أما أمراض الحساسية والآلام الداخلية عند المرأة ، وتسمى مرض الحرارة ، فتداوى بالعشبة والچوبچيني ، وهي أدوية خاصة بالنساء ، فلا يستعملها الرجال . والعشبة أغصان صغيرة يابسة مبرومة بشكل لفات . أما الچوبچيني ، فقطع صغيرة من خشب الأشجار ، وكلاهما ينبت في الصين ويُستورد منها ، وطريقتها ان تُغلى على النار ويؤخذ ماؤها ويودع في القناني ويُشرب بدل الماء ، بشرط أن لا يقوم أي أحد بازعاج مَنْ يتعاطى هذا الدواء ، لانه (يقلب) ، أي ان الآية تنقلب على عكسها وحصل الضرر بدل النفع .

وهناك سوائل أخرى تُشرب مثل ماء الخرنوب (خرنوب الزرفية في قضاء الهاشمية أحسن وأكبر أنواع الخرنوب) ، وماء الجبن ، وهو الماء المتبقي من عمل الجبن من حليب الماعز ، والشاتِرَك والكُبَز ، كل هذه تنفع في علاج الأمراض الباطنية

والنفسية ، والتي يُطلق عليها (الحرارة) . أما الصيدلية الإسلامية لسامي سعدالدين بشارع المأمون ، وصيدلية ربيع في جامع مرجان ، وصيدلية الشفاء لصاحبها الياس دنكور . وكانت الصيدليات تصرف الدواء بالتحضير على وفق النسب التي يكتبها الطبيب في الراشتة ، لان الأدوية الجاهزة قليلة جداً . وفي الصيدلية ميزان وهاون لسحق الأدوية ومغلفات ورقية للكبسولات وقناني . والصيدلي هو الذي يداوي العيون بالقطرة أو يزرق الأبر لمَنْ يحتاج . فليس هناك معتمدون متفرغون.

أما المستشفيات ، فلم يكن هناك غير مستشفى المجيدية (الملكي) ، وهو مدينة الطب حالياً . وقد بنيَ في الأساس لاقامة شاه إيران وحاشيته أثناء زيارته لبغداد والعتبات المقدسة ، وأهم جناح فيه النرسينك هوم ، أي دار التمريض الذي تديره المس كنكستن المتسلطة على المستشفى وأطبائه ، والتي لا يُرد لها طلب ، والراقدون فيه يلقون العناية والخدمة والغداء الفاخر بأجرة قليلة رمزية ، يساعدها في ذلك ممرضات (الماسيرات) . وفي مدخل المستشفى جناح الأمراض العصبية ، ويديره سعيد الملا رجب ، يعاونه الأرمني سيروب صاحب الشاربين المخيفين ، حيث يخافه الأطباء والمرضى ومدير المستشفى نفسه . فكان سيروب مثال الرعب في هذا الجناح . أما علاج الناس ، فكان في الجناح المقابل لجدار القلعة ، وفيه تداوى العيون والجروح والأمراض التناسلية وقسم الأشعة والتحليل . والمستشفى الآخر ، هو مستشفى المير الياس الذي تبرع بإنشائه الثري اليهودي مير الياس ومحله في العلواظية ، ولم يزل قائماً ، وكان كاملاً ونظيفاً وواسعاً ، والطائفة اليهودية المسؤولة عن إدامته وإدارته . أما مستشفى الغرباء في الكرخ ، فقد بطل استعمال وانقلب الى مقر لمجلسي النواب والأعيان ، وفيه صُدِّقَتْ المعاهدة العراقية البريطانية في سنة ١٩٢٤ ، وصدّق على الدستور . وفي الكرخ مستشفى العزل في محلة الاضرولي (محلة الذهب) ، وهو مبنى من الطين ومسور بالاسلاك الشائكة ، وعُزِلَ فيه المصابون بالأمراض السارية ومرض الجذام ، وقد قام في محله مستشفى الكرامة . وهناك مستشفى آخر لليهود تبرعت بانشائه لورة خضوري ، وهو بأسمها ، وآخر بأسم مسعود شنطوب ، وهي أقرب الى المستوصفات ومحلات التداوي . وهناك مستشفى صغير عسكري في تكنة الخيالة في باب المعظم لم أدخل اليه لأعرف ما فيه . أما المستشفى العسكري الكبير في الهنيدي (معسكر الرشيد) ، فهو خاص بالبريطانيين . كانت المدارس الحكومية تأخذ طلابها الى المستشفى لمداواتهم من

مرض التراخوما أو الإسهال أو الأمراض البسيطة . وفي أواخر العشرينات كثر الأطباء في بغداد ، واشتهر منهم طبيب يسمى الألماني ، وهو ماكس ماكوفسكي ، واتخذ عيادته في شارع الاكمكخانة (المتنبي) ، وتزاحم الناس عليه ، واشتهر كذلك بزوجته الحسناء . ثم انكشف أخيراً وظهر انه دجال ، فترك العراق هارباً ، ثم جاء بعده الدكتور ماكس كروباخ ، وكان طبيباً ناجحاً ، هو والدكتور (هوف) طبيب الأمراض العصبية المشهور وأستاذ الطبيب العراقي جاك عبودي . أما في الطب العدلي والتشريح ، فكان المشهور الدكتور حنا خياط ، الذي ألَّفَ كتابه في الطب العدلي ، ثم جاء تلميذه الدكتور القيسي ، الذي بقيَ زمناً طويلًا يشغل وظيفة الطبيب الشرعي ، يعاونه رئيس عمال التشريح ومسؤول التكفين ودفن الموتى الملا عبد الكرخي .

أما أمراض النساء والتوليد ، فالمشهور هو الدكتور جورج حيقاري ، والدكتور شاكر السويدي ، الأخ الأصغر لناجي السويدي وتوفيق ، ولكنه نُقل الى العمارة في أوائل العشرينات ومنع اشتغاله في بغداد . ولعدم وجود كثير من أطباء التوليد النسائية ، فقد كان موت النساء بمرض النفاس أمراً طبيعياً ، لأن الحوامل والقابلات (الجدات) لا يقدِّرن قيمة النظافة والعناية حقَّ قدرها ، ولا يعرفن كيفية التعامل مع الأطفال أيام الولادة الأولى وكيفية العناية بهم ونظافتهم ، كما لا توجد تلقيحات ضد أمراض الأطفال ، عدا التلقيح ضد الجدري ، وهذا كثيراً ما يُهمل أيضاً ويُترك الطفل للقدر والى عناية الله . وكانت أمراض الأطفال مثل الشلل والصرع واليرقان (أبو صُفَار) والإسهال تفعل فعلها وتقضي على كثير من المواليد ، حتى وصلت اللقاحات أخيراً . أما مرض الحصبة وأُخت بغداد المشهورة ، فقد بقيت علّة مستعصية .

مهن وصنائع اندثرت أو كادت

كانت في بغداد بعض المهن والصناعات اليدوية البسيطة التي كانت تناسب ذلك الزمن . وقد اندثر أكثرها أو كاد ، نظراً لتبدل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، ونذكر منها على سبيل المثال :

أولاً : خياط الفرفوري :

وقد كانت ظاهرة معروفة في بغداد واندثرت الآن ، ولم تكن محلّة من محلات بغداد مَنْ لا يسمع فيها نداء : (خياط فرفوري ، خياط فرفوري) . والخياطة محصورة بخياطة قواري الشاي ومواعين الفرفوري الصغار منها ، والبلام المستطيلة و (الألفي) ، وهو الماعون الفرفوري المدور العميق الذي يُستخدم للمزق وللتمّن . أما البلام ، فهي للتمّن فقط ، لأنها مسطحة وليست عميقة .

وعدة الخياطة عبارة عن قوس ووتر ، ومزرف رفيع (مثقب) يُربط بالوتر ليسطيع حفر حفرة صغيرة في حافتي الإناء مع أسلاك معدنية رفيعة تشبة أسلاك الأطباء الجراحين لخياطة الجروح (كلييس) وكمية من البورك الممزوج بالمادة اللاصقة . وبعد ان يضبط انطباق حافتي الكسر يقطع من الإكلييس ما يكفي لايصال الفتحين اللتين عملهما في القوري أو الماعون ، ثم يطلي الإكلييس بالبورك اللاصق وينتظر حتى يجف ، ليبدأ بالتنعيم بواسطة ورق السنبادة . وإذا كان الكسر كبيراً فتربط الحافات بعدة اكلييسات .

لقد كان هؤلاء الخياطون من الإيرانيين المنتشرين والمقيمين في الكرخ ، ولهم دربونة خاصة في محلة الدهدوانة بجامع عطا اسمها (دربونة العجم) . وكان من جملة سكانها أقارب الفنان عزيز علي . ومن أسباب تجمعهم في الكرخ هو قربهم من الكاظمية وسهولة وصولهم الى المراقد المقدسة في كربلاء والنجف .

وهكذا فان بيت القنصل الإيراني في بغداد (الاليجي) كان في جانب الكرخ ، محلة الشيخ بشار وقصره مطل على دجلة بجوار بيت الدكتور ضياء جعفر ، والذي

دخل الآن في بناية مستشفى الكرخ للولادة . كما كانت مدرسة (شرافت إيرانيان) بجوار محطة تراموای الكاظمية في سوق الجديد . وفي العشرينات لم يكن قد صدر قانون الجنسية العراقية ، إلا في سنة ١٩٢٤ ، بموجب معاهدة لوزان ، وبعد تنفيذ القانون أعطيت جنسيات عراقية كثيرة للأرمن والآثوريين ، على وفق خطة مدروسة متعمدة وضعها الميجر (ويلكنز) مدير التحقيقات الجنائية ، ومفتش الشرطة الأقدم (بريس كوت) ، وعينوا الضابط العراقي عبدالسميع جويدة ضابطاً للجنسية ، فمنحوها لمَنْ شاؤوا ومنعوها عمَّن شاؤوا .

ثانياً : الصبابيغ :

وهم صابغو الألبسة ، ولا تخلو محلة من محلات بغداد من صباغ للألبسة أو غزول الصوف . وكانت عدة عملهم (خُنْب) كبير . ذلك ان البستوگة الكبيرة تسمى (خُنْب) ، وتوضع فيه الأصباغ المختلفة . لذلك كان دكان الصباغ طويلًا ليتسع لأخناب كثيرة على عدد الأصباغ .وتوجد في الدكان عدة تختات من الخشب ومطارق خشبية أيضاً . فبعد اخراج الملابس من الخُنْب مصبوغة تُطرق بالخشب على هذه التختات . ثم تُنشر على الحبال لكي تجف ، وتُعاد العملية ثانية ، لكي تتشبع بالأصباغ ويثبت اللون . وكان أكثر الألوان استعمالًا هو الصبغ النيلي الأزرق . فدشاديش العمال وأصحاب المهن تُصبغ بهذا اللون لكي تتحمل الأوساخ ، كما هو الحال في بنطلونات (الجينز) في الوقت الحاضر . وكانت الأصباغ تستورد من الهند والصين ومن أوروبا في بعض الأحيان . وكانت ترد بعلب التنك الصغيرة ويبيعها اليهود في سوق الشورجة . ومن أشهر البائعين (شوعة سموحة) . أما صبغة النيل ، فكانت تُستورد ، إما من خوزستان ، وإما من الهند ، بصناديق خشبية مستطيلة تشبه التابوت ، وتتكون من قطع صغيرة من الاحجار . وحين الشراء يُكشف عن هذه الصناديق وتُكسر بعض أحجار الصبغ ، للتأكد من صفاء اللون ونقاوته . وكان أشهر مستوردي هذه الأصباغ هم عائلة السيد حسين يحيى ، وكانوا يسكنون الزقاق الموصل بين شارع الدنگچية (المأمون) وشارك الاكمكخانة (المتنبي) ، خلف المتحف العراقي . وكانت دائرة المتحف الإدارية قد أُستقطعت من دورهم . ومعروف ان في بغداد محلة كبيرة مشهورة ، هي محلة (صبابيغ الآل) ، أي محلة الاصباغ الزاهية .

ثالثاً : القواصيص :

وهم الذين يقطعون الطابوق الفرشي المربع الى نصفين لاستعماله في البناء ، إذ لم تكن كور الطابوق في بغداد تنتج أنصاف الطابوق ، لذلك فواجب القواصيص ، كما كانوا يُسمون ، قص الطابوق الى نصفين وآلة عملهم خشبة طويلة توضع على الأرض عليها كرسيان ثابتان ، واحد منخفض ، والآخر عالٍ ، يجلس العاملان عليها وأمامهما على الخشبة أيضاً خشبتان قائمتان بعلو متر واحد بينهما فتحة عرضها إنجان وتوضع الطابوقة على هاتين الخشبتين ، ويكون نصف الطابوقة مواجهاً للفتحة . ويبدأ العامل الجالس على الكرسي المرتفع بدفع المنشار الخاص بالطابوق ، وهو منشار طويل عريض . ثم يستقبله العامل الآخر . وهكذا بين أخذ ورد تُقطع الى نصفين . أما التراب المتساقط من قطع الطابوق ، ويسمى السكري ، أو تراب الطابوق ، ويُستعمل لتنظيف القدور النحاسية من الدهون العالقة أو الزنجار ، ويُستعمل الخشن منه أو القطع المكسورة لتنظيف مشربيات الماء (التنگ) وحكها من الخارج .

رابعاً : حياكة الحِيَص والتِكَك :

الحِيَص هو جمع حياصة . والتِكَك جمع تِكَة . وكانت صناعة رائجة ، فلم يكن يُلبس شيء بدون حياصة (حزام) . ولا يُلبس لباس داخلي بدون تكة . فلم تكن خيوط اللاستيك متوفرة . وتُحاك الحِيَص من الحرير عادة بعرض إنجين أو ثلاثة . وقد تُزَين بصياغة من الفضة على هيئة قمر ونجوم للأولاد المدللين . أما التِكَك ، فتُحاك من خيوط القطن ومن الحرير للمترفين والمترفات ويبلغ عرضها سنتمتر واحد . ومن العادة ان تُوضع (كركوشة) في طرفي التِكَة لجمال الشكل ، أو لمنع انزلاق التِكَة الى داخل البيت . وكانت الكاظمية وباب الشيخ مركز لحياكة الحيص والتكك . وتُباع عادة في سوق (الجايف) ، خلف جدار خان دلة ، حيث تُباع الآن المناشف والخاوليات .

لقد كانت بعض الأمهات تطلب من حايك الحياصة ان تكون متينة النسيج وباللون الاخضر ، ويزينها بنجوم وأقمار فضية في أحد طرفي الحياصة ، حيث تُربط الجهة بالأخرى . ويجب أن تكون هذه القبة في منتصف البطن ظاهرة للعيان للتباهي والتفاخر ،مع تعليق بضع سلاسل فضية قصيرة . وكنا نستعمل هذه الحِيَص سلاحاً في معاركنا التي كنا نخوضها بين محلة وأخرى أو زقاق وآخر . ويتجمع بائعو

الجيَص في السوق الواقع في نهاية جدار خان دلة ، مقابل الباب الخلفي لخان مرجان . كما يُباع في السوق نفسه العرقچينات ، وبيع العرقچينات مهنة رابحة . فجميع لابسي الچراويات والعقال واليشماغ ، وهم الأكثرية الساحقة من السكان ، محتم عليهم لبس العَرَقْچين . لكي لا تنزلق الچراوية أو العقال ، فهو الذي يثبت اليشماغ على الرأس . والعرقچينات أنواع ، شتوية مبطنة ، وصيفية عادية أو مخرمة . وقد تكون بيضاء أو ملونة ، حسب ذوق الحائك واللابس ، وأعمار ومهن مَنْ يلبسه . أما عرقچينات الأطفال ، والتي تسمى (گاورية) ، فتُخاط بأشكال متعددة مع الكشكش ، وتعليق الدلاعة أو السبع عيون في مقدمة الگاورية ، منعاً للحسد واصابة العين ، وليس لبيع العرقچينات سوق خاص ، بل تُباع في جميع الأطراف ، لأن الطلب عليها لا ينقطع ، علماً بأن كثيراً من النساء يصنعن هذه العرقچينات في بيوتهن ويبعنها لأصحاب الدكاكين ، وتلك مهنة رابحة ولطيفة .

خامساً : الطمّاسون ونزاحو البلاليع :

كانت الآبار موجودة في كثير من البيوت البغدادية ، وكانت الحاجة تستدعي مَنْ يستطيع النزول الى البئر لالتقاط ما يقع من الأشياء الثمينة ، أو التي لا يستطيع (الچنگال) التقاطها . أو حين وقوع أحد الأطفال في البئر ، وكثيراً ما يحدث هذا إذا كانت البئر غير مغطاة . وكان على كل بئر (سربس) خشبي معلّق عليه الحبال اللازمة لاستخراج الماء من البئر للرش ، أو بقية الاستعمالات البيتية . كما يوجد چنگال لالتقاط الالبسة أو الحاجيات الأخرى التي تسقط بالبئر . أما في سقوط الطفل في البئر ، فينزل أحد الطماسين الذين يتجولون في المحلات والأزقة ، وهم ينادون (طمّاس بير ، طمّاس بير) . ولكل طماس بير معاون يرافقه . وينزل الطماس والفانوس معلّق على رقبته على مدرج حائط البئر حتى يصل الى قاع البئر ، حيث الطفل . ومن النادر أن يغرق أحد الأطفال في البئر ، لأن مياه البئر ليست عميقة . أما معاون الطماس ، فواجبه أن يسحب الطفل بواسطة الحبل الذي شدّه الطماس على جسد الطفل .

أما البلاليع ، فيجب أن تُنظف من الوحول (السيان) ، بأن ينزل أحد طماسي البلاليع وبيده فأس كبير يسمى (المَـرْ) ، مع طبق صغير من الخوص لرفع السيان من أرض البالوعة بواسطة المعاون . وتنتقل هذه الأوساخ على ظهور الحمير الى أحد البساتين القريبة ، وعلى الأكثر في بستان الارضروملي ، حيث اعتاد نزاحو المياه

الثقيلة (وهم غير نزاحي البلاليع) ، رمي أوساخهم فيه مع رضا وامتنان الفلاحين. حيث تسمّد أرض البستان ، وتكون مصدراً للأمراض والأوبئة ، بسبب هذه الأوساخ. وكان من واجب نازح البلاليع بناء البالوعة وإعادتها كما كانت قبل نزوله فيها للتنظيف .

سادساً : الكندكارية ومبيضو القدور :

الكندكارية هم طراقو الحديد والنحاس بعد إحمائه بالنار لدرجة التوهج ، ويقع دكانهم في رأس الزقاق الذي يصل سوق الصفافير بشارع المأمون . وكان هذا الزقاق يسمى دربونة الدخانية ، لأن خانات التتن كانت تتجمع في هذه الدربونة.

ودكان الكندكارية واسع المساحة . ففيه الفرن الكبير والمنفاخ الضخم والسندان الحديدي . وكان ينزل اليه من السوق بأربع درجات وفيه منفاخان للهواء، منفاخ كبير مزدوج للكبس والمص ، ويقوم على إدارته شابان . ومنفاخ اخر واحد يقوم عليه نافخ واحد للكبس والمص . وعند توهج القطعة النحاسية على نار الفحم الحجري ، تسحب من الموقد بمقبض حديدي طويل ذي يد خشبية ، وتوضع على السندان الكبير الذي يبلغ طوله أكثر من نصف متر وعرضه عشرون سنتمتر.

ويفتتح الطرق رئيس الكندكارية بضربة أولى من ضرباته بالمطرقة الحديدية الكبيرة . ثم تترى الضربات من الباقين برتابة وتسلسل . وتستمر العملية حتى تبرد القطعة وتكون القطعة الثانية جاهزة ومتوهجة ، فتُسحب من النار وتُعاد البارزة الى النار .

وهكذا تستمر العملية لمدة أربع ساعات صباحاً بين النار والمطارق . ثم استراحة لمدة ساعتين ، ويبدأ عمل بعد الظهر ولمدة ساعتين فقط . ثم يتسلم العامل أجره اليومي ، ومقداره روپية ونصف ، وهو مبلغ محترم في تلك الأيام ، ويعمل هؤلاء الكندكارية لكل الزبائن في بغداد وخارجها .

أما مبيضو القدور النحاسية ، فموجودون في محلات كثيرة من بغداد لحاجة الناس الى تبييض وطلاء قدورهم النحاسية . وهناك متجولون يجمعون القدور من البيوت وبقية الاواني النحاسية ويعلنون عن أنفسهم (مْبيِضْ ، مْبيِضْ) . ودكاكين المبيضين تحتوي على حفرتين كبيرتين ، واحدة للأسطى المبيض ، يقف فيها لاداء عمله ، والثانية يقف فيها عامل التنظيف وعامل المنفاخ . ويجري التنظيف بفرك قاع الإناء النحاسي ، بمسحوق نوى التمر أو بتراب الطابوق . ثم يوضع القدر بعد تنظيفه

على النار الآتية من الفرن ، وحين يتوهج يبدأ الاسطى طلاءه بالقلاي وبعض المواد الكيماوية ، مثل النشادر والتوتيا . وبانتشار قدور الفافون خفّت هذه الاعمال وأصبحت مقتصرة على طلاء الاواني النحاسية الكبيرة جداً ، أو على الطلاء بواسطة الكهرباء .

سابعاً : الاقفال والكيلونات :

ومن أعمال الحدادين المندثرة عمل أقفال البيوت الحديدية والكيلونات التي تعني أقفال الدكاكين ، وكانت تعمل بشكل أسطواني يدخل المفتاح فيه بصورة عمودية ، حيث يفتح اللسان الحديدي داخل الكيلون . وتستعمل هذه الكيلونات عادة لإقفال أبواب الدكاكين الخارجية والمسماة (كبنك) ، وهو نصفين ، نصف يُرفع الى الاعلى ،ونصف في الاسفل ، حيث يطوى ليكون مجلساً للزبائن أو معرضاً للبضاعة ، بدلًا من المنضدة . وقد تُستعمل الكيلونات الاعتيادية المربعة في إقفال أبواب البيوت ، وقد جرت العادة أن يضاف الى القفل لسان حديدي يدخل في حائط الباب مع شنكال في الحائط زيادة في الامان ، علماً بأن الابواب تُعمل من الخشب الغليظ بطيء الاحتراق وتُدَق فيه المسامير الحديدية ذات الرأس المدور الكبير التي يصنعها الحدادون ، وتُدَق بأشكال هندسية مختلفة . وفي أعلى وسط الباب (السقّاطة) البرونزية لأجل الطرق على الباب ، إذ لم تكن الاجراس الكهربائية معروفة .

ثامناً : الحَفْ والحَجَامَة :

الحف هو إزالة الشعر من جسم الإنسان وخصوصاً النساء . وكانت تقوم به نساء تمرسن به ، وقد ذكرنا ذلك مفصلًا في موضوع المهن النسائية . أما الحجامة ، فكان يقوم بها الحلاقون أيضاً ، علاوة على النساء .

تاسعاً : اللمْپَچِيّة :

وهم العمال الذين كانوا يضيئون الفوانيس النفطية في أزقة بغداد ودرابينها ليلًا . ولكل منهم سلّمه الخشبي الصغير وخِرَق الاقمشة لمسح زجاج الفانوس مع عيدان الشخاط . ويبدأ إشعال الفوانيس عادة وقت أذان المغرب . ويأتي لإطفائها وقت الفجر ، إن لم يكن الهواء قد أطفاها ، أو ان النفط قد نفد من اللمپة ، أو ان أحد أطفال المحلة قد كسر الفانوس واللمپة بإحدى الحجارات لإظهار مهارته في إصابة الهدف . وكان هؤلاء اللمپچية يتقاضون رواتبهم الشهرية من البلدية ، علاوة على

إكراميات سكان المحلة . وبانتشار الكهرباء اندثرت هذه المهنة نهائياً .

عاشراً : النفّاطون :

وهم الذين يطلون جلود الجمال بالنفط الأسود حين اصابتها بالجرب . وهو كثير الحدوث ، أو تُطلى مقدماً خوفاً من اصابتها . وكانت أكثر جمال بغداد (الأباعر) تتجمع في جانب الكرخ قرب قهاوي عگيل في محلات تسمى خانات الأباعر ، إذ لا يسمى مربط الجمل إسطبل . وكما ذكرنا سابقاً فان جماعة عگيل كانت تمتلك هذه الأباعر لغرض النقل داخل العراق وخارجه . ومثل ما اندثرت صناعة النفّاطين توقفت صناعة كرات نخالة الحنطة لإطعام الأباعر وقت المساء . وتكون أكبر من كرة التنس حجماً وتُلقم في أفواه الجمال المفتوحة على سعتها ، وهي تجأر وتصرخ في موعد عشائها . ويكفي الجمل الواحدة ستة أو سبعة كرات من النخالة . وعند انتهاء العشاء تنتهي أيضاً أغاني أطفال المحلة المصاحبة للعشاء ، وهي : (أبو حلگ الجايف ، مو جايف ، مو جايف) . ثم يذهبون بها الى شريعة الجودي المجاورة لجامع القمرية لشرب الماء . ثم العودة الى الخانات للمبيت .

إحدى عشر : الصيارفة :

كان في بغداد صيارفة على الواقف وكلهم من اليهود ، ويقفون عادة على مدخل سوق السراي في المولاخانة ، ليستقبلوا القادمين من الكرخ ، أو يقفون في رأس سوق الشورجة ، حيث يأتي الناس للتبضع وتصريف ما لديهم من نقود ورقية أو معدنية مثل ريالات ماري تريز النمساوية ، التي كانت رائجة في العشرينات ، أو المجيديات العثمانية ، أو الليرات الذهبية بكل أنواعها ، وتصريف الپاون الذهبي الإنكليزي المسمى أبو الخيال ، حيث توجد صورة القديس جورجيوس على الوجه الثاني من الپاون .

وكان لباس هؤلاء الصرافين متشابهاً ، يقتصر على الچاكيت والصاية والنعال في الرِجل ، والطربوش في الرأس . ويحمل كل منهم في يده كيساً كبيراً وسخاً ويحمل في اليد الأخرى مجموعة من النقود المعدنية . وينتهي عملهم بعد الظهر بقليل ، حيث يذهبون الى الصيارفة الاصليين في محلاتهم ليتحاسبوا معهم على الإيراد اليومي .

إثنا عشر : الشعاعير :

ومفردها الشعّار ، وهو الراقص الممتهن . إذ لم يكن في بغداد فرق للرقص الشعبي . ولم يكن من المستحسن أن ترقص امرأة محترفة في حفلات الاعراس أو غيرها . لذلك كان يُستعان بالمخانيث أو الشاذين جنسياً ، ممّن يتقنون الرقص ويتخذونه مهنة لهم . لذلك يُجْلَبُون الى الأعراس أو حفلات الختان . وكثيراً ما كان يتقدم موكب الحفل راقص ، قد وضع الماكياج على وجهه ، ووضع الخطاط والحُمرة والديرم والشعر المستعار مع البدلة النسائية المزركشة ويرقص بين القوم على أنغام الطبل والصرناج .

وكان محل اقامته في الميدان قرب سوق الهرج . وأشهر شعّار في بغداد كان اسمه (يحيى زكريا) ، وكان يعلّم الرقص للمبتدئين من أقرانه . هذا إذا كان للمحتفل مال يستطيع دفعه للشعّار . أما إذا كان فقير الحال ، فيكتفي بلعبة كبيرة على هيئة امرأة ذات زينة ، يرفعها أحد الصبيان أو الحمالين ، ويحركها يمنى ويسرى ، تعبيراً عن الرقص وتسمى لعّابة (أي لعبة) .

ثلاثة عشر : الدلّالون وقصّاصو الاثر :

لا نقصد بالدلالين الذين يراجعون دوائر الطابو والتسجيلات العقارية ، بل نقصد الدلالين الذين يمتهنون الاعلان ويتجولون في الأزقة والأسواق منادين (وين ابن الحلال چساب الأجر والثواب) ، (وين اللّي لگه وَلَدْ صفته كذا وكذا أو نعجة أو دابة أو غرضاً أوصافه كذا وكذا والحلاوة ربية أو ربيتان) . هذا النداء تسمعه دائماً ، هو لمَنْ يفقد ولداً أو ماشية . والدلالون صنفان ، صنف يختص بالنداء على الأطفال الضائعين أو الأغراض البيتية ، وصنف يختص بالمفقودات من الحيوانات . أما قصاصو الأثر فيختصون بمعرفة آثار الدابة أو لصوص الحيوانات ، إذ يقتفون أثرهم . وهؤلاء يتسلمون أجورهم حسب الاتفاق ، سواء عثر على الدابة أو على سارقها فقط . فهو يتجول في القرى والأرياف ومضارب العشائر ، وقد انطبع في ذهنه صورة قدم السارق أو حافر الحصان ، أو خُف الجمل . وعند العثور عليه يرجع للفاقد ويقبض منه الحلاوة ، وهو شيء متعارف عليه وواجب الدفع .

وأشهر قصاص أثر في العراق كانا شخصين من أهالي الديوانية : هما لهمود ، وهدابي . وقد نالا وسامين من ألمانيا في زمن هتلر ، لانهما عثرا بطريق قص الاثر

على قاتليَ سائحين ألمانيين ، قُتلا قرب الديوانية ، وظل القصاصان يتجولان في المنطقة حتى شاهدا ، وعلى بُعد خمسين كيلومتر من الديوانية أقدام ، كانوا قد شاهداها قرب جثة القتيلين ، فألقي القبض عليهما ، ووجد بحوزتهم جوازات سفر السياح وأموالهم . وحكم على القَتَلَة بالإعدام . وحضر القنصل الالماني الى الديوانية وقلدهما الوسام . وأعطاهما المكافاة المناسبة . وقد اشتهرا شهرة كبيرة ، وعثرا على مسروقات مهمة . ثم وجهت اليهما ، بعدئذ تهديدات كثيرة . فتركا هذا العمل ، إلا بعد إجبار من الحكومة . ومع هذا فكانا يرفضان الكشف عن أسماء اللصوص . وفي أواخر الثلاثينات كان أشهر قصاص أثر في البادية الجنوبية قرب نقرة السلمان ، هو المرحوم علي الحيوم .

أربعة عشر : رشق السطوح :

كانت السطوح العليا للبيوت تُرشق بالطين المخلوط بالتبن ، ويندر أن تُبلط بالطابوق . ويكون الطين هذا خالياً من الأملاح ويسمى (تراب حُر) ، ويُخلط مع التبن الناعم خلطاً جيداً . ويُخمّر لعدة أيام في الزقاق أو على أبواب البيوت . وعلى عامل الرشق أن يمر يومياً على هذه الخلطة يدعسها برجليه لتتماسك جيداً . وكثيراً ما سقط الناس فيها ليلًا ، خصوصاً في الليالي المظلمة . وبعدها يُنقل الطين الى السطح العالي ، ويُرشق بطبقة خفيفة ويُعدَّل بالمالج ، وتكون استقامته وانحداره نحو المرزاب . وبعد بضعة أيام يُملج بطبقة أخرى خفيفة ، وتبدأ عملية الرشق في الخريف قبل سقوط الأمطار . وكانت المطرة الأولى تسد كافة الشقوق التي حصلت بعد ان نشف الطين ، وتُعاد هذه العملية كل خمس أو ست سنوات .

خمسة عشر : النقّابة والمْجَارِيّة :

النقّابة هم أصحاب الحمير الصغيرة (الشاوية) ، وقد أُطلق عليهم هذا الاسم ، لانهم كانوا ينقّبون في الارض بحثاً عن الاحجار الصغيرة أو الكبيرة (الشكنك والطابوق الفرشي) ، لغرض استعماله في البناء . وكانوا ينقلون الأتربة والاوساخ والزبل من البيوت والدكاكين . وكان لدى بلدية بغداد أعداد كبيرة من هذه الحمير . وتُنقل هذه الأوساخ على ظهور الحمير بإناء من الخوص الكبير يسمى (السابل) . وكان الزبل يُرمى فى طمة الحمّام القريب . والمهم في الأمر ان هذه الانقاض والأوساخ لا تُنقل على ظهور الحمير الكبيرة البيضـاء المسماة

(الحساوية) ، إذ تعد لدى أصحاب المهنة أكرم من الشاوية ، ومن العار أن تحمل أزبالاً ، بل كانت تحمل الرقي والفواكة ، أو الطابوق الفرشي أو سابلات التمر من البساتين الى المكابس . أو تحمل الناس ، حيث تسرج الخيول . وفي بعض الاحيان تعلّق في رقبتها القلائد وتُطلى نواصيها أو سيقانها بالحنة . وأشهر مَنْ ركب هذه الحمير المرحوم الشاعر جميل صدقي الزهاوي ، والحاج محسوب الأعظمي ، والسيد الضراع في الكرادة .

وقد استعان بعض أصحاب الحمير الحساوية بالكديش ، لنقل بعض الحمولات ، علماً بأن تكريم الحمار الحساوي ، هو لذكائه النسبي وقابليته الفطرية على معرفة المسالك والدروب . ويكفي للحساوي أن يعرف الطريق إذا مرّ مرة واحدة . لذلك قيل في المثل : (زمال السقا يندل دربه) . أما الحمير الشاوية ، فانها تضل طريقها وتظل تمشي بدون هدف . لذلك فان البغدادي يسمع مَنْ ينادي على فقدان حمار حساوي . والحساوي لا يدخل درباً لا يعرفه ، بل يقف وينتظر صاحبه . والملاحظ في هذه الحمير ان تكاثرها قليل جداً ، فأنثى الحمار الحساوي قد لا تلد في حياتها إلا مرة واحدة ، بعكس الحمير الشاوية الولودة .

ستة عشر : القصّخون :

وهو قارىء القصص القديمة ، وسوالف ألف ليلة وليلة ، وأخبار أبي زيد الهلالي ، وسيف بن ذي يزن ، وكانت لهم قهاوي وزبائن معروفين . وأشهر القهاوي ، قهوة القيصرية في شارع البنك ، وقهوة الفضل ، وقهوة التسابيل . ومن صفات القصّخون ان يكون جهوري الصوت ، عارفاً بالأحاسيس والشعور . ويعرف كذلك أين يقف لغرض إكمال قصته في اليوم الثاني ، حيث يحضر المستمعون وهم متلهفون على سماع النهايات . وأشهر القصخونية في بغداد ، هو المرحوم محمود القصخون ، والد المرحوم علي محمود الشيخ علي . وكانت عائلتهم تسمى بيت القصخون ، حيث لا يقال عائلة القصخون ، بل يقال بيت القصاب ، وبيت أبو التمن ، وبيت السويدي ، وبيت الشابندر .

هناك مهن صغيرة أخرى قد اندثرت ، ومنها القفچيّة . فلم يعد أحد في بغداد يستعمل القفة أو الحصان (القفة الكبيرة) ، سواء لعبور النهر ، أو لصيد الأسماك ، أو لنقل البضائع أو الرقي من سامراء الى بغداد . والمهنة الاخرى التي اندثرت

أيضاً ، هي مهنة مسك الثعابين في البيوت . فعندما يظهر أي ثعبان في البيت، فالناس تركض الى مَنْ يسمى (شارب طريقة) ، أي الشخص الذي لا يؤثر فيه سم الثعابين ، فيحضر لإمساك الثعبان ويأخذ مكافاته . أما إذا كان درويشاً ، فانه لا يأخذ أجراً عن ذلك ، ويعده من أعمال الخير التي لا يؤخذ عنها أجر .

سبعة عشر : النقّارون :

مهنة أخرى قد انقرضت نهائياً ، وهي مهنة النقّارين ، ذلك ان أكثر بيوت بغداد كانت تملك (رحىً) لطحن الحنطة وتجهيز الطحين . فقد كانت مكائن طحن الحبوب قليلة لا تفي بحاجة السكان ، كما ان للرحىٰ فوائد أخرى غير طحن الحنطة . ولما كانت أحجار الرحى تحتاج الى (تنقير) ، بين مدة وأخرى ، لجعل صفحة وجهها خشنة تساعد على طحن الحَب بصورة متساوية ناعمة . وللنقر هذا عمال مختصون وفؤوس خاصة فولاذية . كما يشترط في العامل خبرة تامة في التنقير . وكان هؤلاء العمال يدورون في الأزقة منادين : (نقّار ، نقّار) ، علماً بأنهم يقومون بنقر أحجار الرحى في مكائن الطحين أيضاً . إذ لا بد من فتح ماكنة الطحين واخراج أحجار الرحى بين حين وآخر وفرشها على الأرض ، لأجل تنقيرها لتعمل مجدداً بكفاءة .

التجارة في بغداد

تنحصر التجارة الداخلية في بغداد في توزيع البضائع الى بقية الالوية العراقية ، باعتبار ان بغداد مركز التجارة في العراق ، سواء كانت البضائع مستوردة ، أو من الانتاج المحلي ، ويتجمع تجار الجملة بالخانات لتوزيعها على التجار البندرچية ، أو على باعة المفرد ، فكانت تجيء من الشمال الحنطة الكردية الممتازة والمسماة حنطة (قراج) ، إما عن طريق كركوك بالقطار ، وإما عن طريق الاكلاك ، وتوزع على العلاوي في منطقة الشورجة . ويأتي من الموصل البرغل والحبية والبُطم والسيسي ، كما ترد بعض الاصواف والجلود . ويأتي من الشمال أيضاً الفحم الذي كان يضاهي فحم كراتشي ، الذي بطل استيراده ، وانتشر استعمال فحم الشمال ، وكان أشهر تجاره الحاج عبدالجبار طبرة ، ويرد كذلك الجبن بأنواعه الثلاثة : جبن الأوشاري من منطقة أربيل ، والجبن المخلوط بالثوم من منطقة دهوك ، فالجبن المثوم من اختصاص الكلدانيين ، وجبن الكرد من أربيل وكركوك والسليمانية ، وفي بغداد خانان كبيران للجبن ، أولهما في شارع المأمون (الدنگچيّة) . وكان ملتزمه المرحوم السيد محمود والد الأستاذ الكبير محمد بهجت الاثري ، وكان يرد مكبوساً بجلود الماعز غير منزوع الشعر ؛ والخان الثاني في الشورجة بعلوة بيت بنية . ويوزع من هذه الخانين على الباعة ، وأشهرهم هو حسون أبو الجبن . أما حنطة القراج ، فلا تصل الى الكرخ ، إنما تصل الى علاوي الشورجة ، لأن حنطة مزارع بغداد كانت جيدة وتسمى حنطة (عراقية معربة) ، أي بذورها منتقاة . ومن الشمال يرد التبغ الى تجاره ، واسمهم القلمچيّة ، فتاجر التبغ يسمى (قلمچي) . وكان تجمعهم في دربونة الدخانية ، وهو الزقاق الموصل بين سوق الصفافير وشارع المأمون ، وكذلك في الشارع المجاور لهذه الدربونة ، والتي كان فيها الحزب الوطني وبيوت آل السوز ، ومن أشهر تجار التبغ آل البحراني ، والشهربانلي ، والقلمچي . وكان التبغ على نوعيه الشاور والخردة يأتي مغلفاً بأكياس من الشعر أسطوانية الشكل طويلة ذات رؤوس

كرؤوس المنائر قابلة للفتح والغلق لمشاهدة نوعية التبغ المعبأ فيها ، كما يأتي من الشمال العفص والجوز والبلوط المدور والمستطيل ، وكُتل مَنِ السِمَا ، الذي يُجمع من الجبال المجاورة لإيران ، ويصفّى ويُعمل في معامل اليهود ببغداد قرب مدرسة الاليانس بالشورجة . ويرد كذلك تمّن (النگازة) ، ويسمى الآن تمّن عقرة ، ويُباع مع تمّن (عنبر بوه وعنبر المشخاب) ، وتمن نُعَيْمَة الشامية التي كانت تسمى أم البعرور ، ومن الفيصلية التي كانت تسمى (السوارية) . والشورجة هي مركز علاوي التمّن ، ومن العلاوي المشهورة علوة عبد حلومة ، وعلوة ابراهيم مبارك ، وابراهيم الخلف ، وشتيوي الجاسم . أما في الكرخ فان أشهر بائع تمن هو خيرالله ، الذي لم يستطع أحد أن يزاحمه لجودة بضاعته . وحسن معاملته . أما الدهن فكان أحسنه يأتي من لواء الرمادي ومن علي الغربي ، والسبب في ذلك ان مراعي البادية الشمالية ومراعي جبل بشتكو ، حيث ترعى أغنام عشائر المياح والسراي وبني هم والسكوند ، ينبت فيها عشب زكي الرائحة وتضفي على الدهن رائحة زكية . أما الدهون الأخرى فيجب أن (تُزَكّى) ، أي تصفى بأن توضع على النار ليطفو الدبس واللبن المضاف ، ثم يرفع عنه فيسمى الدهن مصفى أو مزكّى ، وكان يرد داخل جلود صغيرة تسمى (عُكة) . أما الدهن النباتي ، فلم يصل بغداد إلا في الاربعينات ، وأول ما وصل هو دهن أبو الخروف من هولندة . وكانت محلات بيع الدهن في الشورجة بالأسياف العائدة الى بيت بنية وابراهيم مبارك وقمندار وغيرهم . أما في الكرخ فان أشهر سيف لبيع الدهن هو سيف البغدادي ، الظريف المشهور العم توفيق الحسن الخانچي ، صاحب الصداقات الواسعة والعقلية المنفتحة والأمانة ، وهو الوحيد تقريباً من بين أصحاب العلاوي والأسياف مَنْ يرفض أخذ (الشرهة) من البضائع والمحاصيل ، والشرهة هي حصة العلوچي المجانية من قمة سلة الفاكهة أو گونية المخضر ، وهو تعامل متعارَف عليه ، ولا يعترض الفلاحون عليه ، لان أكثرهم مدينين للعلوچي ، ولا يستطيعون الفكاك منه ، فيعمل بعضهم الى غش السلعة من تحت السلة تعويضاً لخسارتهم . أما عمو توفيق وكل أهالي بغداد يسمونه (عمو توفيق) ، فيرفض هذا العمل ، كما يرفض إدخال أي سلعة رديئة الى سيفه ، سواء كانت السلعة فاكهة أو مخضرات أو دهناً أو صوفاً ، فابتعد عنه الغشاشون ، وبسلوكه هذا وكرمه حصل على احترام الناس جميعاً ، وصار الحَكَم المفضل عند التجار لحل الخلاف بينهم ، وقد أورث بعد عمر طويل هذه الصفات الحميدة لصهريه

عبدالغفور اليونس وأخوه أمين ، وهم اخوة الفنان الكبير يوسف العاني . وصار مكتب عبدالغفور اليونس أبو زهير خليفة عمو توفيق في عمله وديوانه في السيف محطاً وديواناً كبيراً ، خصوصاً في أيام الجمع ، يتجمع فيه مختلف الطبقات من الناس ، عسكريين ومدنيين ، تجاراً ووجهاء ، رؤساء عشائر ومزارعين أو صناعيين ، فقد كسب حب الناس واحترامهم الشديد ، لسمو أخلاقه وذكائه وعلاقاته الكثيرة مع العراقيين والسوريين واللبنانيين والاتراك ، نظراً لسعة علاقاته التجارية معهم ، وقد خلفه بعده ابنه الكبير زهير في رئاسة غرفة تجارة بغداد ورئاسة اتحاد الغرف التجارية العراقية في الوقت الحاضر . وبعد سيف عمو توفيق يأتي سيف أخيه وفيق الخانجي ، ثم سيف باقي ، وسيف بيت هندي ، وحمودي الوادي ، وحجي حمودي البيعي ، وهذه كلها في منطقة باب السيف . وقد دخلت الآن في عمارة مديرية التقاعد العامة والساحة الامامية لها . ثم هناك سيف كبير اتخذته شرطة الكرخ مركزاً لها ، ويسمونه (قُلْغ الكرخ) ،وأشغله أربعة من معاوني الشرطة ، وهم السيد رجب ، والد المحامي طالب الراوي ، وعبدالرزاق العسكري من أقارب جعفر العسكري ، ونورالدين العاني ، ونائب السليمانية السابق علي كمال . وكان الصوف في هذه الأسياف يُباع بالشليف ، وهو كيس كبير من الگواني ويحتوي على عدة جِزَزْ (جمع جِزَة) ، ثم يُنقل الى المنكنات لغسله وكبسه ثم تغليفه . أما الجلود ، فكانت تباع بلفات كبيرة ،وهي مدبوغة ، وأشهر محل لدبغ ونشر الجلود ، هو محلة النصّة في الأعظمية ، وتبدأ من ساحة عنتر حتى جامع الإمام الأعظم ، وتسمى الآن محلة راس الحواش ، لذلك فقد كان لقشور الرمان والعفص المستورد من الشمال ، وهما المادتان الأساسيتان للدبغ ، تجارة مهمة ، وينتشر في كافة أنحاء أسواق بغداد بائعو الرمان الحامض ، حيث يفتحون الرمانة ويضربونها بالعصي الصغيرة لينفصل عنها حَبّ الرمان ، الذي يستعمل لتحميض المرق أو لعمل المثرودة في صباح الشتاء للفطور ، أما القشور فتُباع للمدابغ ، حيث تخلط مع العفص والمواد الأخرى .

أما التمور ، فكانت ترد بطريق القطار من الكوفة وكربلاء والحلة ، وهي تمور زهدي المنطقة الوسطى ، وكانت محطة سدة الهندية مركزاً لتحميل التمور ، وأحسن أنواع التمور الزهدي المكبوسة بالخصاف ، هو تمر الشامية ، وكان يباع بالعدد ، لأن وزن الخصاف ثابت وهو خمسة وعشرين كيلو صافي . أما تمر الشافي ، فكانت الخصافة تزن ٢٧ كيلو ، علاوة على جودة الكبس ونظافته ، وأشهر تمور الشامية من

غماس ، هو تمر السادة البو طبيخ ، وبيت خلاصجي ، حيث يباع بسعر أعلى من أسعار الغير .وكان يرد الى بغداد قليل من تمر خستاوي شثاثة وقليل من تمر الناصرية بالتنك ، وهو تمر (أسطة عمران) ، الذي يصدر الى بيروت ، لان اللبنانيين يفضلونه على الزهدي . والتمر القاده مه الفرات غالباً ما يبقى في محطة غربي بغداد تحت الجادر تمهيداً لتحميله الى سوريا بالقطار . أما تمور زهدي ديالى، فالمرغوب هو تمر الجسب الناشف القوي ، والسبب في جودته ان النخيل في ديالى تكون في بساتين الفاكهة التي تسمد ويعتنى بها على طول الموسم ، ليس حباً بالنخيل ، بل اهتماماً بأشجار البرتقال ، فيصيب النخيل من سماد البرتقال ما يجعله أحسن أنواع التمور . والجسب المطلوب بالحاح في سوريا في موسم الحصاد ، إذ يحمله الفلاحون في جيوبهم مع أرغفة وهم يحصدون ويصدر عادة بالاكياس ويباع بسعر أعلى بكثير من سعر الزهدي المكبوس بالخصاف . كما يرد الى بغداد قليل من تمر الأشرسي وأزرق الأزرق من مندلي والبيدراوي من بدرة وجصان. أما الدبس فكان يصنع في بغداد والبزازات ومحلات الدبس موجودة في كل سوق. والدبس نوعان الدبس العادي ودبس دمعة الصافي الخفيف ويباع بالوزن أو بالتنك عند التصدير وتزن التنكة ثمانية عشر كيلو وقليلًا ما كان يأتي عرموط الشمال والعنب الجبلي وتين جبل سنجار ويسمى تين (رجاو) ، وهي قرية في جنوب شرقي تركيا تشتهر بالتين ، كما يشتهر التين الوزيري عندنا وهو ليس نسبة الى أرض الوزيرية في الأعظمية ، بل نسبة الى بستان الوزير في الجادرية ، وهو الوزير التركي الذي جلب عيدان التين من أزمير وزرعها فأنتج هذا التين وسمي تين الوزير.

أما تجارة المنسوجات المحلية ، فتبدأ بالعبي المنسوجة بالنجف وباب الشيخ بكميات كبيرة لغرض البيع داخلياً وللتصدير . ففي باب الشيخ كان حميد العزيز العبايچي أشهر النساجين والبائعين بالجملة ، وفي النجف كان المشهور هو الشيخ حسن حسون ، ومن أشهر بائعي عبي النجف هو المصارع السيد علي الياسين ، والد الطبيب البيطري حسن الاوقاتي . وقد أخذ اللقب عن طريق أمه التي هي من بيت الاوقاتي العانيين أصلًا . وكان السيد علي بسطة في الجسم ، وفي دكانه بسوق الهرج كان يضع الاثقال الخشبية للمصارعة (الكبركات) والتختة التي يأخذ بها (الشناو) مع الزنجيل الحديدي والكسوة ، التي هي لباس المصارعين الرسمي المزركشة واللاصقة بالقسم الأسفل من الجسم . أما الفوط والچراغد والبويمات ،

فكانت تحاك على الاكثر في الكاظمية ، وأشهر بائع لها هو الحجي مجيد مكية في سوق الجايف قرب باب خان دلّة الخلفي . أما المناشف المحلية والبشاكير ، فتُحاك في باب الشيخ ، وأشهر البائعين هو الفقيه المرحوم عبدالوهاب ملوكي ، وجاره ابراهيم الشيخلي في سوق البزازين مقابل دكان البزاز المشهور علي ألمان ، والد موسى ومحمود . أما الفرش والبُسط والحصران السليماني بأحجامها المختلفة ، فكانت تباع في سوق الاطرقچية الصغيرة المجاورة لجامع القبلانية ، كذلك تباع (المدات) ، وهي البسط الطويلة المصنوعة من الصوف ، وأشهرها هي بسط السماوة والحي وأربيل . والبسط نوعان ، الأول ذات الشعر الطويل (طويل الخمل) ، ويصنع من قبل الفلاحين وهو غير مرغوب فيه ، لانه يجمع التراب والأوساخ ويكون مقراً للهوام والحشرات ، والثاني ذات الصوف الناعم ويمتاز الجيد منه بالألوان الزاهية والاصباغ الثابتة والطول والعرض ، والاهم من ذلك هو الوزن ، وكلما كان ثقيلاً ، فذلك يعني ان الصوف فيه كثير ، وكل بائع لهذه الاشياء والسجاد كذلك يقال له أطرقچي وكثير من عوائل بغداد يُلقبون بالاطرقچي لهذا السبب . أما الذي يبيع الكراسي والمناضد والمرايا والتخوت وبقية اللوازم المنزلية ، فيقال له (مغازچي) ويسمى دكانه مغازة ، مثل مغازة عبدالله خيوكه ، وكذلك دكاكين البضائع المستوردة الكبيرة تسمى (مغازة) ، مثل مغازة حسو اخوان ، ومغازة اوروزديباك ، وعيسى العمران ، وهي مأخوذة من كلمة مغزان الاجنبية . أما الشفوف الخفيفة جداً الصوفية أو المخلوطة مع القطن ، وكذلك ستائر الشبابيك ، فأحسنها ما كان يُصنع في مدينة عانة ، وبالمناسبة فان الشائع ان رجال عانة يغزلون الصوف ولم أصدق هذا حتى رأيت بعيني آخر الغزالين وكان شيخاً هرماً في محلة رأس القربي ، وقد ثقب اظفر الإبهام الايسر من يده ومرر خيوط الغزل من هذا الثقب ، للتاكد من مساواة الخيوط ، وقيل لي ان هذا العجوز هو آخر القافلة من الغزالين .

أما البضائع التي تصل بغداد ، فهي إما مستوردة من أوروبا ، وإما من الهند أو جنوب شرقي آسيا ، وتصل عن طريق البحر ، ثم بالقطار الى بغداد أو المراكب النهرية . وان أكثر المستوردين من أوروبا وآسيا هم من اليهود لصلاتهم الوثيقة بالبيوتات التجارية اليهودية المنتشرة في أنحاء العالم ، فالاقمشة القطنية مثل الخام الابيض يستورد من منشستر في إنكلترا ، لأن فيها أحسن مصانع لانكشاير المشهورة ويستوردها التجار ، إما مباشرة أو عن طريق أحد القومسينچية ، وكذلك

تستورد الاقمشة الصوفية ، وكانت تسمى (فاصونة) . أما المكائن والمضخات الزراعية ، فكانت شركة بيت لنج تحتكر استيراد مضخات (رستن) المشهورة مع الخنزيرة تانجي وملحقاتها من الانابيب والقوايش وغيرها . وبيت بحوشي يستوردون مضخات (بلاكستون) مع كافة ملحقاتها ، والموصلي يستورد مضخات (فيلدنج) مع ملحقاتها . وبين شطب وعبد علي الهندي يستوردون مكائن الطحين . وأحمد الملا حسين البصري يستورد مكائن (رويسن) مع ملحقاتها . وعند وصول المكائن الى بغداد تودع في المخازن ثم تسلم بتحويل من البائع . وكانت شركة عبد علي الهندي في محلها برأس القرية الذي أصبح الان سوق ناجي الخضيري ، تستورد مختلف الالات والمكائن ، لانهم كانوا يملكون في بغداد معامل ثلج وصودا وسيفون ومكائن طحين . أما السكائر الاوروبية فان مستوردها الاول هو شركة (فرنك ستريك) ويسمهونها في بغداد بيت ستريك . أما الجوخ الفاخر والطرابيش فتستورد من النمسا ، والمشروبات الروحية من إنكلترا وفرنسا ، وأشهر المستوردين هم الشركة الافريقية ، وبيت ستريك وأل (ب. ج. س. س.) ، أو شركة التجهيزات البريطانية ، ويملكها بيت سوفير اليهود . ومن ألمانيا كانت تستورد بعض المصنوعات المعدنية ، وكان يُطلق عليه اسم (جرمنية) أو (راجز) ، كما يستورد منها جواريب الهرنة المشهورة بالمتانة . وفي أواخر العشرينات استورد بيت شطب مكائن الطحين الالمانية ، كما يُستورد من ألمانيا (الكهرمان) من مدينة كونيكسبرغ ، ومستوردوه هم روبين بطاط وأخوه شاؤول ، وذلك بصناديق خشبية وبقلائدِ كاملة ، ومن اليونان يُستورد المستكي مع قليل من الزيتون . ومن روسيا وهنغاريا تُستورد السماورات وقواري الشاي والفرفوري (السكسون) ، أي من مقاطعة سكسونيا وبافاريا . ومن إيطاليا مكائن الخياطة سنجر . ومن سويسرا الساعات ، وهي ساعات زنيث ، وأوميغا ، ولونجين ، وأم الطمغة ، وأم الانكر . وعموماً فان أكثر البضائع الاستهلاكية كانت تُستورد من إنكلترا ، فالعلاقات كانت قديمة والبيوت التجارية اليهودية العراقية منتشرة في أوروبا ، مثل بيت داود ساسون ، وبيت فرنك عيني ، وبيت مشعل ، وبيت عبودي ، وبيت زلخة ، وابراهيم حييم ، وغيرهم . أما العراقي العربي المعروف في أوروبا ، فهو السيد حسين العطار في فينا ، والذي صار مؤخراً قنصلاً فخرياً في النمسا . ومن السويد يُستورد الحديد والخشب والشخاط ذو ثلاث نجمات المسمى (بلوكي) ، غير انه انقطع استيراده بضع سنوات ، خصوصاً بعد عملية الإفلاس

الشهيرة التي أقدم عليها ملك الشخاط (كروجر) ، الذي انتحر في أواخر العشرينات ، فانشأ ناجي الكفيشي معملاً للشخاط ، ولكنه لم يدم طويلاً ، وعاد استيراد الشخاط الى نشاطه بعد تصفية فضيحة كروجر الاحتيالية التي تزامنت مع فضيحة المحتال المشهور (ستافسكي) في فرنسا .

أما المواشي ، فلم تكن تصدر من بغداد ، إنما تصدر عن طريق الموصل ثم سنجار ، ثم راوه ، حيث تقطع نهر الفرات في طريقها الى القائم ، فالبوكمال ، ثم دير الزور ، وذلك عن طريق التجار الموصليين تحت حماية ورعاية قبيلة شمر ورئيسها عجيل الياور ، وكانت (البراخين) تنتشر على طول الطريق بين الموصل وراوه ، و(البرخانة) ، هي الموقف الذي تستريح فيه المواشي والقافلة . وفي بغداد انحصرت تجارة المواشي في الاستهلاك المحلي للذبح ، وأشهر تجار المواشي في بغداد ويسمونها (الجلب) ، هم الحجي ياسين الخضيري ، وعباس الجدوع ، وابراهيم العزيز ، وحسين سعيد ، والحجي غالب والحاج موسى الجواد ، وأخيراً هوبي الفرج ، وكان مقرهم ، إما في قهوة موشي بشارع البنك ، وإما مقاهي محلة المهدية ، حيث يسكن أكثرهم ، وكثيراً من سكان هذه المحلة كانوا قصابين .

أما تجارة القطن ، فكانت حكراً على أسوأ مَنْ جاء من المستعمرين الإنكليز ، وهو المستر (ايستن ايستوود) ، مدير محلج بغداد ورئيس جمعية السيارات العراقية ، الذي عُرف بخشونته وصلفه ، ومحلجه الكائن في الشيخ جنيد بالكرخ هو المحل الوحيد لحلج القطن وشرائه وتصديره ، سواء من نوع الكوكر ، أو الأكالة روجرز ، وهما النوعان المتوفران لزراعته في العراق ، حتى تأسيس المحلج العراقي في الصرافية من قبل بعض الممولين العراقيين وأكثرهم من الموصل من جماعة ابراهيم عطار باشي . فخفت حدة الاحتكار وصار القطن يباع قريباً من الأسعار العالمية . وقد حاول الملك فيصل والمندوب السامي البريطاني عبثاً التدخل لدى المستر ايستوود لتخفيف غلوائه ودفع سعر أعلى للقطن تشجيعاً لزراعته ، ذلك انه صدر في منتصف العشرينات قانون تحسين زراعة القطن ، فحصلت الشخصيات المسؤولة والوجهاء المتنفذين الاراضي حول بغداد ، بعد ان أخذ المستر (كاربت) أحسن الاراضي في اللطيفية وأُعطي له الامتياز ، لاجل زراعة القطن . ثم أخذ الملك فيصل الاول الاراضي في النعمانية ، ولكنه اصطدم بمعارضة الشيخ شعلان العجم ، الذي أخذت أكثر أراضيه ، فاستبدل فيصل أرضه هذه بأخرى أصغر مساحة ، وكلَّف

بادارتها أحد أمراء عشيرة ربيعة . ثم أخذ أراضي علياوه في خانقين وفي الحارثية وفي الوزيرية . ثم أخذ الباقون في نصب المضخات الزراعية ، فاتجه ياسين الهاشمي الى سامراء أولًا مع الشيخ علي الكريم ، ولكنه تركه واتجه ناحية العزيزية وأخذ مقاطعة الدير بجوار مقاطعة القطنية التي يملكها محمد فاضل باشا الداغستاني . أما محمود صبحي الدفتري ، فقد أخذ بجوار الباشا في مقاطعة الحفرية ، والسيد محمد الصدر في سلمان باك بالجزيرة ، ورشيد عالي الكيلاني أخذ مقاطعة شادي مقابل النعمانية . وفي هذه المقاطعة جرت نكبة عشيرة الصدعان . ثم استولى الوصي عبدالإله على هذه المقاطعة ، بعد ثورة مايس ، وأخذ هادي العسكري في المحمودية ، ودرويش الحيدري ، ومظهر الشاوي بمقاطعة الحرية في الصويرة ، ومنير عباس ، وخالد الخضيري بالخناسة والهماش في سلمان باك ، ويوسف الأيوبي أخوعلي جودت الايوبي في علّي الغربي ، وزكي قدري شقيق تحسين قدري في مقاطعة شظيف الشرقي بالعزيزية ، وشفيق نوري السعدي ، وبيت الاورفلي في بغداد الجديدة ومدينة الرشاد ، والشبيبي في أبو غريب جوار مطار صدام ، وحمدي الباچەچي في بغداد والكاظمية ، وعبدالنبي الدهوي في الكاظمية أيضاً ، وعلي كمال في الفضيلية (الكمالية) ، ومئات غيرهم . ولكن بقدر ما استفاد هؤلاء من الزراعة ، فانهم قد أدخلوا عليها دماً جديداً ، فهم الذين أدخلوا المكننة والتركتورات وبذلوا مالًا كثيراً لتطوير وسائل الانتاج ، وجلبوا البذور المحسنة ، وعلّموا الفلاحين طرق مكافحة الآفات الزراعية ، وبدأوا زراعة الكتان والقنب الهندي وفستق العبيد .

وحين صدر قانون تسوية حقوق الأراضي في بداية الثلاثينات ، كان الإنكليز هم رؤساء هذه اللجان ، وأشهرهم (استن) ، الذي كان ، والى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، رئيساً للاستخبارات البريطانية ، وكذلك الميجر (ديجبرن) ، والكابتن (لاين) ، فقد لعبوا بالبلد وأراضيها ما شاؤوا أن يلعبوا ، سيما وان رئيس محكمة استئناف تسوية حقوق الإراضي كان إنكليزياً . والذي يتطلع الآن على خراط الكدستر ويجدها في قطعها ومقاطعاتها عبارة عن موزيك أو رسم سريالي ، لا تعرف أين تبدأ وأين تنتهي . أما مجاري الأنهر التي تسقي المزارع فادخلوها في مزرعة أحمد مثلًا وأخرجوها من مزرعة محمود ، لذلك فان مشاكل مجاري المياه لم تنته حتى الآن . ثم وزعوا ملكيات هذه الاراضي على مَنْ يستحق ومَنْ لا يستحق ، وكان مجرد أن تخريش أي أرض بالتراكتر ، تعد استغلالًا زراعياً ، ويعطى للمخريش سند التمليك ، كما جرى

ذلك في تمليك أراضٍ واسعة قرب معسكر الرشيد الى المشهورة (سارة الزنكينة) ، والتي تسمى الآن (كمب سارة) .

كانت تُستورد من جنوب شرقي آسيا الاقمشة القطنية والخام الأسمر والدوق الأسود والقمندور والمكائن والآلات التي كُتب عليها (صُنع في إنكلترا) ، بينما هي من صنع الهند . ويستورد (الجوت) من بنكلاديش ، يوم لم تكن منفصلة عن الهند ، ذلك ان بنغلاديش هي البلد الرئيس في العالم لانتاج الجوت ، كما يُستورد الموز والجوز الهند والعنبة والخشب والعطاريات والبهارات ، والشاي بنوعيه الهندي والسيلاني ، والقهوة المسماة قهوة (بهار) ، وهي أقل جودة من قهوة كينيا وزنجبار (تنزانيا) . وكان أكثر المستوردين من الهند هم الشركات البريطانية الموجودة في العراق منذ زمن العثمانيين ، وكذلك شركة عبد علي الهندي ، وشركة جيتا باي كوكل ، وقسم من اليهود . وتُستورد صبغة النيل والأصباغ الاخرى و (الجويت) علامة رأس الثور ، وكان يُستعمل لتلوين الخام الابيض المغسول بلون أزرق فاتح ، ويُستورد أيضاً من الهند صابون الغسيل الابيض المسمى صابون (هندية) ، أو صابون (شماش) ، على اسم مستورده شماش ، قبل أن يصنع معمل كافل الحسين في بغداد . أما التوابل ، فهي من اندونيسيا ، وكان اسمها جاوي ، لذلك سميَ الخشب القوي الممتاز خشب (جاوي) . أما قاطرات السكك الحديدية وعرباتها فتُستورد من بومباي . أما الصين واليابان ، فكانت تصدر الى العراق الأقمشة الحريرية ،ومركز التصدير هو شنغهاي بواسطة العائلة اليهودية الثرية العراقية المقيمة في بومباي ، وهي بيت (حردون) . وكان كثير من الصينيين يتمشون في شوارع بغداد ، وهم معروفون بأحذيتهم الحديدية الصغيرة التي يلبسونها منذ الصغر دون أن ينزعوها ، كي تبقى أقدامهم صغيرة لا تنمو . أما البضائع اليابانية ، فلم تكن رائجة في بغداد ، ويطلق عليها كلمة (چاپان) ، وتعني انها غير جيدة . ويرد من الصين كذلك الدواء المسمى (عشبة وچوپچين) ، وهو دواء خاص بالنساء يشربنه لقطع داء الحرارة وللبهريز ،كما يقولون .

ومن إيران تُستورد الفواكه المجففة والطرية ، كالتفاح والحيوة (السفرجل) و (البخارى) ، باكياس الجلد الصغيرة وتطبخ في بغداد مع الكشمش واللوز ، أو يُعمل منها الشربت ، وهي نوع قريب من المشمش والعنجاص ذهبية اللون ، وأعتقد انها من حاصلات أفغانستان أو تركستان (انقطع استيرادها منذ زمن طويل) . كما

يُستورد التمن الكريه أو تمن رشت الغالي الثمن ، والذي يُطبخ مع الزعفران . كما تُستورد الزوالي والبسط ، إما لبيعها في أسواق بغداد أو لتسفيرها ترنزيت الى ميناء بيروت ، إما عن طريق حلب أو دمشق ومن بيروت الى ألمانيا ، حيث كانت في العشرينات مركز تجارة السجاد العالمي قبل أن تنتقل الى أمريكا . كما ترد من إيران المصنوعات الفضية ، أو من (الوَزشَوْ) ، وهو النحاس الابيض المطلي بالفضة ، وأحسن ما يُصنع منه في أصفهان . ويُستورد كذلك اللوز والفستق والمشمش المجفف وعباءات النايين بألوانها الثلاثة ، الاصفر الذهبي ، والأصفر الغامق ، والأسود ، وهو أغلى أنواع النايين . والنايين الممتاز يُصنع من وبر الجمال الإيرانية المغولية الموجودة على الاكثر من صحراء لوط بين إيران والصين . ويُستورد كذلك الترياك والزعفران . كما يُستورد العربقوزي ، وهو قطع من الخشب تُرسل الى مصر لاستعمالها في شراب العرقسوس ، أو لاغراض طبية ، كما يقول المصريون تتعلق بالنساء الحوامل ، ولكن لا نعرف كيفية ومدى استعماله . والعلك الابيض يُستورد من الحدود بين إيران والعراق . وبكميات كبيرة كانت تُستورد الأحذية الإيرانية (الكالات) ، بنوعيها الحريرية والقطنية ، وأحسنها ما كان يُصنع في قزوين بإيران وتباع في بغداد بأسعار عالية ، ولا يلبسها إلا المترفون في بغداد ، وأشهر مَنْ لبسها في العشرينات ، المرحوم جميل صدقي الزهاوي ، والاديب عبداللطيف اثنيان ، وتاجر المواشي عباس الجدوع . وكانت هذه البضائع ترد ، إما بواسطة القطار من محطة قصر شيرين ، حيث كان القطار يصل الى هناك ، أو بواسطة الجمال رأساً ، لان الناقلين العراقيين من العگيل لم يكونوا أصحاب جمال نقل فقط ، بل كانوا يتاجرون أيضاً بهذه البضائع ، إما بنقودهم الشخصية ، أو لانهم قد تسلموا رأس المال (الصرماية) من أحد الممولين في بغداد ، لغرض المتاجرة ، يكون لهم الثلث من الارباح واسمهم (الجتافة) ، أي يشتغل بكتفه ، لهذا فهو يجمع بين ملكيته للبعير وبين تجارته ، فلا يحمل البضاعة في القطار ، بل على جماله ، وهذا هو الذي جلب عليهم البلاء في منتصف العشرينات ، وسنبحث تفصيل ذلك في موضوع العگيل في بغداد .

أما البضائع التي تُستورد من سوريا وتركيا ، فإما عن الطريق البري أو الطريق النهري . والبري هو طريق حلب ـ دير الزور ـ عانة ـ بغداد ، وتنقله عربات البرشقة الكبيرة التي كان بيت الباش في حلب (محمود ورحمو وقدور الباش) يملكون أكثرها

ويكادون يحتكرون النقل بالعربات ، ثم أبدلوها بسيارات (ماكروس) الضخمة ، و (المان ديزل) . وكان يحمل في العربات كافة أنواع الاقمشة التي تُحاك في سوريا ، القطنية منها والحريرية ، مثل عباءات النساء الحريرية السوداء ماركة صائم الدهر ، والشبئون ، والطاقات العزيزي ، والصابغ بيزي ، وزند العبد ، والكجرات ، والپتة ، والشاهي . وكانت ترد بشكل طاقات مربعة مجموع طولها ثمانية ياردات تكفي لعمل الزبون ، أو الصاية أو الچاكيت ، ومن المنسوجات التي تُحاك في معامل حلب ودمشق ، المناشف والپشاكير والمناديل والجواريب وأغطية الفرش وقماش الستائر ، من القطن والحرير ، كما تُحمل في العربات أكياس بذر الخيار وبذر الباقلاء الشامية وقمرالدين والفستق الحلبي والحرير الخام بنوعيه ، (الجلة) و (الشلف) ، والكلبدون وورق السكاير البافرا أو ورق الشام والأحذية الحلبية وقوالب سبداج حلب وخيوط السوتلي البيضاء والحبال البيضاء (المرس) والفاصوليا اليابسة والحمص وحب الشجر الروماني والبقلاوة الحلبية المشهورة (البلورية) ، وتُنقل هذه البضائع من مدينة مسكنة على الفرات ، حيث تقف الشخاتير لنقل صابون حلب والبضائع القادمة من تركيا من مدينة (بيرەجك) ، حيث الحاصلات التركية من التين واللوز والمشمش ، وبسط المرعز وزيت الزيتون وتتن (سمسون) الذي يُخلط مع التبغ العراقي لتحسين النكهة وقماش العمائم الأبيض الرقيق الذي يُحاك في اسطنبول والجبب الملونة التي يلبسها أفراد الطائفة المولوية والبكتاشية . وتَبدأ الشخاتير سيرها من مدينة مسكنة ويربط سوية كل شختورين وتسمى (طبگة) .وفي مسكنة تُصنع الشخاتير ويبلغ طول الشختور نحو ستة أمتار وعرضه ثلاثة . وقد ينصب فوق البضائع كوخ لصاحب البضاعة أو لرئيس القافلة ، ولما كانت سابقاً تتعرض للصوص والسلب ، فقد عهدت الحكومة الى المرحوم الشيخ عفتان الشرجي ، رئيس قبيلة ألبو محل في القائم بأن يرعى هذه الشخاتير ويمنع الإعتداء عليها من قبل عشائر الكرابلة والجغايفة بالتعاون مع وكلاء التجار الموجودين في المدن الواقعة على الفرات ، ومنهم فارس البندر في حصيبة ، والحاج عطية الرحمو في عانة ، وجاسم الصعب في هيت . ولكن الخطر يظل داهماً للشخاتير بسبب الصخور الصغيرة المقامة أمام النواعير وتنتهي الاخطار جنوب مدينة هيت ، وعند وصول الشخاتير الى الفلوجة تفرّغ حمولتها وتفكك أخشابها ، حيث يُعاد تحميلها الى مسكنة في العربات التي ترجع فارغة الى حلب أو تباع في

الفلوجة . ومن الفلوجة تُنقل البضائع بالعربات أو الجمال الى بغداد . وكان الصابون المستورد من حلب على نوعين ، وهما أبو الهيل والبلدي ، وسميَ أبو الهيل لان وزن الغار الزكي الرائحة يضاف الى طبخة الصابون ، أما البلدي ، فلا يضاف اليه الغار . وأشهر معملين للصابون في حلب ، هما محمد صالح الزنابيلي وأولاده ، ومعمل بيت السباعي ، بشير وحسني . ثم معمل بيت خيرو الناصر ، أما الصابون النابلسي الضخم القاسي ، أو صابون الحياة اللبناني ، فكان غير مرغوب في العراق . أما الاقمشة الحريرية ، فكانت أحسن أنواع العبي النسائية من معمل صائم الدهر ، أو معمل الشبئون ، والاقمشة الباقية من معمل الشركة الخماسية في حلب . وفي دمشق عدة معامل للنسيج بأنواعه ، ومنها معمل سعيد سكر ، وبهيج شيخ الأرض ، والحلبي ، والحلاق ، والحجّار . أما الكلبدون ، فأحسنه في حلب من معمل جورجي قسيس ، وصبحي القصبجي . والحرير ، بنوعيه عند يوركي مشاطي ، والغزول عند عبدالله مكرينة . أما السبداج ، فكان من شركة بلدي ومراش ، والزجاجيات من معمل أحمد شريف محبك في حلب .

أما عملية تصدير الخيول من العراق الى الهند ، فانها كانت تتم عن طريق البصرة ، فان أكثر تجارها من بغداد وينقلونها الى البصرة ، إما بالقطار ، وإما بالمركب ، حيث تصدَّر الى بومباي في الهند ، ومن هناك الى مدينة (بونا) ، وهي مصيف قرب بومباي ، وفيها يلتقي كل راجات الهند والإنكليز من هواة الخيول والسباقات ، لان بونا هي مركز سباق الخيل . وأشهر المصدرين الى الهند هم آل الطالب وعميدهم علي الطالب ، وبيت توحلة ، وابن حجلان ، وصگر محمد الوادي ، وعگاب الدليمي ، وصالح الحسن وغيرهم . كما ان الجوكية العراقيين في بونا هو (ابن عبيد) ، وشاهين الصگر . وحين انقطع تصدير الخيل الى الهند ، بأمر من الحكومة الهندية اتجه المصدرون الى بيروت ، حيث اسطبلات محمد فستق ، وبيت بستوس ، والخواجة هنري فرعون ، والعسيلي ، ومدام كوكران ، والدونا ماريا سرسق مالكة ساحة سباق الخيل في بيروت ، وكانت تدفع الاثمان الجيدة للخيول العراقية ، وكان مقر أصحاب الخيل العراقية في الحرش في بيروت ، حيث تُربط الخيول داخل غابات الصنوبر . ومن أشهر تجار الخيل العراقيين ابن جمهور ، وابن الجويلي ، وشاهين الصگر ، وشاهين العگاب ، وصالح الحسن ، وكان قسم منهم يذهبون بالخيل الى مصر لتباع هناك بعد أن تُربط باسطبلات المصريين بالقاهرة في شارع

(المطرية) ، علماً بأن أحسن مروضي الخيول هناك كانوا من العراقيين ، ومنهم بيت طويرب ، وعبدالرحمن أبو الخيل البغدادي .

إن بحثنا المفصل عن تجارة الاستيراد (الأوروبي منها خاصة) ، يتعلق بالاستيرادات الشخصية ، وهو ما يسمى الآن بالقطاع الخاص . أما مشتريات الحكومة العراقية من البضائع ، كالسيارات والإطارات والمكائن والحديد والقرطاسية وغيرها ، فكانت محتكرة من قبل (وكلاء التاج) ، حسب نصوص المعاهدة العراقية وملاحقها . فليس من حق الحكومة العراقية أن تشتري شيئاً من أسواق أوروبا مباشرة ، بل تشتريها عن طريق المؤسسة البريطانية ، وهي وكلاء التاج ومقرها في لندن . فهي تشتري بالسعر الذي تراه وتسجل العمولة وسعر التحويل ، كما تراه ، وان بنك الحكومة العراقية هو بنك الإيسترن البريطاني ، وهو خاضع الى بنك إنكلترا المركزي . أما مشتريات الأسلحة ووزارة الدفاع ، فلا نعرف عنها شيئاً .

وبمناسبة الحديث عن المضخات الزراعية وبيعها ونصبها ، فقد ظهرت طبقة جديدة من العمال الماهرين في نصب المضخات وتوابعها وتشغيلها ، وكان مقرهم في قهوة تقي التي بُنِيَتْ في أوروزديباك ، الذي احترق في المصبغة أول العشرينات ، ومن أشهر هؤلاء العمال السيد هاشم الاعظمي ، وعبدالله السامرائي ، وحيث ان الموضوع يخرج عن موضوع التجارة ، فسنبحث عنه في موضوع آخر .

في بغداد أمثال دارجة عن البضائع التجارية ، فيقال شاي سيلاني وزيتون يوناني ، وفرفوري سكسون (سكسونيا هي مقاطعة في هنغاريا) ، وجوخ نمساوي ، ووسكي اسكوتلندي ، ومسقول حجي بكر في اسطنبول ، وسجاد إيراني ، وحلاوة مسقط ، وجبن قشقوان بلغاري ، وحرير صيني ، وفرو استراخان ، وسماور روسي ، وفستق حلبي ، وشخاط سويدي ، وسكاكين راجز (ألمانيا) ، وعنبة هندية ، وبخور جاوي ، وحيوة أصفهان ، وتمن رشت ، وفاصونة إنكليزية ، وقهوة ممباسا ، والحمص المراكشي .



بغداد ١٩٢٠

مهن نسائية

من المهن النسائية الرابحة ، وقد انقرضت ، مهنة برم الحرير وغزل الصوف . وكانت خيوط الحرير الخام تُباع بالوزن في سوق البزازين ، قرب جامع الخفافين وبامتداد سوق الجوخچية . وكان يُستورد من سوريا ، أو من ليون بفرنسا مباشرة ، أو من الصين ، وكان لونه أبيض . وبعد أن تشتري المرأة حاجتها بما يكفي لعمل فوطة أو فوطتين أو چرغد أو مناديل كبيرة ، وبعد ان تكون قد مرّت على بضعة دكاكين وقضت ساعات طويلة للحصول على أجود البضاعة بأقل الأسعار . ثم تأخذه الى البيت وتبدأ برم الخيوط بواسطة المغزل وتلف الحرير الخام على خشبة صغيرة تسمى (لولة) ، أو (نبوبة) ، ومنها تأخذ الخيوط الحريرية وتدخلها في رأس المغزل بالشق الخاص ، ثم تبدأ البرم وتستمر به حتى يمتلىء المغزل المحصور بين قاعدة ورقبة المغزل . ثم يُلف الحرير المبروم على السريس اليدوي ويتحول الى وشيعة ، إذ تُباع هذه الوشائع ، إما الى سوق الغزل مع الصوف المغزول أو في سوق القزازين بالمصبغة ، والذي اشترت منه الحرير الخام أو تبيعه في الكاظمية مباشرة الى معامل النسيج اليدوية والأنوال التي تصنع فوط النساء والچراغد أو المناديل الحريرية ، أو لأية استعمالات أخرى .

أما الصوف فان فيه تعباً وعناء أكثر من الحرير ، كما ان له آلات خاصة ، وابتداءً تختار المرأة نوعية الصوف ولونه ونظافته . فالصوف الجيد هو النظيف ذو التيلة الطويلة الخالي من العقد والعطب (العطب هو نوع من الشوك يلصق بالصوف ويصعب استخراجه) . مع ضرورة صفاء اللون ووحدته ، إن كان أبيض أو أسود أو أحمر أو (حمرة غنم) . وبعد ان تشتريه بكل عناية وتساوم على سعره بأطول نفس ، تأخذه الى البيت وتبدأ عملية التمشيط ، إذ لا بد للمرأة من مشط خاص للصوف ودولاب وسريس ومغازل . ومشط الصوف يتكون من لوحة من خشب الجوز أو الجاوي طولها أكثر من نصف متر وعرضها عشرون سنتمتراً تقريباً ، وفي أحد رأسيها صفان من الأسنان الحديدية بطول إثني عشر أو خمسة عشر سنتمتراً . وتأخذ قطعاً من

الصوف وتمرره بهذه الاسنان الحديدية مرات عديدة الى ان تمتص أسنان المشط كل الأوساخ العالقة بالصوف وتجعله ناعماً جداً ولا يبقى فيه غير خيوط الصوف الاصلية . ثم تبرمه بشكل أسطواني طوله قدم واحد مدبب من الرأسين ويسمى (عميتة) . ثم تبدأ غزل هذه العمايت بالمغزل ، وهنا تكمن المهارة في سحب أرفع أنواع الخيوط وأدقها بدون أن تنقطع وبعد ان يمتلىء المغزل يُلَف الغزل على السريس اليدوي ، إن كان الغزل ناعماً . أما إذا كان متوسط النعومة ، أو فيه بعض الخشونة ، فانه يُلف على الدولاب الموجود لديها ، خصوصاً إذا كان الغزل معداً للبيع وليس مخصصاً لعباءة الزواج أو الابن أو الحبيب ، ويُلف الغزل بعدئذ ويسمى (وشيعة) ، ومجموعها وشايع ، يكون البيع بالوشايع والسعر حسب الجودة واللون . أما إذا كان الغزل للزوج أو للولد ، فانه لا يُباع ، بل يعطى الى الحائك ليحوك به العباءات في محلات الحياكة الموجودة في بغداد أو في الكاظمية أو باب الشيخ . وتحاك العباءة على قطعتين ، فوقانية وتحتانية ، وخيَّاط العبي ، هو الذي يجمع بين القطعتين ويخيطها ويدرز الكتف ، إما بالحرير ، وإما بالكلبدون مع البلابل في صدر العباءة ، كما يخيط أسفل العباءة (زنجافة) لغرض تثبيتها ، كما هو الحال في آخر رِجْل البنطلون . ولم يكن في سوق الغزل ولع شديد لبيع الطيور في تلك الأيام مثل الولع الشديد الآن لبيع الطيور والحيوانات . وقد كان هواة الطيور في الدرجة الثانية من السلَّم الاجتماعي ، وكان الناس لا يحبون المطيرچية ، لدرجة ان كلمة مطيرچي ، كانت تعد سباً وشتماً ، لانه معتاد على الصعود الى السطوح والتطلع على عورات النساء من الجيران ، كما يحرم الناس لذة النوم صباحاً بصياحه (عاع ، عاع) ، وبيده العصا والخرقة الطويلة . وانه يعد قاسي القلب لا يعرف الرحمة ، إذ يقتل القطط والهررة بدم بارد ، ولم تكن الكلاب تباع في هذه السوق ، لانها نجسة وغير مقبولة عند الناس . وهكذا كان نساؤنا يقضين وقت فراغهن بمهن نافعة لهن أو لذويهن .

وكانت هناك امرأة تسمى (ارخيتة) ، وهي غير رخيتة التي سُميت المحلة بأسمها في الكرادة ، وكانت تداوي الناس بالحشائش التي تزرعها في حديقة الوقف الصغيرة في الباب الشرقي قرب سينما الخيام . وكانت تستأجر هذه الحديقة من متولي الوقف السيد محمود البرزنچي . ومن مهن النساء الخاصة هي الحف والحجامة وبيع أدوات الزينة ولوازمها وتمشيط العرائس وتجهيزهن . ومن المعلوم ان

إزالة الشعر بالحف يكون عادة بالخيط أو بواسطة العلك الابيض والسكر . وكانت الحجامة سابقاً أمر لا بد منه ، خصوصاً للصغار ، باعتقاد ان بقية دم الطفل الوليد الذي كان في الرحم يجب أن يُزال ، لذلك نادراً ما ترى صبياً في جانب الكرخ ليس محجوماً وعلامة الحجامة ظاهرة في قفا الرقبة . ومن المهن النسائية بيع أدوات الزينة ولوازمها . أما أدوات التجميل التي تباع ، فكانت (الخَطَاط) ، وهو زج الحواجب باللون الأسود أو الجوزي الغامق والديرم وهو أحمر الشفاه ، وكان يعمل من قشر الجوز الأخضر الطازج ، حيث يتحول لونه الى بني غامق جداً . ثم السبداج وهو المسحوق الأبيض الناعم الذي يشبه البودرة تماماً ، وهو غير سبداج حلب المعجون بالزيت الطبي والذي يستعمل دواء لحب الشباب أو البثور الجلدية . ثم النونة ، وهي الدائرة الصغيرة السوداء التي تُرسَم بين الحاجبين . وكذلك (القرص) ، وهو معجون يابس مدور أقرب الى البياض ، ويستعمل لتنعيم الوجه والساعدين ، ويباع (السواك) لتنظيف الأسنان وأحسنه ما يُجلب من مكة المكرمة . ومن النساء مَنْ يبعن المعاضد الزجاجية والخرز وبعض لوازم الخياطة ، كما يبعن الجيرة السوداء (القار السيالي) مع السِعِد ، وهو النبات الفطري الأسود الذي ينبت تلقائياً على الشواطىء وهو بحجم الباقلاء الواحدة ومغلف بقشرة سوداء وباطنه أبيض لاذع .

ومن المهن النسائية مداواة الأمراض النسائية والأطفال والتوليد . وتسمى المولِّدة (جدة) ، وصارت خبرتهن بالممارسة وليس بالدرس والتعلّم ، ويشتهرن بالمحلة نظراً لشطارتهن ، حتى صدر القانون بتنظيم مهنة القبالة لغرض تقليل وفيات الأطفال ووفيات الأمهات بحمى النفاس ، بسبب الأوساخ وقلة العناية . ومن النساء مَنْ يصنع ويبيع الشريص اللاصق المعمول من قموع البامية بعد تجفيفها وطحنها طحناً ناعماً ، لان قموع البامية تحتوي على مواد صمغية . وهناك نساء يخطن الألبسة النسائية وألبسة الأولاد الصغار ، وهن غير معلمات الخياطة (الإستات) .وكانت الخياطة تتم باليد مع لوازمها ، المقص والإبرة والكشتبان . وهي على نوعين ، خياطة تسمى شَلَالْ ، وهي الخياطة السريعة ، وخياطة تسمى شَلَالْ وكف ، وهي الخياطة الدقيقة الناعمة . وهناك نساء خاصات لعمل الدرز . ثم وصلت مكائن سنجر وانتشرت وسميت خياطة الماكنة (تِكَلْ) والفعل منها تتكل .

ومن النساء مَنْ يقرأن المواليد النبوية ، أو يعملن حفلات الاعراس . ومن أشهر المُلِيَّات في الكرخ كانت زكية الحجي عزيز ، التي قُتلت ابنتها مع سليم اسماعيل

الدرة في انتخابات جانب الكرخ بين مرشح حزب الاستقلال المرحوم عبدالمحسن الدوري ، وبين مرشح الحكومة شاكر الوادي .

وعلى ذكر القابلات ، كان في بغداد قابلتان (جدتان) مشهورتان. الأولى الحاجة أمونة الشعرباف ، وتسكن منطقة العبخانة ، وتشتهر بخفة يدها ومهارتها في تعديل وضع الجنين إذا كان مستعرضاً في الرحم (مْعُورِضْ) ، مما يسبب عسراً في الولادة ، وبذلك قد يموت الجنين أو الأم أو كلاهما معاً . فالمستشفيات والأطباء المولدُون غير متوفرين . لذلك يلجأ الأهل الى منائر الجوامع القريبة لقراءة دعاء (يا قريب الفرج) ، وقد يفرج الله عليها بشطارة الحاجة أمونة وتلد ولادة طبيعية .

والقابلة الثانية ، هي الحاجة (هندوسة) ، وتسكن جانب الكرخ ، وكانت بدينة جداً لا تستطيع الحركة ، لذلك كانت تحتفظ في بيتها بمحفة (سدية) ، حيث يأتي الرجال الأشداء لحملها بالمحفة الى بيت الحامل التي في المخاض . والسبب في تحمّل هذه المشاق هو مهارتها في تعديل وضع الجنين المْعُورِضْ في الرحم ، لكي ينزل عمودياً . والسبب الثاني لتحمّل الناس هذه المشقة ، هو تفاؤلهم بأن مَنْ تولّده هندوسة يُكتب له الحياة ولا يموت مثل بقية الأطفال لمختلف الأسباب . وليس هناك أجور مقررة للجدات ، بل هي إكراميات من الأهل . فإن كان المولود ذكراً زادت الإكرامية . وإن كانت أنثى بخل الناس في الإكرامية ، كأنَّ القابلة هي المسؤولة عن ذلك . وقد توفيت الحاجة هندوسة في أوائل الثلاثينات .

التمثيل والملاهي

حين التحقت بمدرسة التفيض الاهلية سنة ١٩٢٥ ، كانت هي والمدرسة الجعفرية تهتمان بالتمثيل اهتماماً كبيراً ، لكن نشاط التفيض كان أكثر ظهوراً من نشاط الجعفرية ، ويعود السبب في ذلك الى الذهنية المختلفة لأعضاء مجلس الأدارة ، فكانت في التفيض أكثر انفتاحاً ، وعرضت تمثيلياتها على الجمهور في صالة رويال سينما ، وكان محور النشاط هو السيد عبدالوهاب علي شقيق السيد حسين العاني مدير التفيض ، وهو يدرّس اللغة الإنكليزية فيها وأصول التمثيل ، علاوة على كونه موظفاً في وزارة المالية . وكان الكبار من التلاميذ في الصفوف السابعة والثامنة (كانت التفيض ذات ثمانية صفوف والأخيرة منها تعادل البكالوريا المتوسطة) ، يتدربون على التمثيل في المدرسة التي كانت تستأجر بيت عبدالله خيوكة القريب من أمانة العاصمة (دخل في استملاكات متصرفية بغداد سابقاً) . ومن الممثلين المجيدين في ذلك الوقت ، كان المرحومون صديق شنشل ، وعبدالرزاق شبيب ، وناظم الزهاوي ، وخضر عبدالجليل جميل ، وفؤاد واسماعيل الأطرقچي ، وأخيراً حقي الشبلي . وكانت البروفات تجرى تحت إشراف السيد عبدالوهاب علي . أما نحن الصغار من التلاميذ ، فكنا احتياطاً لبعض الروايات التي فيها أدوار للأطفال ، ومن أشهر التمثيليات التي قامت بها مدرسة التفيض هي تمثيلية « يوليوس قيصر » ، و « لولا القيصر » ، و « فتح مصر » ، و « النعمان ابن المنذر » . وقد اشترك المرحوم القارىء الحاج محمود عبدالوهاب في تمثيليتين وقرأ مقام الزهيري (روى الزيتون من دمعي ولا زاد) .

وحين حضر جورج أبيض الى بغداد وعرض تمثيلياته على مسرح السينما الوطني ، مقابل جامع السيد سلطان علي وأخذ لمعاونته وتدريبه المرحوم حقي الشبلي وأربعة من التلاميذ الصغار ، كنا أنا وكاظم البحراني ، وزكي يحيى وعبدالوهاب الأمين . وكنا نرى كيف كان جورج أبيض يعامل أفراد فرقته بالقسوة البالغة والشتم والضرب . ومن أشهر التمثيليات التي قدمها جورج كانت تمثيلية

(لويس الحادي عشر) ، وتمثيلية (هاملت) ، و (يوليوس قيصر) . وجاء القارىء المرحوم الشيخ أمين حسنين يقرأ القصائد والمواويل قبل بدء التمثيل وعلى مقدمة المسرح قبل رفع الستارة ، حيث تجرى الإستعدادات لاخراج التمثيلية بعيداً عن أنظار الجمهور . وكانت أجرة الدخول لمشاهدة التمثيلية ربيتان للصفوف الامامية وربية واحدة للصفوف الخلفية . أما أجرة اللوج ، فكانت عشر ربيات عن أربع كراسي . وكان قد جاء قبل جورج أبيض بمدة قصيرة أمين عطا الله وفرقته المسماة فرقة (كشكش بك) ، وبرفقته الممثلة الشابة الحسناء (إيزابلا) ، ولا أدري هل ان نجيب الريحاني استقى اسم كشكش بك من أمين عطا الله أم العكس ، واستأجر سطحاً مكشوفاً مقابل قهوة عارف آغا عرض فيه تمثيلياته . ويظهر ان نجاح هاتين الفرقتين قد شجعت فرقاً مصرية أخرى للقدوم الى العراق . فجاءت فرقة فاطمة رشدي وزوجها عزيز عيد ، وكانت فاطمة تجمع بين الجمال والفن وأشهر تمثيلياتها دورهما في رواية (فرخ النسر) ابن نابليون . وكانت تمثل هذا الدور باعتبار ان ابن نابليون كان مراهقاً وسيماً يشبه الفتيات (تزوجت فاطمة رشدي من أحد ضباط الشرطة العراقيين بعد ان طلقها عزيز عيد ، ولكن زواجها هذا لم يدم طويلًا ، فعادت الى مصر بعد أقل من سنة) .

وفي يوم من الأيام حضر الى مدرسة التفيض المرحوم رشيد الشبلي والد حقي ، وهو من محلة ألبو شبل في بغداد المشهورين بالشجاعة والعراك (بالمناسبة هي فخذ من عشيرة آل شبل في محافظة القادسية) ، وتخاصم مع السيد حسين العاني مدير التفيض بسبب ابنه حقي وانصرافه الى التمثيل ، وبعد أن أقنعه السيد حسين بأن التمثيل عمل لا يستوجب العار أو الخجل ، وانه محترم في جميع أنحاء العالم . فرضيَ رشيد الشبلي بشرط ألا يلبس حقي ملابس البنات ، إذ لم يكن في بغداد بنت تشترك في التمثيل ، بل كان يقوم مقام البنت أحد التلاميذ بملابس محترمة جداً ، وهي عبارة عن دشداشة چيت أو بازة ذات لون محترم مع شعر باروكة على الرأس ، وكانت متوفرة عند الحلاقين الذين يبيعونها لاخفاء الرؤوس القرعاء من الرجال والنساء على حد سواء . أما الملابس ، فكانت تُستعار من الجيش ، إن كان في التمثيلية موضوع عسكري أو تخيطها المدرسة حسب الظروف ومقتضيات التمثيلية . أما الملابس العربية والأسلحة ، فهي متوفرة وكانت من الخناجر والسيوف الحقيقية ، وأذكر اننا كنا نستعير سيفاً ذهبياً حقيقياً من المرحوم

اللواء ابراهيم الراوي ونعيده اليه بعد التمثيل . وكانت تمثيليات مدرسة التفيض تعرض في رويال سينما لسعته وفخامة الكراسي فيه ، وكان أجر الدخول اليه ربية واحدة للصفوف الأمامية ونصف ربية للصفوف الخلفية . أما الالواج وبطاقات الشرف التي يوزعها المعلمون على الوجهاء من الناس والاغنياء ، فليس لها سعر معلوم ، إنما تُدفع كتبرعات للمدرسة حسب كرم الشخص وأريحيته ، لذلك توفر التمثيلية مبلغاً محترماً للمدرسة من المتبرعين أكثر من المتفرجين . وأذكر ان موظفاً كبيراً في وزارة المعارف حضر الى المدرسة لتهنئة المدير والمشرف على التمثيل البارع والنجاح العظيم في رواية (فتح مصر) ، وخصوصاً دور المرحوم صديق شنشل في (عبادة بن الصامت) ، وعبدالرزاق شبيب في دور (المقوقس) . وطلب من عبدالوهاب علي ان يدرب تلاميذ الثانوية المركزية على التمثيل ، لكنه اعتذر ، لأنه كان موظفاً في وزارة المالية ولم تسمح له الوزارة بالتغيب عن الدائرة ، لأن التدريب على التمثيل سيتم نهاراً خلال أوقات الدوام .

في أواخر العشرينات وصلت الجرائد المصرية ، مثل (الأهرام) ، و (المقطم) ، و (السياسة) ، والمجلات المصرية ، مثل (اللطائف المصورة) الماسونية لصاحبها اسكندر مكاريوس ، ومجلة (المصور) لآل زيدان ، و (الكشكول) لسليمان فوزي ، و (آخر ساعة) ، و « روز اليوسف » للسيدة روز اليوسف ، والتي سمت نفسها فاطمة يوسف أُم الكاتب احسان عبدالقدوس . ثم المجلة المتخصصة بالتمثيل والفن ، وهي مجلة (الكواكب) لصاحبها مصطفى القشاشي . وفيها الأحاديث المفصلة عن التمثيل والفن عموماً ، فأصبح للتمثيل في العراق مفهوماً أرفع مستوىً من المفهوم القديم ، الذي كان يعد التمثيل نوعاً من (القشمرة) . وقيل ان أحد حكام الجزاء في بغداد ، حين سأل أحد المتهمين عن مهنته ، فأجابه انه ممثل ، فقال الحاكم لكاتب الضبط ، اكتب انه (قشمر) . ولا أستبعد ذلك ، لأن مفهوم التمثيل سابقاً كان يعني الفصول الهزلية (الإخباري) ، (والذي لم يكن يتجاوز السخرية من الممثلين ، إما من أنفسهم أو يسخرون بعضهم من بعض ، كما يجري الآن في بعض التمثيليات التي تسمى « هزلية ») . ونال الممثلون قدراً من الاحترام فأنضم الى المرحوم حقي الشبلي كثير من الشباب ، أمثال : فاضل عباس ، وصباح عطا ، وعبدالكريم مجيد ، وفوزي محسن ، وفائق عبدالله ، والمصر كوكو نوري ، الذي جاء مع فرقة أمين عطا الله ثم

استقر في بغداد وتوفي فيها .

وكان من علامات الاقتدار وحسن التمثيل هو التهريج والصياح وتضخيم مخارج الالفاظ ، وكان أعلى الممثلين شأناً في هذا الباب هو المرحوم فوزي . وانتشر التمثيل في المدارس وتالفت في الثانويات لجان الخطابة والتمثيل . وتأسست في الثانوية المركزية فرقة للتمثيل يرأسها التلميذ عبدالهادي المختار ، وفي دار المعلمين فرقة اشتهر فيها المرحوم عبدالله العزاوي وكان التمثيل يجري في قاعة المدرسة .

ومن الطريف ان جماعة من الهواة أسسوا جمعية لتشجيع التمثيل وأخذوا إجازة رسمية من الحكومة بأسم جمعية إحياء الفن . ومن مؤسسيها تقي شمس الدين ، وعبدالجبار بغداد ، وأحمد قاسم راجي ، وعلي الهدبان ، وسليم زلوف ، وصلاح حسين ، والمرحوم الشاعر كمال نصرة واستأجروا لهم غرفة في سينما رويال وأعلنوا عن حفلة افتتاح الجمعية ، ودعوا الناس الى الحضور في السينما الوطني بشارع الرشيد بعد ان أقنعوا المرحوم معروف الرصافي أن يلقي قصيدة بهذه المناسبة وحضر كثير من الناس الى حفلة الافتتاح ، وألقى الرصافي قصيدته المشهورة والتي مطلعها :

إن رُمت عيشـــاً نـــاعمـــاً ورقيقـــاً
فـــاسلـــك اليـــه من الفنـــونِ طـــريقـــا

وبعد ان قامت الجمعية بتمثيل رواية واحدة بلغ إيرادها أربع مئة (٤٠٠) ربية تقريباً ، بينما كان مصرفها مع إيجار القاعة وأعمال النجارة وقيمة الثياب وخياطتها وأجور المستخدمين أكثر من (٤٦٠) ربية . لذلك أعلن رئيس الجمعية ، عزت أفندي من سكان محلة رأس الكنيسة ، وكان هاوياً للتمثيل ، افلاس الجمعية واجتمعت في غرفتها برويال سينما ، وكان بانتظارهم سكرتير الجمعية المرحوم الشاعر البائس كمال نصرت ، وافتقد الأعضاء غطاء المنضدة من الجوخ الأخضر وطوله ست ياردات ولاحظوا ان كمال نصرت يرتدي سترة من نوع الجوخ المذكور . ولما سألوه من أين لك هذه السترة يا كمال ، فأجابهم ان الجوخ جوخ الجمعية ، وحيث لم يكن لدي ما أدفعه أجراً للخياط ، فقد اتفقت معه على قطعة الجوخ الى قسمين ، نصف لي للجاكيت ونصف الآخر للخياط ، بدلًا عن أجرة الخياطة . وهكذا ذهبت الجمعية وأدواتها وفنها وسكرتيرها الى غير رجعة .

أما الملاهي والمراقص ، فكانت قليلة وتتجمع في منطقة الميدان مركز اللهو

والسهر . فكان أوتيل الهلال وبه بدرية السواس وفرقتها ، لهذا سمي أوتيل بدرية السواس . ثم ملهى نزهة البدور وقهوة عزاوي ، وقد كانت الراقصة (بديعة عطش) من أحلى الراقصات اللواتي قدمن بغداد ، وهي التي خلدها الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري في قصيدته التي مطلعها :

هـــــزّي بنصفـــــك واتـــــركي نصفـــــا
لا تحـــــذري لقـــــوامـــــك القصفـــــا
أبـــــديعـــــة ولأنت مقبلـــــة
تستجمعين اللطف والظـــــرفـــــا

الى آخر القصيدة .

وكانت الراقصات والمغنيات يجلسن على الكراسي بصف واحد في آخر الشانو (المسرح) وأمامهن الموسيقيون في الصف الاول من الشانو . وكان من أشهر المغنيات والراقصات : رحلو ، وسلطانة يوسف ، وصديقة الملاية ، وبدرية أُم أنور ، وجليلة العراقية أُم سامي ، وخديجة علي ، وسليمة مردخاي (سليمة باشا) ، وبدرية السواس ، وفريدة علي ، وجميل دُنگر ، وحسيبة ألماز . وعلى جدار المسرح لوحة كبيرة كُتب عليها : (طلب البستات ممنوع) ، ذلك لحصول المعارك وسقوط بعض القتلى والجرحى في التنافس على طلب البستات . ومَنْ يتأخر طلبه ويتقدم الآخر ، فلذلك يعد اهانة له لا يغسلها إلا الدم . وعلى الجهة الثانية من الجدار لوحة كبيرة مكتوب عليها (البصاق ممنوع) ، وأجرة الدخول الى هذه الملاهي أربع عانات (والعانة ٤ فلوس) . وبعد انتهاء الغناء والرقص يبدأ فصل هزلي (إخباري) يقدمه المرحوم البائس (جعفر آغا لقلق زاده) بالاشتراك مع حسقيل أبو البالطوات ، وكلاهما ماتا عوزاً وبؤساً . ولولا لطف وحنان إحدى الفنانات التي عطفت على جعفر آغا لقلق زاده (واسمه كامل عبدالمهدي) ، وهو من أهالي كربلاء ، واهتمت بإيوائه ومعيشته وملبسه الى ان توفي ودُفن في مقبرة براثا .

أما المغنية سليمة مراد ، وهي إيرانية الاصل واسم أبيها مردخاي وليس مراد ، فلم تمتهن الغناء إلا في أواخر العشرينات ، وكانت قبل هذا هي وأخواتها روزة ومسعودة تحت رعاية أُختهن الكبيرة رجينا المشهورة والمعروفة في بغداد ، والتي كانت ملجأ الى بعض الذين يحتاجون الى مال أو جاه ، وحين اكتشفت رجينا قابليات

أختها وحنجرتها الصافية ، بدأت تصقل مواهبها الغنائية ، فتتلمذت على القارىء رشيد القندرچي ، وسلطانة يوسف ، وجليلة أم سامي ، وأخذت عنهم الشيء الكثير وتفوقت عليهن وأضيف الى اسمها (باشا) دلالًا ، لأنها كانت حسنة المعاشرة والتصرف . وأما أختها رجينا ، فقد قُتلت في بيتها بالكرادة من قبل شخص مجهول بعد ان خلّفت بنتاً اسمها نجية ، التي كانت تحمل الجنسية البريطانية ، لذلك سُفِّرتْ مع البريطانيين الى فلسطين في ثورة مايس ١٩٤١ ولم تعد الى العراق . أما روزة ومسعودة فليس لهن شأن يُذكر .

ثم انتشرت الملاهي والمغاني في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات ، خصوصاً بعد افتتاح المعرض الصناعي الزراعي في باب المعظم وقدوم الفرق التمثيلية والفنانين المصريين ، ونشطت أسواق الفن وصار التمثيل عملًا مشرفاً لا يخجل منه الإنسان ، بل صار يفخر بكونه فناناً . أما التمثيليات ، فكانت كلها مترجمة ، إذ لم يكن هناك مَنْ يتطوع لتأليف التمثيليات . وفي موضوع الملاهي والمغنيات ، فهناك كتاب المرحوم عبدالكريم العلاف ، ففيه التفاصيل الكثيرة.

أما السينمات ، فكانت (السينما العراقي) في محلة الميدان ، و (رويال سينما) في باب الاغا ، و (سنترال سينما) في محلة العمار قرب تكية البدوية ، ثم (سينما أولمبيا) في محلة المربعة ، وفي الأخير (السينما الوطني) . وقد كان أفخم هذه السينمات وأروعها أثاثاً هي (رويال سينما) العائدة الى آل السيد حسين يحيى ، ويرتادها التجار والملاكون في بغداد . فكراسيها وثيرة مغطاة بالمخمل ، وألواجها ذات خمسة كراسي واسعة ، وستائرها مخملية أيضاً تفصل بين لوج ولوج ، وفي واجهة كل لوج لوحة زيتية لأحد الرسامين ، لذلك كانت تبدو كأنها أحد ألواج دار الاوبرا في باريس أو لندن . وكان للسينما بابان ، على شارع الرشيد في باب الاغا ، والثاني باب خلفي يتصل بدربونة آل السوز ، وكانت هذه السينما أول ما رأيت من السينمات ، إذ أخذنا المدرس المرحوم السيد أمين الخضار ، ونحن تلاميذ في الصف الثاني إبتدائي ، بعد ان أقنع أولياء أمورنا ، بأن السينما ليست من الأمور المحرمة وعرض علينا منظر من الحرب العالمية الأولى وبعض المناظر الهزلية . أما (السينما العراقي) ، فكان لا يدخله غير سكان منطقة الميدان ، إذ تعد هذه المحلة غير لائقة لكثير من الناس ، خصوصاً الصغار والشباب . ثم سينما المربعة (أولمبيا) ، وروادها قليلون . وقد أهمل شأنها وعافها الناس . أما سينما

(سنترال) ، فكانت واسعة ، ولكنها ليست فخمة ولا مريحة ، وهي السينما الوحيدة التي كانت تعلن عن منهاجها ، حيث كان عباس حلاوي وشريكه ساسون يقفون على باب السينما ويعلنون عن المنهاج بصوتٍ عالٍ (أربع مناظر ستة ايدي بولو ، شارلي شابلن الهزلي ومسلسل لوك أبو النظارات ومسلسل جاكي كوخان ومسلسل طرزان) .

وبعد انهبط مستوى (رويال سينما) قليلًا ، صار يعلن عن مناهجه ، إذ يصعد عباس حلاوي على العربة في شارع الرشيد (الليلة عدنا تبديل في رويال سينما) . ثم السينما (الوطني) ، وكان نظيفاً ومرتباً ، بالرغم من صغر مساحته . أما ترجمة الفيلم الى العربية ، فكانت تُطبع على الجدار بجانب الشاشة وفقاً لسيرة الفيلم . وقبل الدخول الى السينما يتسلُم كل واحد من الداخلين ورقة مطبوعة فيها عنوان الفيلم والممثلون ومؤلف القصة ، مع مختصر عن القصة ، ليكون للمتفرج علم بمحتوى الفيلم ، وهذا كله أيام السينما الصامتة . فلم تصل السينما الناطقة الى بغداد إلا في أوائل الثلاثينات .وكان من أشهر الأفلام في العشرينات فيلمان هما : (خطايا البشر) ،الذي قام بتمثيله الألماني إميل جاننكس . وقد استمر عرضه عدة أسابيع والناس مزدحمون على الأبواب في (السينما الوطني) بمشاهدته . والثاني هو الفيلم الحربي (كل شيء هادىء في الجبهة الغربية) ، قبل أن يكون فيلماً ناطقاً . ثم مسلسل طرزان وأفلام شارلي شابلن .وفي الثلاثينات شُيدت السينمات الاخرى ، مثل : سينما (الرشيد) ، وسينما (الزوراء) ، وكانت كل هذه السينمات يديرها اليهود مع بعض الشركاء ، وكان أكثر رواد هذه السينمات هم طلاب المدارس . أما النساء ، فلم يكن لهن نصيب من السينمات ولم تتوفر لهن المتع البريئة ، مثل السينما وغيره الى ما بعد انقلاب بكر صدقي في منتصف الثلاثينات ، حين بدأت الجرائد البغدادية مقالاتها بعنوان (نريد جواً من المرح) ، بقلم المحامي سلمان الشيخ داود . وبعد ان شاهد الناس بكر صدقي وجماعته يرتادون محلات الأنس والفرفشة ، حيث كان الناس يتصورون ان الحكام هم أنصاف آلهة .

الطرب والغناء والاعياد

كانت مجالات الطرب في بغداد قليلة ، لأن الوضع الاجتماعي والاقتصادي لم يكن يسمح بذلك ، إلا ما هو متصل بحفلات الأعراس والختان ، أو ختم القرآن أو قدوم الحاج من مكة سليماً معافى ، أو في بعض الملاهي بجانب الرصافة في منطقة الميدان . ففي الأعراس يُستدعى (أبو الطبل) والدنبگ والصاجات النحاسية والصرناجة ، التي تقوم مقام الناي ، وهذا الجوق الكامل يحضر عند مَنْ يستطيع الدفع ، وبعد كل فصل من الفصول المتفق عليها ، يقوم ضارب الطبل ويعلن (شوباش شوباش) ، إيذاناً بدفع الإكراميات من المدعوين ، علاوة على الأجرة المقررة والفطور الدسم ، أو العشاء الأدسم ، ولا اعتراض إذا أخذوا معهم الى بيوتهم شيئاً مما قسم الله من الطعام أو الحلويات ، وفي الأعراس المهمة يشترك مع جوق الموسيقى (شعّار) ، وهو راقص ممتهن يلبس الملابس النسائية ويطلي وجهه بالمساحيق مثل الحمرة والخطاط والديرم والنونة ، مع بعض الأسنان الذهبية التي يركبها تحمساً لهذه الحفلات ، ثم يلبس الشعر المستعار ويرقص أمام الحاضرين وينال من إكراميتهم ما هو المقسوم . وكان الشعاعير يتمركزون في محلة الميدان قرب سوق الهرج . وأشهر شعّار في بغداد هو (يحيى زكريا) ، وكان يعلِّم الرقص للآخرين أيضاً . أما أعراس الفقراء فتكفيهم لعبة كبيرة من القماش على هيئة امرأة يرقّصها عامل مختص بهذه المهنة ، إذ يرفعها على عمود من الخشب ويكتفي موسيقياً بدنبك واحد ودف زنجاري يضرب عليهما أحد الأقارب أو الاصدقاء .

وفي الحفلات الرجالية الوقورة يقتصر على قراءة المولد النبوي وبعض التواشيح على نغم البستات التي تعقب كل توشيح . أما الحفلات النسائية ، فكانت المُلّايات يقمن بهذا الواجب الذي لا يخرج عن كونه من طراز المولد النبوي . وأشهر مُلّاية في الكرخ كانت (زكية الحج عزيز) ، وهي تقلّد عثمان الموصلي ، الذي أحيا عدة حفلات في جانب الكرخ بمعاونة مريده المرحوم الملا فتاح المعروف .

أما ملاهي الغناء والمغنيات ، فجانب الرصافة يجمعهم ، وكان المرحوم

(عكار) يغني في قهوة الكمرك على رأس جسر المأمون متربعاً على التخت ومنفرداً برابته ، وكان حتماً علينا أن نقف عند عبورنا الجسر ، لنستمع الى صوته الرنان المتميز والذي يقترب من صوت ولده درجة وصفاء .

وكان (يوسف حوريش) يغني في قهوة الشط الفوقانية مع جوقه الموسيقي المؤلف من اليهود ، مثل (يوسف بتو) و (عزوري) ، و (صالح الكويتي) ، وكان (رشيد القندرچي) يغني في عدة مقاهي ، مثل قهوة (القيصرية) في شارع البنك ، وقهوة (الشابندر) قرب المحاكم في شارع المتنبي (الأكمكخانة) ، وقهوة (هوبي) بالسنك . وكان يهود بغداد لا يستأنسون إلا برشيد القندرچي ، باعتبار انه يضبط المقامات ويجيدها ، بالرغم من صوته المبحوح . وكان مختصاً بحفلاتهم البيتية ، فهم لا يستقدمون (محمد القبانچي) الى بيوتهم ، لأن مريدي القبانچي ومحبي سماعه أكثرهم من المسلمين . وخشية من إفساد الحفلة بحادث مكدر ، ابتعدوا عن القبانچي وابتعد هو أيضاً عنهم . أما قراء المقام من الهواة ، فكانوا يلجأون الى منائر الجوامع تنفيساً لرغبتهم ، وذلك بالتمجيد فوق المنائر وخصوصاً ليالي الجمعة بقراءة (سبحانك ما حمدناك حق حمدك يا محمود) . (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يا معبود) . وأشهر مَنْ كان يمجِّد على المنائر هو الحج (نجم الشيخلي) في مسجد الشيخ عبدالقادر الكيلاني و (الحاج سالم) في جامع الحيدرخانة . أما المغنيات فيحضرن حفلات الأعراس عند اليهود فقط ، ومن المشهورات سلطانة يوسف ، ورحلو ، وفخرية قيجو ، وجميلة دُنگر ، ورمزية الحلبية ، وبعدهن سليمة مراد ، وحنينة (بنت المُجَدِّي) . وكان جوق الموسيقى يتألف على الأكثر من عزوري يوسف بتو . وقد يستقدمون الحاج يوسف كربلائي للعزف على القانون وللغناء بنفس الوقت ، ولكن انتشار الكرامفون وتوفر اسطوانات بيضافون كمپني و صوت سيد ، دعيا المغنين ، مثل محمد القبانچي ، وعبدالقادر الموصلي وأخيه ، ورشيد القندرچي ، ويوسف حوريش ، والباقين أن يسجلوا كل المقامات العراقية والبستات . فانصرف أكثر الناس الى استماع اسطوانات أم كلثوم القديمة وأغانيها ، مثل (مالي فُتنت) ، و (حقك أنت المنى والطلب) ، و (أفديه إن حفظ الهوى) ، و (أماناً أيها القمر المطل) الخ . وكذلك أغاني منيرة المهدية ، وفتحية أحمد ، وسكينة حسن ، والشيخ درويش ، وسلامة موسى ، والسيد السفطي ، والشيخ حسنين ، ثم اسطوانات المغنيات العراقيات ، مثل بدرية أم أنور ، وسلطانة يوسف ،

وجليلة العراقية أُم سامي ، وسليمة مراد .

وبانتشار الكرامافونات ورواج سوق الأسطوانات ، قام لفيف من الرعاع ، مثل سلمان البهلوان ، وأسد الكرخي ، بتسجيل اسطوانات ذات ألفاظ فجة ومعاني تافهة ، مثل (تي بنبا ترلرلم) ، و (يكلاو كالوكه) ، و (مركب فجل سويت) . أو (يا شايل التمن فيصل ما يتأمن) ، وما (أحد داير بالو) . وقد انطفأ نجم بعض المغنيات ، فسلطانة يوسف تركت بغداد الى الموصل ، وجليلة العراقية أم سامي تزوجت وتركت الغناء ، وكانت أجملهن وأكثرهن حشمة ، وقدمت آخر حفلاتها في جزيرة كرد الباشا ، وانصرفت صديقة المُلاّية الى قراءة المواليد ، ولم يبقَ في الساحة غير سليمة مراد ، وخديجة علي ، وماري يعقوب ، وخلت من المغنين ، عدا المرحوم رشيد القندرچي ، الذي غطى على الساحة الغنائية ، حتى ان شركة حوريش للأسطوانات التي حاولت بواسطة نفوذ اليهود ان تبقى في الساحة أغلقت محلها في رأس شارع المتنبي . ولم يبقَ في الملاهي سوى فناني الدرجة الثانية والثالثة ، مثل حسيبة ألماز ، وفريدة علي . وحضرت منيرة المهدية الى بغداد قبل أُم كلثوم ، وقدمت بعض الحفلات . وجاءت فتحية أحمد أيضاً ، لكنها لم تمكث في بغداد إلا بضعة أيام . ثم غادرت بحجة ان أهالي بغداد ليسوا (سميعة) .

أما أشهر الملاهي ، فهو ملهى (الهلال) و (نزهة البدور) ، و (قهوة عزاوي) ، وأخيراً ملهى (الجواهري) ، الذي لمع فيه نجم راقصات مثل بدرية السواس ، وبديعة عطش السورية الجميلة ، وأخيراً ملهى (الأوبرا) لصاحبه سليم ماشاء الله ، وكان قد سمي أولًا ملهى الأحمدية ، باعتبار ان أرضه من أوقاف جامع الأحمدية ، فاعترض على هذا الاسم غير اللائق بالملهى ، فأبدل اسمه الى ملهى الأوبرا . وكان جعفر آغا لقلق زاده ، وحسقيل أبو البالطوات يختتمون ليالي الملاهي عادة بفصل هزلي يسمى (إخباري) ، وبعدها بدأت الملاهي تنتشر في حدائق المعرض الصناعي الزراعي في باب المعظم بعد افتتاحه في بداية الثلاثينات .

وكان الهواة أصحاب الأصوات الجميلة يظهرون مهارتهم في الغناء أثناء نزولهم بالقوارب الى شاطىء الگاورية في كرادة مريم صيفاً للاستمتاع برطوبة الشواطىء وأكل السمك المسكوف ، خصوصاً مع البلّام الشهير (دعبول)، الذي خلّده الأستاذ الفنان يوسف العاني . وكان دعبول من أحسن قراء المقام العراقي ، خصوصاً بعد ان يدهن (زردومه) بقدح أو قدحين من العرق الموصوف (سطعش) حقة مستكي

ومثلها نبات) . والپستة الشهيرة (يعجبني نزله وياك للگاورية) على كل لسان .
وعلى ذكر دعبول البلام ، فلا بد من ذكر (خزعل السماچ) ، فهو أحسن مَنْ سگف السمك في بغداد . وقد أخذه الشيخ بلاسم الياسين مرتين الى لندن ليسگف له السمك المرسل من بغداد هناك في بعض ولائمه الخاصة . وقيل لي انه قد أخذ الى باريس أيضاً ليسگف السمك الشبوط هناك في إحدى المناسبات . وكانت شواطىء الگاورية ممتلئة بالچراديغ والخيم على قطع الأرض التي يستأجرها المصطافون من الفلاحين أصحاب الأرض . كما ان هؤلاء المغنين يبدون مهارتهم في موسم سلمان پاك أيام الربيع ولمدة شهر أو أكثر ، حيث تُصَف الخيام والسيباطات (جمع سيباط) . وتبدأ الحفلات الليلية والپستات والمربعات البغدادية ، وكان المشهور بالمربعات هو الملّا علوان مدرع من محلة الدشتي . ووجود العوائل في سلمان پاك أمر غير مستنكَر . وبمناسبة الحديث عن الطرب والغناء لا بد من ذكر مستلزماته والأجواء التي تحيط به ، فحفلات الطرب عند اليهود تقام في السراديب ، لئلا تعلو الاصوات كثيراً وتستوجب تجمع الناس وحدوث المنازعات ، لذلك تكون الحفلة مستورة ، وأول لوازمها هو العرق المستكي . وأشهر وأحسن البائعين في بغداد هو يعقوب طيارة مقابل جسر مود تماماً ، والثاني انطون مسيح صاحب امتياز التقطير (معمل تقطير مسيح) . ثم معمل (تقطير الأهلية) لادورد عبودي وحسين العاني . أما اليهود من ذواقي العرق ، فلا يشربونه إلا من تقطيرهم في بيوتهم ، وهم أصحاب مهارة في خلط (العقدة) ، وهي المواد التي تستحلب ليكون للعرق طعماً لطيفاً ، وأهمها الحيوة ، وهي (السفرجل) الاصفهانية إذا توفرت وأفخاذ الدجاج واللوز وقشور البرتقال مع المستكي و (الاب نبات) لتخفيف حدة مرارة المستكي المستورد من اليونان . وبعض اليهود يضيفون الى العقدة ورق نبع النارنج أيام الربيع ، وليس نبع البرتقال أو النومي ، فالنارنج يعطي للعرق نكهة ولوناً خاصاً . وقد تشترك عوائل عدة في التقطير ، ثم يعبأ في أواني زجاجية كبيرة تسمى (بيقاية) لتوزيع استحقاق العوائل . واليهودي لا يستعمل المزة ، بل يكتفي بالتذوق بطرف اللسان ، أو بدون مزة ، ولا يشربه إلا مساءً بعد أن يتناول (الدنگة) ومعناها السند الذي يقوّي المعدة لتحمل العرق ويشربونه صرفاً باعتقاد ان الماء مع العرق يضر المعدة ويفضلون الموالح ، مثل الفستق واللوز ، أو حب الشجر الروماني ، ويشربونه في بيوتهم باستكان الشاي . وإذا كانوا خارج البيت فيضعونه بقنينة صغيرة في

جيب الجاكيت مع قصب لامتصاصه ، ولا يتناولون العشاء بعد المشروب مباشرة، ويفضلون تناوله بعد استراحة وسماع شيء من الغناء والموسيقى .. وفي حفلاتهم البيتية لا بد ان يدعون أحد وجهاء المحلة للهيبة والحماية ، خصوصاً إذا كان الوجيه من أصحاب المراجل . وإذا كانت الاغاني الصوفية تعد نوعاً من أنواع الطرب ، فان حفلاتها كانت تقام في جانب الكرخ وفي الرصافة ، ولا بد من استعمال الدفوف الكبيرة في هذه الحفلات . كما كانت تقام حفلات (الهيوا) في محلة الجوية ، وكان أكثر سكانها من مسلمي كينيا ومن مينائها ممباسا على المحيط الهندي ، ومن أهالي الصومال أو زنجبار . وكان بالمحلة ميدان كبير مسور للقيام بهذه الحفلات ، حيث تُرفع الأعلام الكبيرة وتُدَق الطبول والنقارات ، وكانت نغماتها تشبه النغمات الافريقية . أما الأغاني ، فتبدأ بجملة (لا إله إلا الله يا رب توبة). أما حفلات رقص المولوية ، فلم أشاهدها في بغداد ، بل شاهدتها في التكية المولوية بدمشق في جامع السلطان سليم ، وغالباً ما تنتهي حفلات الذكر بضرب الدرباشة. وأشهر حفلة ذكر عامة في بغداد كانت في حديقة مود بالصالحية في ساحة التئل الكبيرة . وقد أقامها جماعة من دراويش الأكراد النقشبندية والقادرية بمناسبة إعدام الشيخ سعيد النقشبندي ورفاقه من قبل مصطفى كمال اتاتورك بعد ثورتهم سنة ١٩٢٦ . وكان منظرهم رهيباً بشعورهم الطويلة المدلاة على أكتافهم . فبدأوا يطعنون أنفسهم بالدرباشات ، ثم بدأ ضرب السيوف واستل أحدهم سيفاً وأهوى به على بطن رفيقه المكشوفة ، فلم ينبثق منها الدم . وحين جاء دور الضرب على الرقبة ملأنا الخوف والرعب ، فانهزمنا تاركين الحفلة غير نادمين .

ويطرب الناس كذلك في ليلة المحيا في ١٥ شعبان ، وفيه تُباع حلويات المخلط ، مثل ملبس أبو الهيل ، والمصقول ، وذرق العصفور الملون ، وكعب الغزال ، والساهون ، واللوزينة ، والعلوجة ، وأصابع العروس ، والحامض حلو ، وكل ما يوضع بالجيب من الحلويات . وفي هذه الليلة نسهر حتى الصباح مع الضرب على الدنابك الصغيرة والكبيرة . وفي كل مكان تسمع هذه الأغنية (غَمج علي ياالنايمه وهي فرد هالليلة) ، أي تعساً لك يا صبية ، كيف تنامين بهذه الليلة الفريدة . ومنعت الحكومة صنع البوتاز واستعماله بعد ان سببت حوادث مؤسفة قُتل فيها بعض الشباب واحترقت عدة بيوت ومقاهٍ .

والمناسبة الاخرى هي (صوم زكريا) في أول يوم أحد من شهر شعبان ، وعلى

كل عائلة أن تشعل الشموع في صينية كبيرة ، وفيها ما لذّ وطاب من الحلويات والاغذية (عدا المرق والرز) ، وتوضع عدة أباريق فخار صغيرة تُعمل خصيصاً لهذه المناسبة وتُملأ بأوراق الآس تفاؤلًا ، ويضرب الصغار على دنابگ صغيرة ، وبعض البنات الصغيرات يصمن عن الكلام من الصباح حتى الظهيرة ، إلا بالإشارة ويسميه بعضهم (صوم الخرساني) .

ولا يتم الحديث عن الطرب والغناء بدون ذكر الكاولية . وكان أكثرهم من الإيرانيين دخلوا الى بغداد للاستجداء وخطف الأطفال . أما أغانيهم المتردية ، فكانت لا تُسمع إلا في الأرياف المحيطة في بغداد . ولم نسمع الغناء الريفي إلا نادراً في بغداد ، وذلك حين تحضر المغنية الريفية المشهورة (مسعودة عمارتلي) ، والمسماة مسعود عمارتلي مع الناظم الملحن المشهور (عيسى) ، والذي يسمونه عويس الذي لم يغني لانه أبح الصوت . وقد سجل مسعود عدة اسطوانات وان أكثر أغاني الجنوب الريفية هي من نظم وتلحين عويس . أما حضيري أبو عزيز الذي كان شرطياً في الناصرية ، فلم يحضر الى بغداد ويغني إلا في الثلاثينات .

أما في الاعراس ، فان الغناء يقتصر على أصدقاء وأقارب العروس ، أو أحد المُلّايات لقراءة البستات مع جوقتها . والرقص يقتصر على أخوات العروس أو أقربائها ، وبعض الفتيات الصغيرات من سكان المحلة . وفي ليلة الزفة تجلس العروس على كرسي وسط الحفل ، وقد لبست أجمل ثيابها وما عندها من الحلي الذهبية والمصاغ ، ويسمى (الخشل) . وفي نصف ساعة تقوم العروس مع صاحباتها أو أمها لتلبس بدلة أخرى ، دلالة على ان لديها من البدلات شيئاً كثيراً .

أما المتفرجات والابواب مشرعة لهن ، فإما أن يأتين سافرات معروفات ، أو يأتين متنكرات لا يظهر من وجوههن إلا العينان ، ويقال حينئذٍ (جايات تبديل) ، وذلك للتفرج ثم الرجوع والقيام بالتعليق والانتقاد ويبدأ (القشب) .

أما العريس ، فيكون معزوماً على العشاء عند صديق أو قريب ، وبعدها يذهب مع رفاقه الى الجامع الاقرب لصلاة العشاء ، وتبدأ الزفة من الجامع يتقدمها حامل فانوس اللوكس ، والاصدقاء يرمون الاباريق الفخارية على الارض لتكسيرها ، أو يقرصه الاصدقاء من خلفه ، وأعتقد ان سبب هذه الجلبة هو تصريف ذهن العريس وتفكيره الى أشياء أخرى غير العمل المقدم عليه والذي يجهل وقائعه ونتائجه ، وعند وصوله قرب بيته تصعد العروس الى غرفتها بمساعدة أمها التي توصلها الى

غرفة الزفاف ، ويدخل عليها العريس ، الذي ينتظره أبوه وإخوته في غرفة أخرى حتى يخرج اليهم بعد أن ينهي واجبه المفروض عليه ، وتخرج أم العروس حاملة المنديل الاحمر . عندها تبدأ الهلاهل (العمارية) ، إيذاناً بالانتهاء الناجح. وإتماماً لعملية الدخول فان حمّام الصباح المشترك ضروري وعدة الإفطار الدسم من القيمر والعسل والبيض واللحم الذي يقدم من أهل العروس .

وتبدأ الهدايا والصواني من البقلاوة واللوزينة ومَنّ السِمَا والحلقوم وكلّات القند الخمسة ، وينتهي الحفل في اليوم السابع .

وأود أن أتطرق الى القارىء الشاعر الرياضي المُلّا عثمان الموصلي الذي نال اهتماماً واسعاً ، وأُلفت عنه الكتب والرسائل ، ونال نصيباً من التلفزيون العراقي في مسلسله ، وقد عرف الناس الشيء الكثير ، ولكن خليفته ومريده المُلّا عبدالفتاح المعروف لم ينل نصيباً مهماً من أبحاث المُلّا عثمان ، وقد سجل المعروف اسطوانات أشهرها الابوذية المستخرجة من بيت الشعر :

(لقــد ثبتت في القلبِ منــك محبــةٌ
كمــا ثبتتْ في الــراحتينِ الاصــابـعُ)

وأخرج منها البستة المشهورة :

(فــانوس خدك لــو فَنَـر لــو كهـربـائي لــو كُمَـر)

وهي من تلحين الملا عثمان ، عدا عن مقامات وبستات أخرى غيرها ، ثم انصرف نهائياً الى قراءة وتجويد القرآن .

وكان هناك هواة يغنون في بيوت أصدقائهم أو في مناسبات خاصة ، ومنهم عبدالامير طويرجاوي ، الذي يختص بالغناء الريفي ، ومحمد العاشق ، الذي قدمه التلفزيون الى المشاهدين ، وهناك محمد الصيقل ، ومحمد أبو ندر ، وهو موظف في وزارة العدل ، ودعبول البلّام ، وبزاني السامرائي ، وقد كان (شاغولًا) في المواليد ، شانه شأن الحج شعبان رئيس الشواغيل في المواليد النبوية . أما المُلّا مهدي والحج محمود ، فلم يبرزوا إلا في الثلاثينات . أما الاحتفالات بالاعياد ، فكانت سانجة جداً . ونحن الأطفال كنا في غاية السرور ، ذلك ان جيوبنا تمتلىء بحامض حلو وكليجة وبعض القروش . أما في عيد الاضحى فنشبع من الكباب والتكة والمعلاق والهبيط ، مما نذبحه أو يذبحه الجيران من الاضاحي . ولكن فرحتنا الكبرى غير

مقاهي بغداد

شهرة المقهى لا تتعلق بمساحة المقهى أو المنطقة ، بل لأسباب متعددة . ومن أشهر مقاهي الكرخ :

أولاً : قهاوي عگيل :

(لا يقال مقاهي) في سوق حمادة ، وهي أربعة قهاوي متجاورة يرتادها أفراد عشيرة العگيل في جانب الكرخ ، حيث يسكنون ابتداءً من سوق حمادة باتجاه (خانات الأباعر) الى (العنازية) الى (الشيخ معروف) ، ثم من منطقة سوق الجديد ، التي تبدأ من دكان الحجي أحمد العطار حتى قهاوي عگيل ، مروراً بجامع عطا وطرف بارودة والدهدوانة ، والحصانة . وعگيل يمتهنون التجارة والنقل الى خارج العراق بواسطة الجمال . كما يلتقي في هذه القهاوي قسم من تجار الخيول التي تُصدَّر الى الهند لتركض في ساحات السباق في مدينة بونا الهندية قرب بومباي . وقد اتخذ النجدي الخبير بالأنساب عبدالعزيز الصقير هذه المقاهي مقراً له حين بدأ بارسال العراقيين الى نجد يوم كثرت أموال السعودية واحتاجت الى شباب وموظفين من أصل نجدي ، وكان عبدالعزيز يختارهم ويشجعهم . فذهب كثير منهم الى السعودية وتسلموا الوظائف الكبيرة ، فكان منهم وزراء وسفراء وموظفون في أعلى الدرجات ، أمثال ابن الرواف ، وابن الكحيمي ، وابن حجيلان ، وابن زين ، وابن أبو الخيل ، وغيرهم . فلسنا في باب تعدادهم .

ثانياً : قهوة العكامة ، أو قهوة حسون :

لأن حسون كان يديرها قبل انتقاله الى قهوة البيروتي التي تقع على الجهة الجنوبية من الجسر . وكانت قهوة العكامة (مرافقي القوافل وأدلائها) تنقسم الى قسمين ، الكبير منها في البداية وهي العامة . والصغيرة في النهاية . وكان فيها أربع نخلات وبضع أشجار من الدفلاء ، وكانت غير مسقفة وتطل على نهر دجلة مباشرة ، وكان يرتادها الأدباء والفضلاء من أهالي الكرخ ، وأذكر منهم عبدالله القصاب ،

ومحمود عزة عبدالسلام ، وأحمد البغدادي ، ومحمود مصطفى الخليل ، وداود العجيل ، ورشيد الهاشمي ، وتوفيق الفكيكي ، وملا نجم البصير ، وسعيد جوجه. ويظهر ان كياسة ولطف القهوچي حسون هو الذي جلب الشهرة الى المقهى.

ثالثاً : قهوة البيروتي :

وهو ابراهيم البيروتي الكرخي . وهذا المقهى أكثر سعة من قهوة حسون ، إذ تمتد الى منتصف سوق خانات الصوف والجلود والدهن ، مثل خان حمودي الوادي ، وخان بيت الهندي ، وخان الفنهراوي . وكان مدخل قهوة البيروتي الكبير العريض ملتقى الظرفاء من الكرخ ، مثل الملا عبود الكرخي ، والفنهراوي ، وحمودي الوادي ، وتوفيق الخانچي ، وغيرهم من تجار وأصحاب الخانات التي لم تكن تسمى خانات ، بل كانت تسمى (أسياف) لكبر مساحتها وتنوع البضائع فيها . واشتهرت قهوة البيروتي كذلك بالنركيلة التي يشرف على تحضيرها وتعميرها الأسطى علوان النركيلچي . وكانت زوايا القهوة الخلفية مخصصة الى لاعبي القمار وعلى رأسهم ابراهيم البيروتي نفسه ، وهذا هو الذي أساء الى سمعة المقهى وانصرف الناس عنها ولم ينجح البيروتي في قهوة أخرى غيرها .

أما في جانب الرصافة ، فأشهر المقاهي هي :

أولاً : قهوة الشط الفوقانية والتحتانية :

وهي ملتقى تجار المنطقة وأصحاب المصالح في كمرك بغداد على رصيف بناية المستنصرية ومراجعي البواخر النهرية والمسافرين والقادمين من والى البصرة في مراكب بيت لنج ومراكب بيت الخضيري . هذا في التحتانية .

أما الفوقانية ، فيلتقي فيها القادمون من الكرخ ومن شارع البنك صباحاً للتمتع بمنظر نهر دجلة وبالهواء البارد المنعش الذي يهب عليها من الجهة الشمالية والغربية ، إذ تبقى مقبولة وباردة طيلة أيام الصيف . وفي ركن منعزل منها كان يلتقي جماعةمن الأدباء والفقهاء البغداديين صباحاً ، ومنهم : عبدالوهاب ملوكي وأخوه يحيى وابراهيم الدروبي ، والملا رشيد فقيه جامع الباشيشي ، والشاعر السيد موسى ، وأحمد البغدادي ، والشيخ عيسى البندنيچي ، والسيد محمود الاطرقچي ، وعبدالجبار طبرة ، ولم يتركوا هذا المقهى الى اليوم الذي انفجرت فيه قنبلة صغيرة في ركنهم من القهوة أيام تسقيط اليهود في أواخر الأربعينات . وفي الشتاء ليلاً وعلى

الاخص في أيام رمضان كانت قهوة الشط الفوقانية تستدعي للغناء فيها الچالغي البغدادي المكون من القارىء اليهودي يوسف حوريش وتخته الموسيقي المكون من عزوري وجماعته .

ثانياً : قهوة موشي :

وتقع في شارع السموأل (شارع البنك) على مرتفع من الارض يصعد اليها بسلّم من خمس درجات ، وكانت مجمعاً للتجار اليهود وبعض المسلمين ، ومركزاً للبورصة وأسعار السوق المحلية والعالمية ، ومركزاً مهماً للدلالين ، يقابلها في الجانب الثاني من الشارع قهوة رضا ، وقهوة السيد محمد ، وهما مركز تجمع التجار المسلمين بزعامة كامل الخضيري ، وعبدالودود ، وشاكر الضاحي ، وبقية تجار الحبوب والجلود .ويعبر اليها يومياً التاجر المعروف توفيق الخانچي لقضاء صباحية جميلة مع أصدقائه من بيت الخضيري ، والشيخلي ، واسكندر استيفان ورفاقه .

والى الشمال من هذه القهاوي وبجوار خان (الاورطمة) (خان مرجان) تقع قهوة القيصرية في سوق القيصرية الذي تُباع فيه الكواني وخيوط السوتلي . وكانت مقراً للقصخون أيام رمضان ، أو أحد قراء المقام الذين يجلبهم العزاوي والشيخلي مستأجر القهوة .

ثالثاً : قهوة الفسلان :

وتقع في ساحة الكيلاني في بداية طريق محلة التسابيل ، وكان فيها بضع نخلات . وسبب شهرتها ان أحسن أنواع الدبس في بغداد كان يباع فيها ، وأشهر البياعين كان حسين حوار أبو علي الذي كان مستأجراً لقهوته المشهورة على نهر دجلة في أول شارع أبي نواس ، وكان رئيس عماله في المقهى اسمه حسين أبو علي أيضاً ، واشتهر هذا بانه يحمل على يد واحدة اثني عشر استكاناً من الشاي للزبائن بدون ان يقع استكان واحد .

وكان أبو علي في مقهاه على أبي نواس المكتظ بالطلاب والشباب يستحضر أحدث الاسطوانات لمحمد عبدالوهاب وأم كلثوم ، وكان كثير من الناس يقصدون المقهى لسماع هذه الاغاني . وقد سمعنا أغنية (جفنه عَلَّمَ الغَزَل) ، وأغنية (الهوى والشباب) ، وغيرها في أواخر العشرينات .

رابعاً : قهوة هوبي :

وكانت بالقرب من موقف سيارات جسر السنك حالياً ، وهي واسعة جداً ، وفيها جناح لبيع الاخشاب ، وكان هوبي مستأجر القهوة يجلس في مدخلها لابساً طربوش الاحمر ، وكان يغني في المقهى في بعض الأحيان قارىء المقام المشهور رشيد القندرچي مع الچالغي البغدادي . وكان رشيد يرتدي الطربوش والزبون والچاكيت . ثم انتقل هوبي الى الصالحية واستأجر حديقة كبيرة بالقرب من سوق النجارين بالصالحية في الحال الحاضر وأرسى قهوته بين أشجار البرتقال والنخيل والرمان . فكانت قهوة صيفية تشبه مقاهي دمشق ودُمّر وزحلة في أشجارها فقط ، وليس في مياهها وبرودة هوائها .

خامساً : قهوة ناصر طوبيا :

وكانت في الصالحية أيضاً ، بالقرب من جسر مود وكانت خاصة للطلاب فقط . فلا يرتادها غيرهم ، عدا بعض اليهود والمسيحيين يومي السبت والأحد ، عند انتهاء نزهتهم على جسر مود ، الذي كان منتزهاً في هذين اليومين غادين ورائحين الى وقت الغروب بأبهى وأحلى ملابسهم وزينتهم . وكانت قهوة حسين حوار أبو علي في شارع أبي نواس ، وقهوة هوبي في الصالحية ، وقهوة ناصر طوبيا مركزاً وتحت احتكار (رزاقة) بائع الكبة ، وچلوب بائع الصميط ، ولا يجسر أحد من الباعة على ولوج هذه القهاوي والبيع فيها ، وأظن انهم كانوا يدفعون ما قسمَ الله لصاحب المقهى لقاء هذا الاحتكار .

أما صالح الجابي ، فقد فتح مقهاه على شاطىء دجلة ، تحت جسر مود (بناية دائرة الري) ، وجعلها لاول مرة في تاريخ العراق مقهى لبيع أوراق الدنبلة (البنكو) . وكان يفتح المقهى عصراً فقط . أما الجوائز فلم تكن نقداً ، بل كانت عينية ؛ مثل الجوارب ، والمناديل ، والأمشاط ، وحمّالات البنطلون والجواريب (الأسقيات) . وكان الإقبال على الدنبلة كبيراً ، فهو شيء جديد في عالَم المقاهي . وبعد المقهى فتح دكاناً للحلاقة بجوار السينما الوطني في سيد سلطان علي . وفتح عدة فروع سماها صالون حلاقة الجابي . وصالح هذا رجل عصامي متشبث ، كان يجبي الاشتراكات الشهرية والتبرعات لمدرسة التفيض الاهلية ، فسمي صالح الجابي .

سادساً : قهوة حسن صفو ، وقهوة عزاوي :

وهما في محلة الميدان بجوار سوق الهرج الكبير ، وسبب شهرتهما هو احتوائهما على مغنىً ومرقص ، وسميت أخيراً (تياترو) . وكنا ونحن شباب مراهق نعبر من جانب الكرخ الى الرصافة في شهر رمضان جماعات ، لا تقل الجماعة عن سبعة أشخاص ، ذلك ان دخول مراهق واحد الى التياترو يوجب الشك والريبة ولا يقبله صاحب المحل . أما دخول الجماعة ، فكان مقبولًا . وكان السهر في شهر رمضان مقبولًا عند أهالينا . وحين نعبر الجسر فاننا نرى في جانب الرصافة أشياء لا نراها في الكرخ ولم نسمع عنها أو نتصورها ، فكانت جولة استطلاعية وجولة معرفة أكثر مما هي جولة للأنس والطرب ، فندرس فيها طرقات وأزقة ومعالم جانب الرصافة . وهناك عامل آخر لذهابنا ، هو خوفنا من الاعتداء علينا ، لأن صبيان وشباب كل محلة يحذرون من دخول شباب محلة أخرى ويعتبرونه اعتداء عليهم . لذا كنا نحتمي من هذا الاعتداء المنتظر .

ووصلنا يوماً في إحدى جولاتنا الليلية الرمضانية الى أوتيل الهلال بالميدان ، حيث كانت بدرية السواس ترقص وتغني هي وبقية المغنيات العراقيات ، أمثال : سلطانة يوسف ، وبدرية أُم أنور ، ورحلو ، وسليمة باشا ، ومديحة سعيد ، وليلو بنت نومة . وفي الميدان قهوة مشهورة ، هي قهوة خليفة التي تحتل نصف ساحة الميدان في أيام الصيف ، وخليفة هذا هو من أشقياء محلة الميدان . لذلك لم يكن مراقبو البلدية يتحرشون به أو يمنعوه من احتلال الساحة . وقريب من قهوة خليفة كانت قهوة السيد بكر ، وهي مركز تجمع الصم والبكم ومجمع هواة تربية البلابل .

سابعاً : قهوة عارف آغا :

وتقع على شارع الرشيد ، وهي من جملة أملاك عائلة عارف آغا المشهورة . وكان بيتهم الكبير خلف المقهى تماماً . وكان كبيرهم حياً ، وهو آصف عارف آغا . وفي البيت هذا اسطبل كبير للخيل ، وقد دعينا اليه مرات ، ذلك ان ابنه كان تلميذاً معنا في مدرسة التفيض الأهلية ، وكان يدعونا بمناسبات كثيرة ، وحين اعترض السيد حسين العاني مدير المدرسة على كثرة هذه الولائم للتلاميذ ، أوضح له الاب ان هذه الولائم لطلاب الصف نفسه والمدرسة نفسها ، رغبة منهم في ابعاد ابنه عن اللعب ومعاشرة أولاد السوء من المحلة وتحاشياً لما ينتج من ذلك ، ثم أولَمَ للمدير

والمعلمين وقسم من التلاميذ وليمة كبرى في مزرعته القريبة من بغداد .

وصارت قهوة عارف آغا مقراً للصحفيين والمعلمين ، خصوصاً في أول الثلاثينات ، حين صدر قانون الذيل لتطهير موظفي الدولة ، وبموجبه فصل عدد كبير من المعلمين . فاتخذ أكثرهم هذا المقهى مقراً لهم . ومن أهم روّادها نوري ثابت صاحب جريدة (حبزبوز) ، والصحفيون : يحيى عارف ، وعادل عوني ، ويونس بحري ، والفلامي ، والفكه المشهور ناصر عوني ، وشفيق سلمان ، وغيرهم من أفاضل المعلمين والأدباء .

ثامناً : قهوة حسن عجمي :

وهي من أنظف المقاهي في بغداد ، وتقع في الحيدرخانة بجوار مدرسة شماش اليهودية من جهة الجنوب ، ودكان ازيالة بائع الدوندرمة من جهة الشمال (ازيالة مشهور كشهرة حسن عجمي) . وكانت أرض المقهى تُغسل يومياً ، والوجاغ محل عمل الشاي ممتلىء بأنواع السماورات الروسية الاصلية (المسكوف) ، أي الواردة من موسكو ، حيث كان الناس يسمون الروس (مسكوف) . وعلى الوجاغ ، نلك ، أنواع القواري السكسون شكلًا وحجماً . أما أغطية القنفات في الصيف ، والزوالي في الشتاء ، فكانت تُنظف يومياً . ولا عجب ، فان حسن عجمي نفسه كان أنيقاً في ملبسه ومحترماً في تصرفاته ، وكان يقتطع زاوية المقهى أيام الصيف للتلاميذ ، ليذاكروا دروسهم ويمنع لعب الطاولة أو الصياح قرب التلاميذ ، حتى ينتهوا من مذاكرتهم . ومن أسباب شهرة المقهى أيضاً الشاي اللذيذ والذي تبيَّن بعد التحقيق ، ان حسن عجمي كان يضع قطعة صغيرة جداً من الترياك تحت غطاء القوري أثناء التخدير ، وذلك هو الذي يعطي الشاي مذاقه المتميز .

ومن الظواهر المتميزة في هذه المقهى وجود القزم الإيراني (شفتالو) وطاسة الماء بيده والتظاهر بالغباء والضراط حسب الطلب .

تاسعاً : قهوة الشابندر :

بالقرب من المحاكم ومقابل القشلة ، وكانت محطاً لكافة مراجعي المحاكم ودوائر الدولة ، فهي مزدحمة بالزبائن الذين يشربون النركيلة بانتظار فتح الدوائر الحكومية ، أو انتظار قرار المحاكم المختلفة ، أو قول الموظفين للمراجعين (روح تعال بعد ساعة) . وبجوار قهوة الشابندر دكان لبيع القرطاسية وورق العرائض

والطوابع المالية يعود لرجل من بيت الاحمدي . كما كان هناك دكان للطابعة يعود لرؤوف الأعمى ، كما كان يسمى ، وهو من جانب الكرخ ، وكان بصره كليلًا ومن الصعوبة ان يقرأ ، رغم العوينات ، لذلك ، فهو يقرأ بعين واحدة ، ثم يدير وجهه ليقرأ بالعين الثانية ، ريثما تستريح الأولى من العناء . وبجوار المقهى مصوران بالماكنة القديمة لتصوير مَنْ يحتاج الى صور في مراجعته للدوائر . وعلى الحائط في محل المصور قطعة من القماش الأسود فيها مختلف التصاوير لإظهار خلفية مَنْ يريد التصوير ، فإما غابة كثيفة مليئة بالوحوش ، أو في زورق أو مركب بخاري كبير . ولا بد أن يمسك بيده مسبحة كهرب ومسدس خشبي باليد الأخرى ، لإظهار كونه من الأشقياء وكرسيين للجلوس ، ريثما ينتهي المصور من غسل الصور بعد رؤية (العكس) ، أي الصور السلبية ، والتأكد ان عملية التصوير كانت ناجحة . وفي المساء كانت قهوة الشابندر محلًا لانتظار (المايخانة) المجاورة للمقهى والتي تُفتح بعد أذان المغرب ، أو بانتظار (القصخون) ، أو قارىء المقام العراقي وجوقة الموسيقى في بعض أيام السنة .

عاشــراً :

وفي الباب الشرقي والبتاوين ، قهوتان مشهورتان ، هما : قهوة كزار ، وقهوة العبد . قهوة كزار أقدم قهاوي الباب الشرقي ، وكانت محلًا للنزهة والراحة . أما قهوة العبد ، فكانت مقابل بستان الخس ، بمكان سينما السندباد حالياً ، وهي موجودة من زمن الأتراك ومشهورة بأنها خارج منطقة نفوذ الجندرمة في العهد العثماني . وكانت ملجأ الأشقياء والفارين من القَتَلَة واللصوص . لذلك فإن روادها كانوا يرجعون الى بغداد قبل غروب الشمس ، بعد ان يشربوا عرقهم ويأكلون مزتهم من الخس من بستان الخس . وكانت قهوة مشجرة تخترقها ساقية تسقي بساتين البتاوين ، لذلك اعتبرت هذه الأشجار حماية ضد طائرات القوة الجوية البريطانية عند هجومها على بغداد في ثورة مايس ١٩٤١ . وهناك مقهى صغير في شارع أبي نواس ، هو مقهى الحجي رشيد الذي يرتاده شاربو العرق فقط ، لان الحجي رشيد صاحب المقهى مدمن على العرق ليلًا ونهاراً .

احد عشــر :

هناك مقاهٍ كثيرة في بغداد ليس لها شهرة مدوية ، بل هي مقاهي محلات ، مثل

قهاوي الفضل ، التي كان يجري في بعضها مباريات النطاح بين الاكباش والمهارشة بين الديوك ، وقهوة بكر في الميدان المختصة بهواة البلابل ، وكذلك كل أخرس في بغداد ، حيث يجتمعون هناك للتسلية والحديث بالإشارات . وكان هواة تربية الاكباش يهيئون أكباشهم للنطاح على رهان معيَّن يدفعه صاحب الكبش الخاسر ، ومن هواة الاكباش المرحوم علي الحبشي الأعظمي والد الأديب حسين علي الأعظمي.

أما قهوة عَرَب القريبة من محلة الطوب ، فلم تكن مشهورة لذاتها ، ولكن لشهرة صاحبها عَرَب الذي كان آية في اختلاق الأحاديث والوقائع المهمة التي ينسبها الى نفسه . وكانت تبلغ به الحال أن يقول انه هو الذي يبدل وينقل المندوب السامي البريطاني من بلد الى آخر ، وانه يتغذى أكثر أيام الأسبوع مع الملك فيصل الأول ، وان نقيب أشراف بغداد لا يلذ له العشاء إلا بصحبته ، وغير ذلك من الملخيات ، لذا كان كثير من الناس يذهبون لسماع هذه الأحاديث اللطيفة وتشجيعه على اختلاق غيرها . وقد فتح ابنه قهوة في كمپ الأعظمية وسماها قهوة عرب ، وهي قهوة اعتيادية ، لأن عرب توفي ولم يخلف عرباً آخر مثله .

وفي الأعظمية عرفت قهوة حجازي ملتقى سكان محلة الحارة والشيوخ ، وكذلك أدباء وظرفاء الأعظمية ، مثل حسين علي الأعظمي ، وكمال ابراهيم ، وفؤاد عباس ، ومحمود السماك ، والمختار سيد نعمة . وعلى رأس الجسر في الأعظمية قهوة قريبة من دكان السيد محمود السامرائي . وكان يبيع السجائر والتبغ ، وهو أيضاً مختار محلة السفينة والعارف بسكانها . وكان يلجأ اليه كل ذي عوز مادي أو معنوي .

وبجوار سينما غرناطة في الباب الشرقي ، قهوة شكر ، وقد سميت بأسم المحلة ، أو ان المحلة سميت بأسم المقهى . وهي كبيرة يرتادها سكان المنطقة والعمال والأرمن الساكنون بالكمپ القريب منها ، وكذلك الساكنون في كمپ محلة الفناهرة . ويقال ان شكر هذا كان جد الكاتب الكبير الأديب ابراهيم صالح شكر . وليس في هذا المقهى ما يميزها عن غيرها غير سعتها وانفتاحها واسمها . أما في القاطرخانة وما جاورها من محلات السويدان والهيتاويين ، فأشهر مقهى هو مقهى الحجي كاظم المختار ، ملتقى سكان هذه المحلات . ذلك المختار الحجي كاظم لم يكن مختاراً فقط لهذه المحلات ، بل كان يقوم بخدمة الناس جميعاً وقضاء حاجاتهم . وكان يسمى قاضي الحاجات علاوة على كرمه . وقد خلف الحجي كاظم ولده حساني الذي كان زينة الشباب ومثلًا طيباً للفتيان .

أما قهوة الملا حمادي في محلة المربعة على شارع الرشيد ، ذات النصفين ، الصيفي والشتوي ، فكانت مقراً معروفاً ومشهورة بروادها من هواة سباق الخيل ، إذ كان صاحبها ابراهيم الملا حمادي أبو خليل من هواة سباق الخيل في بغداد .

وإكمالًا لبحث المقاهي في بغداد ، لا بد من ذكر أشهر القهواتية في العشرينات ، والذين كانت أسمائهم تتردد على كل لسان لمدة طويلة حتى بعد العشرينات ومنهم :

١ - ابراهيم البيروتي ، وقهوته في جانب الكرخ على دجلة مباشرة ، وهي الآن قسم من بناية مديرية التقاعد العامة (سيف داود باشا) ومقتربات جسر الشهداء . ولم يخلف أحد من أولاده في المقهى ، لأن ابراهيم قد ترك القهوة والمهنة لانشغاله بلعب الورق خلال عمله بالقهوة ، مما دعا الناس الى الانصراف عنه .

٢ - عزاوي ، وهو صاحب مقهى عزاوي المشهور . وكان محله في الميدان في سوق جامع الاحمدية . وكان فيه فرقة للغناء والرقص ، وهي التي قيل فيها (يا گهوتك عزاوي بيها المدلل سكران) .

٣ - حسن الصفو ، وتقع قهوته في الميدان أيضاً . وفيها فرقة للغناء ومجموعة من الراقصات .

٤ - خليفة ، وهو صاحب مقهى خليقة في مستديرة ساحة الميدان . وكان شقياً في زمانه ونزيلًا في السجون . وكان يحتل بتخوت المقهى نصف ساحة الميدان . ولكن المراقبين والمأمورين يخشونه فلا يتحرشون به . ويجلس في قهوته عادة الشباب والرجال الذين يدّعون الشقاوة والمرجلة .

٥ - حسون ، وكان يدير قهوة العكامة على رأس الجسر القديم . ثم انتقل الى قهوة البيروتي بعد ان تركها ابراهيم . والعكامة ، تعني رؤساء القوافل التجارية وغير التجارية . وكان شخصية محترمة وقوراً ، لذلك كثر رواد المقهى من الكهول والشيوخ .

٦ - هوبي ، وكانت قهوته أولًا في محلة السنك ، مجاور بيت مناحيم دانيال الكبير . وكان يغني في هذا المقهى القارىء المرحوم رشيد القندرچي . ثم انتقل هوبي الى الصالحية في الكرخ . وفتح قهوته هناك بجوار القهوچي ناصر طوبية الذي جعل قهوته خاصة بالطلاب .

٧ - كزار الكرادي ، وقهوته في أول البتاوين . واشتهر هو وقهوته شهرة كبيرة باعتبارها أول قهوة خارج نطاق مدينة بغداد ، حيث كانت تعد البتاوين من بساتين

الضاحية .

٨ - حسين حوار ، وهو المعروف بأسم أبو علي . وكانت قهوته في الباب الشرقي (شارع أبي نواس) هو وأخوه الصغير محمد . وقد كانا قبل ذلك يديران قهوة (الغسلان) في مستديرة باب الشيخ مقابل الجامع تماماً . وكانا يبيعان في القهوة أحسن أنواع الدبس . وبعد ان شاخ حسين حوار فتح محلًا في شارع السموأل لبيع الكواني وخيوط الستلي .

٩ - الحجي رشيد ، وكان على شارع أبي نواس ، جوار قهوة أبو علي . وهو مدمن للمشروب ليلًا ونهاراً ، ويحتفظ بمجموعة كاملة من أغاني أم كلثوم القديمة وطقاطيق المغنيات السوريات . ويرتاد قهوته قليل من الناس ، عدا مجموعة من الادباء برئاسة المرحوم ابراهيم صالح شكر . ويرتادها أيضاً المدمنون على شرب العرق .

١٠ - موشي ، وقهوته في شارع السموأل بجوار بنك الإيسترن . وهو أشهر قهوچي في الوسط التجاري البغدادي . وتكاد تكون قهوته هي البورصة غير الرسمية لمدينة بغداد . ومقراً لاكثر تجارها . يقابله مقهى آخر أصغر من قهوته ويديرها رضا القهوچي بجوار خان الباشا الكبير .

١١ - الحجي كاظم المختار ، أبو حساني ، وقهوته في القاطرخانة ، هو وأخوه عباس في قهوته الصغيرة المجاورة . وبرغم كون الحجي كاظم مختاراً يقضي حاجات الناس ، فقد اشتهر بكونه قهوچياً أيضاً .

١٢ - عرب ، صاحب قهوة عرب في باب المعظم . وقد تحدثنا عنه في باب (شخصيات بغدادية) .

١٣ - أمين ، واشتهرت قهوته بأنها مجمع لكل أخرس وأطرش . كما يرتادها مربو البلابل .

١٤ - حسن عجمي ، صاحب القهوة المشهورة في الحيدرخانة . واشتهر بأناقته ونظافة قهوته ومجموعته الثمينة من القوريات الفرفوري (السكسون) ، وسماوراته المسكوفية الأصلية من كل حجم وطراز . وأخيراً بعامله القزم الأقرع (شفتالو) .

وليس لي وأنا أذكر القهوچية المشهورين أن أنسى المرحوم القهوچي كريم الحجي شبو . وقهوته في الخشالات . ومن الوفاء له أن نذكر كرمه وعنايته بالرواد .

وقد كانت ملجأ آمناً مريحاً في منطقة باب الآغا ، وقد قضينا فيها زهرة شبابنا ، أنا وخالد الدرة ، ولطفي بكر صدقي ، وعبدالكريم محمود ، وحسين الرحال ، وكمال نصرت الشاعر ، وياسين الراضي ، ومحمد الهدبان ، وغيرهم من الشباب البغدادي الذي تفتّح على الحياة في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات .

أما المرحوم الحجي خليل القهوجي ، فله بحث خاص فيه . (أنظر شخصيات بغدادية) .

. التجـار

التاجر بعرف البغداديين هو الذي يتعاطى البيع والشراء بشكل (قلم أو أقلام) ، ويعني يبيع ويشتري باكثر من البيع بالجملة الذي يسمى (بندرچي). والتجارة تشمل الداخلية والخارجية والتصدير ، ومن لوازم التاجر أن تكون له غرفة (لا تسمى مكتب) في أحد الخانات المعروفة والمحروسة جيداً لحفظ أمواله من النهب الذي كان مستمراً أيام العثمانيين وبداية الاحتلال البريطاني ، وفي غرفته منضدة وقاصة حديدية ومروحة قماش سقفية يسحبها في الصيف عامل من عمال الخان ، وعدة دفاتر تجارية وهي :

أولًا : دفتر اليومية أو الخرطوش وتسجل فيه النشاطات اليومية ، ثم تُنقل بعدئذ الى دفتر الذمم ، وهو دفتر طويل يرقم التاجر نفسه صحائفه ويسجل فيه الديون لكل شخص يتعامل معه ويؤشّر فيه نوعية التسديد أسبوعياً أو شهرياً أو بموجب كمپيالة .

ثانياً : دفتر الصوافي ، وفيه صافي حساب البضاعة ، تكاليفها وإيرادها وصافي حسابها ربحاً أو خسارة .

ثالثاً : دفتر الجاري ، وفيه تفاصيل العمليات الحسابية لمحله التجاري وحساباته مع بقية التجار .

رابعاً : دفتر الصندوق ، وفيه حسابات الداخل والخارج من الصندوق الحديدي بشكل نقدي أو أوراق كمپيالات أو صكوك ، ويطابق بين هذا الدفتر وبين دفتر الجاري ليتاكد من صحة الحساب . ويوجد دفتر آخر صغير وهو دفتر (القبان) ، إذا كان التاجر يتعامل باموال (مال قبان) ، أي البضائع التي تُباع بالوزن ، مثل : الصابون والسكر والدهن والبصل والبذور المستوردة . أما البضائع التي لا توزن فتسمى بضائع (مانيفاتورة) ، أي تُباع وفقاً للفاتورة المتعارف عليها الآن . وهناك دفتر آخر ، هو دفتر (الكوبيا) ، ويقوم مقام الطابعة وهو دفتر كبير مستورد ومرقم ، ورقه خفيف قادر على امتصاص الحبر من غير أن ينتشر . أما الالة التي تطبع ، فهي (منكنة)

حديدية ضاغطة تتألف من لولب حديدي يحرك الغطاء الحديدي الفوقاني ويبرم لينزل ضاغطاً على دفتر الكوبيا الذي يكون محصوراً بين القاعدة والغطاء ، وبهذا الضغط وبوجود قطعة مبللة من القماش تنطبع الرسالة المكتوبة بالحبر على صفحة دفتر الكوبيا ، وبالإمكان طبع عدة رسائل في آنٍ واحد ، وهكذا يستطيع التاجر الرجوع الى رسائله وبدون فايلات . وفي الغرفة لوحة كتب فيها (أقبض وقيِّد وقيِّد ثم ادفع) ، أو (الثروة البالغة لا تُجمع عن طريق شريف) ، أو (القناعة كنز لا يفنى) . أما اليهود فيعلقون لوحة واحدة يُكتب عليها اسم الله (بالحروف العبرية) ، وعلى التاجر أن يطبع عنوانه على أوراقه وغلافات رسائله ، اسمه والرمز البرقي ، وكان يسمى (تلغرافيا) ، والرمز الكمركي الذي يرمز اليه (مال) . ومثال ذلك فان محلنا التجاري بعد وفاة والدي الذي كان بأسمه أصبح الاسم التجاري (أبناء السيد حسن بغدادي ، تلغرافيا الثريا ، مال ١١٨) ، ومال ١١٨ ماركة مسجلة لنا في دوائر الكمرك وتعني ان أي بضاعة مستوردة أو مصدرة وعليها مال ١١٨ فتعود الى أبناء السيد حسن بغدادي وتجرى عليها المعاملة الكمركية من قبل وكيل الاخراج المسمى مطلعچي . وكان الحاج جبوري الدهان أبو عبدالحميد الدهان هو مطلعچينا . وأعطي هذه التفاصيل لتكون الفكرة واضحة عن العمل التجاري في العشرينات ، ولكل تاجر دلّال خاص لبضاعة خاصة . فإن كان يتعامل بعدة أنواع ، فالدلّالون متعددون . وأُسست غرفة تجارة بغداد ، وكان التجار اليهود أغلبية أعضاء مجلس الإدارة . ومن قدماء رؤساء الغرفة قاسم باشا الخضيري ، وكامل الخضيري . والعادة أن يلبس التاجر برأسه (الكشيدة) ، ويقال له چلبي . وللتجار مقاهيهم الخاصة في شارع البنك ، وأولها قهوة موشي بجانب بنك الإيسترن ويصعد اليها بسلّم ذي خمس درجات . ثم قهوة السيد محمد ، وقهوة رضا في الشارع نفسه ، ويرتادها التجار المسلمون وبعض الدلالين . أما قهوة الشط الفوقانية والتحتانية ، فلا يلتقي فيها التجار عادة . وبعد حريق أوروزديباك في المصبغة أوائل العشرينات بنيت قهوة تقي وصارت ملتقى التجار والمزارعين ومكانيكيي المضخات الزراعية ، حين إزداد نشاط نصب هذه المضخات الزراعية ، ولكل تاجر صيرفي خاص يودع ويسحب منه داخل وخارج بغداد . ومن أشهر الصرافين خضوري زلخة ، وصيون عبودي ، وياروخ عوبديا ، وإدوار عبودي ، وميخائيل كافي الموت . ثم دخل السوق أخيراً الصيارفة السيد حسن وعبدالامير وعبود قطّان . وكان في بغداد بنوك ثلاثة هي

الإيسترن والعثماني والشاهنشاهي ، وجميعها إنكليزية عدا الاسم ، وعملاؤهم من اليهود وقليل من المسلمين ، عدا البنك العثماني فعملاؤه أكثر ، لانه أقدم البنوك وموجود زمن العثمانيين . واتخذت الحكومة العراقية بنك الإيسترن بنكاً رسمياً لها ، وكان نشاط الصيرفي خضوري زلخة أكثر من نشاط البنوك لفروعه الكثيرة في الدول المجاورة وفي أوروبا والصين . أما الحسابات النظامية للتجار ، فكانت تسمى (البلانجو) .

وفي الثلاثينات سيطر الصيرفي سلمان زلخة على السوق المالية الداخلية ، وكان يفتح محله في الصباح الباكر ويغلقه بعد غروب الشمس . وبالرغم من أعماله الكبيرة والكثيرة التي فاقت بعض البنوك ، فلم يكن لديه سوى سبعة موظفين اثنان للصندوق للقبض والدفع ، واثنان للدفاتر ، واثنان لاستقبال العملاء ، وواحد للمراجعات خارج المحل . واعتاد أن يضع على مكتبه كأساً كبيراً من الفافون يسميها (الطاسة) ، وفيها يضع الزبون ما يتكرم به على العاملين ، وهذه محفزات يتقاسمونها اسبوعياً ، وتصل الى مبالغ كبيرة عدا رواتبهم . وكان التجار الكبار يصدرون اسبوعياً قائمة مفصلة بالبضائع وأسعارها ، وتُملأ يوم جمعة ، لتُرسل في البريد الى عملائهم داخل العراق وخارجه للإطلاع على وضعية السوق ، وهي تشبه أسعار البورصة في هذه الأيام .

وتبدأ المكاتبات التجارية عادة بجملة (بمنة تعالى) في قمة ورقة الرسالة . أو تبدأ بالعلامة التي تدل على جملة بأسم الله الرحمن الرحيم ، وتشبه رقم أربعة بالإنكليزية مع صفرين الى يمينها . ثم تبدأ الرسالة بـ « جناب الأجلّ الأكرم » دام بقاؤه آمين ، وتُختم « هذا ما يلزم بيانه ودمتم » . أما غلاف الرسالة ، فيُكتب عليه العنوان ، ويوضع وسط المغلف خطوط بشكل حلقات بيضاوية يُكتب في وسطها ، إما كلمة (بدوح) ، أو الرقم (٦٤٢٢) ، وهي تعني بدوح أيضاً . وبدوح هو الملاك المكلف بنقل وخراسة الرسائل من الضياع أو التلف ، وفق العقيدة القديمة ، أو يُكتب (بهمة سيدي معروف الكرخي) . وقد وزعت الحكومة أوراقاً صغيرة زرقاء اللون كُتب عليها بالإنكليزية (ميل) ، لكي تُرسل بحراً . وعندما فتح طريق دمشق وزعت أوراق زرقاء اللون كُتب عليه بالإنكليزية (أوفرلند) ، (إيرميل) ، أي جواً بعد الثلاثينات . أما الطوابع ، فكانت إنكليزية وهندية ، تحمل صورة ملك وملكة بريطانيا . وكان بعضها مختوماً بكلمة (أوكوبايد) ، أي الاحتلال . ثم ظهرت الطوابع العراقية

المالية والبريدية وفيها تصاوير فيصل والقشلة والقفة في دجلة وأسد بابل وغيرها . وكانت الخلافات بين التجار تُحَل بواسطة الخيِّرين العارفين بأحوال السوق والناس بدون الذهاب الى المحاكم .

وفي كثير من الخانات يوجد (القبانچية) ، خصوصاً إذا كان التاجر يتعامل ببضاعة (مال قبان) . وهناك فرق بين القبانچية في الخانات ، والقبانچية في العلاوي ، وخصوصاً علاوي الشورجة ، الذين لا تخلو سمعة بعضهم من شائبة . ومن مشاهير القبانچية جواد الگريعاوي ، وصادق الفيليّ ، والاخوة حسن وحسين . لكن المعتمد الأول لدى التجار هو المرحوم عبدالحميد طبرة ، لنزاهته وصحة وزنه ، كما يوجد في أكثر الخانات بئر لغرض الرش ومكافحة الحريق حين حصوله ، وعلى ملتزم الخان ان يمتلك القضيب الحديدي المسمى (سنبه) مع المقص لقص الحزام الحديدي الذي يحزم البالات المستوردة . ولتكون السنبة مفتوحة من أحد طرفيها الحادين ، لأجل إدخالها في القيد الحديدي ، ثم تحريكها يميناً ويساراً ، حتى ينقطع القيد ، كما يمتلك (بانبو ورمبا) ، إذا كان يشتغل بتجارة الحبوب . أما البانبو ، فهي أسطوانة حديدية صغيرة طولها ١٥ سنتيمتر مسنونة من الأمام مفتوحة من الخلف ، لتدخل في كيس الحبوب بسهولة ويخرج الحَب من الفتحة ، وذلك للاطلاع على البضاعة بدون شق الأكياس . أما الرمبا ، فهي الخشبة الطويلة العريضة التي يصعد عليها الحمالون الى قمة كوم الحبوب ، أو لنقل أكياس الحبوب من الجنائب النهرية الى الرصيف وبالعكس .

أما التأمين (السيكورتا) ، فلم يكن التجار معتادين على التأمين سوى بعض التجار اليهود الذين يؤمِنُون محلاتهم وبضائعهم عند الشركتين الوحيدتين في بغداد وهما ، شركة فاولر ، وشركة أليانص الفرنسية اليهودية . وأشهر المطابع التجارية ، هي مطبعة دنكور ، وان البيع والشراء يتم ، إما نقداً ، وإما بالكمپيالات ، أو بالدفع الأسبوعي ، حسب ما يُعرف عن المشتري من ذمة ومن قابلية على الدفع وشطارة في التصريف . والبائع هو الذي يجمع الأسبوعية من المدين . أما الكمپيالات فيدعها التاجر الى صرافه الخاص ، وتسمى عملية (تنزيل الكمپيالة) . والصراف هو الذي يبلغ المدين قبل يوم واحد من تاريخ الاستحقاق ليجهز المبلغ اللازم للدفع ، فإن لم يدفع فمعناه بداية الإفلاس . فإما أن يتم الاتفاق على تمديد موعد الدفع لمدة أخرى ، وإما يمتنع المدين عن ذلك ويذهب الى بيته ولا يخرج الى السوق ، وحينئذ يقال له

انه (شبَّر) بالاصطلاح اليهودي . وعند ذاك يذهب الدائنون الى بيته ، سواء منْ استحق دينه أو لم يستحق ، وتجري التسوية معه بحضور الصراف وتجار وسطاء . فإذا اتفقوا على خصم مقدار من الدين ، فيقال انه (فصل) ، فإذا لم يفصل . فلا يستطيع الخروج الى السوق والقيام باعمال التجارة أو الدلالة لضياع الثقة فيه . أما إذا كان لديه بعض الأموال ، فيقوم قسم من التجار بتصريف الأموال أمانة ، ثم تسلم مبالغها الى الدائنين وفق النسبة المئوية ، وهو ما يشبه (السنديكة) . وقد حدثت إفلاسات كثيرة في بغداد ، أولها في العشرينات عند اضطراب الأسواق العالمية بانتهاء الحرب العالمية الأولى . فأفلس كثير من تجار الشورجة وشارع الرواق ، خصوصاً تجار الحبوب والصوف والعطارين . أما في الأزمة العالمية الكبرى آخر العشرينات ، فقد عمَّ الإفلاس طبقات كثيرة من التجار ، سواء كان حقيقياً أو إحتيالياً .

وعلى ذكر البنوك ، فان البنك العثماني ليس عثمانياً ، ولا البنك الشاهنشاهي الإيراني إيرانياً ، بل اتفق على هذه التسمية حين إعطاء الامتياز . فإن كان أعطي أولًا الى إيراني سمي البنك الإيراني ، وإن أعطي الى الأتراك سميَ العثماني . وفي جميع الأحوال فهي بنوك بريطانية فرنسية . وكان البنك الشاهي الإيراني البريطاني في حقيقته ، والذي نال امتياز العمل في إيران ، وخصوصاً تجارة الترنزيت ومحله في ناصية الشارع المؤدي الى قهوة الشط ، وحلَّ محله أخيراً تاجر السجاد الإفرنجي (مشكور الأسدي) . والبنك الثالث هو بنك الإيسترن ، واتخذه الإنكليز مصرفاً رسمياً لهم ، وبنيَ مجدداً في محل قهوة موشي بشارع البنك ، وهو أول بناية تُبنى ببلوك الإسمنت الكبيرة ، وكان عجباً لاهل بغداد ، ولم تزل أعمدته قائمة في شارع السموأل ، ثم اتخذته الحكومة العراقية مصرفاً رسمياً لها ، وقد هَرَّبَ أمواله في ثورة مايس ، فانتهز (بنكو دي روما) هذه الفرصة وجلب الليرات الذهبية بالأكياس مع الوفد المرافق للهر (غروبه) وزير ألمانيا المفوض وفتح محله في بداية شارع السموأل في محل مصرف الرافدين . ولكنه ترك العراق وأخذ أمواله في نهاية الثورة ، وعاد الإيسترن بنك الى العمل الى ان تأسس البنك العربي بإدارة طالب مشتاق ومساعده في ذلك السيد ابراهيم البسام ، والحاج نعمان الأعظمي . وبالرغم من هذه البنوك وبنك الرافدين ، فقط ظل الصيارفة أكثر نشاطاً وعملًا ، ولا سيما خضوري زلخة . وصيون عبودي ، وسلمان زلخة ، وبعدئذ السيد حسن الكاظمي ، وعبدالأمير

الصراف وعبود قطان . أما صيارفة الكاظمية والنجف ، فلم يحضروا بغداد ويزاولوا نشاطهم فيها . وكان بعهم ينشط في أعمال النقد الذهبي ، أي (البزوس المكسيكي) ، الذي يساوي خمس باونات ذهبية إنكليزية (أم الخيّال) ، التي ترد عن طريق سوريا وصولاً الى الهند بواسطة التجار الكويتيين أصحاب السفن الكبيرة ، وأشهرهم بيت (الحمد) ، وأخيراً بالسيارات ، إذ ينقله سواق نيرن ، أو الشركات الاهلية داخل مكائن السيارة ، وهؤلاء السواق معتمدون وأصحاب أمانة ، وآخرهم المرحوم أبو فياض الدمشقي ، وكان سائقاً عند نيرن ، عندما هاجمته عصابة من قطاع الطرق وسلبوا جميع الركاب وقتلوا ثلاثة منهم وسلبوا حتى ملابسه ، فطاردتهم السلطات وقبضت عليهم ، ثم أعدمتهم في ساحة المرجة بدمشق . أما أصحاب الذهب الذين كانوا ينتظرون أبو فياض ، فقد ماتوا هلعاً وبكوا أموالهم ، وحين حضر أبو فياض بشّرهم ان أموالهم سالمة وتسلّموها ، إذ كانت مخبئة في المحركات وأعطوه بعض المكافأة وامتنع أبو فياض إثر ذلك عن سياقة السيارات وفتح كراجاً للتصليح في دمشق ، حيث توفي فيها .

وعرف عن علاوي الكرخ وخاناتها صحة الوزن وعدم التلاعب . فالخانات لا تقبل حاصلات الحنطة والشعير ، بل تقتصر على الدهن والجلود والصوف والتمر والجبن والبصل ، عكس علاوي وخانات الشورجة ، فتقبل كل ما يصل اليها . أما علاوي التمن ، فتقتصر على بيع التمن ، مثل تمن العنبر الشتال وغير الشتال ، والنُفيْمِي أو الشنبة ، والحويزاوي ، والنكازة ، وتمن الكردة الإيراني ، وأغلى تمن هو تمن (رَشْت) . ومن أشهر باعة التمن في الكرخ : خيرالله أبو اسماعيل خيرالله وزير الخارجية السابق ، واشتهر بالامانة وصدق المعاملة . واشتهر في الرصافة ابراهيم الخلف ، واشتيوي ، وقهرمان ، وعبد حلومة ، وعبدالصاحب ، واشتهر من القبانچية في الرواق صابق القبانچي ، وهو فيلي من أهل الصدرية ، مصارع يحفظ في محله عدة المصارعة ولباس الزورخانة ، وجواد الگريعاوي ، الذي يسكن منطقة الگريعات في الصليخ . وقد خلّف ولدين ، هما سلطان وريحان وامتهنا البقالة في سوق الشواكة ، وهما معروفان ومشهوران ، حيث كانا يتكلمان اللغة العربية الفصحى في سوق يعج بالعوام ، وكذلك حسن وحسين . والحديث عن القبنچي الامين عبدالحميد طبرة سيرد في محل آخر . وحين يبدأون الوزن ، وفي أول رفعة يعلن بصوت عالٍ (واحد الله البايع والشاري شايفين الخير) .

والبحث عن التجار يشمل ملتزمي الخانات والحمالين ، وهم طبقتان ، الفيلية والعانيون . فكل حمالي الملتزم الفيلي من الفيلية . أما العاني ، فعدا عن جماعته من العانيين ، لا بد له من حمالين فيلية للاحمال الثقيلة التي لا يستطيعها إلا الفيلي القوي الجسم والملتزم يستوفي أجراً عن كل صندوق أو بالة أو بضاعة تخرج من الخان يدفعه المشتري ، والتجار يأمنون العانيين أكثر من الفيلية ، لأن من الفيلية غرباء يستطيعون ترك العمل والذهاب متى شاؤوا الى بلدهم (جبل بشتكوه) . عند حسين قولي خان بعكس العاني الذي لا يستطيع المغادرة ، فأهله وأقاربه ، إما في بغداد ، وإما في الفلوجة أو الرمادي أو عانة . وكانت عدة الشغل عند الحمال (الجنده والنوار) ، والجندة ، هي الكيس المليء بالكواني الممزقة والصوف ، وخصوصاً القسم الأسفل منها ، حيث تطوى وتوضع على النصف الأسفل من العمود الفقري عند حمل البضاعة . أما النوار ، فهو حزام القماش الأبيض الذي يربط البضاعة المحمولة بجبهة الجمال . أما إذا كان الحمل ثقيلًا ، مثل الشيلمان أو الصندوق الحديدي ، فلا بد أن يرافق حمالان هذا الحمال ويمسكاه من كتفيه معاونة له ، أو لإسناد الشيلمانة حين استراحة الحمال . وكان حمالو الأشياء الثقيلة يتجمعون في كمرك المستنصرية على شاطىء دجلة ، لأن البضائع الحديدية الثقيلة تأتي بالنهر عن طريق البصرة محملة بالجنائب (الدُوَب) ، وكان في كمرك المستنصرية سكة حديدية عليها رافعة كبيرة (سلينك) لنقل هذه الأشياء الثقيلة من الدوب الى ساحة الكمرك ، ثم الى العربات أو على ظهور الحمالين الى محلات التجار . وهؤلاء الحمالون يتناولون فطورهم يومياً تحت سلّم شريعة المصبغة الموجودة حالياً ، وفطورهم تشريب (الفشة) من المعلاق مع ثلاثة أو أربعة أرغفة من الخبز وعدة إستكانات من الشاي على حساب رئيسهم الذي يوزع عليهم العمل ويناولهم أجورهم بعد ان يستقطع رسم رئاسته عليهم . ومن المعروف ان الأسواق التجارية المهمة والخانات كانت حراستها بطريقة الالتزام ، ثم تكلفت بها أمانة العاصمة واستوفيت عنها ضريبة الحراسة الى ان صارت من واجبات الدولة .

ولا بد لكل تاجر من دلّال أو أكثر ، حسب البضائع التي يتعامل فيها . وكان الدلالون مسيطرين على السوق وبيدهم تثبيت الأسعار ، وهم الذين يقنعون البائع بالبيع والمشتري بالشراء ، حين يجتمعون في محل التاجر ، حيث يضع الدلال اليد اليمنى لكل من البايع والمشتري في يد الآخر تحت

غطاء عباءته ، ويمسك باصابع البائع على قدر السعر المطلوب ، فإن كان ثلاثين مثلًا ، فيمسك ثلاثة أصابع ، وإن كان أربعين فأربعة ، أما النصف فيأخذ نصف الاصبع ويطويه الى الامام . أما الرُبع فيمسك سلامية واحدة من الاصبع ويطويها ويبدأ الصياح صعوداً ونزولًا الى ان يسكت الطرفان ، دليلًا بقبول السعر ، عندها ينفض الدلال يديه من بين أيديهما ويصيح (البايع والشاري شايفين الخير) . ومن أشهر الدلالين في بغداد في هذه المرحلة : حزقيل شيرازي ، والسيد مهدي الحسني للصابون ، وشاؤول كوهين للحرير ، ورحمين زلون للكلبدون ، ومنير عجمي لواردات إيران من الرز والفواكه المجففة الإيرانية ، شاكر الضاحي وكورجي أصلان للحبوب ، وصليبي الضاحي والسيد حمود بهية والسيد الصافي للحبوب أيضاً ، والحجي علي للجلود والصوف ، وعاشور محمود الاسحاقي ، وأحمد العبادي للتمور ، وحسون الأعرج وعبدالوهاب للعقارات ، وعبود نجيبة للمكائن الزراعية ، وعبدالودود الخضيري لمستوردات بيت لنج ، ثم وكيلهم بعدئذ ، وموشي سوميخ للأقمشة والمنسوجات ، وشلومو هليل لخيوط الستلي والگواني ، والحاج ابراهيم ومحمد علي فيلي للسجاد الإيراني ، وهوبي الفرج للمواشي ، وقد صار من أكبر تجار الأغنام بعدئذ ، وكريكور للشيلمان والخشب ، وكثيرون آخرون يصعب تعدادهم . ولم يكن هناك سجل للدلالين أو قانون يحكم أعمالهم ، إنما كان العرف والعادة هما السائدان . أما أجور الدلالة ، فهي واحد بالمئة من البائع والمشتري ، إلا إذا اتفق على غير ذلك .

وبمناسبة الحديث عن التجار ، فقد كان من المستغرب غياب الطائفة الاسماعيلية المشهورة بنشاطها التجاري ، بالرغم من العلاقة القوية التجارية بين العراق والهند مقرهم الرئيس ، واقتصر نشاطهم على ملكية البساتين في كربلاء والنجف . وقد عيِّن السيد حميد خان والد زوجة الدكتور ضياء جعفر حاكماً على النجف أيام الاحتلال البريطاني ، وكان المفروض أن ينقل الاسماعيلية نشاطهم للعراق بعد هجرتهم العامة من منطقة شيراز وكرمان ، يوم كان جد آغا خان حاكماً على هذه المنطقة واختلف مع كريم خان مؤسس الأسرة القاجارية ورحل الى الهند مع الآلاف من أتباعه ، واحتفت بهم الحكومة البريطانية وقدمت لهم الاراضي والقصور ، حتى تولى آغا خان زعامة

الطائفة وهو طفل صغير . ويتصور الناس بالخطأ ان اسمه الأصلي أغا خان ، فان اسمه الأصلي هو سلطان وحكم الطائفة ٧٥ سنة . وهو أول فتى صغير في العالم يجلس ضيفاً على مائدة الملكة فكتوريا ، ثم انغمر في السياسة وصار مبعوثاً مهماً للامبراطورية البريطانية يحل مشاكلها العالمية ، وحيث ان موضوع الاسماعيلية طويل ومتشعب ، فهو لا يدخل ضمن موضوعنا هذا .

. النقليات

اقتصرت وسائل النقل على عربات الركوب المسماة (لاندون ألربل) ، وهي كلمة فرنسية ، ولا يركبها الناس إلا للضرورة أو للتنزه فيها بالجادة العمومية أو شارع الرشيد وصولاً الى قهوة العبد في البتاوين (سينما البتاوين) حالياً مقابل بستان الخس الذي يباع فيه الخس وهو مزروع في الإرض . وللمشتري أن يتجول في المزرعة ويختار منه ما يشاء ، ولا تصل العربة أبعد من قهوة العبد ، لأن الهاربين من العدالة والمطلوبين من الحكومة يوجدون بعد القهوة . أما الذاهبون الى الأعظمية ، فتنقلهم العربات بالطريق الترابي الذي يُرش يومياً من ماء الآبار المحفورة على جانبي الطريق ، وهو ماء آسن أزرق ، لأن البئر على عمق يصل الى عشرين درجة عن الشارع ، وسبب الرش هو وجود الملك فيصل الأول في بلاطه بقصر شعشوع ، وحتى لا يتطاير الغبار في ذهابه وإيابه ، أو على حركة الزائرين والمراجعين . وكانت أجرة الراكب آنة واحدة من مركز الوقوف في باب المعظم ، أو من باب جامع أبي حنيفة في الأعظمية . ومن حق العربنجي من دون منازعة أن يملأ العربة بستة أو ثمانية ركاب . أما الذاهبون الى الكاظمية ، فيستعملون الترامواي (الگاري) في ذهابهم وإيابهم بأجرة قرش واحد . ولكن قلَّ مَنْ يدفع القرش أجراً لركوبه من سوق الجديد حتى خان الكابولي ، أو سوق الاستربادي في الكاظمية . فإن كان الجابي في الطابق التحتاني بالگاري ، صعد الناس الى الطابق الفوقاني ، والعكس بالعكس ، فليس في الگاري غير جابي واحد . أما نحن الصغار فنصل الى المنطقة محل جامع براثا لاجل تبديل الخيول فقط ، ثم نرجع ولا ندفع الأجور ، لأن علينا أن ندفع الگاري ليتحرك ونساعد الخيول على سحبه ، أو اننا نتقافز يميناً وشمالاً لكي لا ندفع القرش معتبرين ذلك لعبة وتسلية وشطارة .

أما النقل الى الكرادة فيتم بواسطة الزوارق البخارية المتوقفة في شريعة السيد سلطان علي بأجرة قدرها آنة واحدة للذهاب ومثلها للإياب . وللراكب أن ينزل أين يشاء . والزورق يلتقط من الشاطىء مَنْ يروم الركوب ، وآخر محطة هي الزوية

(محل الجسر المعلق) . ولم يكن النقل بالسيارات داخل بغداد معروفاً حتى وصلت سيارات الفيات لمدينة بغداد . أما السيارات الذاهبة الى الكوت والعمارة ، فتقف في مدخل شارع البنك (السموأل) على جدار خان الاورطمة (خان مرجان) . أما الحمل ، ففي كراج أحمد الشيخلي في مدخل سوق الصفافير . أما سيارات الصويرة فتقف في رأس شارع الميكانيك مقابل جامع السيد سلطان علي ، وسيارات ديالى في محطة قطار باب المعظم في محل مطبعة الحكومة . أما الذاهبة الى كربلاء والحلة وخط الفرات ، فكانت تقف في علاوي الحلة قرب الخان الكبير العائد الى بيت عارف آغا والذي اشتراه تاجر الحبوب الشهير مراد جوري وسمي (سيف مراد جوري) . بعد ان كان هذا الخان مركزاً للعربات الذاهبة الى الحلة وكربلاء والنجف والعائدة الى شركة بيت مشعل اليهودية . أما النقل النهري ، فكان يتم عن طريق البواخر للركاب وللبضائع ، وهناك شركتان ، الأولى شركة بيت اللنج وبواخرها « بغداد » و « البصرة » و « الموصل » ، وشركة عبدالقادر الخضيري وأخوه وبواخرهما « دجلة » و « زنوبة » و « المجيدية » مع الجنائب لنقل الحبوب والبضائع . وكان مقر شركة الخضيري في الطابق الثاني من قهوة الشط .

أما بيت اللنج ، ففي بنايتهم الكبيرة على شارع الرشيد مقابل سوق الصابئة . وكانت البواخر كلها من النوع القديم ، فرفاصاتها في المؤخرة ، حيث يدور الدولاب الكبير ، أو في الجانبين لكل جانب دولاب ، وتسمى هذه البواخر (أم السريس) . وكثيراً ما تتأخر هذه البواخر بين بغداد والبصرة ، خصوصاً أيام الصيهود لاصطدام غاطسها بالرمال . لذلك فان أهم نوتية البواخر بعد القبطان هو (النوخذة) ، الذي يقيس عمق الماء بالجريد الطويل الذي يحمله وهو جالس في مقدمة البواخر ليقيس عمق الماء في جريده المؤشر عليه بالأرقام عمق الماء . فإن كان الماء كافياً لمرور الباخرة صاح (نيمشماي) ، أو يقرأ ارتفاع الماء بصوت عال ليسمعه القبطان ، فينحرف بالباخرة الى جهة أخرى أو يخفف سيرها . ومن الطبيعي أن يكون القبطان والنواخذة عليمين بمواقع الماء وتعرجات النهر والأماكن الخطرة فيه . وشركة بيت اللنج كان يديرها المستر كامبل حفيد المستر لنج وقد تزوج من بنت سارة الثرية الأرمنية البغدادية ، ويعرفه أهل بغداد من شاربيه الطويلة وسيارته الرولز رايز القديمة . وتبدل الزمن وتطورت وسائل النقل وفرغت شريعة المصبغة من بواخرها وروادها وألغي مركز كمرك المستنصرية وغادر المستر كامبل وخلفه في الشركة

عبدالودود الخضير ، ثم انتهت الشركة وبيعت العمارة وانقلبت الى سوق للاحذية والكماليات والصاغة . ولم يكن ممكناً أن تصعد البواخر الى أكثر من منطقة التاجي أو أبعد قليلًا ، ونادراً ما تصل الى منطقة (حليگ الذئب) حتى في حالة الفيضان ، بسبب تيارات نهر دجلة القويةووجود بعض الصخور في قاعه .

أما النقليات بالقطار ، فتتم عن طريق المحطات الثلاث ، وهي محطة باب المعظم لنقل البضائع الى شمال العراق والى إيران (قصر شيرين) أو الى كركوك . والمحطة الثانية ، هي محطة غربي بغداد بالكرخ ، وتنقل البضائع والركاب الى جنوب العراق مع خط خاص الى كربلاء . والمحطة الثالثة ، هي محطة باب الشيخ والتحميل منها قليل ، لأن محطة باب المعظم كانت تقوم بالواجب الاكبر ، وكان القطار يعبر نهر دجلة في الصرافية محل الجسر الحديدي على جنائب كبيرة (دُوَب) تنقل عربات القطار على مراحل من جانب الى آخر . وظل الحال مستمراً حتى إنشاء الجسر الحديدي الذي اشترته الحكومة العراقية كاملًا من حكومة الهند بثمن بخس مقداره أقل من مليوني دينار على ما أذكر .

وكانت تنقل بالقطار الى الموصل بعض صادرات العراق ، ثم الى حلب في سوريا ، ثم الى لبنان ، الميناء الحر (زون فرنش) ، مثل صادرات التمور والحبوب إذا كانت فائضة ، والجلود والصوف والعباءات والعربقوزي (سترد هذه التفاصيل في باب التجارة) . وكان كبير متعهدي النقل في القطار هو اليهودي حايم نتا نائل ، صاحب الفروع الكثيرة ، وكان مقرة في شارع الرشيد قرب سوق الصفافير مقابل حمّام بنجه علي . أما مقره الرئيس ، فكان في بيروت بشارع اللنبي وبعمارة شركة (مساجري مريتيم) الفرنسية اليهودية . ولقد فتح الخط الفرعي لسكة الحديد الى كربلاء لسببين : الأول ، هو تسهيل الزيارة الى المراقد المقدسة ، والثاني ، لنقل التمور المكدسة في سدة الهندية والمسيب وكربلاء والكوفة . وهناك فرعان للسكك مؤقتان ، أولهما يمتد من علي الغربي حتى الحدود الإيرانية لنقل الحصو والرمل للجيش البريطاني أيام الحرب الاولى وما بعدها .والثاني ، الخط الفرعي الذي يصل حتى (خشوم السعده) بين العزيزية وسلمان باك ، وقد مدّه الإنكليز في الحرب العالمية الأولى ، ولم تُرفع السكة إلا في الاربعينات ، ولا بد من الذكر ان خط سكة حديد الموصل كان من الخط العريض الذي أنشأه الالمان . أما باقي الخطوط في العراق ، فهي من الخط الضيق الذي أنشأه البريطانيون والحكومة العراقية . ولكل

خط عربات وقاطرات خاصة به . والخط الوحيد بين بغداد وبعقوبة كان يعمل عليه قطار صغير يسمى (الطرزينة) لنقل الناس سريعاً . ثم أُلغي بسبب توفر السيارات. وكان معمل الشالچية في جانب الكرخ أكبر معمل في العراق لتصليح وإدامة خطوط السكك والقاطرات . والعمال الذين يتركون معامل الشالچية يعدون من العمال الماهرين .

نقليات الحيوانات :

أولًا : بواسطة الجمال التي تنقل الحاصلات من الحبوب ، كالحنطة والشعير والرز الى بغداد من المزارع المجاورة والمحافظات القريبة . وكانت علاوي الطعام وأسواقه تموج بالإبل ، ويحمل الجمل الواحد مئة كيلو من الطعام على كيسين (عِدْلِينْ) ، في كل جانب عِدْل ، كما كانت تحمل الرقي الكبير الحجم الأسود اللون والذي يسمى رقي قزلرباط وموسمه الخريف . أما الحمير الصغيرة الحجم (الشاوية) ، فتحمل الخضراوات والفواكه من المزارع المحيطة ببغداد ، كما تحمل الشوك والحطب والأحمال الخفيفة ، كما تنقل الناس من محل الى آخر بين بغداد والأرياف . أما الحمير الكبيرة (الحساوية) و (الكدش) ، فتنقل الرقي من شرائع نهر دجلة ، حيث يجلب رقي سامراء الى محلات الباعة في بغداد ، كما تنقل البضائع الأخرى مثل الجص والطابوق . وكانت الحساوية واسطة ركوب ، وأشهر مَنْ كان يركبها الشاعر المرحوم جميل صدقي الزهاوي بعد ان يوضع عليها السرج واللجام تشبهاً بالخيل .

ثانياً : العربات ، وهي نوعان : عربات الحمل (اليرشقات) ، وعربات الركوب (اللاندون) ،ومجال عملها داخل بغداد فقط ، وتنقل البضائع من والى محطات السكك الحديدية في الكرخ وباب المعظم وباب الشيخ وداخل بغداد أيضاً . أما الكديش فينقل البضائع التجارية فقط ، وذلك بين دائرة الكمرك وبين الأسواق التجارية ، أو بين الأسواق في الأحمال التي تزيد عن قابلية الحمير وتقل عن استيعاب اليرشقات . ومن الطريف ان نقل الرقي من شرايع نهر دجلة الى دكاكين الباعة على ظهور الحمير الحساوية قد توقفت لكثرة دعابات السراق من الأطفال الذين كانوا ينتظرون مرور الحمير المحملة بالرقي ليسرقوه ، فإذا لحقهم سائق الحمير فان الباقين من الأطفال سيقومون

بسرقة أعداد كبيرة من الرقي ، ولا يستطيع السائق أن يلحق هؤلاء اللصوص . لذلك كان يفضل أن تسرق رقيتان أو ثلاث بدلًا من عشر رقيات . فاضطر الباعة ان يكونوا جماعات لحماية الرقي من السرقة . أما سرقة الرقي من القفة (المدورة والمطلية بالقار) ، وهي طافية في الماء ، فكانت أكثر سهولة ، إذ يكتفي أحد أفراد العصابة بسرقة رقية واحدة بأن يرميها في النهر ، فإن لحقه الكوفچي سباحة ، انهال بقية العصابة على سرقة أكبر كمية من الرقي ، وذلك برميها في الماء وتبقى طافية الى أن يلحقها الصبيان بعدئذٍ . وعلى هذا ، فكانت تُربط عدة قفف واحدة بالاخرى ويجلس عليها الفلاحون أصحاب الرقي مع عصيهم الطويلة جداً ، أو يتخذون من الحجارة مؤونة لرجم الصبيان قبل قدومهم الى القفة .

وكثير من عربات البرشقة ملك للعانيين الذين كانون موجودون في محلات السكك الحديدية وعلى مدخل سوق الصفافير عند خان حسقيل بابابي الناقل الداخلي الشهير في بغداد ، والذي كان يوزع البضائع الجاهزة للنقل الى شمال العراق بالقطار أو بين محلات بغداد ومتاجرها ، وبين محطات السكك أو العكس .

ثالثاً : النقليات النهرية ، وتتم بواسطة القفف عادة ، إذ تنقل الحاصلات الى بغداد أو تنقل البضائع والاثاث بين بغداد والضواحي . والقفف نوعان : صغير ، ويسمى قفة ، والكبير منها ويسمى حصان ، وهو ينقل ما زنته أكثر من طن . أما القفف الصغيرة جداً فتستعمل لصيد السمك بالشبكة أو لعبور نهر دجلة في بعض الأحوال النادرة . وتوقف عبور الناس في هذه القفف بعد غرق الرجل المعمم الكرخي السيد ذيب والذي كان يبخل على نفسه ولا يدفع أجرة الركوب بالبلم . فقد غرقت به القفة ولم يُعثر إلا على العمامة طافية على الماء . وبدأ الكرخيون يغنون المغناة المشهورة :

«جَتّي العمامة طايفة والروج يلعب بيها سيد ذيب راعيها»

أما النقليات بالسيارات ، فلم تبدأ إلا في منتصف العشرينات ، وقبل هذا رأينا لوري ينقل الفاكهة من لواء ديالى الى بغداد بالسيارة الكبيرة المكشوفة ، وهي سيارة من مخلفات الحرب العالمية الأولى . ثم استوردت السيارات الاخرى وصارت تنقل البضائع بين بغداد وبقية الالوية ، وكان مكان كراج نقل

البضائع الى الكوت والعمارة في شارع الرشيد بجوار سوق الصفافير ، ومتعهده الحاج أحمد الشيخلي . ولوريات النقل الى الفرات في علاوي الحلة بكراج رؤوف الاعظب (كانت يده مقطوعة) . أما الى الشمال وكركوك ، فكان القطار هو المعوّل عليه في النقل وتبدأ حركته من محطة باب المعظم ، لكن السيارات أخذت تنقل الركاب الى الموصل بعد منتصف العشرينات ، وكان الطريق الى كركوك غير آمن ، إذ يخشى من ضياع السيارة في المنطقة الجرداء المسماة (انجانه) أو (الغرفة) بين ديلتاوة وطوزخرماتو . أما الى الموصل فتصل سيارات الركاب الى الشرقاط ، ثم تتوقف قافلة واحدة يحرسها أثنان من عبيد الشيخ عجيل الياور لايصالها سالمة من السلب الى الموصل . كما فُتح كراج لنقل الركاب والبضائع الى العمارة والكوت فقط ، وذلك مقابل الغزالي وأصحابه فائق الحاج رؤوف والحجي سلام الشيخلي ، وكراج آخر للنقل في باب المعظم على رأس الشارع المؤدي الى شارع غازي (الكفاح) ، وهو ينقل البضائع الى شمال العراق مع وجود ورشة للتصليح فيه . أما كراج علاوي الحلة الكبير الذي كان ملكاً لبيت عارف آغا ومقراً للعربات التي تنقل الناس الى الحلة وكربلاء والنجف ، فقد أصبح هو الكراج الرئيس في الكرخ ، ثم خاناً للطعام بعد ان اشتراه تاجر الحبوب مراد جوري .

أما كراجات تصليح السيارات ، فكان أولها وأشهرها هو كراج (كوترل وكريك) مقابل قهوة الزهاوي ، وقد صار بعدئذ سوقاً لعبدالعزيز البغدادي ، ثم كراج أسطى أحمد في الميدان مجاور جريدة « الزمان » ومقابل باب قلعة الدفاع ومقهى أمين . ثم كراج ابراهيم وخليل بشناق أخوة أسطى علي وابراهيم شندل في شارع الشيخ عمر . ثم كراج كتانة ويوسف سعد المشترك ، وذلك في الباب الشرقي قرب سينما الخيام (قبل بنائها) . وهناك كراج آخر في السنك يعود الى بيت خضوري لاوي وكلاء سيارات شفروليه والبويك ، واشترك معهم الفيترچي أسطى سلمان . وفي السيد سلطان علي كراجان ، الصغير منهما يعود الى اليهودي شفيق عدسي وكيل سيارات الفورد . أما الكبير فهو كراج(نيرن) الخاص بتصليح وإدامة سيارات نيرن . وقد شيد في محله مؤخراً (مخزن أوروزديباك) ، وهو ما يسمى الآن بالاسواق المركزية .

وفي أواخر العشرينات بدأ ظهور الباصات الكبيرة في شارع الرشيد .

وكانت هياكلها الكبيرة من تصميم وصنع عمال بغداد قرب مقبرة الغزالي وفي النجف أيضاً ، التي كانت تفوق هياكل بغداد جودة ومتانة ، وأخذت الباصات تنقل الناس بين باب المعظم وباب الشرقي بأجرة قدرها آنة واحدة ، أي أربعة فلوس ، ولها باب واحد في الخلف يقف عليها الجابي وهو مسؤول السيارة . وكان الصعود والنزول منها .

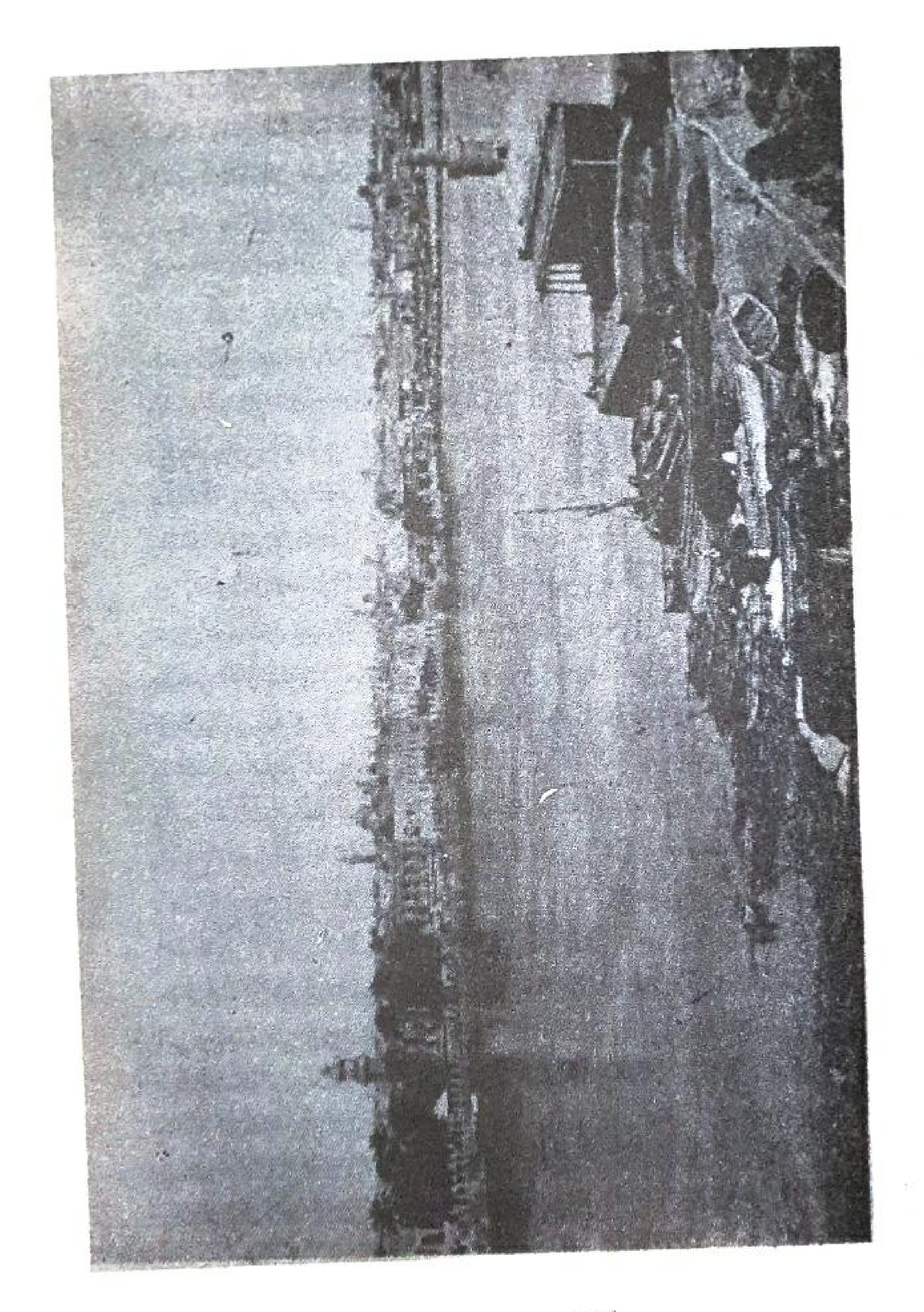
وفي الثلاثينات بدأت الباصات الصغيرة بدخول شارع الرشيد ، وكذلك نقل الناس الى الاعظمية والكرادة ، وكانت تستورد من قبل المخازن الكبرى والشركات ، وخصوصاً شركة عزرة حكاك .

وفي النهر كانت الزوارق الصغيرة تنقل الناس بين جانبي دجلة في حالة قطع الجسرين لمرور السفن الكبيرة بأجرة قدرها آنة واحدة للشخص الواحد وكل زورق يحمل ثمانية أشخاص ، أو للمستعجل الذي لا يريد أن يقطع الطريق الطويل الى أحد الجسرين بأجرة قدرها أربع عانات أو حسب الاتفاق .

وكانت الزوارق ترسو في شرايع معلومة ، أشهرها شريعة القمرية ، وشريعة النواب ، والآلجي ، وباب السيف ، وهي الأكبر ، لأنها قرب الجسر . ثم شريعة الكريمات قرب جسر مود ، وكلها في الكرخ . أما في الرصافة ، فشريعة المجيدية في باب المعظم ، وشريعة الميدان جوار النادي العسكري ، وشريعة المحكمة ، ثم شريعة المستنصرية ، وهي الكبرى ، لأنها ملاصقة للجسر . ثم شريعة المصبغة ، وشريعة سيد سلطان علي . وتُستعمل الزوارق أيضاً لنقل الحمولات الصغيرة بين الصوبين أو للنزهة أيام الصيف ، خصوصاً بالذهاب الى الگاورية . أما الزوارق البخارية الخصوصية لغير الحمولات ، فلم تكن في بغداد غير بضع زوارق خصوصية ، مثل زورق البلاط الملكي ، وزورق الملك علي الذي كان يسكن في كرادة مريم على نهر دجلة . وزورق المندوب السامي البريطاني ، والقنصلية الفرنسية والإيرانية ، وبيت السويدي ، وبيت النقيب ، وبيت النواب ، وسيمون غربيان ، وزورق بيت اللنج ، وشركة كري مكنزي ، وزورقين أو ثلاثة لبعض الاثرياء من اليهود . أما بقية الزوارق البخارية والسفن الشراعية (المهيلات) . فحركتها متوقفة على فتح الجسرين ، جسر مود والجسر العتيق للمرور .

وفي الثلاثينات تطورت أحوال النقل في بغداد ، سواء كانت برية أو

نهرية ، إذ دخل النقل الجوي وشيد مطار بغداد في الكرخ ، وكان عالمياً بقياس ذلك الزمن ، سعةً وجمالًا ، وكان أول محطة جوية نزلت فيه الطائرات البريطانية من طراز (جيبسي موث) في طريقها من لندن الى استراليا ، وكان النقل الجوي قبل هذا على طائرات الخطوط الجوية الملكية البريطانية (امبريال آيرويز) ، وكانت تنزل ، إما في مطار الهنيدي ، أو سن الذبان . ومن الطريف ان الطائرة البريطانية (اميليا) سُئِلَت عن أغرب ما رأت في رحلتها من لندن الى استراليا ، فقالت : ان الذي يدير مطار بغداد هو طبيب مختص بالعيون ، وكان هو الدكتور فائق شاكر وسجل ذلك في سجل المطار .



الاسواق والعلاوي

أسماء الاسواق والمحلات وسكانها :

كانت أكثر الاسواق تسمى بأسم الصناعة التي يتعاطاها أصحابها أو البضائع التي تباع فيها ، وكانوا يتجمعون لصلة بعضهم ببعض ولحاجة بعضهم الى بعضهم الاخر ، مثل سوق الصفافير ، وسوق الساعەچية ، وسوق الاطرقچية ، لبيع الفرش والحصران ، وسوق الجصّاصة بالكرخ لبيع الجص ، وسوق الجِيَص (جمع حياصة) ، وهي الحزام وكان يقع خلف خان دلة الكبير ، وسوق الدجاج ويسميه يهود بغداد سوق (الجيج) والواقع في نهاية سوق حنون ، وسوق الصاغة الى آخره .

أو كان يسمى السوق بأسم مالكه أو بأسم مَنْ أشغله أو أشهر مَنْ كان فيه ، مثل سوق حمادة ، وسوق حنون ، وسوق دانيال ، ودكان شناوة ، و (دكان سَمْغَوْ) . كما يسمى الآن سوق (مريدي) في مدينة الثورة . أما محلات السكن وتسمى المحلة أو الطرف أو العگد أو الدربونة ، فإما ان تكون مجمعاً عشائرياً نزح من خارج بغداد وتجمّع بعضهم على بعض بسبب المعرفة أو القرابة ، مثل محلة العزة ، وبني سعيد ، وألبو شبل ، والقراغول ، والمشاهدة ، والفلاحات ، والجنابيين . أو نسبة الى أحد شيوخ الصوفية المدفونين في ذلك المكان ، مثل : محلة العاقولية ، وباب الشيخ ، وسراج الدين ، والخلاني ، والشيخ جنيد ، والشيخ معروف ، والشيخ بشار . أو باسماء أصحاب الأرض الأصليين ، مثل : محلة الارضروملي ، والسيد عبدالله ، أو هيبت خاتون ، أو جديد حسن باشا نسبة الى حفيد الوالي بيوك سليمان باشا ، أو نسبة الى رخيتة في الكرادة . وقد رأيت بيتها الكبير عندما أقيمت دعوى حصر الوراثة مع بيت طبانة ، ورخيتة هي جدة ناصر الجنابي لامه . ومن الظريف ان إحدى محلات الكرخ المشهورة ، هي محلة طرف بارودة ، وبارودة كلبة سوداء اتخذت مقرها في هذه المحلة التي يسكنها كثير من وجهاء الكرخ ، وكانت تعرف كل سكان الطرف رجالًا ونساءً وأطفالًا ، وحين يدخل الطرف أي غريب تبقى ترافقه وهي تنبح وتكاد تعضه أو

تمزق ثيابه حتى يجتاز الطرف . أما في الليل فيا ويل مَنْ يقتحم المحلة من الغرباء ، وإلا فان دمه يسيل وتمزق ثيابه . وفي العشرينات حين ظهرت إشاعة وصول الطاعون الى جانب الكرخ قامت سلطات الاحتلال بتوزيع مصائد الجرذان ، وحين دخلوا مع المصائد الى طرف باروده ، قابلتهم باروده بأسوأ مقابلة وعقرت بعضهم ومزقت ثياب آخرين ، فاضطر أحدهم الى سحب مسدسه فقتلها رحمة الله عليها .

أما التجمعات العرقية ، فقد تجمع العانيون في محلة بني سعيد ، وبالكرخ في جامع عطا والدهدوانة . أما السامرائيون والتكارتة فتجمعوا على طول سكة الترامواي الذاهب الى الكاظمية ، أي في محلات الست نفيسة ، وسوق الجديد ، وخضر الياس . أما المسيحيون فتجمعوا في عگد النصارى ، ورأس القرية ، والعقار ، والمربعة . والأرمن تجمعوا في كمپ الباب الشرقي ، وكمپ العمّار على نهر دجلة مقابل قهوة الملا حمادي . والصابئة في محلة الكريمات قرب السفارة البريطانية ، وعلى شاطىء نهر دجلة للقيام بسهولة بطقوسهم الدينية . أما الاكراد فيتجمعون في الصدرية ، وباب الشيخ ، وبالقرب من مقبرة الغزالي . والمعدان يتجمعون مع جواميسهم في العوينة ، ثم انتقلوا الى محلة الارضروملي ، وهناك محلة خاصة تسمى محلة المعدان . أما اليهود فلم يسكنوا جانب الكرخ ، بل تجمعوا في محلات أبو سيفين ، وأبو دَوْدَوْ ، والتوراة ، وقمبر علي ، والقشل ، وفرج الله ، وجامع المصلوب ، وتحت التكية ، وبعض المحلات الأخرى المتفرقة في جانب الرصافة ، وحاولوا السكن في بغداد الجديدة التي اشتروها ، ولكنهم لم يسكنوها ، لانهم لم يتفاعلوا بها ، بل اتجهوا الى الباب الشرقي فاشتروا أراضي في البتاوين والاورفهلية ، وبستان مامو ، وبستان كبة ، أي المنطقة المحصورة بين الباب الشرقي وجامع الجندي المجهول في العلوية وشيدوا بيوتهم العامرة هناك ، وبعد الهجرة انتقل المهاجرون من شمال العراق (الكلدان) الى هذه البيوت شراءً وسكنوا هناك الى الحال الحاضر .

أُطلقت الاسماء على الاسواق ، إذن إما بسبب تجمع صناعي ، مثل سوق الصفافير ، وسوق الحدادين ، وسوق اليمنچية ، أي صانعوا اليمنيات (النعالات) ، أو على مجمع تجاري ، مثل : سوق البزازين وسوق العطارين ، وسوق الازر ، وعباءات الكلبدون ، أو على علم من الاعلام ، مثل سوق المولهخانة ، نسبة الى تكية المولوية ، وسوق حنون .

ومن أسواق الكرخ التي اشتهرت :

أولاً : سوق حمادة :

ويظهر ان حمادة كان إما مالكاً لبعض الدكاكين فيما مضى ، أو كان عطاراً أو نقالاً مشهوراً . وسوق حمادة أطلق على المحلة كلها التي تبدأ من خط الترامواي مقابل شاطىء الجودي الى قهاوي عكيل ، فالى العنازية ثم خانات الأباعر وتتصل بسوق اللبن والشيخ علي ، وقد اعتبرتها خرائط البلدية مؤخراً من جملة فروع ودرابين سوق الجديد التي تبلغ أكثر من عشر محلات ، أو أطراف ، مثل : طرف جامع عطا ، والدهدوانة ، وبارودة ، والست نفيسة ، والگاريات . وكان يسكن هذه المنطقة الكبيرة جماعات السوامرة والتكارتة والجبور والچيّالة (الكيالين) والعانيين والراويين ، حتى الجعيفر . ويشتهر سوق حمادة عدا المواد التي كانت تباع فيه مثل بقية الاسواق بقهاوي عكيل وخانات الاباعر واسطبلات الخيل .

ثانياً : سوق العلاوي :

(جمع علوة) ، ويبدأ من جامع الشيخ صندل ويمتد حتى الحدادين في محلة الدوريين قرب بيت مصطفى الخليل والى سوق الجصّاصة في ساحة الشهداء . وفي هذا السوق الطويل كل علاوي الطعام ، أي الحبوب وعلاوي الرز ، والبزازات ، (معامل الدبس) ، والحدادين ، الذين يصنعون لوازم الفلاحين وبقية اللوازم البيتية ، وهو قائم حتى الآن . وفي هذا السوق أشهر حمّامين في الكرخ ، وهما : حمّام الشامي ، وحمّام يتيم أو حمّام أيوب ، كما يسميه بعضهم نسبة الى صاحبه أيوب يتيم ، وفيه ماكنتان للطحن وعلوة التمن الشهيرة لصاحبها خيرالله أبو وزير الخارجية الأسبق ، والذي كان يبيع أحسن أنواع التمن وتتصل هذه الاسواق بساحة الشهداء التي كانت علوة عامة لبيع المخضرات بالجملة في جانب الكرخ . وكان ملتزم العلوة شاكر العاني ومسؤولها سليمان الهدبان يفرغون الساحة في أيام عاشوراء ، حيث تتجمع المواكب في طريقها الى بيت النواب .

ثالثاً : سوق السراي :

وهو على قسمين : الاول يتجه بعد عبور الجسر القديم نحو سراي الحكومة (القشلة) والمحاكم ويشتهر بالدكانين الموجودين في رأس السوق والمختصين بكوي الطرابيش وهم من اليهود وأشهرهم (يونا) الطويل القامة العريض المنكبين

الذي يلبس الصاية الصيفية شتاءً وصيفاً ويزرها بخيط على رقبته . وكانت أجرة الكي آنتين ، أي ثمانية فلوس بضمنها تركيب الحصيرة في الداخل وأربع آنات إذا كان هو الذي يضع السير الجلدي في مقدمتها لحفظ الطربوش من قطرات العرق في الصيف ، كما يضع (البسكولة) . إن لم يكن فيها بسكولة . أما كوي الطربوش بدون حصير ، فكان آنة واحدة مع تركيب البسكولة السوداء ، والكوي يتم بواسطة قالبين من النحاس الأصفر (البرنج) الثقيلين ويحمّى على نار البريموس . ثم يُركّب الطربوش على القالب بدرجة حرارة متوسطة كي لا يحترق ، ثم يركّب فوقه قالب آخر ذو مقبض خشبي لرفعه وخفضه . ويبقى الطربوش نحو دقيقة واحدة بعد ان يكون يونا قد رشه بقليل جداً من الماء ، ثم يرفع القالب الفوقاني ويقلع الطربوش من القالب التحتاني ، والقالبان يحتويان على فتحة في القمة لادخال أنبوبة الطربوش الفوقية التي تمسك البسكولة السوداء . ثم تتقدم قليلًا في السوق لتلتقي بالأسطى مجيد ، أحسن صانع أحذية من المسلمين (اليهود هم المشهورون بصنع الأحذية) ، وهو لا يبيع أحذية جاهزة ، إنما أحذية (توصاية) ، فيأخذ القياس للزبون على أن يكون الجلد (كلاصي أو روغان أو شفرو) ، لأن صنع الحذاء من الجلد الرخيص ، مثل الميش يعد اهانة لمهارته . ثم تتقدم لتلتقي بلوكندة الحجي رشيد أشهر وأمهر طباخ في بغداد ، وهو أستاذ الطباخ أحمد سمينة ومطعمه خان كبير بمواجهة فتحة سوق السراجين ، وعلى رأس هذا السوق مخزن الإيراني محمد كاظم محمد رضا ، أول مَنْ باع أقلام الحبر الياندان (الكونكلين) ، وشِيَش الحبر علامة (سوان) . وكانت أقلام الكونكلين السوداء اللون ذات قوس صغير في وسط جسمها ، وأنبوب صغير من الكاوتشوك ، حيث يضغط بالقوس لنزول الحبر من الريشة . وكان قسم من هذه الأقلام مغلفاً بزخرف من الذهب .

ثم دكان ابراهيم السدايري ، الذي أخذ هذا اللقب لأنه أول مَنْ صنع السدارة من القماش . ثم سوق الصاغة ، ثم المكتبات الثلاث المشهورة ، وهي : المكتبة العربية لصاحبها نعمان الأعظمي ، والمكتبة العصرية لصاحبها محمود حلمي ، ثم مكتبة عبدالأمير الحيدري ، ومكتبة عبدالكريم خضر . وفي أواخر العشرينات جاء الى السوق من النجف عبدالحميد زاهد واخوته بمكتبة جديدة . وفي نهاية السوق بائع شربت الزبيب الذي كان يستقطر من كيس المرعز المعلق في سقف الدكان ويباع معه خبز المريس وجبن الكرد .

أما سوق السراي من الجهة الثانية ، فاول ما يقابلك فيه الصيارفة (على الرِجل) مع أكياس نقودهم وخشخشة ريالات (ماريا تريزا) أو المجيديات العثمانية لتبديلها بالربيات تمهيداً لدخول الناس الى السوق للتبضع . وكثيراً ما كانت المعارك والشتائم تدور بسبب الخلاف على سعر الليرة العثمانية الذهبية الرشادية منها والحميدية ، فلكل ليرة سعر ، ولكل يوم سعر ، ومن هنا يبدأ الخلاف . ثم ياتي دكان حسون أبو الجبن المشهور بمواقفه الوطنية وجبنه وعسله ، ومقابله كان دكان المولهخانة ، ثم مغازة حجي حسين خيوكه الكبيرة . ثم باعة النعالات الجلدية النجدية والعراقية والخيزران ، فإذا اتجهت شمالًا ، فالى بائعي الأحذية الجاهزة ، ثم الى جامع القبلانية الذي اشتهر ببائع الكبة على بابه . كما اشتهر بخطيبه الملا مصطفى الواعظ المعروف بخطاباته العنيفة ، خصوصاً في شهر رمضان ، وكثيراً ما أوقف ومنع عن العمل ، ثم سوق الأطرقچية الصغير الذي تُباع فيه الفرش والحصران والبسط ، فالى دكان (شاشا) بائع البوپلين الشهير في بغداد ، وهو فرع من مخزنه الكبير في سرداب خان كرجي بأول سوق الصفافير (خان الحريري) . وعلى موازاة هذا السوق ، هناك سوق الهرج الصغير وتُباع فيه الألبسة المستعملة والأحذية المستعملة والكلاشات الكردية والكالات الإيرانية القطنية منها والحريرية . ثم سوق العبي المحلية ، منها والمستوردة ، مثل عباءات الناين والمانيرة والمستوردة من خوزستان أو باكستان . ثم (خان جغان) ، وفيه الصاغة قبل تعمير سوق الصاغة في سوق السراي . ثم الروافون وبائعو الساعات وأشهرهم موشي الساعهچي . ولم تكن تُباع في بغداد سوى ساعات لونجين ، وزنيث ، وساعات أُم الطمغة ، وأُم الانگر ، وساعات الحائط . أما ساعات اليد ، فلم نرها ولا نعرف عنها شيئاً ، إلا عند الأثرياء وكبار الموظفين . ويستمر السوق حتى جامع الوزير وقهوته المدورة في بابه ، وهي مشهورة بعمل النركيلة ، ثم خان الپاچهچي ، ثم دكاكين بيع البرنوطي ويمنيات حلب وبغداد وهو سوق المصبغة .

سوق البزّازين :

وهو أكبر الأسواق في بغداد ويتفرع منه عدة أسواق ، قد لا تتصل بالبز أو القماش ، فابتداء من سوق الصفافير تُباع الاقمشة ، مثل : الچيت ، والحرير والبازة ، وأقمشة البردات والدواشگ ، ويتفرع منه سوق المرادية الصغير ، ثم سوق

المرادية الكبير الذي شيدته الأوقاف في بداية العشرينات واتخذه اليهود سوقاً لعمل الاحذية . أما الآن فهو سوق مختص بالبزازين وبائعي الاقمشة ، ثم يأتي سوق الجايف ،وفيه دكان الحجي مجيد مكية لبيع الفوط والچراغد ، ثم سوق المناشف والخاوليات ، وفي هذا السوق يقع الباب الخلفي لخان دلّة . ثم نرجع لسوق البزازين ، حيث يبدأ سوق الخفافين ، وهو ثلاثة فروع ، فرعان منهما للخياطين والآخر لمختلف الباعة وفيه يقع جامع الخفافين ، وهو من الجوامع القديمة في بغداد ، وكان يُباع في هذا السوق الكاهي والسمك الجري المقلي بالسيرج من قبل اليهود ، وفيه يجلس رجب الخباز ، أشهر مخنث في بغداد ، ثم سوق الچوخچيّة ، حيث تُباع الأقشمة الصوفية ، مثل : الجوخ والفاصونة ، وفي هذا السوق يقع محل الملّا عارف ومسجده ، ثم سوق الأُزُر والقزازين ، حيث يباع الحرير الخام والأزر التي تلبسها نساء اليهود والنصارى ، وعباءات أم چتف للمسلمات . وأشهر حائكي الأزر وباعتها هو اليهودي منشي ساعات ، وينتهي هذا السوق الى دكاكين بيع الجلود والليسة ودلّالي هذا الصنف من البضاعة . ثم هدم خان دانيال لخان جغان وشيد محلة ثلاثة أسواق وسميَ سوق دانيال ، وتباع فيه الآن جميع أنواع الأقمشة والكماليات النسائية ، وتنتهي فتحات هذا السوق الى خياطي الصايات والزبنات . وفي زقاق فرعي من سوق دانيال يوجد سوق السجاد ، وفيه من المشهورين والقدماء : الحجي حسين الطعان ، وحميد فويلي . وكان في آخر سوق الصفافير خان كبير يعود الى شاؤول طوبة ، وقد هدم وشيد مكانه سوق شاؤول طوبة ، وأشغله البزازون ، ما عدا بائع الزوالي عباس فويلي ، ورواف الزوالي المشهور عربي في الطابق الفوقاني .

ومقابل خان دانيال ، كان دكان الطرشي المشهور (طرشي خان جغان)،والطرشچي هو ذيبان ، الذي قتل بعد انتقاله الى باب الآغا ، وقريب منه دكان البزاز السيد صادق الحسيني ، وجليسه الدائم الشيخ فالح الصيهود رئيس عشائر ألبو محمد . وعلى يسار مخرج سوق شاؤول طوبة وفي نهايته خان (قاب كهيه چركسي) ، وهو من أقدم الخانات في بغداد ، وقد بني في زمن العثمانيين في القرن السادس عشر ، وفيه محل دلّال الحرير المشهور شاؤول كوهين وابنه كورجي ، اللذين هاجرا الى مصر أوائل الثلاثينات وسكن الإسكندرية ، وصار كورجي من أكبر تجار الحرير في مصر . ثم يستمر السوق الى خان خضوري شعشوع صاحب القصر المشهور . وفي اتجاه خان دلّة الى شارع الرشيد كان يوجد سوق الحِيَص

والعرقچينات ، ثم خان يسمى خان السلطان سليم ، وقد كتب على بابه بالقاشاني الأزرق ، ولكني أعتقد ان سلطان سليم لم يحضر الى بغداد ، بل ابن ابنه سلطان سليمان القانوني .

وكان في هذا الخان صائغان يهوديان ورجل عجوز يبيع اللؤلؤ . وحاول بعض الرعاع الهجوم عليهم في المظاهرات التي جرت يوم قدوم الزعيم الوطني الدكتور عبدالرحمن الشهبندر بعد منتصف العشرينات . ولكن المسلمين في السوق وقفوا ضدهم ومنعوهم من الاعتداء ، لكن الصائغين بعد هذا تركوا محلهم وانتقلوا الى سوق الصاغة مع رفاقهم . ويستمر السوق صعوداً الى الباب الخلفي لخان الأورطمة (خان مرجان) ، ثم الى خان كبه وبائعي الأبيض وبيض من اليهود ، ثم الى الساحة المقابلة لجامع مرجان ، حيث سلّم العبور ، وكان يباع في الساحة أكلات خفيفة لليهود والفواكه ، كما يباع فيه (الخرّيط) الأصفر ، الذي يأكله اليهود فقط ، وهو طين يابس أصفر اللون ليس له طعم ولا رائحة ويستخرج من جذور القصب ، كما فتح في هذه الساحة أول دكان في بغداد يبيع السيفون والجنجر بواسطة الآلة الكابسة .

سوق الصفافير :

ويبدأ من شارع الرشيد من دكان باقر الكبابچي الإيراني ذي اللحية الكثة والطرشي المدبس والإسكنجبيل ، وحلَّ محله أخيراً كراج أحمد الشيخلي لنقل البضائع الى الكوت والعمارة . وفي أول السوق تقف الكدش والعربات الصغيرة والحمّالون وهم يسدون السوق واقفين بباب خان اسحق بباي متعهد النقل بالقطار الى شمال العراق ، خصوصاً كركوك والسليمانية وأربيل ، يجاوره خان الطباطبائي ، وهو مخزن للمصنوعات النحاسية يخزنها الصفارون المجاورون ، مثل : المناقل ، والاباريق ، وطاسات الماء الصفراء والبيضاء ، والفؤوس . ثم يتفرع الى اليسار طريق صغير فيه بيت يسكنه الأديبان الشقيقان عبدالله وعبداللطيف ثنيان ، وفيه مجلسهم وديوانهم اللطيف المبلط بالمرمر الابيض مع حوض الماء والشاذروان . وديوانهم هذا مجمع للأدباء والفضلاء من أهالي بغداد ، ثم خان بيت البسام النجديين الاصل ، ثم خان الفقيه الحجي عبدالمجيد حمودي ، وعلى رأس هذا الزقاق خان السيد جعفر الحسيني والد الدكتور ضياء جعفر ، ثم خان السيد حسين يحيى وأربعة

دكاكين لاجل تبييض القدور ، ثم يبدأ السوق الحقيقي للصفافير ، وفي أوله ثلاثة دكاكين لمهندسي النحاس قبل تقطيعه ، إذ لا بد أن يصور مقدار ما يقتطع من صفيحة النحاس الكبيرة ، المدورة أو المستطيلة ، إذ يؤشر عليها بالفرجال طريقة التقطيع وكيفيته ويقطع بمقص خاص للنحاسين ، وليس في السوق غير ثلاثة من هؤلاء المهندسين الممتهنين المجربين ، وأكثر التقاطيع يكون على شكل دوائر تصلح لعمل الطشت أو القدر أو الإبريق والصينية ، ثم تُلحم هذه القطع ببعضها لاكمال المادة المطلوبة وكأنه قطعة واحدة ، خصوصاً بعد طرقها من قبل الصفار . وتبقى الصفائح النحاسية غير المصنعة أياماً أمام الدكان لصعوبة سرقتها ، فالسوق محروس جيداً والصفائح ثقيلة جداً يصعب نقلها إلا بواسطة عدة أشخاص . ثم تبدأ دكاكين عمال النحاس والصفارين ، ولكل عامل من الصفافير أدوات عمله ، وهي قائمة حديدية معكوفة في قمتها على شكل زاوية قائمة . أما نهاية القائم فمدبب ليسهل غرسه في الأرض أمام الدكان ويُدخَل الإناء النحاسي في قائم الزاوية لأجل دق الچاكوچ المختلف الأنواع والأحجام حسب نوعية العمل وضخامة المطلوب أو رقته ، فللطشت چاكوچ ، ولدَلّة القهوة چاكوچ ، وللقدر چاكوچ ، وتترك هذه الچواكيچ أثر الدق على النحاس كدوائر ، فرأس الچاكوچ مدور والدق له أصوله ، فهو يبدأ بدقتين بطيئتين تعقبهما مباشرة دقتان صغيرتان خفيفتان أو ثلاث دقات تعقبهما خفيفتان ، والصفار يحرك الإناء النحاسي بأصابع قدمه تماشياً مع الدقات تعاونه يده اليسرى لاستكمال الدوران ، ويكون سقوط رأس الچاكوچ متصلاً زمنياً وهندسياً تبعاً لخبرة الصفار ومهارته .

وفي منتصف السوق يتربع الحجي محمد الصفار مجبر العظام المشهور بكشيدته ووقاره ، يستقبل مرضاه ويداوي عظامهم ، وفي مواجهة دكانه وعلى رأس دربونة الدخانية التي تصل السوق بشارع المأمون (الدنگچيَّة) يقع سرداب (الكندكارية) الكبير وأصوات مطارقهم التي تشق طبلة الأذن . وبجوار السرداب هذا يقع خان موشي سوميخ القديم ، ثم يخف صوت مطارق الصفارين ، إذ تبدأ باتجاه سوق البزازين دكاكين بيع منتوجات الصفافير من الأواني ، ويجلس تجار هذه المنتوجات في مقدمة دكاكينهم الممتلئة بالمصنوعات الجاهزة ، أو بما اشتروه من نحاسيات مستعملة . ثم ينتهي سوق

الصفافير بخان كرجي ، أو خان الباشا كما يسميه بعضهم ، أما اسمه الآن فهو الحريري ، فقد اشتراه السيد تقي الحريري من مالكيه اليهود بيت دنوس أصحاب سينما الزوراء وقد هدمه الحريري وشيده سوقاً .

وسوق الصفافير مليء بالخانات وفيه بيوت للسكن ، ومن جملة مَنْ سكن فيه عباس فيلي تاجر الزوالي واخوته قبل أن ينتقل منه في أوائل الثلاثينات . ومن الخانات المهمة في سوق الصفافير خان ابراهيم حييم التاجر والعضو الدائم في غرفة التجارة والنائب في البرلمان والمساهم الكبير في شركة الغزل والنسيج (معمل الوصي) . وفي آخر السوق خان شاؤول طوبة الذي هدم وشيد محله سوق شاؤول طوبة . وفي آخر السوق وعلى مخرجه تحت الطاق باعات السبداج والحنة والقرص والديرم وخيوط الحف ، وكافة لوازم المكياج البدائية . وكان محلنا التجاري في خان السيد حسين يحيى أول سوق الصفافير الى ان أُحرق في سنة ١٩٢٦ من قبل اليهود بيت نمرودي . وانتقلنا الى خان كرجي في آخر سوق الصفافير وبقينا فيه الى أواخر السبعينات ، وكان فيه أيضاً مكتب محاماتي ، وعند تهديم الخان من قبل الحريري انتقلنا الى الخان الصغير المقابل له ، وبهذا أكون قد تعايشت مع سوق الصفافير أكثر من خمسين عاماً .

ومن تقاليد سوق الصفافير الصارمة إقفال دكاكينهم كل يوم جمعة وفي كل يوم زيارة للعتبات المقدسة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، وعند وفاة أي عامل من عمال سوق الصفافير تضامناً معه ، ولا يفتح في يوم الإغلاق إلا دكاكين الرؤساء بعد إتمام المراسيم ، ويبقى دكان الحجي محمد الصفار ليداوي كسور العظام ، ولا يفتح الرؤساء دكاكينهم للعمل ، بل للدردشة والمذاكرة في مصالحهم بدلًا من الذهاب الى المقاهي .

سوق هرج في منطقة الميدان :

يتصدر السوق بيت عبدالحليم الحافاتي بشناشيله المطلة على شارع الرشيد ، وكان الحافاتي من جملة مرتزقة الأوقاف ووظيفته مراقبة ساعات الحائط بجامع السراي مقابل القشلة ، وكان معمماً ذرب اللسان ، نسابة ، يذهب الناس الى ديوانه المشرف على شارع الرشيد ، ويدور الحديث فيه على الأغلب عن مثالب الأعداء

والخصوم ، وخصوصاً مثالب وعيوب الملك فيصل الأول وحاشيته ، لأن الحافاتي لم يستفد من الملك فيصل شيئاً ولم يتقبّل دعوة واحدة للعشاء في شهر رمضان أو غيره خلافاً لبقية المعممين ، مما أثار غضبه واستياءه ، وبعد مراقبته ومضايقته ونقل ما يدور في ديوانه الى الحاشية الملكية هرب الى قصره الكبير في محلة السفينة بالاعظمية .

وفي سوق الهرج هذا يباع ويشترى كل شيء يخطر على البال ، أو لا يخطر ، ابتداءً من الأموال المسروقة ، وانتهاءً ببيع الأثاث البيتية وغير البيتية للعوز والحاجة . وفي هذا السوق مقاهٍ ومطاعم ودكاكين وبائعو الخرده فروش والحاجيات المختلفة وأفران ، وكل هذه لتلبية رغبات وحاجات سكان محلة الميدان والموجودين فيه ، المزدحم بكل نوع من أنواع الناس ، ويمتد سوق الهرج وملحقاته ويصل الى جامع الاحمدية ومنارته التي أوقعتها عاصفة ترابية قبل الحرب العالمية الاولى ، وفي آخر السوق مقابل باب القلعة شيدت العمارة التي سموها الأوبرا الاحمدية ، نسبة الى جامع الأحمدية المجاور لها ، فثارت ثائرة الناس لتسمية الأوبرا والمرقص في هذا الاسم ، وحيث ان اليهودي سليم ماشاالله قد استأجر هذه العمارة ، فقد أبدل اسمها الى أوبرا ماشاالله ، أو أوبرا سليم مرقصاً وملهىً . وفي هذا السوق كانت قهوة عزاوي ، وقهوة نزهة البدور ، وأفران صنع (الياغلي بورك) ، وفي أحد أزقته الضيقة جريدة الاستقلال .

سوق العطاطير :

ويبدأ من جامع مرجان ودرجات سلّمه المؤدي الى صحنه المنخفض كثيراً عن الشارع ، ثم دكاكين العطارين ، وقد سمي السوق بأسمهم ، إذ يتجمعون فيه ، ثم الى سوق الصابون في زقاق السادة آل الحسيني ، وكانوا يسكنون هذا الزقاق المؤدي الى السوق العربي ، ويسمى هذا السوق بعض الأحيان (جوه الطاق) ، لأن قسماً منه كان مسقوفاً بطاق . وقد امتلك عبدالحميد النجار قسماً منه في الأيام الأخيرة وشيد فيه بضعة دكاكين ، ويسمى الآن سوق التجار . وينتهي سوق العطارين (العطاطير) بدكاكين بيع الصابون والشمع وخيوط السوتلي والچويت الأزرق وغير ذلك . ثم تبدأ منطقة الشورجة بدكاكين بيع الفرفوري وأواني الفافون والاصباغ ، ثم دكاكين البقالية (الفواكه المجففة) والحمص والعدس والباقلاء وما شابه . وكان أكبر محل لبيع هذه البضائع هو محل ابن (الصندقچي) ، ومخزن ناجي الكفيشي ، الذي أسس

معملًا للشخاط في العشرينات ، وقد أفلس الأثنان أثناء الأزمة العالمية التي أفلست كثيراً من تجار العالم في العشرينات . وخلال هذه الدكاكين كانت دكاكين اليهود الذين يبيعون الحامض حلو والملبس وبقية الحلويات بالجملة ، إذ ان معاملهم قريبة منهم ، فأكثرها في الزقاق المؤدي الى مدرسة الاليانس اليهودية ، ثم تبدأ علاوي الشورجة لبيع الفواكه والجبن والدهن ، وعلاوي التمن والحبوب ، وأشهرها علوة بيت بنية ، وابراهيم مبارك ، وقمندار ، وعلوة ابراهيم حجي خلف ، وعبد حلومة وغيرهم . ومن هذا السوق يتفرع سوق الدهانة المزدحم المظلم ، والذي لا يستطيع الإنسان السير فيه بدون أن يقع في جمع للمياه الآسنة ، أو يصطدم بكديش أو بحمّال خارج من ماكنة الطحين ، أو يحمل وزنة من الحنطة أو التمن ، أو لشّة لحم ، أو حامل شموع العرس الصفراء المعمولة من شحم البقر أو الجاموس ، ويبقى هذا السوق متواصلًا بكل ما فيه من مختلف البضائع والأموال حتى يصل الى سوق القاطرخانة والى الصدرية وعلاوي الحبوب فيها ، وأشهرها علوة مكي الدروبي ، ثم الى سوق العوينة ومستنقعاته .

سوق الغَزِلْ :

بجوار جامع الخلفاء ومنارته القديمة المشهورة . وكان يباع فيه الغزل المجلوب من النساء البغداديات ، إذ يغزلنه في البيوت . وسنتكلم عنها في باب (مهن نسائية) ، كما كان يباع فيه القطن الأبيض والأسمر لعمل الدواشگ واللحف . ولم يكن في السوق المذكور هذا التجمع الكبير لباعة وهواة الطيور والحيوانات الأليفة ، لان هاوي الطيور كان غير محبوب ولا محترم عند الناس ،لذلك كان في السوق بضعة دكاكين فقط لبيع الطيور ، وهي دكاكين صغيرة جداً وفتحاتها مستورة بالگواني خجلًا من هذه المهنة .

كانت العلاوي مفتوحة الأبواب مكشوفة للناس لا يسترها إلا سياج حديدي متحرك بعلو مترين لكشف ما في داخل العلوة من بضاعة ولسهولة دخول وخروج الحمالين والكدش (جمع كديش) والجمال والعربات ، ومنها علاوي الشيخ صندل التي أخذت الاسم من جامع الشيخ صندل . ثم علاوي النورة التي تبيع النورة والجص . والنورة تُخلط مع الرماد في البناء فتكون أقوى من الاسمنت . وكل البنايات التاريخية في بغداد وعلى الأخص المسنايات على نهر دجلة بنيت بالرماد والنورة ،

فهي أقوى على الزمن ولا تتآكل بالاملاح . ثم علوة المخضرات في جانب الكرخ وهي محل ساحة الشهداء الآن ، وتجلب اليها محصولات المزارع المحيطة ببغداد من جانب الكرخ وحاصلات اليوسفية والمحمودية والحلة ، ذلك ان الجمال والحمير التي تنقلها لا تستطيع عبور الجسر الى جانب الرصافة ، لذلك اختصت الرصافة بالمحاصيل التي حول بغداد ، كالاعظمية وديالى وسلمان باك . وتمتد علوة الكرخ حتى تصل سوق علاوي الحلة والشواكة ويعتبران السوق التجاري للكرخ . ومن العلوة أيضاً يتفرع السوق المؤدي الى شريعة باب السيف وخانات الجلود والصوف والتمر ، وفي نهايته يمتد الطريق الى محلة المعدان ومحلة الذهب ، وهما قطعتان من بستان الأرضروملي ،وهنا ينتهي عمران بغداد من هذه الجهة ، حيث تبدأ سكة القطار وطريق جسر الخِر .

علاوي الصدرية وعلاوي العوينة :

فهي مجموعة كبيرة من العلاوي المتصلة ببعضها وأكثرها يختص ببيع الحاصلات والحبوب القادمة من جنوب بغداد ومن لواء ديالى على ظهور الجمال واللوريات ، وهذان السوقان مزدحمان ، ففيهما تباع مختلف البضائع غير الحبوب ، وفيهما أيضاً ماكينات للطحين . ومن أشهر علاوي الصدرية : علوة مكي الدروبي ، ليس لأنها الأكبر ، بل لأن صاحبها شخصية بغدادية لطيفة وواسع العلاقات الاجتماعية . أما العوينة فتشتهر بمستنقعاتها ، خصوصاً أيام الشتاء ، وترى الجاموس يسبح في مياه الأمطار . فالعوينة منخفضة بطبيعتها وفيها تتجمع المياه وترى المعدان بعصيّهم الغليظة يضربون الجاموس ، أو يضربون بعضهم بعضاً ، فتسيل الدماء من الجرحى والقتلى . فالمعروف عن مربي الجاموس استعمالهم العصي الغليظة ويضربون بعضهم كضرب الجاموس . ومن سكان العوينة الوجيه البغدادي طاهر چلبي محمد سليم الراضي . وكان بيته مقصد الوجهاء والأدباء . وترى عربات اللاندون متجمعة في بيته كل يوم جمعة ، علماً ان أكثر الأكراد الفيلية يسكنون الصدرية وما جاور الشيخ عبدالقادر الكيلاني .

سوق حنون :

ويبدأ من محلة قنبر علي وينتهي بسوق الشورجة ، وهو قسمان : حنون الكبير ، وحنون الصغير ، وتباع في السوقين مختلف الحاجيات من المأكل والمشرب

والملبس ، ويتسوق منه المسلمون واليهود ، وأشهر ما في السوق ، سوق صغير يسم
(سوق الدجاج) ، و (سوق السمك) ، ورائحة هذين السوقين كريهة وأوساخها
فوق الحد المقبول من وساخات الأسواق . وكان الدجاج يباع حياً . وهو على ثلاث
أنواع : الفرّوج الصغير ، وكنا نشتريه للمرضى ، حيث يشرب المريض ماء الفرّوج للقوة
والنشاط كما هو شائع ، والدجاج الوسط ، ويباع للطبخ ونادراً ما يشتريه الناس ، إذ
يعد من البطر ، أو يقتنى لأجل البيض ، ويسمى دجاج بيّاض . والكبير (العود) ،
الذي لا ينضج أبداً مهما بقي على النار ، ويستعمل ماءه للمرق . أما الدجاج الذي
يشتريه اليهود ، فكان يُفحص من قبلهم فحصاً دقيقاً يشبه فحص الغنم الكاشير .
وقريباً من نهاية سوق حنون تقع مدرسة الأليانس الإسرائيلية ، حيث تباع الاقلام
والدفاتر المدرسية بسعر أرخص من السوق ، كما يباع الطرشي والحلويات ، وفي
نهاية الطريق الى الشورجة يقع حمّام الشورجة وفيه الغرف الخصوصية . ولم يزل
سوق حنون قائماً ، ولكنه يسمى سوق قمبر علي أيضاً . في أول شارع الأمين . ويبدو
ان حنون هو اسم أحد البقالين أو المالكين ، فسمي السوق بأسمه ، كما هي العادة
القديمة في بغداد .

سوق الصاغة :

وكانوا يتجمعون سابقاً في خان جغان قرب سوق الروافين وبائعي الساعات ،
ودكاكين البيع عند الصياغ في الطابق الأرضي من الخان ، أما الطابق الفوقاني ،
ففيه يجري العمل والصياغة ، وكان الصائغ يستقبل الزبائن في دكانه بالطابق الأول
المفروش جيداً ، لتتمكن النساء من الجلوس ساعات للثرثرة وانتقاء الحلي المناسبة
والاتفاق على أسعار ومثاقيل وحبات الذهب المطلوب صياغته . وكان لكل عائلة
صائغ خاص تعتمد عليه في صحة الأوزان والعيار خوفاً من الغش . ولكل صائغ سجل
للعائلة يتوارثه أولاده ليعرفوا ما صاغ آباؤهم . وصياغة الذهب مجدداً تسمى كسر
الذهب ، فإذا أُريد كسر الحجل الذهبي بسوار أو قلادة ، فيقال : « أكسر الحجل
واعمله سواراً » .

ولما أراد مناحم دانيال هدم خانه وإنشاءه سوقاً قام محمود الشابندر ببناء
خانه الكبير بالدنگچيّة وجعله سوقاً للصاغة بثلاثة فروع ، تبدأ من دربونة الدنگچيّة
وتنتهي بسوق السراي مع أبواب من الحديد الصلب ضد السرقة ، علاوة على الحراس
الدائمين . وقد أُنتخب الوجيه المحترم عواد الشبلاوي رئيساً للسوق وللمصلحة ، وهو

الذي أشغل بعد ذلك وظيفة الدلال الرسمي لمتصرفية لواء بغداد ، علاوة على كونه مفتاحاً انتخابياً مهماً ، حيث انه مسموع الكلمة في محلته والمحلات المجاورة . فانتقل الصاغة الى هذا السوق ولم يبقَ في خان جغان أحد من الصاغة . واستأجر بعضهم دكاكين في شارع المستنصر مقابل حمّام حيدر . وكان بعض الصاغة يتعاملون بالرهن لقاء فائدة أقل من فائدة الصيارفة والمرابين . أما صياغة الفضة ، فقد اختص بها جماعة الصابئة الذين تجمّعوا في شارع المستنصر برئاسة عنيسي الفياض رئيس الطائفة ، كما سكنوا في محلة الكريمات قرب السفارة البريطانية وعلى نهر دجلة مباشرة لسهولة القيام بطقوسهم الدينية ذات العلاقة المباشرة بالماء .



سوق الصفافير ١٩٣١ .

الالبسة وملحقاتها

وتبدأ الالبسة بالعرقچين على الرأس للطفل، وتسمى كاورية، وهي تُصنع من قبل الام، دلالة على حبها وحنانها للطفل، وتخيط عليها بعض القطع الفضية أو لذهبية، و (أم سبع عيون) من الحسد. أما العرقچين، فالصيفي منه يُعمل، إما من الخام الاعتيادي بشكل مستطيل أو مشبك، كما هو الحال الحاضر يُحاك من الخيوط المشبكة. أما العرقچين الشتائي فيكون مبطناً بخيوط القطن بين خياطات الخام، أو يُعمل من قماش (الجنارة الثخين) ملوناً أو سادة، حسب عمر اللابس. فإن تجاوز عمره ٢٥ سنة، أو كان متزوجاً فليس من اللائق أن يلبس العرقچين الملون. والعرقچين لا يُلبس لتغطية الرأس فقط، بل يُلبس لتثبيت اليشماغ (الكوفية)، حتى لا ينزلق هو والعقال أو الجزاوية. والعُكُل (جمع عقال) أنواع، فمنها الأسود الرفيع، ويسمى دليمي، لأن الدليم يلبسونه رفيعاً غير غليظ. والعقال الغليظ ويسمى (العكال الشرقاوي)، لأن سكان الفرات وجنوب دجلة يلبسونه، ويكون شعره ظاهراً وليس كالدليمي الأملس. وبعض (العُكُل) كانت تلتف من الخلف بما يشبه رقم الثمانية بالإنكليزي ويلبسه سكان أعالي الفرات ودجلة. والعكال اللف يلبسه أهالي بغداد والناصرية والبصرة بأعداد قليلة ويختلف حجمه بين كبير ومتوسط بمقدار اللف. وأشهر عكال لف هو عكال ملّا عبود الكرخي. وهناك عكال أبيض اللون من النوع الغليظ الظاهر الشعر ويلبسه رؤساء عشائر ربيعة في الكوت. وأشهر من لبسه، علي الامير رئيس ربيعة، فقد كان ينكسه حتى حاجبيه.

ثم ظهر في أواسط العشرينات عكال وسط بين الدليمي والشروقي ويسمى عكال (دكسن)، وشرطه أن ينكس على الحاجبين. أما اليشامغ، فكانت من اللونين الأسود والابيض، أو الازرق والابيض، أو الاحمر والابيض. وقد تلبس الفترة البيضاء بدلاً عن اليشماغ، أو تلبس الجزية الحريرية أو الصوفية بدلاً من اليشماغ. أما الجزاوية فتلبس وتُلف على أشكال عديدة وأسماء عديدة موجودة تفاصيلها في كتب التراث الشعبي التي صدرت كثيراً في بغداد. أما العمائم، فإما ان تكون بيضاً

من الخام (الململ) الخفيف ويلبسها الملالي وبعض رجال الدين ، وتكون إما ملفوفة على الطربوش أو ملفوفة على الرأس مباشرة على العرقچين مثل عمائم (الموامنة) ، ثم العمائم السود أو الخضر التي يلبسها السادة الحسينيون والكشيدة ويلبسها التجار والوجهاء الملاكون (الچلبية) ، وتُلبس إما على الطربوش أو على اليشماغ ، وهي لفة من القماش القطني الخفيف المطرز بالخيوط الحريرية الصفراء ، وأحسنها ما كان يصنع ويستورد من إيران وسوريا. أما الطرابيش (الفينه) ، فكانت تستورد من النمسا عموماً ومن فينا خصوصاً لذلك سميت فينا . وتلبس إما مبطنة بالحصير الرفيع أو غير مبطنة ومع البسكولة وهي فتائل الخيوط السوداء التي تنسدل خلف الطربوش . والطربوش ذو الحصيرة لا يكوى ، إنما يكوى النوع الآخر عند مكوي الطرابيش . وكان أربعة من اليهود يحتلون الدكاكين الأولى من سوق السراي مع قوالب الكوي الحديدية الثقيلة ورئيسهم اليهودي (يونا) . وكان الأفندية يلبسون الطرابيش ذات الحصيرة والبسكولة مائلة الى جانب الصدغ . فالميل الى اليمين يدل على العزوبية وعلى الشمال يدل على الوجاهة والشياكة مع تنكيسها الى الأمام قليلًا . وكان بعضهم يرجعون الطربوش الى الخلف ومعناه ان لابسه من النوع الذي لا يبالي ، ويقال له (ذابها على الساطور) .

ثم جاء فيصل الأول هو وساطع الحصري يلبسان الخوذ ، وتشبه بعض الشباب بهما واستمروا يلبسونها ، ومنهم الأديب المرحوم رشيد العبيدي . ولكن الناس لم يستسيغوا لبسها ، فتُركت واختص بها الجيش واستعاض عنها فيصل الأول بالسدارة ، وسميت بادىء الأمر فيصلية ، وكانت تُصنع من القماش وأول مَنْ خاطها من القماش هو ابراهيم السدايري في سوق السراي . وقد أخذ لقب السدايري من صنع السداير وخياطتها . ثم استوردها لأول مرة التاجر عيسى العمران صاحب مخزن عيسى العمران في شارع النهر ـ المستنصر ، ثم صيون شمعون وقنبر آغا وبقية التجار حين أصبح لبسها عاماً . وحين جاء ياسين الهاشمي للحكم في العشرينات اخترع السدارة المصنوعة من (الچبن) ، وهو مادة أولية عراقية من أوساخ الصوف المكبوس بالضغط ، وذلك تشجيعاً للصناعات العراقية ، ولكنها فشلت لبشاعتها وعدم تقبّل الناس لها ، بالرغم من لابسيها الوزراء وكبار الموظفين ، لأنها حارة جداً في الصيف ولا تحتمل الرطوبة ، وحين يسقط عليها المطر تصبح كالعجينة . أما الكلاو ، فلا يلبسه إلا العجم حتى إذا كان من النوع التركي (القلبك) . وقد

جربت مدرسة الشرطة في أوائل العشرينات تعميم لبس الكلاو الأبيض التركي الى طلاب مدرسة المفوضين ، ولكنها عدلت عنه بعد ذلك .

العباءات أشكال ، منها عباءة الصوف الاعتيادية بألوانها السوداء والرصاصية والشقراء التي تسمى (حمرة غنم) ، وتختلف نعومتها وحياكتها باختلاف الغزول ، وأحسنها ما يُغزل في البيوت لرجال العائلة وشبانها وبقية العباءات تجارية تختلف أسعارها باختلاف أنواعها . أما أكتاف العباءات ، فإما ان تكون مدروزة بالحرير الأسود مع القياطين السود أو الكلبدون مع البلابل المعلقة على جهتي العباءة الامامية ، ولا بد للعباءة من زنجاف على طرفيها وفي ذيلها لحفظ موازنة العباءة أثناء السير . أما العباءات الشتوية ، فاشكالها وأنواعها أكثر من الصيفية ، ومنها عباءات الوبر والچاسبي والپشت الشتوي والمارينة والدفة والجوخ ثم الناين ، وهو أشهرها ويستورد من إيران ومن أفغانستان بالوانها الثلاثة : الأصفر والفاتح والغامق جداً والأسود وهو أغلاها . وتستورد باكياس من الخام . كل عباءة في كيس مستقل وعلى قطعتين ، وخيّاط العباءة يقوم بخياطة القطعتين ، فإما أن يكون كتف العباءة مدروزاً بالحرير ويسمى خرج سادة ، أو بالكلبدون وتسمى مكلبدة .

أما عباءة المارينا والجوخ ، فقليل ما تُدرز بالكلبدون . وهناك الفرو ولا يستعمل إلا في الشتاء البارد ، وهي على أنواع وأحسنها الفراوي الحلبية لجودة صوفها الداخلي وجمال غلافها الخارجي . وسكان بغداد لا يلبسون الفروة إلا في البرد القارص . وكانت الفراوي البغدادية تُصنع في محلة الدهدوانة بجانب الكرخ ، وهناك بيوت ثلاثة مختصة بصنعها ولم يزالوا حتى الآن يسمون بيت الفروچي ، وكانت الكلابات الحديدية معلقة على جدران بيوتهم ويجري بواسطتها تطرية الجلود وتنعيمها . وكان أشهرهم المرحوم هوبي الفروچي ، وعبدالرزاق الفروچي ، ولا أدري إن كان المطرب اسماعيل الفروچي من هذه العائلة التي كنا نجاورها . وكانت تلبس الدشداشة تحت العباءة لعامة الناس أو للذهاب الى المقهى أو الجامع وقماشها حسب المواسم ، صيفية أو شتوية ، وحسب التمكن غالية أو رخيصة . أما العمال والكسبة فدشاديشهم خام أسمر مصبوغ باللون النيلي كي يتحمل الأوساخ كما هو الحال ببنطلونات الجينز في الوقت الحاضر . ويلبس تحت العباءة زبوناً صيفي وزبون شتوي ، يكون عادة من الفاصونة الصوف أو إحدى الطاقات السورية ، مثل البُتّة والزري والكوجرات والشاهي . أما الطاقات الصيفية ، فاكثرها طاقات العزيزي أو زند

العبد أو الصابغ بيزي ، أي الأبيض ، ثم الشعري والحرير للأغنياء . والخياطون موجودون في سوق (الخياييط) قرب جامع الخفافين بدكاكينهم الواسعة ومناضد العمل المنخفضة والتي يبلغ طولها متران ويشتغل الخياط وهو جالس متربع مع عماله . والخياطة يدوية وليس بالمكائن ، وكانت نهاية الأكمام والصدر تُطرز بالحرير . أما الزخمة ، فلا بد منها ومن جيوبها الاثنين أو الثلاثة لحفظ الساعة وقوطية البرنوطي أو الأشياء الأخرى . أما الحزام ، فإما ان يكون همياناً حريرياً أو صوفياً أو (طرابز) وهو قطعة من الحرير بقدر حجم اليشماغ يلف على البطن في الشتاء كحزام أو يُلبس (شال ترمه) وهو من الصوف الكشميري الغالي الثمن ولبسه دليل على الثراء والوجاهة . ويوضع في عب الشخص بين الزبون والثوب منديل حريري من نسج الكاظمية أو إيران ملون ومزركش وكيس للنقود من الخام أو الچيت أو الكتان ، وتحت الزبون ثوب ولباس طويل مع التكة . أما ذيل اللباس فإما أن يكون (حجل) ، أي انه سادة يصل الى الكاحل أو (أبو البُزْمة) ، ويكون تحت الركبة بقليل مفتوح النهاية مع خيطين على جانبي الفتحة ليشد عليها الجواريب منعاً لنزولها ، وكان يلبس ثوب (الريزة) في الصيف وهو قماش خفيف جداً يناسب الصيف . أما القمصان فإما ان تكون من خياطة أهل البيت مع الأزرار الصدفية الاعتيادية أو المستوردة من أوروبا وبالأخص الى لابسي الملابس الإفرنجية .

أما الملابس النسائية ، فعلى الرأس يلبس (الچرغد) و (البويمة) ، وهي عصّابة لونها أسود تُلف على الرأس ، ثم الفوطة المعمولة من الحرير المغزول من قبل نساء البيوت وتُحاك في الكاظمية أو باب الشيخ . أما الفوطة البيضاء ، فهي للمرأة التي حجت الى مكة المكرمة وتُشد على الرقبة قطعة حريرية سوداء لأجل الزينة والغواية ، ثم الدشداشة وتسمى النفنوف والفستان ويسمى بدلة وتحت النفنوف يلبس (الشكو ملك) ، وهو يسمى بالفرنسي (شميز دو نوي) ، ولم تكن حمالات النهود قد عُرفت ، ولكن الفانيلات المستوردة الخاصة بالنساء كانت منسوجة بشكل يظهر فيها على الصدر ما يشبه الانخساف تجاه النهود ، حيث تدخل في هذا الانخساف والذي يقوم مقام حمالات النهود التي استوردت بعد ذلك وسميت (زخمة) . أما الحزام ، فكان حريرياً حسب ثروة ودلال الفتاة مع التكة الحريرية . أما نهاية اللباس فتكون قرب الكاحل ومزينة بالدنتلا والكشكش على ان تكون فوق الكاحل بقليل لكي يسمح للحجل الذهبي أو الفضي بالظهور ، ولكي تُسمع رنة

الخلخال بوضوح . ومن لوازم الفوطة والجرغد قطعة ذهبية مثل الجنكال وظفائر الشعر . إما ان تكون ظفيرة واحدة طويلة في آخرها قطعة ذهبية أو عدة ظفائر تسمى (نخيلة) تصغير كلمة نخلة ذات العذوق الكثيرة وفي مؤخرة كل ظفيرة قطعة ذهبية بشكل أجراس صغيرة ، هذا غير القلادة والحزام الذهبي والسلاح الذي يُلبس من الكتف الى الجانب ، وغير ذلك من المصاغات التي تتبدل كل سنة وفقاً للموضة .

أما العبي النسائية ، فكانت من النوع الحريري الأسود وأحسنها ماركة صائم الدهر ، وماركة الشيئون المستوردات من سوريا . أما الفتيات الصغيرات والعرائس فلباسهن عباءات (أم جتف) ، أي ان كتف العباءة مدروزة بالكلبدون أو البكر ، أو ان العباءة كلها منسوجة مثل ايزارات اليهوديات والمسيحيات . وينتهي لبس هذه العباءات عند انتهاء حفلة زواج البنت ذلك ان ولادة الولد الأول يجعل العروس أماً ولا يليق بالأم أن تلبس مثل هذه العباءات ، بل تحتفظ بها لبناتها حين يصبحن فتيات . والمرأة المحتشمة تلبس عباءتين داخلية تُلبس على الكتف وخارجية على الرأس مع (البوشية) التي تغطي الوجه ولا تمنع الرؤية ، وهي سوداء عدا بوشيات اليهوديات والمسيحيات ، فهي مصنوعة من الحرير والكلبدون ويمكن رفعها الى الأعلى وتسمى (پيچة) ، والجوارب النسائية نوعان ، قصيرة تصل تحت الركبة وتمسك إما بالكاوتشوك ، أو يشد عليها بالخيوط أو جوارب طويلة وتسمى (دوز لوغ) وتصل الى الفخذ وتشد أيضاً بالخيوط الى ان شاع استعمال اللاستيك أو آسقيات الجواريب ، أي حمالات الجواريب والبنطلونات ، إذ كانت تسمى (آسقي) . ومن أشهر الماركات الجواريب كانت (هول بروف) الحريرية للنساء والرجال وهي إنكليزية المنشأ ، وجواريب (هرنة) الألمانية المنشأ المتينة الصنع بلونيها البيج الفاتح والأسود .

أما عباءات اليهوديات والمسيحيات ، فكانت الأُزر (جمع إيزار) ، وهو نسيج حريري مع الكلبدون المذهب المستورد من حلب في سوريا ، وكان أشهر مصدريه الحلبية هو جورج قسيس وصبحي قصبچي .

والإيزار يحاك ويُنقش في بغداد ، وأشهر حائك للإزر كان منشي ساعات ودكانه في سوق القزازين جوار الملا عارف وكان يبيع الإيزار الجيد بأربع مئة ربية حسب ثقله ومتانة صنعه وجودة نقوشه . ويحاك أيضاً في باب الشيخ ، والعائلة المشهورة بحياكته هي عائلة آل سهيل ، ومنهم شاكر سهيل . والإيزار من قطعتين تُلف حول

البطن بما يشبه الكستم ، والثانية على الرأس والكتف وتُجمع تحت الإبط ، ولا بد من (پيچه) لغطاء الوجه عند الحاجة . ويمكن رفع البيچة الى أعلى لإظهار الوجه كاملًا . وكانت الفتيات اليهوديات والمسيحيات يتبخترن بالأزر على جسر مود والصالحية في يومي السبت والاحد عارضات أزيائهن وجمالهن لاصطياد الازواج وإظهار مقدار ثروة الفتاة ، لأن اليهودية حين تتزوج تكون مجبرة على دفع مبلغ كبير للعريس يتوقف مقداره على جمالهن ، فالحلوة تدفع الأقل والقبيحة تدفع الاكثر ، وكانت هذه العادة هي المشكلة الأساسية في العوائل اليهودية في بغداد والتي لم تكن موجودة في غير العراق .

والأحذية الرجالية - إن لم يكن المرء حافياً - تبدأ من اليمني ، وهو على أشكال ، فمنه اليمني الأحمر البغدادي ، وهو من جلد السختيان الرخيص ، أو اليمني الموصلي ومن السختيان أيضاً ، ولكنه أحسن صنعاً من البغدادي ، فلونه غامق ونعله من جلد الجاموس ، أو يمني حلب ويُصنع من جلد الميش وهو أجود من السختيان ولونه غامق وجلده محبب ونعله من جلد الجاموس ، وهو أجود صنعاً من كافة أنواع اليمنيات ، ويباع بسعر أعلى لجودته ، ولأنه مستورد من حلب المختصة بصنع هذه اليمنيات ، ثم اليمني البغدادي المعروف بأسم (القبه لورطه أو القبدار) ، وهو اليمني الثقيل الصلب ذو الجزجزة والذي لا يمكن أن يُلبس إلا بعد أن يسحقه المجذوب صالح عتعت بالمشي فيه عدة أيام لكي يلين . وقليل من الناس يستعمل هذا النوع الذي اعتاد القصابون على لبسه .

ثم اليوتين ، وهو الحذاء العالي الجانبين ، ثم القندرة بشكليها ذات القيطان والقبغلي ، واشتهر اليهود بصنع القنادر وتجمعوا في سوق المرادية الكبير مجاور خان (قاب چركسي) ، والذي صار الآن سوقاً للبزازين ، ولكن أشهر قندرچي في بغداد كان في سوق السراي ، وهو الاسطى مجيد ، وكان يجلس في دكانه بسوق السراي بهيئته البهية وسيماً أنيقاً لا ينزع الطربوش عن رأسه وكان مختاراً لمحلة الشيخ بشار وهو أبو اللواء العسكري المرحوم جميل مجيد وخال علوان حسين مدير الشرطة العام سابقاً ، وكان يرفض أن يعمل الأحذية من الجلد الرخيص . فإما ان يكون الجلد من نوع (كلاصي) أو من (الشفرو) الممتاز المستورد ، ويقول اني لا أضيّع مهارتي واسمي بالمواد الرخيصة الرديئة .

وتوالت استيرادات الاحذية من إنكلترا وأيطاليا ، واستوردها اوروزديباك وحسو

إخوان وعيسى العمران ومخزن صبري وجستن وغيرهم . واشتهرت منها قنادر سكسون وبالي . أما النعال الجلدي والبابوج والكلاش الكردي ، فكان ملبوس الفقراء أو للاستعمالات المنزلية ، ما عدا الكالات الإيرانية الحريرية ، فلا يلبسها إلا الوجهاء . وأشهر لابسيها هو المرحوم عبداللطيف ثنيان ، والشاعر جميل صدقي الزهاوي ، وكبار تجار الأغنام . أما الجزم الطويلة ، فيلبسها ضباط الجيش والشرطة . وقد توفرت في بغداد بعد قدوم القندرچي اللبناني (بطمانيان) ، وفتح محله في شارع النهر بجوار دكاكين الصابئة ، وجاء معه في الوقت نفسه النجار اللبناني المشهور (بطيخة) ، وقد اطلق اسمه على الكراسي والقنفات المودرن ، إذ يقال عنها قنفات بطيخة .

وانتشرت الملابس الإفرنجية بعد لبسها من قبل الموظفين والطلاب وتكفل الخياطون اليهود بسد الحاجة اليها وصاروا يخيطون البدلات بسعر عشرين روپية لكل بدلة ، أي دينار ونصف وبالأقساط الشهرية ، وإذا كان القماش من عند الخياطين الذين ملأوا شارع النهر وشارع البنك ، فكان سعر البدلة مع الخياطة يتراوح بين مئة ربية وبين مئة وخمسين حسب نوعية القماش . وأشهر خياط للبدلات الرجالية هو كريكور الأرمني . وكان دكانه في شارع البنك على واجهة خان الباشا الصغير ، والثاني هو الخياط الهندي (فارما) وكان خياطاً خاصاً للملك فيصل الأول ، وكان محله مقابل المصور أرشاك قرب جسر الأحرار .

أما الثياب فإما أن تخيط في البيت أو عند الخياطين في السوق ، وأشهر خياط للثياب هو (كرجي اسحيق) . أما الثياب المستوردة الجيدة ، فهي (الآرو والفانهوزن) . وكانت تُستورد بدون ياقات ، وكانت الياقات منفصلة عن الثوب ، وكان مع كل ثوب ياقتان وأربع أزرار من العظم وزوج من الأكمام الاحتياط ، وكانت الياقة تُلبس فوق الثوب على الرقبة وتشكل بالقميص بأزرار من العظم . ثم يُلبس البوينباغ أو الوردة (البابيون) . وفي أواخر العشرينات بدأت الثياب ذات الرقبة الثابتة تستورد وبطل استعمال الياقات ، كما استوردت الثياب الصيفية ذات الرقبة المفتوحة . وكان لا بد من منديل حريري في جيب الچاكيت الأمامي لإتمام الأناقة . ولا بد من عصا يتوكأ عليها وتسمى (البسطون) ، أما الأحذية النسائية ، فلا تتعدى الجدك والبابوج بأنواعه والنعل والإسكربين المتوسط الارتفاع .

أما الحلاقة المتممة للزينة ، فالحلاق الرجالي كان يسمى (مزيِّن) ، ومن أوائل

مَنْ أطلق كلمة « حلاق » هو الشاب المتحمس (مكي الأشتري) ، وكان دكانه ملاذاً للشباب الوطني في شارع المأمون (الدنگچيّة) مقابل المتحف العراقي .

وهو أول مَنْ كتب على زجاج مدخل الدكان كلمة « الحلاق » ، وابتدأ الحلاقون يستعملون ويكتبون هذه الكلمة ، ومنهم المشهورون : في محلة الميدان عزة الحلاق وياس الحلاق . ومكي الأشتري أول مَنْ يقوم بعمل المظاهرات ، سواء كان السبب مهماً أو غير مهم . ويتفق في هذه الفكرة والتحرك مع بائع الجبن المشهور (حسون أبو الجبن) ، ودكانه في المولهخانة على حائط جامع الآصفية في مدخل سوق السراي ، وكانا يلفان نفسيهما بالخام الأبيض للدلالة على انهما مستعدان للشهادة والموت في سبيل الوطن ، والكفن جاهز وملبوس . و (المزاينة) في بغداد صنفان ، الثابت والجوال . أما الثابت ، فلكل بضعة أزقة ومحلات مزِّين خاص ، ولكل سوقين أو ثلاثة مزِّين خاص . وكان مزين سوق الصفافير وما جاورها هو الحجي كاظم عبود في الدكان المقابل لحمّام (پنجه علي) . والعادة أن تتم الحلاقة بالموس للرأس ، أو بالماكنة نمرة صفر ، فيجب أن يكون الشعر قصيراً . أما الأولاد فيحلقون نمرة صفر ، ولكن يبقى في مقدمة الرأس ووسطه بعض الشعر ويسمى (زيان قلم) . أما إذا كان الشعر طويلًا ويحتاج الى عناية فآسمه (زيان پرچم) . أما اليهود المتطرفون والمتدينون ، فيتركون خصلة من الشعر في مقدمة الجبهة وعلى الصدغين وتسمى هذه الشعيرات (زلوف) ، ولذلك حين يُشتم اليهود اللئيم يقال له (يهودي مزلّف) . والزلف هذا تقليد ديني قديم لم يزل موجوداً حتى الآن ، خصوصاً عند اليهود السامرة . ومن لوازم الحلاق في الدكان المناشف وقطع الخام التي تغطي الصدر ، ومكائن حلاقة ، وحزام جلدي عريض يُستعمل لسن الموسى ، ومرآة وإناء نحاسي صغير يُستعمل عند غسل الرأس مفتوح من جهة الرقبة ، حيث يضغط عليها لكي لا ينزل الماء على الملابس . أما التعقيم ، فلم يكن يُعرف غير قطعة صغيرة من الشب ، ولا بد للمزين أن يكون ثرثاراً دائماً ينشر الأخبار ، ولا بد من كلمة (نعيماً) بعد الحلاقة . ومن المروءة أن يُعطى الصانع قرشاً أو آنة ، وتسمى (حلوالق) ، شأنه شأن بقية الصغار الذين يشتغلون في الدكاكين مع آبائهم أو أساتذتهم . أما الحلاقون المتجولون ، فكانت بضاعتهم تتمثل في كرسي سفري يُطوى ويُفتح لجلوس الزبون عليه مع پشتمال وقطعة من الخام تُوضع على صدر الزبون وعلبة مدورة من الصفيح وفيها ماء كي يبل الحلاق رأس الزبون أو لحيته ، فإن لم يكن فيها

ماء ، فلا بأس باللعاب يبل بها الرأس أو اللحية . ولا بد أيضاً من القطعة الجلدية لحد الموسى ومقص واحد . وكل هذه الأشياء التي ذكرناها معلقة في حزامه ، فهي اعلان عن مهنته . ولا يتقاضى أجوراً أكثر من آنة واحدة أو آنتين ، وهؤلاء الحلاقون لا يثرثرون ، لانهم مشغولون برؤية وجوه المارين وعابري السبيل عسى أن يفتح الله عليهم بزبون آخر يدعونه الى الحلاقة .

أماحلاقة النساء ، فلم تبدأ إلا بعد انتشار موضة قص الشعر التي أحدثت ضجة في بغداد في أواسط العشرينات ، لدرجة ان الاغاني الشعبية ظهرت في هذه المناسبة . وكان محمد القبانجي قد غنّى :

(البْنَيّـــة بنت البيت گَصَتْ شعـــرهـــا

عَـــالْمُودَة تمشي ذَلُّوع عَـافَتْ سِتِـرْهـا)

وعد الناس قص الشعر عيباً كبيراً وتعني ان الشرف والحياء قد فقد . وبدأت الحلاقة بصورة سرية تماماً حتى إذا اعتاد الناس ذلك خفت حدة الانتقادات وصار قص الشعر النسائي أمراً غير مهم . وقبل هذا كانت الامهات والصديقات يقمن بتعديل الشعر وتسويته بأنفسهن وبالمقاصيص والامشاط فقط . أما حلي النساء فلها محل آخر .

سباق الخيل (الريسز)

العربي والجواد ، كلمتان تكادان تكونان مترادفتين ، فليس من عربي لا يعرف الجواد ولا يحبه ، ولا جواد بلا عربي يرعاه ويهتم به . والجزيرة العربية موطن الجياد الأصلية ، وتاريخ العرب والجياد حافل بأخبارها قبل الإسلام وبعد الإسلام ، وكانت تقام المسابقات بينها في زمن الخلفاء الراشدين ودولة بني أمية والدولة العباسية ، ويتنافس فيها الفرسان وجيادهم وينالون الجوائز لقاء ذلك . واستمر الحال حتى العهد العثماني ، يوم كان الولاة والضباط من الاتراك يلعبون لعبة الحريد ، وهي الطعن بالرماح على ظهور الخيل . وكانت ساحات الشيخ معروف بالكرخ وتسمى (المنطرد) ، وأراضي الوزيرية وشمالي الكاظمية مسرحاً واسعاً للخيل وهواتها والصيد والطعن بالرماح .

وحين احتل الإنكليز العراق كان أكثر جنودهم من المشاة الهنود والسيك (السيخ) والكُركَة وبقية الشعوب المرتزقة . أما الضباط فكانوا ، إما من المرتزقة المذكورين ، وهم لا يركبون الخيول ، بل يمشون مع الجنود . لكن الضباط البريطانيين كانوا يركبون الخيول ، حسب التقاليد العسكرية البريطانية التي تمنع الضابط البريطاني من المشي مع فصيله أو سريته من الجنود غير البريطانيين .

لذلك كان الاهتمام كثيراً بالخيول ، وكانت الخيالة البريطانية العسكرية مشهورة في جميع أنحاء العالم ، واعتمدت عليها الامبراطورية البريطانية بعد الأسطول .

لذلك ، فمن البديهي أن يهتم المحتلون بأمور الخيل . وكان المستر (بيل) والميجور (جادويك) الضابط البيطار أول مَنْ اهتم بتأسيس مضمار للسباق في بغداد وأسسوا نادي الترف كلوب لهذا الغرض ، وجعلوا مقره في العلوية محل سكنى الإنكليز في بغداد . وأنشئت ساحة السباق في باب المعظم بجوار حدائق المعرض الزراعي . وبقي هناك لمدة سنتين الى ان تم إنشاء ساحة السباق في العلوية قرب بيوتهم وأعلن النظام الخاص بالسباق ونوعية الخيول المتسابقة . واشترط النظام ان

تكون الخيول عربية أصيلة . وجعل نظام التشبيه صارماً ، وهو النظام الذي يميّز الخيول العربية من غير العربية أو المهجّنة . فلم يكن يُقبل في السباق إلا الخيول العربية الأصيلة ، مهما كان الامر . وكلمة الميجر جادويك هي النافذة ، يعاونه في ذلك بعض الضباط الإنكليز والعراقيين من البيطرة الأوائل ، مثل : عبدالرزاق الحسن ، وشناسي ، وحسن الأوقاتي ، وصادق الخياط ، والضابط البيطري طاهر . وكان الطبيب المختص بساحة السباق والجوكية هو الدكتور العراقي جميل دلالي .

وكان السبب في رفض الخيول غير العربية أو المهجّنة ، هو ان التركيب الجسدي للخيول العربية لا يسمح لها بالمطاولة أو حمل الأشياء الثقيلة مثل الخيول الاجنبية التي تسمى (الكنتري) ، فهي أضخم جسماً وأطول خطواً وأكثر تحملًا للثقل .

فالخيل المتسابقة لا يُسمح لها بالركض ما لم تحمل ثقلًا معيناً ، علاوة على ثقل الجوكي . لذلك ، فالجوكي يوزن قبل الركوب وعيار الوزن هو (ستون) الإنكليزي . ومقداره ١٥ پاون أنكليزياً ، أي حوالي سبعة كيلوات . وليس على الجواد الراكض ان يحمل أكثر من ١٢ ستون مع وزن الجوكي . وعلى هذا فان الخيول الممتازة جداً ، مثل : (عسلة ، وصبحة الفرات) ، وغيرهما لا تحمل أكثر من ١٢ ستون ، ولا تُقبل المراهنة عليها ، بل تستحق الجائزة فقط ، إذا ربحت الشوط ، ذلك ان سبقها مضمون . وكان معدل السباق سبعة أشواط في يومين ، هما السبت والأحد ، أو حسب الظروف الجوية ، وتتسابق فيه خيول الدرجة الاولى والثانية والخيول المبتدئة حسب أعمارها .

ونشطت حركة اسطبلات الخيول وخصوصاً في محلاتنا بجانب الكرخ ، مثل : سوق حمادة ، والشيخ علي ، وسوق الجديد ، وبارودة ، وطرف الحصّانة . وازدهرت مهنة المروضين (الترنرية) ، وهي جمع كلمة (تريرنر) . وانصرف الناس الى المقامرة واللعب ، وخصوصاً بين أوساط الفقراء ، وزادت جرائم اللصوصية والقتل لغرض الحصول على المال اللازم للمقامرة ، وضجّ الناس من ذلك ، ولكن الريسز بقي صامداً واللعب مستمراً والإقبال عليه في إزدياد ، الامر الذي حدا بالسيد محمود نديم الطبقچلي ، متصرف لواء ديالى بعد احالته على التقاعد أن يؤسس مضماراً للسباق في أراضي حمدي الپاچەچي قرب بغداد الجديدة ، فصار في بغداد مضمارين للسباق ، واتفقا بينهما على أيام إقامة السباق ، حتى لا تتضارب المواعيد بينهما

وتقل الأرباح العظيمة التي كانوا يجنونها من السباق عن طريق أجور الدخولية واشتراك الخيل ورسوم التشبيه واعتبار كل ما يقل عن الدرهم بعد الحساب ربحاً حلالًا لصندوق الريسز ، عدا عن التلاعب في الحسابات واعلان مقدار المبيعات بعد ان تركض الخيل وتبدو طلائع الرابح ، فتضاف عدة بطاقات للرابح لتستفيد إدارة المضمار من الفرق . وكان المسيطرون على الإدارة والحسابات هم الرئيس بيل ومعاونه في الحسابات الكاتب ساسون ، وأمين الصندوق يعقوب شهربانلي المسمى (چوقي) . وكانت مقاعد المتفرجين على ثلاثة أصناف : أولهم وأكثرهم هم الواقفون على أرجلهم وأكثرهم من الحفاة . ثم الجالسون على الكراسي ، ثم الألواج الخاصة لوجهاء القوم وأغنيائهم وكبار ملاكي الخيول . وكان يوم الأحد هو يوم تجمع علية القوم من البريطانيين والعراقيين وقناصل الدول في ألواج ساحة السباق . كما كان هناك نوع من الاشتراك لصاحبي الخيول ومدربيها ويُعطى لهم القرص الخاص المسمى (بادج) ، وهؤلاء يدخلون الألواج والمطعم للغداء وتناول المشروبات . وكانت الطبقات الفقيرة الواقفة على أرجلها تشترك في بطاقة واحدة قيمتها ربيتان أو خمسة ربيات ، عسى ان يربح كل واحد منهم ربية أو ربيتين يستعيد بهما ما دفع . وكانت المراهنة تجري على أساس (الوين) ، ويعطى للفائز الأول ، أو (البليس) للفائز الثاني والثالث . وفي كثير من الأحوال لم يكن مبلغ البليس أكثر من قيمة البطاقة . وكان الهرج الأكبر هو ساعة عودة المتفرجين ، وخصوصاً طبقة الحفاة بعد ان خسروا كل ما لديهم ليعودوا مشياً على الأقدام الى بغداد جياعاً ، عطاشى .

لم تكن هناك سيارات لنقل الخيل من الاسطبلات الى ساحة السباق ، بل كانت تُقاد باليد ذهاباً وإياباً ، علماً بأن الاسطبلات كانت قليلة جداً ، وكان أصحاب الجياد يربطونها في بيوتهم ، وأكثر الجوكية هم أنفسهم المدربون . وتبدَّل الأمر بعد ان كثرت خيول السباق ، ففتحت الاسطبلات وانقلب الجوكية الثقلاء وزناً الى (ترينرية) .

ويبدأ السباق عادة في أول الخريف وينتهي في أواخر شهر نيسان ، حيث يكون الجو حاراً ، ولا تستطيع الخيل أن تركض دون أن يصيبها الإرهاق والأذى . وكان كل جوكي يركب في الشوط المخصص له لابساً رداءً ملوناً ليعرف المتفرجون كيف تتصرف الخيول والجوكية في الساحة ، وليميزوا الخيل التي راهنوا عليها . ويبدأ الركض من نقطة الانطلاق ، حيث يُرفع العلم الأحمر ، وينتهي ركض الخيول في خط النهاية (الكونة) ، هي الزاوية ، أي الكورنر باللغة الإنكليزية . أما سياج ساحة

الركض فيسمى (الحطب) ، لانه خشبياً ، وأرض الساحة تسمى (الرون) ، ويُقصد بها الرنك . والجوكي تحت التدريب يسمى (رادن بوي) . وكانت ساحة الركض مقسّمة الى ثمانية أقسام وفق تقسيم الميل الإنكليزي طولًا ، فيقال عن مسافة الركض خمسة أثمان وستة أثمان ، وسبعة أثمان ، وميل ، وميل ونصف . أما بداية انطلاقة الخيل ، فتسمى (هاف) ، لذلك وحين تنطلق الخيول راكضة تسمع كلمة هاف مدوية من حناجر آلاف المتفرجين .

أما ثياب الجوكية ، فكانت على ما أذكر : الرقم واحد الأبيض ، والرقم اثنين الاحمر ، والرقم أربعة للأصفر ، والرقم خمسة للأزرق ثمانية للأسود . وكان هناك ثياب بلونين . أما سوط الجوكي فيسمى (جابوك) . وأخطر أيام السباق هو اليوم التالي للمطر ، الذي لا تستطيع الخيل أن تركض فيه . ذلك إما انها تتزحلق وتقع على الأرض . أو ان الخيول المتقدمة في ركضها تنشر الطين من حوافرها . فتصيب عيون الخيل التي وراءها . لذلك فان غلبة الجواد الجيد في هذه الأيام ليس مضموناً . وقد يفوز جواد آخر ليس في الحسبان ويسمى (فلوك) ، وهو يعطي ربحاً أكثر لقة المراهنين عليه . وكان أشهر الجوكية في بغداد هو (ابن عبيد) عبدالكريم ، وهو نجدي الأصل من مدينة الزبير . وكان فلتة في الركوب واشتهر في الهند وأخذ الى إنكلترا وفرنسا ليركب الخيول هناك ، ولم يبلغ أحد من الشهرة مثلما بلغه ابن عبيد . وعلى الرغم من انه كان مدمناً على المسكِّرات ، فقد كان يركب وهو سكران ويفوز رغم هذا . وقد رجع بعد ذلك الى العراق من الهند وقد كبر في السن وترهل وسمح له في الركوب في بغداد ، ولكنه لم يستطع مجاراة الجوكية الشباب ، فترك المهنة الى غير رجعة . والجوكي الثاني المشهور اسمه (منسي) ، وهو صديق ابن عبيد ونجدي الأصل أيضاً ومن الزبير . ثم الجوكي منفي ، ثم حمودي الأعظمي (ليس حمودي المتأخر القصير) ، وكذلك الجوكي حامد عيال ، الذي انقلب الى صاحب اسطبل كبير ومدرب خيل ممتاز . ثم داوود العبادي ، ثم جاء الجوكية المتأخرون ، أمثال : منفي الجوكي المفضل لدى الوصي عبدالإله ، ثم ابراهيم ،وستوري ، ومجيد البدة ، وكاظم سيكو ، وزناد ، وغيرهم . ومن المدربين المشهورين ، حسن علوان المضاعيف .

كان للسباق هيئة تحكيم لفض المنازعات بين أصحاب الخيول والجوكية ، أو مراقبي الساحة ، ويسمى كل واحدة منهم (استوود) . وعلى رأسهم كان مستر جاد ويك ، ومنهم الكرنل بريسكوت ، مفتش الشرطة الأقدم ، والدكتور سندرسن ، وداود

الحيدري ، وسعدون بك الشاوي ، وداود الداغستاني ، وسلمان الپاچه‌چي ، وغيرهم . وقد يتبدلون بين موسم وآخر . أما هيئة التشبيه فيرأسها المستر جاد ويك ، وهي أهم لجنة في سباق الخيل . فهي التي تقرر قبول الجواد ورفضه لكونه غير عربي الأصل وخلاف المواصفات المقررة في النظام . ولقد حصلت مشكلة كبيرة حين قدم الحصان المسمى (حنشل) ، ثم سمي بعدئذ السوري (وهو أبو كثير من الخيول الممتازة) ، فقد رفض من قبل هيئة التشبيه ، وقيل انه كنتري وانه قبرصي الأصل . وبعد مداخلات كثيرة قررت اللجنة استشارة الشيخ علوان ع'ي السليمان رئيس عشائر الدليم . فأفتى بأنه حصان عربي . (الشيخ علي السليمان كان هاوياً وجامعاً للخيل) . وبناء على هذه الشهادة ، فقد قبل الحصان حنشل وسبق وفاز بجوائز كثيرة . ثم كُرس للسفاد ، فجاءت منه أحسن الخيول ، وكان يقال للفخر والمباهاة هذا ابن السوري ، أي ابن حنشل . ومن أشهر خيول السفاد أيضاً (حمدان) .ويقال انه أبو عسيلة الشهيرة ، وهي التي ركضت في العشرينات وكسبت الجوائز الكبيرة واستفاد منها كثيراً أصحابها السامرائيون بيت خلف الجواد . ومن الخيول المشهورة أيضاً الفرس (تاج عطية) ، وصاحبها الجوكي رشيد العجمان ، وكذلك الفرس (هيلة) ، وهي الى بيت مشكور في طرف بارودة بالكرخ . وكان يربطها في بيته . ويقال انها أخت عسيلة . وكانت هذه الأفراس تحمل في ركضها أقصى ثقل ، وهو إثني عشر ستون ، ولكن المراهنات لا تُقبل عليها لكون فوزها مضموناً ، وإنما تعطى الجوائز النقدية فقط . أما الفرس الأخرى المشهورة بالكرخ فأسمها (شوكت) ، ويقال انها بنت عسيلة .

إن من أشهر مالكي خيول السباق في ذلك الزمن كان المستر مردوخ مدير شركة (مردوخ وبروكس) البريطانية . وكان يأتي الى ساحة السباق بسيارته الأوستن رولزرايس الفخمة ، ويصعد الى مقصورته الخاصة ، ولم يكن يقامر أو يراهن على الخيل ، بل كان يكتفي بالجائزة إذا فازت أحد خيوله . وإذا كان له دابتان في شوط واحد فان أي الدابتين تفوز تعد الاثنتان رابحتين ، وهذه العملية في السباق تسمى (بريكت) . وكان جوكيه االمفضل حمودي الأعظمي . وكان من المالكين أيضاً منشي شعشوع ، وسعدون الشاوي ، وسلمان الپاچه‌چي ، ثم جاء مؤخراً قدري الارضرومللي ، وكثر ملّاكو الجياد إبتداءً من الثلاثينات ، ثم جاء مؤخراً واستولى على الخيول الجيدة ، جميل السعيدي (الشاوردي) ، وكان يتصرف في الساحة كما

يشاء ويرأس شلّة من (المافيا) . وقد قتله جوكيه المفضل ابراهيم ، بعد مناقشة حامية بينهما وعراك ، ثم طعنه طعنةً قاتلة .

وكان من جملة أعمال الاستودية ، عدا التحكيم ، هو فحص الخيل قبل دخولها الى الساحة لمعرفة إن كانت مريضة (متبونة) ، أي معطاة تبناً لكي لا تركض جيداً وتفسح المجال لجواد آخر للفوز . (هذه من جملة أعمال مافيا السباق) ، أو معطاة أدوية منشطة . وتُفحص الخيول، كذلك بعد انتهاء الشوط وتحكم هذه اللجنة أيضاً بشكاوى أصحاب الخيل واعتراضاتهم على نتائج الشوط ، ويقال لعملية الشكوى عن النتائج (اوبجكشن) ، فإن صحَّ ان الجواد أو الجوكي قد ارتكب خطأ متعمداً ، مثل مزاحمة أحد الخيول أو ضربه بالسوط على وجهه أو سحب اللجام لتخفيف ركضه بدون سبب ، فيرفع من لوحة الغالب ويعطى الثاني ، أو يحكم بالبراءة ، وحينئذ يدق الجرس الثاني باعتبار ان الشكوى لاغية ولا صحة لها . وكان الاصطلاح الذي يُعطى للدابة الراكضة هي كلمة (فام) ، أي ان صحتها جيدة وجلدها لامع . أما الخيل التي لا تركض جيداً ، رغم ضربها بالسوط ، فيقال عنها انها (كفل) ، أي ان رأسها مليء باللحم وليس بالمخ .

إن الخيول المتسابقة الصغيرة السن تسمى مبتدئه . أما المعمّرات ، فتسمى (الإيجات) . وكان موقع السباق والساحة يموج بالسماسرة الذين يدلون الناس على الخيول الجيدة المؤهلة للفوز ، وهم مرتزقة محتالون ويعطون اسم الحصان المحتمل فوزه لأكبر عدد ممكن من الناس ويعطون اسم حصان آخر للغير . وهكذا فانهم يعطون أسماء كل الخيول . ثم يذهبون الى الذين ربحوا ويقبضون منهم الإكرامية ، باعتبار انهم هم الذين دلّوهم على الحصان الفائز . وكثيراً ما تبدأ المعارك بينهم ، لأن الناس عرفوا هذه الاحتيالات . وفي كل الأحوال لا بد أن يربح السمسار شيئاً من المال ، لأن الرابح في السباق يكون كريماً متلافاً في العادة ، إذ يتصور ان الربح سيكون مستمراً . ومن أشهر هؤلاء السماسرة : صباح الملقب (سبتي) ، وكسّار ، وهوبي الأعرج ، وغيرهم . ان من أشهر أصول الخيل العربية ، كمثل وليس كتعداد ، هي الخيول المقلاوية ، والكحيلان ، والمعنگية ، والعبيان ، والحمدانية ، والتكليف . وقد اهتم كثير من الناس بتربية خيول السفاد ، فهي تعطي ربحاً أكثر من السباق مع قلة الجهد والتكليف ، إذ ليس من المتعارف عليه أن يقوم صاحبه بالإلحاح على الحصان وإجهاده ، وقد بيعت كثير من الامهار وهي في بطون أمهاتها ، إذا ما علم مَنْ هو

الاب . فإذا كان السوري أو قرندل أو غيره ، ببيع الجنين بمبالغ طيبة ، ولا يعاد مبلغ الشراء في حالة موت الجنين أو خروجه معوقاً .

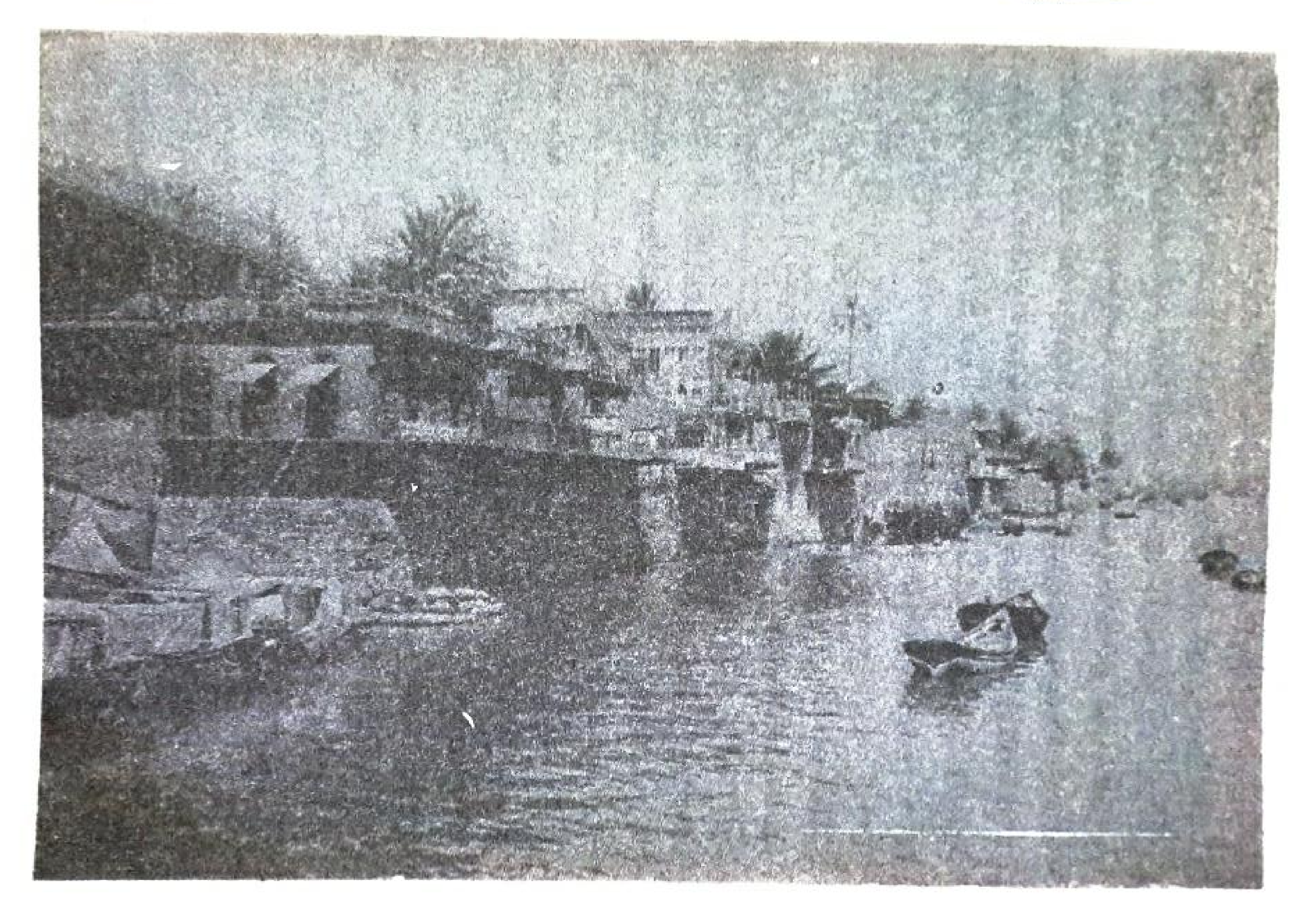
وبازدهار تربية الخيول والاعتناء بها ، إزدهرت مهنة (السائسين) ، وبنيت الاسطبلات بشكل فخم ، وأصبحت محلًا للسمر والسهر والحفلات . وإزدهرت كذلك مزارع الجت حول بغداد . كما استفاد أصحاب المزارع حول بغداد في موسم القصيل ، أي في شهر شباط حين يعلو زرع الشعير ، وهو وقت مراح الخيل. أما الخيل المهيئة للتصدير والركض في خارج العراق ، فان البحث عنها موجود في موضوعي التجارة والعگيل من هذا الكتاب . ولا يفوتنا أن نذكر المنازعات الدموية التي كانت تقوم بين أصحاب الخيول وأصحاب الاسطبلات والسيّاس بسبب التلاعب . وكثيراً ما أدت الى القتل . وقد ذكرنا مثلًا عنها في موضوع أشقياء بغداد من هذا الكتاب .

وبالمناسبة لا بد أن نذكر ان (الخير معقود بنواصي الخيل) . وقد حُرّف واستعمل بدلًا منه في بغداد (الدنيا گُصَصْ وْعْتَابْ) ، أي ان الدنيا والخير معقود بجبين الدابة ، أي بناصيتها . والعتاب هو جمع كلمة (عتبة البيت) ، فالناس في بغداد ، وعلى الأخص اليهود يعتقدون ان لكل عتبة بيت نوع من الرزق ، فبعضه رزقها مفتوح وبعضها شحيح أو منقطع ، لذلك لم يكن اليهودي البغدادي سابقاً يشتري بيتاً ما لم يعلم سلفاً ان عتبته عتبة خير ، ويظل يستأجر دوراً حتى يرى ان عتبة أحدها ممتازة وانها تدر الخير عليه ، فيشتري الدار بأي ثمن . وكانت أراضي البتاوين وما جاورها من البساتين ذات عتبة جيدة ، كما قرر أول مَنْ سكنها في الثلاثينات ، لذلك بيعت بسرعة وتجمّع فيها اليهود . أما مدينة بغداد الجديدة التي أسسها اليهود أيضاً فتركوها وباعوها لغيرهم بعد ان ظهر لهم ان عتبتها غير جيدة .

أما الخيل فان نواصيها مجربة وتكاد تكون عقيدة ثابتة عند الناس . والخيل ذات الناصية المشؤومة (الاُغر) ، فانها لا تجنى أو تُربط بالاسطبل ، بل تُعطى هدية للتخلص منها أو تُستعمل لاغراض مختلفة . والناس الخبراء يعرفون هذه الخيول ، فلا يقربونها ولا يبقونها في مضارب عشائرهم ، لئلا تختلط ببقية الخيول ، كما ان هناك بعض الناس الذين عيونهم (تُصِيْب) ، أي انها عيون حاسدة، فإذا نظروا الى دابة من الدواب ، فلا بد أن يقع لها حادث ، وهم أفراد معروفون ، وكان أحدهم ويسكن محلة سوق حمادة ويرتاد قهاوي عگيل . كان يُطلب اليه أن يغطي

رأسه بعباءة حتى لا يرى الخيل وهي تمر من أمام القهوة ، لانه سوف (يصيبها بالعين) ، ولا أريد أن أذكر اسمه فليس المقام مقام تشهير . وعندي في الحال الحاضر صديق عزيز كريم أهديت اليه فرس أصيلة جميلة التكوين فاعتنى بها عناية كبرى في مزرعته ، وصادف ان جاءه أحد الضيوف ، وكان من خبراء الخيل ورآها ، فاعلمه انها فرس شؤم وعليه أن يتركها ، فلم يصدق ، وكان يرغب في إدخالها حلبة السباق ، وحين جاء بها الى بغداد لادخالها عرفها خبراء الخيل وأكدوا له شؤمها ، واضطر متألماً أن يتركها في أحد مضارب العشائر القريبة منه ، وأعلمهم انها (أغُر) ، وعليهم أن يتصرفوا بها . وحين سألته عن مصيرها ، أجاب : انه لا يعرف شيئاً عنها منذ ان تركها .

ولا بأس ان نذكر بأن النساء العراقيات لا يذهبن الى ساحات السباق ، إلا بدعوة من النساء الإنكليزيات وبأوقات نادرة . ولكن في الاربعينات صارت تحضر الى السباق بصورة دائمة سيدتان ، هما أم سلمان الشيخ داود (مع المندل والمنقل والسكاير أُم الزبانة) ، وفكتوريا انطونيان الارمنية ، وكان لها جوادان في السباق ، هي وأخوها سيمونيان الموظف في وزارة المالية .



الواجهة النهرية للرصافة

المرطبات والحلويات

لم نكن نعرف من المرطبات غير الصودا والنامليت ، وينتجها معمل عبد علي الهندي في آخر محلة الفحّامة في جهة الشيخ معروف ، وكان الناميلت يلون ويُطعم ، إما بالطعم واللون الازبري (الرزبري) ، وأما بالطعم أو اللون البرتقالي أو أبيض صرفاً . وكانت القنينة تغلق فتحتها كوة زجاجية تسمى (دعبلة) ، وعلى الشارب أن يضغط عليها باصبعه لتدخل وتفتح الفوهة ليسهل الشرب . وكثيراً ما كانت القنينة تتكسر وتجرح اليد حين يكثر ضغط الهواء عند دفع الدعبلة . ولم تكن هذه المرطبات مبردة ، فالثلج نادر ولا يُباع إلا في شهر رمضان للترويح عن الصائمين . وفي نهاية العشرينات ، عندما زاد إنتاج الثلج ، بدأ التبريد بوضع قطع من الثلج في كؤوس الشربت أو اللبن الشنينة . وبدأ صنع صناديق الثلج الخشبية في بغداد ، وكذلك انتاج الدندرمة تبعاً لكثرة وجود الثلج . وقدور الدندرمة تُصنع في بغداد من الفافون الكبيرة منها والمتوسطة ، وتوضع داخل براميل خشبية كبيرة ، كانت تُستورد فيها العنبة من الهند ، ثم توضع قطع الثلج بين القدر الفافوني وبين جدار البرميل مع اضافة كمية كبيرة من الملح الخشن الى الثلج لزيادة صلابته وتأثيره على سرعة الإنجماد . وتُباع بعدئذٍ بمواعين صغيرة . وكانت الدندرمة تُعمل من عصير البرتقال أو البطيخ أو صبغة الروزبري أو أي صبغة أخرى . أما الدندرمة الحليب ، فكان صنعها أشق ، لأنها تحتاج الى سحلب وتيهان لاعطائها المطاطية ، لذلك فتُباع بسعر أعلى . ومن أشهر صانعي الدندرمة في الكرخ (زبالة) ودكانه في محلة الشيخ بشار جوار الحلواني المشهور الحجي جواد الشكرجي ، ثم انتقل أخيراً الى جانب الرصافة جوار قهوة حسن عجمي ويعرفه أكثر سكان الرصافة وضرب به المثل ، فقيل (دندرمة زبالة) . أما الآخر فأسمه (كوسج) ودكانه بجانب جامع الشواف في أعلى الجسر بالقرب من حمّام الجسر الذي أصبح الآن ضمن ساحة الشهداء . وكان كوسج محتكراً شخصية (حرملة) في مواكب عاشوراء ، يحمل في يده سعف النخيل يضرب به أطفال (شهداء الطف) ، وهم يستغيثون مقيّدين بالحبال (العطش يا حسين) . وتوفي

كوسج في السنة التي جرى فيها توسيع شارع الجسر . وفي أواسط العشرينات وبعد قصف دمشق بالقنابل في سنة ١٩٢٤ ، جاء الى بغداد صنّاع المرطبات ، ومنهم (عبدو الشامي) صانع الدندرمة (البوضة) الشامية ودكانه في باب الآغا جوار حمّام كجو . وبقي عدة سنين في بغداد الى ان خرج من العراق بقرار من المحكمة. والآخر هو الحجي خيرو ، وهو حلبي مختص بصنع الشربت ، وكان محله مجاوراً لمدرسة شماش وقهوة حسن عجمي ، وهو أول مَنْ صنع وباع شربت اللوز في بغداد. وأخيراً افتتح مطعماً بجوار سوق الأمانة ، ثم التحق بشقيقته زكية (برمبوز) في العمارة ومات هناك في أواخر الأربعينات .

وفي أواسط العشرينات ظهر الى السوق شراب السيفون . ففي ساحة الشورجة مقابل جامع مرجان فتح أول دكان لبيع الصودا والسيفون مجتمعاً . ومن جملة أنواع السيفون ، هو الحنجر ، الذي يشبه طعم الدارسين . ثم افتتح محل آخر على ناصية الطريق المؤدي الى مقهى شريف وحداد ، وفي محل المصور عبوش . وفي هذا المحل تراهن جميل الشارودي على نشل بعض القوريات المرصوفة في الدكان للزينة بدون أن يشعر صاحب المحل ، وقد نجح في ذلك وكسب الرهان .

أما كاسات اللبن (الروبة) ، فيُباع أحسن أنواعها في دكاكين الأرمن المقابلة لشارع باب الشيخ ، كما تُباع أحسن أنواع الباسطرمة والسجوق . وفي الشتاء كان المتجولون يبيعون الشاي والدارسين على الماشي ، وهم غير الجالسين في المحلات الثابتة على أبواب الخانات لبيع الشاي للتجار والحمّالين والمارة . أما شربت الزبيب ، فأحسنه يُباع في نهاية سوق السراي قرب المحاكم . وكنا نرى أكياس الماعز معلقة من السقوف يقطر منها عصير الزبيب ، الذي يُباع مع المريس والجبن الكردي ، لمَنْ لم يفطر في بيته . ذلك ان من لوازم خبز المريس أن لا يؤكل إلا مع جبن الكرد وليس مع جبن السواجد أو الحلو . أما دندرمة أُم العودة ، فجاءت متأخرة ، وأول مَنْ أنزلها الى السوق شركة (لاكي ستيك) ، وسميت بهذه الاسم . أما الدندرمة التي تُصنع بالعلب الفنية المستوردة ، فقد وصلت في نهاية العشرينات ، وكانت الكبيرة والصغيرة منها تُباع في محلات اوروزديباك ، وحسو إخوان ، وبقية المغازات الأخرى الكبيرة . وقد اشتريت واحدة صغيرة منها في أواخر العشرينات بمبلغ ٢٥ ر بية .وفي البيوت كانت المرطبات مقتصرة على الشربت الذي يُصنع عادة ، إما من عصير البرتقال ، أو الماء الأبيض العادي المخلوط بماء الورد ، أو شربت النقوع

المصنوع من المشمش والقمردين أو الإسكنجبيل أو عصير القداح أو عصير الرمان .
ثم كثر استيراد قناني الشربت من خارج العراق على اختلاف أنواعه ومذاقه .

والحديث عن المرطبات يجرنا الى الحديث عن الحلويات ، وهي نوعان : نوع يُصنع في البيوت لاعضاء العائلة ، وأشهرها وأسهلها هو (المحلبي) ، ثم الحلاوة الطحينية ، وحلاوة التمر بالجوز ، وتعمل إما من التمر الأشرسي الذي يدق بالهاون أو الجاون مع الجوز لإعطاء الطراوة اللازمة من نزيف دهن الجوز واختلاطه بالتمر ، أو يُعمل من التمر الجسب الزهدي الأبيض أو البيدراية ، وهذه كلها تسمى (مدگوگة) .
ثم الزردة والحليب التي تُعمل بالمناسبات ، وكذلك تعمل السمسمية بالدبس ، إذ يخلط السمسم بالدبس ويوضع على النار لاعطائه التماسك اللازم ، وقد يُعمل جوز الهند بالسكر على شكل كرات صغيرة . والنساء الحاذقات يعملن حلويات (خانم كويكي) ، أي صرة الخانم ، وهي عجينة مدورة تُقلَى بالدهن ثم توضع بالسكر (الشيرة) ، وقد توضع بعد الانتهاء من عملها قطعة صغيرة من القيمر في قمة العجينة المقلية أو تعمل العجينة بشكل مستطيل وحينذ تسمى بامية شكر . وهذه تباع على الأكثر في المدارس الإبتدائية للأولاد . وأشهر محلات صنعها في سوق الميدان . وتعد الكليچة بالتمر أو بالسكر والجوز نوعاً من الحلويات . وفي الثلاثينات وما فوق بدأ عمل الكيك والكاتو وبقية المعجنات . أما الحلويات التي تباع في الأسواق ، فأشهرها بالطبع هي الزلابية والبقلاوة وشَعْرِ البنات ، وهذه الثلاثة تُباع عادة في شهر رمضان ، وتعد من لوازمه الضرورية ، ولم تكن دكاكين الحلويات تعرض هذه البضاعة في غير شهر رمضان ، إلا نادراً فوجودها في غير رمضان يعد نشازاً ولا يتفق مع العادات ، ومع هذا فان كثيراً من الناس يوصون على صواني البقلاوة الخصوصية لتقديمها هدية عرس أو قدوم حاج أو ختان ولد أو وليمة يقيمها مَنْ كان رصيده المالي أو الاجتماعي يتناسب وصينية البقلاوة . أما البُرْمَة والقطائف ، فقد جاءت متأخرة بعد قدوم السوريين واللبنانيين ، وبعد رجوع العراقيين الذين سافرواخارج العراق ، فبدأ الحلوانيون يصنعون البقلاوة السورية واللبنانية والبُرمة والقطائف . وبالمناسبة يقال ان كلمة بقلاوة تركية الاصل ، وهي مستعملة الآن في تركيا ومنها انتشرت الى القطر السوري واللبناني ، حيث حذقوا صناعتها وفاقت الصناعة التركية جودة وتنويعاً ، واشتهرت بيوت البحصلي والصمدي والعريسي في بيروت بعمل البقلاوة ، واشتهرت حلب بالبقلاوة (البلورية) بالفستق ، كما اشتهرت

دمشق ببقلاوة (كُل واشكر) ، وهي بقلاوة صغيرة الحجم مدورة الشكل تذوب في الفم . واشتهرت دمشق أيضاً بصنع (البُزازُق) ، وهي مدورات من الفستق المسحوق مع رقائق الرز ، وتكاد تشبه (البادم) مع الفارق في الطعم والنعومة في المذاق . كما اشتهرت دمشق بالفواكه المجففة بالسكر والتي تُباع بعلب خشبية مطعّمة بالصدف في سوق علي باشا بساحة المرجة . وقد ذقناها لأول مرة في بداية العشرينات . واشتهرت طرابلس بحلويات (زنود الست) والبنفشة بالسكر . كما اشتهرت صيدا بحلويات (السنيورة) ، وهي معجنات محشوة بالفستق ، واشتهرت نابلس (بالكنافة) ، والقاهرة بحلويات (عش السرايا) . أما في بغداد فأشهر مَنْ صنع البقلاوة والزلابية ، فهو الحاج جواد الشكرچي في محلة الشيخ بشار بالكرخ ، وهو على مهارته في صنع البقلاوة والزلابية ، فقد كان فقيهاً عالماً ومصاحباً دائمياً للفقيه المجتهد الشيخ شكر . وأخذ أولاده عبد علي ومحمود المهارة في الصنعة واستمرا على استعمال أحسن أنواع الدهن والجوز واللوز والعجين الجيدة التي تفتح برقائق خفيفة . وبعد موت عبد علي المبكر استمر محمود بالصنعة . ثم جاء اخوانه الصغار من أبيه وهم : نعمة واخوانه ، وفتحوا محلاتهم بأسم أولاد حجي جواد الشكرچي . والمشهور الثاني ، هو الحاج حسين كنش في منطقة العبّاخانة . ثم الحاج جواد الشكرچي الآخر ، وهو من الفيليّة ودكانه في محلة الصدرية . ثم فتح صادق الشكرچي محله في أول شارع المأمون بعد ان اتفق مع كريم الإيراني الماهر بصنع الحلويات غير البقلاوة والزلابية ، فباع في دكانه مختلف أنواع الحلويات ، بما فيها (مَنّ السِمَا) . وكنا نعرف ونستعمل الحامض حلو ، والگرگري ، والعنبرلي ، وبيض اللقلق ، وچقچقدر ، وچعب الغزال ، وملبّس أُبو الهيل ، والمصقول ، وذرق العصفور ، وأصابع العروس ، واللوزينة ، والساهون ، والحلقوم بأنواعه والمَنّ السِمَا ، وهذا اكتسب شهرة عالمية بغدادية ، عدا مَنّ السِمَا (أصفهان) ، واختص بعمله يهود بغداد في معاملهم قرب مدرسة الأليانس اليهودية في الشورجة . وكانت تستورد كتل كبيرة من (مَنّ السِمَا) الخام من إيران ، ثم تصفى في بغداد في المعمل وتصنع منها الحلويات المحشوة باللوز ثم بالفستق أخيراً . وأشهر مَنْ صنع (مَنّ السِمَا) من اليهود من بيت شوحيط ، وكان أكثر استعمال هذه الحلويات أيام المحيا في الرابع عشر من شهر شعبان ويسمى (مخلّط) ، أو يسمى (گروط) . وكان كثير من هذا المخلّط يستورد من تركيا عن طريق مدينة بيرەچيك التركية على نهر الفرات . ومنها

يرد تين أزمير والكشمش بنوعيه الاصفر والاسود ، وكعب الغزال ، واللوزينة والساهون ، والحلقوم ، والمصقول من اسطنبول ، وهو من صنع الحجي بكر المشهور عالمياً . ثم عرفنا أخيراً الحلويات المستوردة من أوروبا مثل الچوكليت والبنبون .

قصور بغداد ومغانيها

كان البيت الكبير ذو الواجهة الفخمة ، والذي يطل على نهر دجلة مباشرة يسمى قصراً . أما إذا كان داخل المدينة ، ومهما بلغت درجة فخامته ، فلا يسمى قصراً ، إنما يُطلق عليه لقب (بيت درياهي) ، أو (بيت تندق له النوبة) ، أي سلام الأمراء إظهاراً للاحترام ، لذلك فان أكبر وأضخم قصر في بغداد كان قصر كاظم باشا الذي اتخذ أخيراً مقراً للمندوب السامي البريطاني ، أي السفارة البريطانية في محلة الكريمات في الكرخ . وكاظم باشا هذا هو أحد قواد الفيالق العثمانية في بغداد ، وله في الفحّامة ، قرب الصليخ ، بستان عامرة بأحسن أنواع الأشجار ، وهو بستان كاظم باشا الذي توزعت مساحاته الى بساتين صغيرة وقطع أراضٍ سكنية . القصر الثاني الفخم ، هو قصر النقيب الواقع قبالة دائرة البريد المركزية في السنك وعلى نهر دجلة مباشرة . وكان حديث البناء ويمتاز بالمسناة الواسعة وغرفه المطلة على النهر ، وكان مقراً لسكنى نقيب الأشراف وإقامة الولائم الخاصة وحفلات لاستقبال غير الرسميين . أما مقر النقيب الرسمي ، فكان يسمى (الداركاه) ، وهي الدار الواسعة الفخمة الواقعة مقابل جامع الكيلاني والتي أُستملكت الآن ودخلت في مستديرة باب الشيخ المحاذية للجامع . ثم قصر عبدالقادر دلّة الواقع في شارع المستنصر بجوار غرفة تجارة بغداد ويسكنه الأستاذ السيد يوسف الكيلاني كليدار الحضرة الكيلانية والمسؤول عن مكتبتها بهندسته التي تجمع بين الهندية والتركية ، وبأعمدته وقاعاته المبلطة بالرخام الأبيض . ثم القصور الثلاثة في شريعة بيت لنج بشارع المستنصر ، وهي قصور بيت سيمون غريبيان التاجر الكبير ، وقصر النواب الكبير الهندي أبو عبدالله ؛ وقصر الدكتور جوبانيان التذي بني مؤخراً وهو أصغرها مساحة . ثم قصر المقيم البريطاني في زمن العثمانيين على دجلة بامتداد قصر النقيب جنوبياً ، ثم القصر الآخر للمقيم البريطاني أيضاً ، وقد اتخذه قائد القوات البريطانية مقراً له ، وكان المدفع والعلم البريطاني المرفوع ظاهراً للعيان مدة طويلة . ثم أتخذ هذا القصر والقصر المجاور مقراً لوزارة الاقتصاد ومقراً لوزارة الزراعة

والشؤون الاجتماعية . وآخر القصور قصر حجي ياسين الخضيري ، ثم قصر بيت الپاچەچي الذي ذهب الى مقتربات جسر الجمهورية . وعلى شاطىء دجلة بشارع أبي نواس الى الكرادة لم يكن هناك قصر فخم ، بل قصور متوسطة ، مثل قصر الوجيه محمود الأطرقچي . والقصر الذي كان يسكنه عبدالمحسن السعدون حين انتحر ، وبعض الاثرياء اليهود في منطقة السبع قصور .

أما في الكرخ ، فلم يكن هناك قصر متميز غير السفارة ، بل كانت هناك قصور صغيرة ، مثل قصر ابراهيم الأرضروملي ، وقصر عبدالمجيد بك الشاوي ، وقصر الحجي أحمد الكردي تاجر الشيلمان ، وقصر بيت الإيلچي (القنصل الإيراني) ، وبيت النواب الهندي ، وقصر يوسف السويدي . وهي جميعها بيوت ليس فيها شيء من الفخامة لكي تسمى قصراً ، ولكن وقوعها على دجلة مباشرة أعطاها اسم القصر . وفي طريق الكاظمية قصر كبير يسمى قصر الايل ، ويعود الى عبدالحسين الچلبي والد عبدالهادي الچلبي ، وقد سمي قصر الأيل لوجود تمثال للغزال الإيل في وسط الحديقة الأمامية الواسعة ، حيث تفصل السدة الترابية بينها وبين النهر مباشرة . وفي الحال الحاضر أصبح قصر الأيل والبساتين المحاطة به دوراً للسكن . أما في طريق الأعظمية ، فلم يكن هناك غير قصر ابن شعشوع والذي لم يكن قصراً واحداً ، بل ثلاثة قصور أُتخذ أكبرها بلاطاً للملك فيصل الأول وألحق به الثاني من الجهة الجنوبية في عملية توسيع البلاط . أما الثالث ويقع شمالاً ، فقد بقي غير ملحق بالبلاط ، وقد سميت الثلاثة (قصر ابن شعشوع) ، لأنها متجاورة . وان ابن شعشوع هذا من تجار بغداد الاثرياء ومن وجهاء الطائفة اليهودية ويملك الأراضي في الفلوجة وبغداد والكاظمية . ولم يزل بيت حفيده منشي شعشوع قائماً على شارع أبي نواس بجوار فندق السفراء العائد الى خليل البحراني . وفي الأعظمية كانت البيوت الواقعة على نهر دجلة تسمى قصوراً يستأجرها يهود بغداد لقضاء فصل الصيف فيها يوم كانت الأعظمية مصيفاً لليهود قبل أن يهربوا منها في الثلاثينات ، بعد الخطب النارية التي كان يلقيها الواعظ الحجي نعمان الأعظمي ، وانتقلوا جميعاً الى الكرادة الشرقية . أما القصر الكبير في الأعظمية ، فهو قصر الشابندر في محلة السفينة ، وكان يسكنه مكي الشابندر . وفي بداية الثلاثينات شيد ناجي الخضيري قصره في الأعظمية على نهر دجلة وسكن فيه قبل انتقاله الى الجادرية ، ثم سكنه من بعده صهره عزت الخضيري . أما البيت الذي سمي قصراً ولم يكن على

نهر دجلة مباشرة ، فهو بيت الچوريچي الذي شيد في منتصف العشرينات بطريق الأعظمية مجاور مركز شباب الأعظمية الآن ، ولم يكن هناك بيت غيره ، ثم تتابع بناء البيوت بعد . وفي أواخر العشرينات ، بدأ بناء القصور على شارع المجيدية بعد توزيع الشاطىء المذكور على الوزراء والمتنفذين ، كما بدأ بناء القصور بالوزيرية بعد ان وزع البلاط الملكي أملاكه على المحسوبين على البلاط ، وبدأ كذلك بناء القصور على شواطىء كرادة مريم ، مثل قصر الدكتور نجيب بابك ، وقصر عبدالعزيز القصاب ، والقصر الذي استأجره الملك علي . وقد أطلق لقب القصر على الدارين الكبيرين اللتين بناهما توفيق السويدي وتوفيق محمود مقابل السفارة البريطانية والتي عدت الآن دوراً تراثية وسميت قصوراً لضخامة بنائها وسعة مساحتها . وعلى ذكر القصور ، فقد شيَّد المرحوم عبدالله الشاوي بيتاً كبيراً قريباً من هذين البيتين ، وقد نقش في أعلى بابه (قصر غمدان الشاوي) ، وحين سألته عن سبب التسمية هذه . قال نحن الشاوية من عشيرة العبيد ومن نسل قحطان وحمير في اليمن ، وتخليداً لقصر غمدان في اليمن ، فقد أسميته قصر غمدان .

أما مغاني بغداد ، فكانت لا تتجاوز بساتينها المفتوحة غير المحروسة جيداً . ففي محلة النصّة في الأعظمية بستان صغير يقال ان الصوفية رابعة مدفونة فيه ، ويحضر الناس الى هذا البستان للنزهة ، كما يذهبون الى بستان السيد ادريس بالكرادة ، أو على شواطىء دجلة في سلمان پاك بموسم الزيارة الربيعية التي تستمر شهراً كاملاً ، حيث الأنس والانشراح متوفر للجميع . وحديقة مود في الصالحية ، وهي حديقة عامة أنشأتها سلطات الاحتلال وأسمتها بآسم فاتح بغداد الجنرال مود ، ثم انقلبت أخيراً الى مقاهٍ وبيوت سكن وكراجات ، وكانت أرضها وقفاً ، ثم قُلبت ملكاً صرفاً .

وبستان الخس الذي لم يكن بستاناً ، إنما مزرعة للخس يأتيها الناس للاستمتاع وشرب العرق وأكل الخس من المزرعة ذاتها ، بعد ان يختار مشتري الخس الرأس الذي يريده ويقلعه من الأرض . وكان بستان الأرضروملي منتزهاً للناس الكرخيين ، لانها خالية من الأشجار المثمرة التي يحرص أصحابها على منع الناس من دخولها . وفي الجعيفر من الكرخ كان بستان عباس الطعمة قرب الجسر الحديدي ، وبستان المتولية العائد الى حنينة الحجي عباس حفيدة الأسطى غني ، المصارع الذي تغلب على مصارعي إيران ، حين زيارة ناصرالدين شاه إيران الى

بغداد . وبستان مامو في الكرادة ، ومامو هو جد القانوني الشهير حمدي صدرالدين . وبستان رخيتة ، وهي جدة المرحوم ناصر الجنابي . أما بستان الحجي ناجي في الجادرية ، فلا يسمح بدخولها إلا بعد الاذن ، لأن المس بل المعروفة ، كانت صديقة مقربة للحجي ناجي ، وقد توجد في البستان مع أصدقائها الإنكليز والعراقيين ضيفة على الحجي ناجي ! وكذلك بستان الترجمانية في معسكر الرشيد العائد الى بيت النقيب مشتركاً مع حافظ القاضي . هذا عدا مزارع الرستمية التي كانت مفتوحة لزيارات الناس واستراحاتهم .

وقد فاتني أن أذكر البيت الكبير الذي بناه المهندس فهمي دولت في محلة الكريمات قرب السفارة البريطانية ، وكان بيتاً غريب الطابع والهندسة . فانه كان مشيداً على طراز البيوت التي بناها المستعمرون البريطانيون في أدغال ومزارع الهند وسيلان المبنية من الخسب . وكان فرجة لأهالي بغداد .

السكاير والتدخين

كانت السكاير الإنكليزية في العشرينات معروفة ومنتشرة في بغداد ، يدخنها الجيش البريطاني وقسم من الأهلين ، والمشهورة منها أنواع كثيرة مثل : (البلاك كات) ، أي البزون الأسود . وقد أطلق المرحوم نوري ثابت في جريدته (حبزبوز) لقب بلاك كات على المرحوم يوسف عزالدين الناصري ، مفتش وزارة المعارف بعد خلافه معه على صدور قانون الذيل . وأنواع أخرى من السكاير ، هي : گولد فليك ، وسيزار ، وبلايزر ، وكانستس ، وعبدلله . ومن السكاير المصرية ، وردت واشتهرت سكاير ماتوسيان ، وسكاير جتاكليس . وأخذ الناس يدخنون السكاير الإفرنجية بكثرة تباهياً واستعلاءً ليقال لهم متمدنون يدخنون السكاير الإنكليزية . أما العراقية منها ، فلم يكن في السوق غير السكارة (المزينة) ، أي بوجود الزيانة في قاعدة السكارة ، وهي نوعان ، الرفيعة وتسمى نمرة واحد ، وتدخنها النساء عادة ، والغليظة وتسمى نمرة اثنين ويدخنها الرجال ، ذلك ان تبغها أكثر من تبغ الرفيعة ، وكانت تُباع بربطات ورقية تحتوي كل ربطة على ٢٥ سيكارة ، ويُباع ورق السكاير هذا بالدستات . في كل دستة خمسون ورقة ، وتنفخ هذه الأوراق لتنفتح وتستوعب التبغ وتوضع كل مئة سيكارة أو أكثر داخل حزام جلدي عريض يحتويها ،وعندئذٍ يرش التبغ داخل ورق السيكارة وعندها تبدأ عملية (التدگيم) ، أي اغلاق أعلى السيكارة ، كما تُغلق الثياب بالدگمة ، لذلك سمي تدگيم ، وتُباع بعدئذٍ بلفات تستوعب كل لفة ٢٥ سيكارة ، وتوضع في الدواليب جاهزة للبيع . ويستطيع مَنْ يشاء من الزبائن الإيصاء على لفات أكبر حجماً . والتبغ العراقي الذي يُزرع في شمال العراق نوعان : الأول هو(الشاور) ، وهو النوع الجيد الغالي الثمن . ودليل جودته بريق لونه الذهبي وخلو أوراقه من العروق .

والنوع الآخر ويسمى (تتن خردة) ، ويأتي بالدرجة الثانية سعراً وتدخيناً . وهناك (تراب تتن) ، الذي له مجالات أخرى ، مثل استعماله ورشّه في طيات الملابس الصوفية منعاً للعثة . ويُستعمل كذلك في خلطة (تتن السويكة) . وكان

التبغ يُجلب بگواني (أكياس) أسطوانية الشكل تعلو أكثر من متر ، يكون رأس الگونية (الكيس) على شكل قبة الجامع قابلًا للحركة ، لكي يستطيع البائع والدلال والمشتري فتح هذه القبة لمشاهدة نوعية التبغ ولونه وخلوه من العروق وتقدير سعره . وكان يُجلب على ظهر البغال الى محلات بيعه بالجملة في (دربونة الدخانية) ، وهي الدربونة الموصلة بين سوق الصفافير وشارع (الدنگچيّة) ، أي شارع المأمون بعد دفع رسوم المكس عليه . فالمحصولات المحلية يدفع عنها رسم المكس ، لا رسم الكمرك . وهناك دربونة أخرى لبيع التتن وهي مجاورة للدخانية ، وفيها كان مقر الحزب الوطني العراقي ، وبيت السوز ، العائلة العراقية المعروفة ، ولا يُطلق على تاجر التبغ كلمة تاجر ، بل يُقال له (قلمچي) ، وتعني هذه الكلمة انه تاجر جملة بالتبغ . وكانت بعض العوائل العراقية المعروفة تسكن دربونة الدخانية ، مثل : بيت الريزلي ، وبيت الشهربانلي ، وبيت سلمان مامه ، والخانات التي تعود الى آل بحراني . أما تتن النركيلة ، وتسمى (الغرشة) في الريف ، فكان يُزرع في كربلاء والهندية ، ويوزع الى مختلف أنحاء العراق ، منها العراقي اللاذع ، ويسمى تتن هندي ، والنوع الآخر الخفيف ، ويسمى الشيرازي ، وهناك أنواع أخرى أفضل من هذين ، ومنها تتن (أصفهان) ، وتتن (أبو جلود) ، وهو أغلى الأنواع وأندرها . وكان على بائع تتن النوارگيل أن يبدأ بتنظيف ورق التتن من العروق ، ثم يرشه بالماء رشاً خفيفاً ، ثم يبدأ بتقطيعه بالساطور الحاد المقوس ذي القبضتين الخشبيتين ، وذلك على خشبة دكانه المربعة الكبيرة ، ويرش ويثرم بالساطور حتى يصبح التتن ناعماً ، ثم يُعبأ في العلب التي كان بها شخاط بلوكي أبو النجمة . وعلى الزبون المشتري أن يفرّغ الكيس الورقي الخاص بالتتن ، ليستطيع البائع أن يعيد استعماله .

وقد اشتغلتُ في صغري بالسكاير والنرگيلة عند جارنا المرحوم السيد محمد الحجي صالح ، خال الأديب أنور الناصري ، صاحب كتاب (سوق الجديد) ، وذلك بعد خروجي من المُلّا أو المدرسة كي لا ألعب في الأزقة ، كما هي أصول التربية في تلك الأيام . وعلى مدخن النرگيلة حين يذهب الى المقهى ليشرب النرگيلة هناك ان يستحضر معه التتن الخاص به ويعطي عامل النوارگيل الكمية اللازمة « للنفس » ، كما يقال في سوريا ولبنان . فإن لم يستحضر معه التتن ، فالعامل هو الذي يتكلف بذلك .

وبقي كثير من الناس يلفون التتن بورق السكاير (بافرا) ، وهم يحملون معهم العلب المعدنية الخاصة بلف السكاير ، حتى وصل بغداد في أواسط العشرينات السيد طبّارة اللبناني ، وعائلة طبّارة من العائلات المعروفة في بيروت ، ومنهم العلماء والادباء ، وقدّموا شهيداً في الحرب العالمية الأولى من الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا السفاح في سوريا ولبنان ، وهو الشهيد عارف طبّارة . جاء طبّارة هذا الى بغداد واستأجر بيتاً في محلة قنبر علي ، تحت الطاق ، وبدأ يبيع التتن المثروم على شكل الشعر ، كما يبيع العلب المعدنية ذات الزمبلك الداخلي لأجل لف السيكارة ، بدلًا من لفها باليد . وبعدها أسس بالاتفاق مع السيد عبود شركة طبّارة وعبود ، واستأجرا محلًا لعملهما بالزقاق المجاور للبلاط الملكي ، وأنتجا أول سكاير بالعلب ، كانت علامتها الغزال الراكض ، الرافع ساقيه الى الأعلى مستنداً على رجليه . وبعد عدة سنوات أقاما الدعوى على شركة أخرى ، أنتجت مثل هذه السكاير بعلامة مثلها ، ولكن غزالها يقف على ساقيه ويرفع قائمتيه الخلفيتين الى الأعلى ، وكان للدعوى هذه فرصة للمرح والتعليقات الفكهة ، بصفتها مخالفة لقوانين العلامات الفارقة ، ولما لم يكن في العراق مثل هذا القانون ، فقد تم الصلح بين الطرفين وانتهى الإشكال بين الشركتين .

أما السبيل الذي كان يُصنع من الطين المفخور والمصبوغ باللون الأحمر ، فكان يُستعمل في بغداد ، ويوضع فيه التتن الخردة ، وعلى شارب السبيل أن يحمل معه كيس التتن والمقدحة ذات الخيط ، وكانت السبلان تباع في مدخل سوق الهرج مقابل محلات صنع الكاهي في جدار المدرسة المستنصرية ، أما السبلان الخشبية الطويلة من مصنوعات كردستان ، فلم تكن كثيرة الاستعمال في بغداد .

أما تراب التتن ، فكان يُستعمل لصنع البرنوطي أو للسويكة التي توضع في اللثة ، وقد بطل استعمالها لبشاعتها وسوء انتاجها . وكان بعض الإيرانيين المقيمين في بغداد يخلطون التتن بقليل من الترياك المخدِّر المعروف ، الذي كان يباع علناً وباجازة رسمية من دائرة الكمرك نعرف ثلاثة محال لبيعها . واحدة قرب الجسر القديم في ملك عبد علي المؤمن ، وقد علّق على دكانه لوحة (مرخص بيع الترياك) ، والثاني جوار جامع المرادية في الميدان ، وكان يدير المقهى المجاور ، حيث يشنّف آذان رواده بأغاني السيد الصفطي ، حبيب الحشّاشة والترياكية ، فسماع هذه الأغاني تزيدهم نشوة . فإن لم يكن هناك أسطوانة للسيد الصفطي ،

فيسمعهم أسطوانة للشيخ سلامة حجازي ، أو أبو العلا ، أو عبده الحمولي .والمحل الثالث ، في مدخل سوق الهرج من جهة ساحة الشرطة .

لقد كانت السكاير الإفرنجية تباع في مخزن التجهيزات البريطانية (بي. جي. اس. اس.) ، العائد لبيت سوفير اليهود ، وهو المخزن المختص بتجهيز الجيش البريطاني بالسكاير والاغذية والمعلبات . ويبيع كذلك علب تبغ الپايپ ، كما كان يبيعها مخزن حسو اخوان ، وأوروزدبياك .ومخزن صبري . أما الباعة العراقيون ، فكان الجنابي أشهرهم ، ومحله قرب تكية البدري بجوار سنترال سينما ، والآخر في الدكان الملاصق لجامع السيد سلطان علي . وجدير بالذكر ان أشهر بائعي السكاير بالعشرينات هم : كنو ، وتوفيق في جانب الكرخ ، والسيد عباس الصندوق في جانب الرصافة . وهذا لا يعني عدم وجود بائعين مشهورين غيرهم .

أما الپايپ ودخانه ، فكان يباع الدخان بعلب الصفيح المدورة أو المصفحة .والماركة الشهيرة ، هي ماركة البحّار ، وماركة الپليرز . أما الغلايين المستوردة بمختلف أشكالها ومعادنها وصنعتها ، فتُباع أيضاً في هذه المخازن ، كما تباع علب السكاير الفاخرة الذهبية والفضية منها والقداحات ، فكان أشهرها من صنع شركة دنهل البريطانية .

أما سيكار الهفانا وغيره ، فلم يكن يُرى في الشوارع ، إذ كان استعماله في البيوت ، على أشكال مختلفة . وكان يباع معه المقص الخاص لقص رأس السيكار ، وكان يصنع من الذهب والفضة .

الجسور في بغداد

لم يكن في بغداد سوى جسرين : الجسر الصغير (جسر المأمون) ، وكان يسمى الجسر الصغير أو العتيق ، بعد بناء جسر مود ، وكان من الخشب المركّب على جنائب حديدية مكشوفة ذات صدر عريض وحبال من السلك الحديدي المتين مربوط بالاناگر (جمع أنگر) المستقر على بُعد خمسين متراً من الجسر عائماً في الماء لتثبيت الجسر ووقوفه ضد التيار . وكانت أرضية الجسر الخشبية غير مثبتة تماماً على الجنائب ، لذلك فان قرقعة الخسب تُسمع بكل وضوح حين تعبر الدواب أو العربات عليه . وكان المسؤول البريطاني عنه يسكن في بيت خاص له في دائرة العمل نفسها ، وذلك على رقبة الجسر من جانب الرصافة ، وليس العبور عليه مجاناً ، بل يجب دفع رسم العبور على الحيوانات والعربات الى ملتزم رسوم الجسر ، وكان آخرهم السيد حميد حنونة السامرائي ، وهو صديق ياسين الهاشمي الذي تناوله الناس بالنقد الجارح ، حين أصدر قانوناً باعفاء ما تبقى من الضريبة بذمة حنونة . وعلى ناصية الجسر من جانب الكرخ (مفتول) عسكري متين البنيان مع فتحات للرشاشات في أعلاها ، ويظهر انه شيد لمنع العبور على الجسر حين تقع الاضطرابات لمنع اتصال ثوار الكرخ بالرصافة ، أو العكس . وعلى رأسي الجسر شرطيان مع كل منهما صافرة علم لتنظيم عبور العربات والحيوانات على الجسر . فعندما تتجمع العربات أو الحيوانات على جهة من الجسر يطلق الشرطي صفارته ليسمعها الشرطي الآخر ، كي يوقف العبور من جهته ويرفع العلم الأحمر ، وعند فراغ الجسر يرفع الشرطي الثاني العلم الأبيض لمرور مَنْ تجمّع في جانبه ، وهكذا دواليك . فالصافرة والعَلَم هما للإيذان بالعبور أو الامتناع عنه .

وكانت مشكلة الجسر القديم هي فيضان دجلة ، لأن تيار دجلة القوي يصطدم بدوب الجسر ذات المقدم العريض وليس الحاد ، لذلك فان التيار يدفع هذه الجنائب للغطس بقوة التيار ، وعند ذلك ينتشر عمال الجسر على طوله ومعهم أكياس الرمل يضعونها على الجانب الثاني من الجنيبة لايجاد التوازن ومنع غطس الجنيبة

بالماء ، وعندما يبلغ فيضان دجلة أقصاه يُمنع عبور الدواب ووسائط النقل ، ويبقى مقتصراً على الناس . أما في أيام الصيهود ونزول الجنائب الى مستوى منخفض ترتفع مقدمة الجسر على الجانبين ويصبح من الصعب صعود العربات المحمّلة هذا الارتفاع ، لذلك تبدأ العربات بالإسراع من منتصف الجسر حتى يبلغ الإندفاع مداه وتصعد العربة هذا التل ، ومع هذا ، فلا بد من معاونة الناس عند عجز الحيوانات عن سحب العربة والصعود . وكان الجسر المذكور مصدر فكاهة وسلوى لنا نحن صبيان الكرخ ، ذلك ان من طبيعة البغال الخوف من الماء ، خصوصاً أيام الفيضان ، وحين تعبر عربات الجيش الخفيفة البريطانية أو العراقية ، والتي تجرها البغال ، تمتنع البغال عن السير وتنصرف الى المدافعة ، فكل بغل يدفع الآخر جانباً لكي يتخلص من الخوف . والبغل الآخر يدفعه بالمقابل خوفاً ، فلذلك تقف العربات ولا تتحرك إلا بكثير من المشقة . أما نحن الصبيان ، وكنا نعلم بوقت عبور عربات الجيش ، فأوقاتها معلومة ، فكنا نتجمع على الجسر للضحك والقهقهة والسخرية من الهنود الذين يسوقون هذه العربات ، وهكذا كنا في حالة ترفيه دائم ، علاوة على متعتنا بالوقوف على سياج الجسر ورمي فتات الخبز الى طيور (نعيج الماء) البيضاء ، والتي تتجمع وتتعارك في ما بينها لالتقاط الخبز من على سطح الماء .

أما جسر مود (الأحرار) ، ومود هذا هو الجنرال البريطاني قائد الجيش الذي فتح بغداد سنة ١٩١٧ ، فكانت جنائبه مدببة الأطراف ومغلقة وقاعدة الجسر تعلو كثيراً عن الجنائب ، لذلك فان خطر الفيضان على هذا الجسر أقل بكثير من خطره على الجسر القديم ، ويتحول عبور الناس ووسائل النقل عليه بدلاً من الجسر الآخر ، والفتحات بين جنائب الجسر واسعة لدرجة ان صباح نوري السعيد عبر بطيارته من تحت الجسر ، فأُصيب بجروح خطيرة بالغة منعته نهائياً من الطيران ومات مرافقه في الحادث . أما تنظيم المرور فيتم أيضاً بالصافرة والعَلَم . وكان هذا الجسر متنزهاً للناس أيام السبت والأحد ، حيث الفتيات اليهوديات والمسيحيات السافرات يتنزهن على الجسر وفي شارع الصالحية ذهاباً وإياباً متباهيات بالأزر الثمينة التي يرتدينها وبجمالهن المعروض للفرجة ، أو لكسب العريس الملائم . وكانت مشكلة عبور العربات والسيارات أثناء الصيهود مثل مشكلة الجسر القديم لكثرة ارتفاع مقدم الجسر والتي لم تكن تنتهي بسلام ، إلا بعد تدخل العابرين على الجسر وقيامهم بالدفع .

وللمرة الأولى في بغداد رأينا الدعامات الخشبية الكبيرة جداً من خشب جاولي

الهندي المدهون يرتكز عليها كل ثقل مقدمة الجسر . وبالنظر لمتانة هذا الجسر وعدم اهتزازه ، فقد كان العبور عليه أكثر كثافة من العبور على الجسر القديم .

أما الجسر الثالث ، فقد أنشىء في الأعظمية سنة ١٩٢٤ ، وهو غير الجسر القديم الذي كان في محلة الحارة ، وقد أُلغي في أواخر زمن العثمانيين . وبداية هذا الجسر الثالث في الشارع المؤدي الى المقبرة الملكية . وكان من الخشب ومن الجنائب نفسها ذات المقدم العريض التي لا تستطيع مقاومة تيار دجلة ، إلا بوضع الأكياس المليئة بالتراب على الجانب الآخر لمنع غطسها وغرقها . وان أرض الجسر من الركاكة وسوء الصنع ما يخيف الماشي والراكب . وعلى الناس العابرين على الجسر أن يدفعوا قرشاً في الذهاب وقرشاً في الإياب ، أي آنة واحدة ذهاباً وإياباً . وعلى الدواب أن تدفع آنة واحدة للذهاب وآنة للإياب . أما العربات والسيارات ، فتدفع آنتين ، أي نصف قران لكل مرة . أما للوريات المحمّلة ، فيُمنع المرور عليه لعدم تحمله ثقل اللوري . ومشكلة صعود السيارات أو العربات الى رقبة الجسر ووصولها الى أرض الشارع مشكلة أصعب جداً من الجسرين الآخرين ، ذلك ان مقتربات جسر الأعظمية أعلى بكثير من مقتربات الجسرين الآخرين ، لذلك تضطر العربة أو السيارة للإسراع بأقصى ما تستطيع من منتصف الجسر لكي تتسلق المرتفع . أما إذا كانت محملة فان السرعة لا تفيدها شيئاً ، بل تبدأ بتفريغ حمولتها من منتصف الجسر لكي تعبر بسلام ، ثم تحمل البضاعة بواسطة الحمالين لايصالها الى العربة أو السيارة الواقفة بالانتظار . أما تنظيم العبور ، فيتم على وفق الطريقة التي ذكرناها سابقاً . وبعد سنة أو أكثر أُلغي رسم العبور على الأشخاص ، وذلك بعد الانتهاء من بناء معمل فتاح باشا للنسيج في الكاظمية تسهيلًا لعبور الناس اليه ، وبعد الشكوى المُرة التي قدمها المرحوم نوري فتاح الى الحكومة بشأن أجور العبور . وكانت دعواه لدى الملك فيصل الأول أن ليس من الأصول أن يتساوى الإنسان والحيوان بدفع أجرة العبور .

وكانت إدارة الجسر العتيق ، وجسر مود بيد أحد الإنكليز (سرجنت) ، لكل جسر . وفي بداية الثلاثينات تم الاستغناء عنهم ، لأن الجسّارة العراقيين تدربوا على العمل وأتقنوه .

أما الأقوال الشائعة بأن الجسر القديم يهرب كثيراً وينقطع ، حيث يصل الى الكرادة جنوباً في الأيام القديمة ، لكنها لا يمكن أن تحصل بعد ان شيد جسر مود بعد

دخول الجنرال مود الى بغداد ، بحيث لم يكن هناك مجال لهروب الجسر القديم ، إذ يعترضه جسر مود . وحين ابتدأ إنشاء جسر المأمون الثابت نُقِلَ الجسر القديم مؤقتاً الى شريعة المحكمة بجوار القشلة ، وحين بدأ إنشاء جسر الأحرار الثابت ، نُقل جسر مود الى شريعة السنك جوار أوتيل السندباد سابقاً وسميَ جسر الملك علي .

النوادي والجمعيات

أولاً : النادي العسكري :

وهو أقدم النوادي في بغداد ، وأُسس بعد تكوين الجيش العراقي بسنة واحدة . واقترح تأسيسه مجموعة من الضباط الذين كانوا يجتمعون بنادي الضباط في استانبول أو الضباط الذين كانوا في أسر الجيش البريطاني ورأوا نوادي لضباط الخاصة ، واتخذوا البناية العسكرية في شريعة الميدان محلاً لهم ، وكان نادياً أنيقاً نظيفاً ، خصوصاً وان الملك فيصل كان يسكن تجاه النادي في محل مجلس النواب والأعيان . وكثيراً ما ينزل الى-النادي ويلعب التنس مع نوري السعيد أو غيره من الحاشية ، وأذكر ان في النادي زوجاً من (البجع الأبيض) ، وهو طير نادر لم يره أهل بغداد . وكانوا يأتون للتفرج عليه . وان نظامه الداخلي ينص على ان الضابط في الجيش العراقي يعد منتمياً للنادي بمجرد صدور الإرادة الملكية بتعيينه ضابطاً . ثم أضيف الى البناية بعض الغرف في الطابق الفوقاني لاستراحة كبار الضباط عند مجيئهم الى بغداد ، إما لأعمال رسمية ، وإما لقضاء إجازة قصيرة . واشتهر النادي بالأكل النظيف والخدمة الجيدة التي كان يقوم عليها بعض مرتبات من الجيش .

ثانياً : النادي العراقي :

وأسسه جماعة من الوزراء في الوزارة النقيبية الأولى ، ليكون محلاً لاجتماعهم الليلي وقضاء السهرات واتخذوا مقرهم في محلة السنك قرب جسر السنك حالياً . وكان أكثر رواده من الطامعين بالوزارة أو الوظيفة الكبيرة ، أو من أصدقاء الوزراء والدائرين حولهم . وكانوا يقضون لياليهم (بعضهم) بلعب البوكر ، الكنكان ، أو كأس أو كأسين ، ثم تبدأ المساومات السياسية . وقد تبدل اسم النادي مراراً عديدة ، فمرة نادي التقدم ، ثم نادي دجلة ، ثم نادي بغداد ، ثم سمي نادي الزوراء ، والسبب في ذلك هو ان هذه المجموعات من الناس تنتقل من محل الى آخر ، ومن اسم الى اسم ، بالأهداف والغايات نفسها . وينتهي كل نادٍ من هذه النوادي بسقوط الوزارة ، ويتجدد

بتجدد الوزارة ، فيُطلق عليه اسم جديد ، كما يشتهي الناس المؤيدون ، أو الناس المعارضون ! فحين كان اسمه النادي العراقي ، شكّل عبدالمحسن وزارته ، فسمي حزب التقدم ، وفيه حصلت المشادة العنيفة بين السعدون ومعروف جياووك وانتحر السعدون على اثر خروجه من النادي ، ثم سمّاه المعارضون نادي الشعب ، إشارة الى حزب الشعب الذي يرأسه ياسين الهاشمي قبل اندماجه بالحزب الوطني ، وتسميته حزب الإخاء الوطني ، ثم استوزر توفيق السويدي وانتمى الى الحزب جماعة من الكرخ تأييداً لتوفيق ، فسماه الناس نادي دجلة . ثم انتقل هذا الاسم الى نادي آخر في العلوية بآسم نادي بغداد وبقي قائماً مدة طويلة . ولما كان النشاط السياسي مرتبطاً بالبلاط الملكي والمناصب والوزارات أصبحت تحت رغبته وأمره ، لكن المساومات بقيت تجري في النادي استعداداً لتلبية رغبات البلاط الملكي .

ثالثاً : نادي التضامن أو نادي منتدى التهذيب :

وأسسه جماعة من الشباب وعلى رأسهم يوسف زينل ، وشاعر الشباب أكرم أحمد وغيرهما من الشباب ، وكان نادياً إجتماعياً أو سياسياً . وكانت فرقة كرة القدم في نادي التضامن من أشهر الفرق البغدادية التي تتبارى في مباريات كأس كاجوال لكرة القدم . واستمر هذا النادي بآسم أو بآخر بقدر نشاط السيد يوسف زينل مستمراً . وآخر الأسماء هو نادي دجلة . وكان مقره في الأعظمية ، ولكنه انقلب من نادٍ رياضي الى نادٍ للسهر وقضاء الليالي الملاح بين ورق اللعب وكأس بنت الحان .

رابعاً : نادي العلوية :

وأسسه الإنكليز لقربه من مساكنهم الموجودة في منطقة العلوية التي تبدأ من جامع الجندي المجهول الى السفارة الأمريكية القديمة . وكانت بيوتهم مبنية من اللبن والطابوق الأحمر ، لكن مساحات الحدائق كبيرة جداً ، ولم تزل بعض جدران نادي العلوية قائمة حتى الآن ، بالرغم من الإضافات التي جرت عليه خلال سنين طويلة . ولم يُقبل في هذا النادي إلا جماعة محدودة من العراقيين تختارهم إدارة النادي بعناية بالغة . وكانت الإدارة إنكليزية ، أو من الماشين بركابهم . وظلت كذلك حتى تبدلت الى إدارة عراقية . ومع هذا فلم يقبل في النادي إلا مَنْ كان حائزاً على شروط معينة ، وبقيَ محافظاً على مستواه ، وهو أول نادٍ في بغداد فيه حوض سباحة للرجال والنساء ، وفيه قاعة خاصة للعبة البريدج الإنكليزية وقاعة لألعاب الورق

وقاعة للتدخين ، أي ان تنظيم النادي كان تنظيماً إنكليزياً ، علماً ان سكان منطقة العلوية من الإنكليز كان لهم نادٍ آخر صغير بين دورهم لا يرتاده أو يُقبل فيه إلا الإنكليز فقط ، ويرأسه المستر بيل والمستر جادويك المشهور في عالم سباق الخيل ، والمستر كورنواليس مستشار وزارة الداخلية ، وبعض المستشارين الإنكليز . ثم تبدل الى نادي (الترف كلوب) ، لشباق الخيل ، حيث بدأ السباق في منطقة باب المعظم قرب حدائق المعرض الصناعي الزراعي الى ان انتقل نهائياً الى منطقة العلوية وسماه الناس ريسز المستر بيل .

خامساً : نادي لورة خضوري :

وهو نادٍ يهودي أقامته الطائفة الإسرائيلية بمعاونة الثرية اليهودية لورة خضوري ، وكان محله في السنك في بداية باب الشيخ ، وأعضاؤه من اليهود من كبار التجار والموظفين والمحامين ، ومنهم المحامي يوسف الكبير ، ومدير الحسابات العام ابراهيم الكبير ، وشوحيط من كبار موظفي السكك الحديدية ، وسليم ترزي مسؤول البريد والبرق ، وخضوري مدير الميزانية ، والشاعر أنور شاؤل ، والاديب الكاتب مير بصري ، وعدد من الأثرياء . والغريب ان من أشهر رواده كان ياسين الهاشمي ، يذهب ليلعب لعبة البريدج البريطانية . وقد اتهمه معارضوه بأنه يذهب هناك للتخلص من مشاكله الداخلية ، أو لقضاء سويعات هناك للراحة من تعب السياسة . وكان في النادي ساحتان للعب التنس والاختلاط فيه موجود . ويصعب قبول العزّاب إلا بعد التأكد من سلوكهم . وقد أُغلق هذا النادي بعد إشتداد أزمة فلسطين والصهيونية وقيام الصحف المحلية بمهاجمة النادي ، بوصفه مركزاً صهيونياً وليس نادياً اجتماعياً .

سادساً : جمعية الشبان المسيحيين :

وهي بالأحرى نادي الشبان المسيحيين ، ومقره في شارع السعدون مجاور سينما سميراميس ببنايته الضخمة الدلة عليه ، وكان يديره شخص بريطاني اسمه واتسن ، ظلّ يديره الى منتصف الخمسينات ، وهو لا يقبل من المسلمين أحداً ، حتى لو كان وزيراً . فإن تقدم أحدهم بطلب إنتماء أحالوه الى نادي العلوية . أما الشابات المسيحيات ، فلهن جناح خاص بالجمعية ، علاوة على جناحي الضيافة فيه للشبان وللشابات . وكانت الجمعية تكرس نشاطها للاستخبارات والقيام بأعمال التبشير ، إن

كان ذلك ممكناً ، علماً ان المنتمين للجمعية لا يشترط كونهم شباناً ، فإن كثيراً من المعمِّرين الإنكليز أعضاء في الجمعية ، ومنهم المستر (ادمونس) معاون مستشار الداخلية ، والمستر فيشر مدير الاطفائية ، والمستر (جستن) الجاسوس المشهور . وأبطلت هذه الجمعية نظامها الداخلي وصارت تقبل العراقيين والعراقيات ، وخففت من نشاطها ، ثم أُغلقت واستولت الحكومة على مقرها ، ثم اتخذتها الشرطة مقراً لناديها .

سابعاً : نادي البولو :

وتأسس ليضم هواة لعبة البولو ، اللعبة العربية المشهورة ، وكانت ساحة اللعب في الوزيرية بالقرب من ساحة الكشافة ، واشترك في النادي كبار ضباط الجيش العراقي من الخيالة ، وبعض أعضاء البعثة العسكرية البريطانية ، وكان من أشهر لاعبي البولو المرحوم ابراهيم الراوي ، وعبيد المضايفي رئيس مرافقي الوصي عبدالإله ، وصلاح الدين الصباغ وغيرهم ، والوحيد الذي قُبل في هذا النادي من غير الضباط ، هو عريف شرطة اسمه كريم ، وكان ماهراً في هذه اللعبة بشكل مدهش ، وحين استولى بكر صدقي على الحكم في انقلابه العسكري ، منحه رتبة ملازم أول في الجيش ، ليقوم بتدريب الضباط على هذه اللعبة . وأُغلق هذا النادي بعد بضعة سنين لوجود الساحات في كثير من مقرات الجيش وتبدلت أرض الساحة الى بيوت سكنية وأسواق .

ثامناً : جمعية الشبان المسلمين :

تأسست في الثلاثينات ، واتخذت مقرها في الصالحية بجوار دار الإذاعة العراقية . واهتم بتأسيس هذه الجمعية كهول وشباب ، على رأسهم توفيق حسين الملقب توفيق أركان ، ومعه الحاكم حسن رضا ، وعبدالعزيز الخياط ، وبهجت الأثري ، والسيد حسين العاني . أما الشباب ، فهم : الضابط كاظم جعفر ، وعباس بغدادي ، وسلمان بيات ، وان أول محاضرة أُلقيت في الجمعية كانت عن التصوف في الإسلام ، ألقاها المرحوم أمجد الزهاوي ، بعد تعب وإلحاح عديدين .

تاسعاً : نادي الارمن :

أسسه جماعة من وجهاء الأرمن ، كان منهم طبيب الأسنان وارطان

الكسندريان ، وآرام غريبيان ، والدكتور چوبنيان ، وطبيب الأسنان غازريان ، وتوماس مي مريان ، وهو أول مَنْ أدخل المكوى البخاري الى بغداد واتخذ محله في رأس القرية بمكان ساحة الغريري ، وانتمى الى هذا النادي كثير من الارمن ، ولكن الخلافات العقائدية بينهم ظهرت الى السطح ، ذلك ان الارمن طائفتان سياسيتان ، هما : الطشناق والهنشاك . أما الهنشاك ، فكانت سياستهم العنف والارهاب بتحقيق الوطن الأرمني والانتقام من الأتراك عن المذابح التي ارتكبوها في بداية القرن العشرين . أما الطشناق ، فانهم ديموقراطيون يؤمنون بالنَفَس الطويل . والخلاف بينهم قائم في كل مكان من العالم ، وانسحب الهنشاك من النادي ، ولم أدخل الى النادي لاعرف ما فيه عن قرب ، ولكني سمعت انهم يمارسون الألعاب الرياضية وبعض النشاطات الثقافية الأرمنية ، كالموسيقى والرقص .

وقد ظهر من بين الشباب الأرمني كثير من الماهرين في لعبة كرة القدم ، مثل : مايكل ، وآرتين ، وسيروب ، وخصوصاً مايكل الذي اشتهر بكونه حارس مرمى جيداً ، وقد لعبوا في مختلف الفرق العراقية .

عاشراً : نادي الكمرك :

تأسس في أواخر العشرينات ، وهو لموظفي الكمرك والمكوس . وأعتقد انه أول نادٍ للموظفين في العراق . وقد تأسس بهمة ومساعدة المستر مونك مدير كمرك بغداد وتشجيع المستر سيف رايت مفتش الكمارك العام . ومن المصادفات الحسنة ان لاعب الكرة المشهور في إنكلترا ستافرد كان موظفاً في كمرك بغداد ، فأخذ على عاتقه تشكيل فريق كرة قدم من موظفي الكمرك . وكان نظام الكرة في بغداد يسمح لكل فريق بوجود لاعب أجنبي (طبعاً إنكليزي مع مدرب) ، فكان المستر ستافرد هو اللاعب وهو المدرب ، وأنشأ فريقاً متكاملًا من اللاعبين اشتهر منهم عبدالستار ناجي ، ووهبي أحمد ، ورؤوف الأعمى ، وخليل محمد حامي الهدف المشهور والملقب خليل عظم ، وفرنسيس مكيزة وغيرهم . وكان مقراً لاجتماع موظفي الكمرك في بغداد ومَنْ يزورها من موظفي المتصرفيات ، إذ كان للكمارك أربعة مراكز رئيسة فقط ، هي : البصرة وخانقين والموصل والرمادي . وقبل في النادي بعض التجار بعد تزكيتهم من قبل مجلس الإدارة . واشتهر النادي بالعَرَق الممتاز ، لأن شركة تقطير عَرَق (مسيح) تعمل تحت إشراف دائرة الكمارك . وليس للنادي نشاط آخر غير كرة القدم ، بل كان

مجمعاً للموظفين وقضاء أوقات الفراغ مع إقامة بعض الحفلات الغنائية ،حيث يغني محمد القبانچي ، وعبدالرحمن خضر ، ويوسف عمر وغيرهم من قراء المقام .

أما نادي المحامين ، فقد أسس في أواخر العشرينات لقلة عدد المحامين في ذلك الوقت . وان المحامين يجتمعون عادة ، إما في بيت بهجت زينل المحامي ، أو في بستانه في الفحّامة ، وهي بستان عامرة تقام فيها الولائم الباذخة للأصدقاء من رجال الحكم أو المرشحين له . وبقي بهجت زينل نقيباً للمحامين سنين طويلة ، ثم بدأت كلية الحقوق تخرج أعداداً كثيرة من المحامين . وصدر قانون نقابة المحامين ونظمت أمورهم وتشكل النادي بصورة حقيقية واتخذ مقره في العيواظية ، وبقي بهجت رئيساً الى ان توفي ، فانتخب السيد نجيب الراوي نقيباً للمحامين .

في أوائل العشرينات تأسس نادي صيد الحمام واستقر في طريق الأعظمية عند تقاطع الجسر الحديدي مع شارع الأعظمية في الحال الحاضر ، ومقابل بيت الأستاذ أمين المميز ، وكان الغرض منه التدرب على صيد الطيور وهي طائرة ، وتجرى مباريات على ذلك ، ومن قدماء رواد هذا النادي السيد محمد الصدر ، وكان هاوياً للصيد ، وكذلك داوود بيك الداغستاني ،وعلي رؤوف أبو المي ، والمقدم صالح العزاوي وغيرهم . وكانت المشكلة هي إيجاد الطيور الكافية للصيد . كما ان الماء كان شحيحاً في تلك المنطقة ويؤخذ من الآبار المحفورة على جانب الطريق المؤدي الى البلاط ويُستعمل لرش الطريق ، منعاً للغبار ، حين مرور الملك فيصل الى البلاط والخروج منه ، وأخيراً ، وعند حدوث الكسرة وغرق بغداد وطريق الأعظمية طبعاً غرق النادي وانتهى عمله ونشاطه بغير رجعة .

أما نادي السكك الحديدية ، فقد كان بين بيوت السكك بالصالحية ، وليس له نشاط ، وإنما كان محلًا لقضاء الوقت ، ولم يكن هناك رابطة تربط الموظفين . فهم بين آثوري الى أرمني الى يهودي الى هندي الى عراقي ، فليس من الممكن الانسجام بينهم .

وفي أواخر العشرينات تطور الوضع وزاد عدد العراقيين فيه وصارت له حصة في الحياة الاجتماعية بوجود حسيب رشيد ، وقاسم عبدالحميد ، ونفوذ اليهودي شوحيط كبير موظفي السكك ، وسليم كرجي سكرتير المدير العام ، كما انتمى اليه سليم ترزي المسيطر على مديرية البرق والبريد .

وفي العشرينات تأسست جمعية البقالين بنشاط قام به أصحاب علاوي

الشورجة ، ومنهم : بيت البقال باشي ، وبيت بنية ، وابراهيم مبارك ، وبيت حجي خلف ، وقمندار وغيرهم . وانتخبوا من بينهم رئيساً اسمه الحجي عبدالله ، وأذكر ان من أقرباء بيت بنية ، ولكثرة النزاعات بين البقالين وان الرئيس يستغل علاقته بالحكومة لاستغلال الوضع والمنفعة له . لذلك دبروا اغتياله وقتل فعلًا في كمين نُصب له ، وعرف بعدئذ ان القاتل هو الحاج شاكر الخياط الذي اعترف بذلك بعد الحكم عليه بالاعدام في مقتل أحمد الشنان ، ولم تعد الجمعية قائمة ورفضت الحكومة تجديد الإجازة حفاظاً على الأمن وخوفاً من تكرار العملية مع رئيس آخر .

وتقدَّم أصحاب الصنائع بطلب إجازة جمعية بآسم « عمال الميكانيك » ، وتقدم بالطلب المرحوم محمد صالح القزاز ، ولكن الحكومة رفضت الطلب ، لأنه يحتوي على كلمة (عمال) ، ويعني انهم شيوعيون ، حسب مفاهيم الحكومة في ذلك الوقت ، فبدلوا الاسم الى جمعية (أصحاب الصنائع) ؛ فقبل وتشكلت الجمعية وأكثر أعضائها من عمال الميكانيك والفيترجيَّة في الشيخ عمر وكمب الكيلاني ، وكان رئيسها القزاز نشطاً في فعاليات الجمعية ويلح على الحكومة للحصول على امتيازات للعمال وطلب تشريع يحميهم . واستمرت الخصومات بينه وبين الحكومة حتى جاء مزاحم الباجهجي وزيراً للداخلية في أوائل الثلاثينات ، فسجن القزاز ، ثم نفاه الى عانة وعيَّن السامرائي رئيساً للجمعية ، ولكن هذا أقيل عند اخراج مزاحم من الوزارة وعاد القزاز الى بغداد والى الجمعية التي انتهى نشاطها تقريباً .

أما جمعية الطيران وجمعية الهلال الأحمر وجمعية حماية الأطفال ، فكانت في وقت متأخر تقريباً ، لذلك لم أتطرق اليها ، والأمر كذلك مع نادي المعلمين . أما جمعية إحياء الفن ، فقد جاء ذكرها في باب الملاهي والتمثيل ، وهناك جمعية صغيرة أخرى ، هي جمعية الميتم الإسلامي ، وتعنى بالأولاد اليتامى ، وفتحت لهم مدرسة خاصة وكان رئيسها شخص من بيت العلوي في الكرخ .

المُـلالي

كان أول (مُـلّا) ذهبتُ اليه ، هو الملّا رجب ، قرب قهاوي عكيل وخانات الاباعر ، وسمعت منه لأول مرة ﴿ بأسم الله الرحمن الرحيم ﴾ في أول جزء (عَـمَّ) . وكان رجلًا عجوزاً رقيق الحال لم يضرب أحداً من التلاميذ ، وكانت المحلة تسمى (العنازية) ، ولا أدري هل هي نسبة الى عشيرة عنزة أصل العكيل ، حيث تسمى المحلات بأسم العشائر ، مثل : محلة ألبو شبل ، والعزة ، والفلاحات ، والمشاهدة ، والكريعات ، والفناهرة ، والخشالات ، أو تسمى بأسماء أُناس سكنوها وتركوا بصماتهم فيها ، مثل : محلة عيفان ، وقهوة شكر ، وأبو دوْدوْ ، وقنبر علي ، أو بأسماء الصوفيين أو الأ ـ ـة الموجودة قبورهم فيها ، مثل : محلة : سراج الدين ، والشيخ الخلاني ، والفضل ، والشيخ عمر ، والشيخ معروف ، والشيخ جنيد وغيرهم . وبعد أشهر انتقلت الى مُلّا مهناية ، وهي امرأة (مُلّا) في جانب الكرخ ويندر أن يسلم أحد من الكرخ من بين يديها ، ولا يختم القرآن الكريم عندها . وكان بيتها في محل مستشفى الكرخ للولادة ، تعاونها أختها المرحومة (مَـلْـكَـة) ، التي تزوجت المحامي يوسف المولى ، ثم توفيت على اثر عسر في الولادة ، لأن زوجها وأهلها رفضوا إدخالها المستشفى ، لأن الاطلاع على عورات النساء ، ولو من طبيب حرام ، وهكذا راحت ضحية الجهل والخرافات .

وكنا نقدم الهدايا للملا في المناسبات ، مثل إنهاء (جزء عَـمَّ) ، أو الوصول الى سورة (لم يكن أو تبارك) ، عدا أيام الأعياد . أما إكمال سورة ياسين ، فلها مكافأة خاصة . أما حفظها على الغيب ، فالمكافأة أدسم وحفظهما واجب . وختمتُ القرآن عند الملا وعُمِلَت لي الزفة المعلومة ، وحملت (الرحلة) وعليها القرآن المجيد مفتوحاً والأولاد ورائي ينشدون :

(الحمـــــد لله الــــذي تحمّـــدا
حمــــداً كثيـــراً ليس يُحصى عـــددا)

وهو النشيد المعتاد في ختم القرآن وأعطيت المكافآت الى الملا والخلفة

(المساعد) ، ووزعت حلويات الصواني على كافة الأولاد ، بعد ان أخذت الملا حصة الأسد ، كما هو معروف .

ومن أشهر الملالي في جانب الكرخ : الملا داود العاني في محلة الفحامة ، وكان صعباً وشديداً ، ولم يخرج من بين يديه ولد ، لا يعرف القراءة والكتابة ، ولم يختم القرآن ، وكان يعلِّم مبادىء الحساب أيضاً ، ونادراً ما مِنَ الأولاد مَنْ لم يُفلق مرة أو مرتين على الأرجل ، خصوصاً عندما تزول (طمغة) الحبر على السيقان ، منعاً للسباحة في النهر ، وخوفاً من الغرق . وكان ولي أمر التلميذ يسلِّم الولد الى الملا قائلًا : « لك اللحم ولي العظم » ، أي اضرب كما تشاء ، ولكن لا تكسر عظماً . ولما كان محل اخوتي في سوق الصفافير بالقرب من ملا عارف المشهور في سوق الخفافين ، فقد نقلت اليه بعد ختم القرآن ، ويأخذني اخوتي صباحاً ويعيدوني الى البيت مساء . والملا عارف هذا هو ابن الملا أحمد ، ولم يزل محله في سوق الخفافين موجوداً بشكل مسجد ومصلّى . وكان خطاطاً ممتازاً تتلمذ على يديه الخطاط المرحوم هاشم الأعظمي . وكان الملا ربعة ، خفيف الشعر أشقره ، خفيف العارضين ، صوفي النزعة ، تدخل اليه من مجاز طويل ضيق صُفّت على جوانبه حبوب الماء وعليها المناشل (المنشل) ويجلس الملا متربعاً على التخت وأمامه الصندوق الكبير وأقلام القصب والمحابر ، وعلى يمينه عدد من عصي الخيزران وقصبة طويلة وعلى الجدار الداخلي علقت الفلقة أمام أنظار الجميع . أما تحت الملا ، فكانت التنكات التي يكتب عليها التلاميذ تحت السطر الذي سطره الملا ، وعلى التلميذ أن يقلِّد ما كتبه الملا على هذه التنكة ، إما بالخط النسخي أو الرقعة أو الفارسي . فعلينا أن نحسن كتابتها . وكان أشطر التلاميذ في الخط هو السيد مصطفى طبرة . وكانت الأرضية مفروشة بالحصران ، وعلى التلاميذ ان يجلبوا معهم (المنادر) ليجلسوا عليها ، لا على الحصر الرطبة ، كما ان عليهم أن يجلبوا معهم صندوقاً خشبياً صغيراً لوضع الأقلام واللوحة وما كتبه محفوظاً فيه لليوم الثاني . فإن رآه الملا واستحسنه فيعطيه سطراً آخر جديداً ، أو يأمره بإعادة الكتابة للمرة العشرين أو الثلاين . وكنا نمسح الكتابة على التنكة بلساننا ، لذلك لا نذهب الى بيوتنا إلا وأفواهنا وشفاهنا ملطخة بالسواد . وكانت أقلامنا من القصب الذي (يقطّه) الملا أو الخلفة ، حسب نوعية الخط : نسخي أو ثلثي أو رقعة أو فارسي ، فلكل خط قلم خاص . وبمرور الزمان تعلّمنا كيف نقط أقلام القصب ونحضر معنا من البيت سكيناً

حادة نحتفظ بها في صندوقنا . وتعلّمنا عند الملا الحساب والكتابة التجارية ، لان محل الملا كان في وسط تجاري ، ولا بد أن يتعلّم الاولاد أسلوب الكتابة التجارية .

كان عند الملا عارف مروحة سقفية من القماش طولها متران وعرضها ثلاثة أرباع المتر . وفي أسفلها مجموعة من الحصر توفر الثقل اللازم يمنعها من الإرتجاج والاهتزاز . ويكلف الملا مَنْ يسحبها من الذين قد رضيَ عنهم في الكتابة والقراءة ، لأن سحب المروحة يعد نوعاً من الامتياز والترفيه واللعب . كذلك هو استراحة من الدرس لمدة ساعة أو أكثر . أما إشارة شرب الماء ، فهي رفع السبابة اليمنى . أما المخاط ، فإشارته الإبهام الأيمن ، أما قضاء الحاجة ، فكان رفع الخنصر الأيمن مع التلوي وإظهار التبرم والضيق ، كي يسمح لنا بالذهاب الى جامع الخفافين لقضاء الحاجة وليس بالتمشي في السوق والاستراحة من عناء الملا . أما الولد المختص بالتفليق ، فكان عباس عبدالحسين ، الذي صار بعدئذ مختاراً لمحلة الشيخ بشار في الكرخ ، وقد فلقني مرة واحدة وأوجعني وأمره الملا بالكف عن تفليقي ، وقد لقيته بعد أكثر من أربعين سنة وفي مديرية التقاعد العامة ، وكنت المدير فيها ، وقد عرفته طبعاً ، أما هو فلم يعرفني ولم يتذكر تفليقه إياي ، وقد توفي بعد ثورة ١٤ رمضان . وكان الملا عارف يستوفي أجوراً شهرياً . ودوامه الصيفي الى ما بعد الظهر قليل ، أما الشتوي فالى صلاة العصر ، حيث أذهب الى الخان ، ثم أعبر مع إخوتي الى جانب الكرخ والى قهوة العكامة ، حيث ينعقد مجلس الأدب والفقه الى صلاة المغرب ، ثم الى البيت .

لقد ذكرت هذه التفاصيل ، لأن بقية الملالي لا يختلفون بشيء عنها ، وكلهم سواء في أصول التدريس أو نوعية المحلات ، وما فيها أو الإدارة يتساوى في ذلك الملا داود في الكرخ ، والملا الأفغاني ، والملا جليل ، والملا عبدالوهاب . لكن السيد شاكر البدري يختلف عنهم ، فمحله يشبه المدرسة ، وهو واقع في محلة جديد حسن باشا بالزقاق المؤدي الى أمانة العاصمة وعنرانه ، كما هو مكتوب (المدرسة الأحمدية) ، ويدرِّس فيها القراءة والكتابة والحساب وقواعد اللغة العربية ، والولد الذي يكمل الدراسة عنده يقبل في الصف الخامس أو السادس الابتدائي ، ولم يكن يستعمل الفلقة ولا التنكات للكتابة ، وطلابه مقسَّمون بما يشبه الصفوف تبعاً لقابلياتهم ومعارفهم .

وهناك ملالي آخرون يُطلق عليهم لقب (لاله) ، مثل : لاله هراتي ، ولاله

عليوي ، ولاله جليل ، ولاله خديجة ، ويظهر ان كلمة لاله تستعمل فقط في جانب الرصافة بالمحلات التي يكثر فيها الأتراك والكولبندية . واللالة يطلق على منْ يحتوي محله أطفالًا صغاراً . وهو يقوم أحياناً بجمعهم من البيوت وإعادتهم الى أهليهم تحت مراقبته ورعايته ، ولا تطلق كلمة لالة على الملا الذي يدرِّس الصبيان أو البنات الكبار ، فلا يقال لاله مهناي ، ولا لاله داود ، ولا لاله عارف ، إذ يعتبر ذلك حطاً من قدرهم . وتعد لاله هي الروضة ، والملا هو التمهيدي والابتدائية ، لذلك فعندما يبلغ الصبي الرابعة أو الخامسة يقال ابعثوه الى لاله . وأعتقد انها كلمة تركية بمعنى المربي أو الملاحظ ، لذلك فليس هناك امرأة تسمى لاله ، إذ ليس في منطق العشرينات ان تخرج المرأة من بيتها وتجمع الأطفال من البيوت ثم تعيدهم مساءالى بيوتهم مع الرعاية ، بل هو واجب الرجال .

كرة القدم

بدخول الجيش البريطاني ، بدأت تنتشر لعبة كرة القدم ويزداد هواتها ، فانتشرت في المدارس وفي النوادي التي شكلها بعض المتعلمين . وللتفرج على اللعبة ، كنا نحن الصغار نتسابق للذهاب الى الهنيدي (معسكر الرشيد) ، حيث المباريات تجري بين الفرق البريطانية . وكان أشهرها ، وأشهر الملاعب المسماة بأسمها ، هي فرقة (الاسبيتال) ، أي (الهوسبيتال) بالإنكليزية المستشفى . وفرقة ايج كو . ويظهر انها ترمز لأحد فرق الجيش البريطاني وعلامة من علامات مقرات قطع الجيش . وأعتقد انها اختصار لكلمة (هيد كوارتر) ، أي القيادة العامة . وذلك قبل ان ينتقل معسكر الهنيدي الى سن الذبان (وسكودرن ليدر) ، والكولي كمب ، وهم خدم الإنكليز ومستخدموهم المحليون ، وكنا نذهب سيراً على الأقدام قبل أن تبدأ سيارات الفيات الصغيرة المكشوفة بالذهاب الى الهنيدي من موقعها في جامع مرجان بأجرة قدرها قران واحد ، أي ثمانية عشر فلساً . أما الرجوع ، فكان علينا أن نمشي ، ولم نكن نشعر بطول الطريق لقوة شبابنا ، ولأننا جملة من التلاميذ المشغولين بتعليقاتنا ومعاركنا الطاحنة في أي لاعب أحسن وأي گولچي أقدر . وفي الأيام الممطرة أو ما بعد المطر ، فكان ممنوعاً على السيارات استعمال طريق الهنيدي خوفاً من تدميره وتخريبه ، لأنه لم يكن مبلطاً ، وإنما كان طريقاً ترابياً تحفه أشجار الدفلاء ، وعلى السيارات الذاهبة الى ديالى أو الكوت أن تسلك طريق السدة على النهر ، ويسمى طريق (شغيْدَة) وصولاً الى جسر ديالى . ثم انصرف البغداديون الى ملاعب الكرة العراقية ، خصوصاً عندما أعلن عن كأس (كجوال) ، وهو الذي تبرع به البريطاني (كجوال) لتشجيع الفرق العراقية ، وهو كأس فضي وحيازته تتم عن طريق التسقيط ، إذ لم تكن طريقة النقاط معروفة في بغداد . ومن الفرق القديمة التي اشتهرت ، فرقة نادي التضامن الاهلي ، ومن لاعبيها المشهورين : الشاعر أكرم أحمد ، ويوسف زينل ، ثم نادي الكمرك . وكان المستر (ستافرد) المفتش بالكمرك لاعبه الأول ومدربه ، ذلك ان قانون اللعبة في بغداد

يسمح لكل فريق بالاحتفاظ بلاعب بريطاني ومدرب . ومن اللاعبين المشهورين بنادي الكمرك : ناجي عبدالستار ، وخليل محمد حارس المرمى . وكان يسمى خليل عظم . ووهبي أحمد ، وفرنسيس مكيزا ، ورؤوف محمود ، المعروف برؤوف الأعمى . ثم دخلت الى ميدان الساحة الكروية فرقة الفوج السابع من الجيش العراقي ، وأشهر لاعبيها : فخري عمر ، الملقب فخري اللندني ، وذلك لبياض لونه وشقرة شعره ، والعريف سعدون ، وحارس المرمى (مايكل) . أما فريق الثانوية المركزية ، فكان من لاعبيه المشهورين : أكرم فهمي وأخوه مظهر فهمي ، وقدري الارضرومل‍ي ، ووهبي سكراج وطه عبدالجليل ، والفنان الرسام حافظ الدروبي . ثم فريق دار المعلمين ، ومن لاعبيه عبدالرحمن أغوان ، واسماعيل علي ، وجمال حسيب . ثم فريق المدرسة الحربية ، ومن لاعبيه : أنور دبابة ، ورؤوف شبيب ، وناظم محمود . ثم الفرق الأهلية التي لم تكن مستقرة على لاعبين معينين ثابتين والمشهورون منهم : قدوري كافر عثمان ، وحسن أبو الدهر ، والاخوان رزوقي وعبداللطيف الشيخلي .

ومن الملاعب المعروفة في بغداد ملعب الصالحية ، وقد اتخذ قبل هذا محلاً لمهرجان بغداد المسمى (سوق عكاظ) في بداية العشرينات . ثم شيد المتحف العراقي الكبير محله في الحال الحاضر . ثم ملعب (الوايرلس) ، أي اللاسلكي . وكان ساحة كبيرة في مدرسة الشرطة بالبتاوين ، والذي أصبح الآن وزارة التربية والتعليم . ثم ساحة الكشافة وهي الحالية ذاتها ، ثم ساحة الكرنتينة خلف جريدة الجمهورية ، وهي الآن منطقة سكن . وقد استعملت قبل كرة القدم كساحة لسباق الخيل في أول العشرينات قبل انتقالها مع البريطاني المستر جادويك الى العلوية ، حيث أنشيء مضمار السباق هناك والذي يعرفه كل أهالي بغداد . ثم ساحة لعب الفوج السابع في مقر الفوج الذي اتخذ الآن حديقة الزوراء .

لم تكن في الملاعب شبكات للمرمى ، بل كان يقتصر على الأعمدة ، فإن لم يكن ، فيُستعاض عنها بكومة من ملابس اللاعبين على طرفي الهدف ، كما لا يوجد تخطيط فني واضح للساحة ، وإن وجد فلا قيمة له ، فالمتفرجون لا يتقيدون بالتخطيط ، بل يدخلون الى الساحة ويخرجون منها تبعاً لحماسة اللعبة وسيرها وأهميتها . واللاعب الممدوح هو الذي يرمي الكرة بأقوى ما يستطيع الى الأعلى . وكان يقال عنه انه (ينجّم) الكرة ، أي يرفعها الى النجوم ، أو انه صاحب أكبر (شوت) . وطبيعي ان الحكَم لم يكن يعرف بالضبط إن كانت الكرة قد خرجت عن خط التماس ، لأن المتفرجين يملأون الساحة بغير نظام . ثم تبدأ المعارك والضرب بعد انتهاء

اللعبة في بعض الاحوال بين الفريق الخاسر ومشجعيه ، وبين الفريق الرابح ومشجعيه . وقد ينتهي الامر بعدة جرحى وعدة موقوفين في مراكز الشرطة ، خصوصاً بين الفرق الاهلية ، كفرقة الفضل ، وفرقة باب الشيخ . أما الاصطلاحات ، فلم نكن نعرف غير الكلمات الإنكليزية منها ، فالهدف هو الگول ، وخط التماس هو اللاين ، ونقطة البداية هي السنتر ، وضربة الزاوية هو الكورنر ،ومسك الكرة باليد هو الهندبول ، وضربة الجزاء هي البنلتي ، والخروج عن خط التماس هو الآوت . أما حارس المرمي فهو الگولچي ، ومهاجم الوسط هو السنتر فورورد ، والحَكَم هو الرفري والضربة القوية هي الشوت ، والتسلل هو الأوف سايك بك ، أما في ضربة البنلتي فيسود الهرج والمرج ويندفع المتفرجون الى الهدف ليروا كيف تُسَدَّد الضربة ، وكيف تصيب الهدف . أما إذا استطاع الگولچي صد الكرة ، فلا بد ان تبدأ المعركة الكلامية على الأقل بين أنصار الفريقين .

وبدأ تطور اللعبة والاهتمام بها بالثلاثينات وما بعدها ، علماً ان مفهوم اللعب الجماعي لم يكن معروفاً ومطبقاً ، بل المهم عند اللاعب أن يسجل هدفاً وحده ، كي يقال انه هو الذي حصل على الهدف بمهارته ، فإذا ضاع منه الهدف أنحى باللوم على اللاعب الذي يناوله الكرة بصورة صحيحة لتسجيل الهدف ، وكل واحد منهم يلوم الآخر ، فلم يكن أحدهم مستعداً للتنازل وإعطاء الفرصة لغيره للتهديف . أما الصياح والعياط بين اللاعبين أنفسهم أو بينهم وبين المتفرجين ، فحدث عنه ولا حرج ، ولا بد للحَكَم حين يأتي الى الساحة أن يستصحب معه أشقياء محلته أو طلاب المدرسة لكي يدافعوا عنه حين يتناوله المتفرجون أو اللاعبون شتماً أو ضرباً بالأيدي والأرجل ، لانه احتسب البنلتي خطأً أو ظلماً ، أو احتسب أوف سايد باك أو هندبول خلافاً لاجتهادهم . وفي أواخر العشرينات تشكلت فرقة كرة قدم في مدرسة الشرطة ، وكانت ساحتها في مدرستها وهي ساحة الوايرلس ، حيث مقر لاسلكي الشرطة العامة . ثم تشكل الفريق المختلط من الأرمن والآشوريين . ومن الطبيعي ان الدخول الى الساحة والتفرج على المباراة كان مجانياً . أما الصغار والأولاد ، فكانوا يلعبون بدرابين محلاتهم بكرات صغيرة مصنوعة من القماش ، أو بالكرات المشتراة من السوق مع الأحذية الخاصة باللعبة . أما إذا ضاق الطريق بهم ، فإن في ساحات المقابر أو ساحات المراجيح متسعاً لهم ولألعابهم . وأذكر ان لعبة الهوكي انتشرت أيضاً في العشرينات ، وكانت تُلعب في الأزقة بالخيزران المعكوف ، بدلًا من خشبة الهوكي المعكوفة وبكرات مصنوعة من القماش وليس من الخشب .

السبايات

مواكب العزاء في عاشورا وتسمى السباية جاءتنا ، موروثة عن البويهيين ، حين دخلوا بغداد في القرن الرابع الهجري ، ويقال انها كانت أقدم من ذلك ، وهي تشتد وتخف تبعاً لمزاج الحاكمين في بغداد . وفي العشرينات كانت الإستعدادات لمواكب عاشورا (السبايات) تبدأ من شهر ذي الحجة ، حيث تُصبغ الدشاديش واليشاميغ والعرقچينات باللون الأسد وتُعلَّق الاعلام السود التي تمر منها المواكب . وتُفتح الدشاديش بشكل مربعين منفصلين في الظهر ويسري ذلك على الأطفال المنذور لهم بضرب الزنجيل في السباية ، وتصلّح وتُنظَّف المشاعل النفطية وتُجدد خرق الاشتعال وتُحضَّر أباريق النفط الأسود وتُهيأ نقارات السباية وصناجاتها . والنقارة جسم دائري يغطيه جلد الغزال ، ويُضرب عليها بعصوين من الخيزران الرقيق جداً ذي الرأس المدور ، لان الضرب يكون من هذه الجهة وتُحمل على الصدر معلقة في الرقبة ويصاحب النقارة ضاربو الصناجات النحاسية الصفراء ، ويُنتخب رئيس الموكب ورئيس ضاربي الزناجيل ورؤساء أجواق اللطامة على الصدور ويعين طريق الموكب في الذهاب والإياب ومحل الوقوف والاستراحة . أما قراء التعازي وردّات اللطّامة ، فهم معروفون في كل محلة . فلكل محلة شاعرها الخاص ، فلا يتجاوزه أحد ، وعلى كل حال فان أشهر قارىء في بغداد ، وبلا منازع هو الملّا سلمان الكرخي . وكذلك تُشترى طوايق القماش (طاقات) التي ستُخلع على الملا كرماً وتقديراً ، وتُجمع مصاريف المواكب من القادرين على الدفع ، إذ يعتبر هذا واجباً دينياً يثاب عليه . ويطلب من أصحاب الخيول الأصيلة المعتادة على ضرب الطبول والضوضاء أن يهيئوا خيولهم لايام التشابيه التي تبدأ بعد اليوم السادس من عاشورا يوم مقتل القاسم رضي الله عنه .

وتبدأ المواكب تسير في الايام الخمسة الاولى من مكان تجمعهافي المحلة الى محل وقوفها للاستراحة والاستماع الى الملا وتجديد نفط المشاعل ، ثم الى نهاية مسيرتها في بيت النواب بالكرخ ، أو بساحة الشيخ الخلاني ، أو بالصدرية بالرصافة ،

ثم الرجوع للمحلة للتفرق أو أن يتفرقوا بعد وصولهم الى نهايتهم مباشرة ، وتبدأ مسيرة الموكب بضاربي الزناجيل ويمشون على صفين متوازيين يفصل بينهما ستة أمتار ، وفي وسطهم ضاربو النقارة والصناجات ورؤساء المحلة وشبانها الاشقيائية ويمشي الاطفال الصغار في وسط الموكب وبيدهم زناجيل صغيرة من الفضة ليضربوا على ظهورهم ، وذلك تحت رعاية ورقابة آبائهم ، ذلك انهم منذورون لضرب الزنجيل في أيام عاشورا . ويكون الضرب على الظهر رتيباً على نغم النقارة البطيئة التي تشبه المشية العسكرية في الجيوش . ثم يجيء بعدهم جوق اللطامة ولا علاقة لمشيتهم بالنقارة ، بل انهم يشكلون أجواقهم بصورة زوجية . فاما جوقان أو أربعة أو ستة أجواق . فالجوق الاول يتكون من أربع جماعات يبدأ الرُبع الاول من شطري القول . والرُبع الثاني يكمل الشطر الثاني . أما الثالث ، فيقرأ الشطر الرابع ، ثم يتمه الجوق الرابع . أما إذا كان هناك ثماني جماعات ، فتكرر العملية نفسها ، ولكن بشطرين آخرين غير الشطرين الأولين ، ويستمرون بهذه الاشعار ، حتى إذا طال الطريق أوقفهم الملا وأنشدهم شطرين آخرين جديدين ، حتى يصلوا الى محل الاستراحة فيصعد الملا على كرسي جاهز له . ويبدأ بقراءة الاشعار المناسبة التي ينظمها هو ، وكل بيتين أو ثلاثة من الشعر هناك (ردّة) يرددها كل جماعة ، كما ذكرنا أعلاه حتى ينتهي الشاعر من قصيدته وتوضع على كتفيه الخلع من الطاقات . ثم يعلن انتهاء اللطم بكلمة (جُرّوا) ، أي اسحبوا ، فيستمرون في المشي بعد ان استراحوا .

إن أشهر المواكب وأكبرها في بغداد ، كان موكب عزاء الكرخ ، حيث يتجمّع سكان الشيخ بشار ، والعلاوي ، والشواكة ، والكريمات ، ومحلة الذهب ، والمعدان ، ودرب الفوگ ، ورأس الجسر وباب السِيْف ، وكلها تصب في ساحة الشهداء التي كانت ساحة واسعة تعود الى علوة المخضر في جانب الكرخ . وعندها يهيأ الكرسي للملا سلمان ، الشاعر الشعبي المأساوي الكبير ويلقي أشعاره بطريقته الخاصة الممزوجة بالتمثيل ، مما يهز مشاعر الجميع (وقد ساعده في بعض السنوات صديقنا الاستاذ اسماعيل رزوقي) ، ولكن اسماعيل ترك هذا العمل ، لأن لا مكان لغير الملا سلمان في هذا الموكب . وتستمر المواكب في السير حتى تصل بيت النواب (مستشفى الكرخ للولادة) . وهناك يقرأ الملا سلمان بعض القصائد ويكون كثيراً منهم قد تعب فينصرفون الى بيوتهم أو محلاتهم ، إما فرادى أو جماعات . أما في أيام التشابيه،

فاول ما يظهر هو تشبيه (مسلم بن عقيل) . وقد أركبوه يوماً ما على جمل . ولكن الجمل لم يحتمل ضرب الطبول والضواء فأبدلوه بالسنة الثانية بفرس هادئة . وفي اليوم السادس يخرج التابوت وفيه جثة مغطاة بالخام الملطخ بالدماء وعلى صدر الجثة تجثم بعض الطيور الداجنة البيضاء وقدم الجثة مصبوغة بالحناء ، لان القاسم استشهد وهو عريس . أما رأس الرجل المعتبر جثة ، فكان في الصندوق يتنفس . أما الرقبة الملطخة بالدماء ظاهرياً ، فهي رقبة شاة أو عنزة . وفي أيام الصيف كان يمشي تحت التابوت المحمول صبي صغير يحمل مهفة لتهوية النائم الشبيه . وفي اليوم السابع وما بعده تطلع الخيول المزينة بحلل الحرير والفضة والذهب ، ومربوط تحتها من الرقبة حتى فخذيها بشتمال كبير خوفاً من سقوط المصاغ الذهبي أو الفضي ، وكان أصحاب الفرس وصاحب الذهب يمشون بجوارها للمحافظة على المصاغ الذهبي . وفي اليوم العاشر من عاشورا صباحاً يبدأ (الطَبُكْ) ، أي معركة الطف النهائية ، وتكون باحة بيت النواب الكبيرة محلاً لتمثيل المعركة ركوباً على الخيل بين الشِمِر وحرملة والحُر وعبدالله بن رواحة وشباب الطف ، وعمر بن سعد ، وتنتهي المعركة قبل الظهر ويتفرق المجتمعون كلٌ الى حال سبيله . أما في الكاظمية والنجف وكربلاء ، فيكون التطبير في اليوم العاشر صباحاً ، والتطبير هو الضرب بالسيوف أو القامات على جبهة المطبرين الذين نذروا أنفسهم لذلك . وقد نظّم التطبير مؤخراً ، بأن تشرط الجبهة عدة شرطات خفيفة ، بحيث يسيل منها الدم ، ثم يقف ضارب خاص وبيده جريدة من النخيل ويقوم بالضرب الاستمراري تحسباً من ضرب الناس لنفسها في ساعة من ساعات الحدة ، مما يسبب النزيف ثم الوفاة . وكان مسموحاً أن يقوم ضابط الشرطة في المنطقة أو القائم مقام بعملية الضرب نفسه . وكان (صالح حمام) القائم مقام وضابط الشرطة المشهور هو الذي يقوم بهذه العملية ويضرب المطبرين ضرباً خفيفاً موزوناً ، وبعد ان ينتهي الموكب يذهب المطبّرون مباشرة الى الحمّام للاغتسال والراحة ، ويُعرفون بعدئذٍ بالعصابات البيضاء التي يشدون بها رؤوسهم وجباههم ، والسعيدة من النساء مَنْ تحصل على قطعة من القماش المخضب بالدم لايفاء النذور .

أما المشاعل ، فكانت لازمة من لوازم السباية ، ولا أقصد هنا المشعل المنفرد الذي يحمله بعض الشباب لوحده ، ولكن الحديث عن المشاعل الكبيرة ، وهي خشبة طويلة جداً ركُب عليها عدة مشاعل مع قائم خشبي يتوسط المشعل ، حيث يوضع في

حزام حامله الذي يجب أن يكون قوي الجسم مفتول العضلات ، ليتمكن من حمله والدوران به . وقد بالغ الناس في مشعل محلة الصدرية الذي كان يحمله الشقي الكردي المشهور (كزكه) ، وقيل انه يحتوي على مئة مشعل ومشعل ، وهذا غير صحيح ومبالَغ فيه ، لان هذا معناه ان يكون طول الخشبة مئة متر ، خمسون لكل جهة ،ولقد ذهبت بنفسي لارى هذا المشعل الاسطوري الذي يحمله كزكه وعددت مشاعله بنفسي فوجدتها واحداً وأربعين مشعلًا ، عشرون لكل جهة وواحد في الوسط ،ومع هذا فكان كزكه ينوء بحمله ويساعده أثنان لتنزيل المشعل وملئه بالنفط الاسود ثم رفعه وحمله ، كما ان براعة وقوة حامل المشعل هو في تدويره فوق الرؤوس ، ولا يمكن أن يدور مشعل بطول خمسين متراً بدون أن يعمل عشرات الحرائق . أما مشعل جانب الكرخ ، فقد كان ذا خمسة وعشرين مشعلًا ، وكان يُركَن دائماً في الساحة الواقعة أمام بيت المرحوم منير القاضي قرب حسينية الشيخ بشار . أما مشعل الصدرية ، فكان يُركَن ، إما الى جدار جامع الخلاني ، أو في إحدى ساحات الصدرية أو العوينة . وكان موكب الصدرية ثاني المواكب أهمية . فهو يضم أكراد الصدرية وسكان العوينة والدهانة ، وسراج الدين والهيتاويين والمحلات المجاورة ، وتبدأ مسيرتها من قهوة المختار الحجي كاظم ، الشخصية المحترمة في تلك المحلات والذي كان يسمى (قاضي الحاجات) ، لكثرة خدماته للناس ورعايته لهم . ثم تأخذ المسيرة طريقها الى قهاوي التسابيل في شارع باب الشيخ ، ثم الى بيت خضر التكمجي . وبعد ان تستريح في هذا البيت وتقف في ساحة بيت السيد صالح العطار لأجل اللطم واستماع القصائد ، تعود من الطريق نفسه ، ولا يختلف تسلسل الموكب ومحتوياته عن بقية المواكب . وهناك سباية أخرى صغيرة ، هي سباية محلة الدشتي وإمام طه . وجامع المصلوب ، وباب الآغا ، وسكان سوق الصفافير (كان في سوق الصفافير عدة بيوت للسكن) . وينظِّم هذه السبايا بيت الحجي أحمد كنو أبو عبود وسلمان رزوقي . أما القارىء ، فهو الملّا عبود مدرع . وكان الموكب يخرج من محلة الدشتي ، مقابل رويال سينما ويصل الى سوق الصفافير ويرجع من حمّام پنجه علي ، ثم الى محلة الدشتي ،حيث يتفرقون .

وتنتهي السبايات في اليوم العاشر ظهراً ويبدأ توزيع التمّن (الرز) و (القيمة) مجاناً للمجاورين ، ولكل مَنْ يمر على الطريق ، كما تُطبخ الهريسة وتُوزَّع أيضاً ، وكذلك توزع الزردة والحليب مثلها مثل زيارة الاربعين (مَرَدِ الراس) . أما في

اليوم العاشر مساءً فينظُم موكب صامت حزين تسير الناس فيه على ضوء الشموع بخشوع كامل مع لطمية خفيفة ويذهبون ، إما الى الحسينيات ، أو الى البيوت التي كان يقام الموكب فيه بالأيام العشرة الأولى . ويشترك بموكب الشموع الصامت هذا كثير من الناس صغاراً وكباراً ، رجالًا ونساءً ، يتقدمهم علماء الدين والمجتهدون ووجهاء الناس .

ولا بد من الإشارة ان الروزخون المشهور والخطيب المتمكن السيد محمد صالح الحلي ، كان يرفض أن يصعد على الكرسي في أيام عاشورا لتلقي الخلع والطوايق بعد إنشاده أشعار الرثاء ، لانه كان يرى ان مركزه وقابلياته لا تتناسب مع هذه الكراسي والخلع ، ولكنه كان يقرأ التعازي في الحسينيات الكبيرة وفي بيوت الوجهاءمن الناس .

أما الذين لم يشتركوا في السبايات ، فكانت تقام المآتم في بيوتهم ، حيث يقوم الملالي والشيوخ (الموامنة) بقراءة التعاوي والروزخونيات ، والروزخون هو الحافظ والقارىء الخاص للكتاب الذي أُلّف في بداية عهد الصفويين في إيران ،والمسمى (روضة الخالدين) ،وفيه تفاصيل فضائل أهل البيت والنكبات التي حلّت بهم . وقد أمر الحكام الصفويون بأن يُقرأ هذا الكتاب في كافة المساجد والجوامع ، حين قرروا نشر المذهب الجعفري بالقوة . وبالنظر الى الألفاظ الفارسية ، فقد أُبدلت كلمة الروضة وصارت (الروزة) ، وأُطلق على قارئها اسم (روزه آخوند) .

المقابر والمزارات

ليس لأهالي بغداد عادة دفن الأموات في بيوتهم ، كما هو الحال في مصر وبعض ضواحي حلب ، بل يكرن الدفن في المقابر العامة ، إلا في حالات الضرورة القصوى ، مثل أيام الطاعون التي مرّت على بغداد ، إذ لم يكن باستطاعة أحد أن يذهب للمقابر لكي يدفن الأموات ، بل انهم دُفِنُوا في محل وفاتهم لكثرتهم . وفي أيام احتلال الصفويين دُفن كثير من الأموات بمقابر في جانب الكرخ والرصافة . وقد كُتب على شبابيكها مقبرة بنات الحسن ، وهي مضاءة بالشموع ومعلّق في شبابيكها خرق النذور .

وليس من المعقول ان يكون للحسن عليه السلام كل هذا الإرث من البنات ، ولكن خوفاً من نبش القبور ، كما هي عادة الإيرانيين المحتلين ، كُتِبَ هذا العنوان عسى أن يمنعهم من نبش القبور ، ولم يسلم من النبش سوى مقابر الجوامع ، حيث دُفن فيها ضحايا الطاعون والهيضة ، ومنهم جدي ، حيث دُفن في جامع الشيخ صندل ، وكان هو الملا فيه ومات بالطاعون ودُفن حيث مات .

مقابر بغداد هي مقابر عامة عدا مَنْ يُسمح له بفرمان سلطاني أن يُدفن في جامع كبير معيَّن . ففي جامع الشيخ معروف والشيخ عبدالقادر الكيلاني ، والشيخ سراج الدين ، مدافن خاصة للشيوخ الصوفية الذين كانوا يقيمون فيه . وأكبر مقبرة في الكرخ هي مقبرة الشيخ معروف الكرخي . وفي الرصافة مقبرة الشيخ عمر ، ومقبرة الغزالي في باب الشيخ ، ويليها في السعة والأهمية مقبرة الشيخ جنيد في الكرخ ، ومقبرة الإمام الأعظم . ولم يكن مسموحاً لأحد أن يدفن في جامع الشيخ معروف ، أي في داخل الجامع ، إلا لبيت السويدي . فلهم بذلك فرمان من السلطان العثماني في اسطنبول .

أما حفّار قبور مقبرة الشيخ (معروف الدشغلي) ، هو المرحوم محمود الدشغلي ، الذي كان يعرف عن ظهر قلب كل الأموات ومحل دفنهم ، لذلك يكفي أن يصل الخبر الى محمود حتى يقوم بواجب الحفر وإحضار الحبال والطابوق والطين ،

ويبعث أحد مساعديه لاستقبال الجنازة وإعلامهم بمحل الدفن ، حيث يكون قبر الاب أو الجد أو الاعمام . وقد توارث هذا العمل أبناؤه بعد أن أعلمهم بكل شيء يعرفه عن عوائل بغداد المدفونين في الشيخ معروف . وهو لا يدفن ميت على جثة ميت آخر . وينتهي عمل الدشغلي بالدفن . أما بناء القبر الخارجي ، فله عماله الخاصون ، فإما ان يكون مبنياً بالطابوق ، وإما ان يكون ملطوشاً بالطين المخمّر بالتبن . والمرمرة التي يُكتب عليها اسم المتوفى وتاريخ وفاته جاهزة في دكاكين الخطاطين المنتشرة حول المقابر . ويتم الاتفاق على حجم المرمرة وما يُكتب عليها . ولكن العادة جرت ان يُكتب على قمة المرمر (هو الحيّ الباقي) ، أو يُكتب عليها ﴿ كلُّ مَنْ عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربِّكَ ذي الجلالِ والإكرام ﴾ . ولا بد أن يقف في ساحة الدفن الفقراء لقبض ما يستحقون من المبالغ التي توزع صدقة على روح المرحوم . وإذا كان المتوفى امرأة أو مريضاً فان الدشغلي يركِّز على الارض بجنب القبر سعفة صغيرة من النخيل . وكثيراً ما تشاهد تجاويف في الأرض ،وهي دليل على وجود القطط البرية المتوحشة التي تاكل الجثث ، وتسمى (إغريرية) ، وقد تُبنى الغرف الكبيرة ، إن كان المتوفى شاباً عزيزاً أو عريساً ، برغم انه لم يكن شيئاً محبباً .

أما دشغلي مقبرة الشيخ جنيد ، فكانت حكراً على عائلة القدسي ، إما بأفرادها ، أو بعمالها . وجرت العادة ان يُدفن في الشيخ جنيد كثير من العانيين الساكنين في الكرخ وقسم قليل من سكان الرصافة ، مثل عائلة كنة ، وقسم قليل من التكارتة في جانب الكرخ . ولم يكن متعارفاً أن يدفن أحد الكرخيين في جانب الرصافة ، ولكن سكان الرصافة يدفنون في جانب الكرخ . ومن أشهر المدفونين هو العلامة المرحوم محمود شكري الآلوسي ، الذي كان يسكن في محلة العاقولية . وفي الكرخ مقبرة أخرى بعيدة عن مركز الكرخ ، وهي مقبرة براثا (المنطگة) ، ويقال ان سيدنا علي كرّم الله وجهه ، قد صلى في هذه المنطگة ، لذلك ، فكان يدفن فيها الفقراء من الجعفرية الذين لا يستطيعون دفع تكاليف الدفن في النجف الاشرف ، أو لعدم إمكان نقل الموتى الى النجف لأسباب طارئة . وفي الكرخ مقبرة صغيرة جداً هي مقبرة (الحلاج) الصوفي المشهور ، وهي محصورة بين محلة الذهب وخطوط السكك الحديدية وبستان الارضروملي . كما توجد في الكرخ مقبرتان صغيرتان بين الشيخ معروف والشيخ جنيد ، واحدة للهنود السيخ ، حيث قبر (البابانانك) قديس السيخ . وقد كان خرباً مهدماً (أعيد الآن بناؤه مجدداً ومدّ اليه الماء والكهرباء) .

ثم مقبرة النبي يوشع اليهودي ، وكانت مزاراً أيضاً ويُدفن فيها المشهورون من اليهود ، إن لم يدفنوا في مقبرة اليهود بجانب مقبرة الغزالي . وقبر النبي يوشع ومقبرته كانت هي مثار النزاع بين الحكومة العثمانية واليهود ، ورئيس بلدية الكرخ عبدالله الزنبق ، الذي اعتدى عليه اليهود حين رفض دفن الحاخام (سوميخ) ، ووصل الأمر الى اسطنبول ولعبت الليرات الذهبية لعبها ، وإنتهى الإشكال أخيراً مع الاستغناء عن خدمات عبدالله الزنبق رئيس البلدية . وكان الحاخام الكبير سوميخ قد أوصى أن يُدفن في مقبرة النبي يوشع لقدسيتها عنده ، علماً بان اليهود في بغداد كانوا يدفنون موتاهم ليلًا وعلى ضوء المشاعل بمقبرتهم المجاورة لمقبرة الغزالي ، والتي صارت الآن (ساحة وكراج النهضة) . ويقال ان من خرافاتهم ان الدفن واجب ليلًا هو الخوف من التقاط بعض اليهود الذين نسي عزرائيل اداء واجبه تجاههم ، أو انه لم يَرَهُم نهاراً . وعلى الأكثر فان السبب في الدفن ليلًا كان الخوف من اعتداء الناس على الجنازة .

وفي الأعظمية مقبرة تجاور جامع الإمام الأعظم ، والدفن فيها قليل ، لأنها صغيرة المساحة ، وقد دُفن فيها المرحوم معروف الرصافي .والغريب ان هذه المقبرة لها ثلاثة من الدشغلية ، هم : سلمان رائد ، وصالح حوالة ، وعبدالستار أبو نعمان ، وكانوا يتنازعون في ما بينهم الى ان سيطر هادي أبو شفة على العمل وأصبح هو الدشغلي الوحيد .

ومقبرة الرصافة الكبيرة ، هي مقبرة الشيخ عمر يتوسطها جامع الصوفي الشهير الشيخ عمر السهروردي ، والثانية هي مقبرة الشيخ الغزالي الصوفي المتعبّد . وان طقوس الدفن واحدة ومتشابهة في جميع المقابر . وكان الدشغلية في مقبرة الغزالي هم عائلة البطاوية . وفي مقبرة الشيخ عمر بيت الحاج عبدالفتاح .وكانت في باب المعظم بجوار السجن المركزي مقبرة تسمى مقبرة الشهداء ، وكان يُدفن فيها الضباط والجنود من الشهداء ، أو من الساكنين في باب المعظم ومحلة السور ، وعلى الاخص ذوي الأصل التركي منهم والغرباء من الناس .

أما المسيحيون ، فيدفنون في الكنائس والاراضي التي تحيط بها ، بعد دفع مبالغ لا يستهان بها ، لذلك فان مشكلة الموت عند المسيحيين فيها جانب مالي علاوة على جانبها الاجتماعي ، ذلك ان صندوق الجنازة الخشبي ومصاريف نقله ومكافآت رجال الدين وأكاليل الورد وغيرها من المصاريف ، عدا أجرة أو ثمن الارض ،

كانت تثقل كاهل أهل الميت . وفي الرصافة مقبرتان للاجانب ، واحدة للإنكليز ، والاخرى للالمان . ففي معسكر الرشيد مقبرة الإنكليز الكبيرة . وفي الوزيرية مقبرة الالمان . أما المس بل المشهورة ، فقد دُفنت في الحديقة الملحقة بكنيسة الارمن في الباب الشرقي بالقرب من محطة بنزين البتاوين ، والتي كانت جزءاً من مدرسة الشرطة سابقاً .

ملاحظـــة :

إن لقب الدشغلي كان لقباً قديماً لعائلة في الكرخ تقوم بدفن الاموات . ولما كان لقب (حفار قبور) لقباً غير مستحَب ، فقد استعار الناس في جانب الرصافة وغيرها كلمة الدشغلي وأطلقوا هذا اللقب على كل مَنْ يمتهن هذه المهنة . وقد اختصت كل عائلة بمقبرة خاصة يتوارث أبناؤها وأحفادها هذا العمل .

أما المزارات فكثيرة ، وأهمها : مزار الإمام موسى الكاظم ، والجواد (ع) ، وأبو يوسف في الكاظمية . ثم مزار أبي حنيفة في الاعظمية ،ومزار الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، والشيخ عمر السهروردي ، والسيد ادريس في الكرادة ، والشيخ معروف الكرخي ، ومزار رابعة بنت شيخ جميل في الأعظمية ، والتي يقال خطأ انها رابعة العدوية ، ومزار سلمان پاك . وفي كل هذه المزارات قبور لكبار الأئمة وشيوخ الصوفية ، إلا مزار واحد ليس إماماً ولا شيخاً صوفياً ، بل قطعة من الحديد القديم كانت تساوي قدسية كثير من الشيوخ ، وهذا المزار هو (طوب أبو خزامة) المنصوب أمام باب القلعة من جهة محلة (البقچة) ،وكان هو والخرق المعلقة عليه والشموع الكثيرة والنساء الرائحات ، الغاديات مع أطفالهن ، حيث يدخلون رؤوسهم في فم الطوب . وهناك مزارات صغيرة أخرى ، مثل : مزار جامع القبلانية في سوق البزازين ، ومزار منصور الحلاج في الكرخ قرب الست زبيدة ، ومزار الأباريقي في محلة الفناهرة بالباب الشرقي .

كان يعلن عن الوفاة في منارة الجامع القريب من بيت المتوفى ، أو بواسطة إمام جامع المحلة أو الجامع الذي يصلي فيه المتوفى ، علاوة على عياط النساء في بيت المتوفى وبيوت الجيران اعلاناً عن ذلك . ثم يحضر الغسالون من الرجال والنساء مع أدوات التكفين الجاهزة والتابوت الذي كان يُباع عادة في باب الآغا عند النجارين المجاورين لرويال سينما . ثم يستدعى الدشغلي لإعلامهم بمحل دفن المتوفى . فالدشغلي يعرف محل دفن أفراد العائلة أكثر من معرفتهم هم ، ثم تُفرش

الطرق القريبة من الدربونة لجلوس المشيعين عليها . ثم يتقدم الشباب والرجال لحمل الجنازة من البيت ،وفي الباب وقبل الخروج تُرفع الجنازة وتخفض ثلاث مرات قبل أن تاخذ طريقها الى المقبرة بالسرعة الممكنة ، لان الإسراع بالدفن سنّة مقبولة . ويكون في المقبرة لاستقبال الجنازة أعداد من رواد (السابقة) . وهي ما يُوزَّع على الفقراء من أموال وطعام صدقة على روح الميت . وفي المقبرة تجهز الشاة للذبح وتسمى (عقيقة) ، إذا لم تكن قد ذُبحت في البيت أو تُذبح في اليوم الثالث ، ثم يجري الدفن مع قراءة الآيات الخاصة والتلقين . ويقف الناس في حلقة ليقدموا التعازي لأهل الميت . وآخر مَنْ يبقى هو موزِّع الصدقات النقدية على الفقراء أو المدعين بالفقر ليأخذوا نصيبهم من زكاة الميت .

أما عند النساء ، فتبدأ (الجاينة) ، إذا كان المتوفى شاباً أو شابة أو كهلًا عزيزاً .

فالچاينة ، لا تقام للعجزة والمعمرين . وتقف (العدَّادَة) وسط حلقة الچاينة ، حيث تكون الرؤوس مكشوفة والشَعْرُ منثوراً ، ويتم اللطم بصورة منتظمة ، وكأنه رقص ديني وتستمر ثلاثة أيام فقط . ويبدأ مجلس العزاء الاعتيادي وتُفرش الحصران والبُسُط والدواشگ وتُوزَّع السجاير (المزبن) والقهوة المُرة وليس الشاي ، فالشاي من لوازم الفرح والأنس . وكان واجباً على كل امرأة تدخل الى الچاينة أو عزاء النساء أن تعيط مرة أو مرتين ، وتقول : (يبو ، يبو) ، اعلاناً لدخولها . أما الطعام فيُطبخ عند الجيران ويتكون على الأكثر من المرق والتمن ، ولم يكن البذخ في الطعام معروفاً ، فليس من دجاج بأنواعه وسمك وكبة وحلويات وفاكهة .وينتهي عزاء النساء في اليوم السابع ، حيث يحضر الأقرباء كلهم في (يوم السبعة) . وتبقى ثيابهن سوداء اللون سنة كاملة حتى يُطْلَب اليهن (فك الحزن) . أما الرجال ، فيقام مجلس الفاتحة لمدة ثلاثة أيام صباحاً ومساءً مع قارىء للقرآن ، ويختم المجلس في اليوم الثالث مساءً ، حيث يوزع ماء الورد بالقماقم ، وهو دليل انتهاء الفاتحة . ويبقى الشَعْرُ طويلًا ويحلق إما في اليوم السابع أو الأربعين ، حيث يأخذ الأصدقاء أهل الميت الى الحمّام ثم الحلاق لقص شعرهم ، وتكون أجور الحلاقة والحمّام على حساب الأصدقاء . وفي اليوم الأربعين أيضاً توزع صدقة على روح الميت مقادير كبيرة من (الچرك) في المقبرة أو المحلة .

وبقدر ما كانت المقابر محلًا لذرف الدموع والبكاء في اليومين الأولين من العيد ،

كانت لنا نحن الصبيان الصغار تلك الأيام من أسعد أيامنا . ذلك اننا كنا في الملا مجبرين على حفظ سورة ياسين من القرآن الكريم ، وهي السورة التي تُقرأ على القبور . فبعد أن نقرأ سورة ياسين على قبور أهالينا يستدعينا بقية الناس الذين لا يعرفون قراءة هذه السورة ، فنقوم نحن بقراءتها لقاء بعض الهدايا من النقود أو الكليچة أو الحلويات . وهكذا كنا ننتقل من قبر الى آخر ، حيث نقرأ بعض الآيات من السورة وليس كلها لكي نصل ونقرأ على قبر آخر . وما ان يحل وقت الظهر حتى تكون جيوبنا قد امتلأت من الكليچة والحامض حلو والفلوس التي نركض لنصرفها رأساً على المراجيح أو دولاب الهوا أو ركوب الحمير . أما الكليچة فناكل قسماً ونخفي قسماً خوفاً من أهالينا الذين لا يرضون أن نقوم بهذا العمل الذي ينتهي في اليوم الثالث من العيد ، إذ يكف الناس عن الذهاب الى المقابر .



عباس بغدادي مع زوجته وأبنائه.

الصناعات والمعامل

لم تكن الصناعات والمعامل متوفرة في بغداد ، لأن التأخر شمل كافة نواحي الحياة ، بما فيها الحياة الصناعية ، وإذا أردنا أن نعد انتاج الطاقة الكهربائية صناعة أو معملًا ، فان معمل العباخانة لانتاج الكهرباء لمدينة بغداد يعد أول معمل في بغداد ، حيث أنشىء قبل الحرب العالمية الأولى بكثير ، ولكن في أيام العثمانيين ظهرت بعض الصناعات المتعلقة بالمكانيك ، مثل : خراطة الحديد الذي أنشاته شركة بيت لنج لادامة بواخرها وبواخر بيت الخضيري التي من جملتها البواخر المسماة (مجيدية) و(بغداد) و(زنوبة) و(البصرة) ، وغيرها من الماطورات . كذلك ظهرت عدة محلات تسمى محلات التورنچيَّة ، وهم الذين يقومون بادامة وتصليح المكائن الزراعية التي نُصبت على نهر دجلة والفرات ، وبقي الحال كذلك الى ان تأسس معمل الشالچيَّة الكبير (كان يسمى معمل السلچيَّة) ، لغرض خدمة السكك الحديدية . وكان معملًا كبيراً يقوم بكافة الخدمات المتوجبة للسكك ، مثل : الحدادة والخراطة والنجارة والكهربائيات والأصباغ وصب القوالب الكونكريتية وغيرها من الأمور الضرورية ، وكان يشرف عليه الإنكليز إشرافاً تاماً ، لأن السكك الحديدية كانت تابعة للإنكليز مباشرة وهي مُلك لهم قبل تحويل ملكيتها الى الحكومية العراقية بثمن اتفق عليه بموجب المعاهدة العراقية البريطانية ، وحيث أن السيارات قد كثرت في بغداد ، فقد ظهرت معامل صغيرة لتصليح السيارات ، وكان يسمى (كاراج) ، وأول كاراج كبير للتصليح مثل هذا كان كاراج (كوترل وكريك) ، مقابل قهوة الزهاوي في الطريق المؤدي الى مديرية الشرطة العامة سابقاً . ومن جملة الفيترچيَّة الذين اشتغلوا فيه حافظ القاضي . ثم قام بيت يوسف سعد بالاشتراك مع بيت كتانة ، وهما شركتان لبنانيتان بانشاء كاراج آخر للتصليح . وقد عدت هذه الكراجات معامل ، لانها تستخدم أكثر من ٢٥ عاملًا ، وما عدا معمل الثلج في الرصافة ، فقد أسست شركة عبد علي الهندي معمل ثلج آخر ومعمل للصودا والناملت في جانب الكرخ مقابل الشيخ معروف الكرخي ، وأنشىء كذلك معمل كبير

في الكرخ في محلة الشيخ جنيد ، وهو محلج القطن . وكان اسمه محلج قطن بغداد ، ويديره الاستعماري البريطاني المعروف (ايستن ايستود) . وفي شارع الشيخ عمر قرب مقبرة اليهود (ساحة النهضة) بعض المعامل الصغيرة التي تعود الى الفيترجيّة . وكان هؤلاء يعتبرون أصحاب حرف وليسوا من أصحاب المعامل الكبيرة . أما الطابوق ، فلم تكن لصناعته معامل ، بل كان يُصنع في الكُور . وكُور الطابوق أعمال فردية ، وهي موجودة في أطراف بغداد القريبة ، حيث يُنقل الطابوق منها الى بغداد على ظهور الحمير قبل استعمال السيارات . أما الطحين ، فكان يُطحن في المكائن العائدة الى الأفراد ، وكان بإمكان أي شخص أن ينصب ماكنة طحين في أي وقت وفي أي محل يشاء مثله مثل صناعة الاحذية ، حيث بامكان الاسطى المقتدر مالياً ، أو الغني أن يفتح مشغلاً لصنع القنادر . أو مشغلاً لصنع الحلويات ، أو الاعمال النحاسية ، مثل سوق الصفافير ، أو عدة جُوَم لحياكة العبي ، أو الازر ، أو الجراغد والفُوَط ، أو دباغة الجلود ، أو غسل الصوف وكبسه ، أو عمل الدبس في البزارات . وقد حاول ناجي الكفيشي أن ينشيء معملاً للشخاط بعد فضيحة المستر كروجر ملك الشخاط في السويد ، لكنه فشل في ذلك وترك العمل .

لقد كانت مشاغل الحياكة والنسيج توجد في الكاظمية ، وباب الشيخ على الاكثر . أما الدباغة وأعمال الصوف ، فكانت توجد في شارع الشيخ عمر ، أو قرب شريعة المصبغة بشارع المستنصر ، أو في الاعظمية بمحلة النصّة . وعلى هذا فان أكثر الصناعات في بغداد كانت عبارة عن مشاغل فردية تكبر وتصغر حسب قابلية صاحبها المالية أو الفنية .

أما السكاير ، فان أول مَنْ بدأ عملها كمشغل هو اللبناني السيد طبّارة واستأجر لمشغله بيتاً في محلة قنبر علي وصار يصنع السكاير والتتن الشعر ، واستخدم لذلك حوالي عشرين عاملاً . وبعد ان استقام مشغله ودرجت صناعته اتفق مع السيد عبود ، وظهرت شركة طبّارة وعبود ، لعمل السيكاير للوجود ، وأنشأوا معملهم بجوار البلاط الملكي مقابل شارع الزهاوي ، واستخدموا لذلك أكثر من خمسين عاملاً وجلبوا المكائن الحديثة لصنع السكاير وعمل العلب . ثم تبعهم الآخرون في إنشاء معامل للسكاير في الثلاثينات ، أحدهم في محلة المربعة في أحد أزقة شارع باب الشيخ ، والثاني قرب الباب الشرقي في محل سينما روكسي .

ثم أقدم المرحوم فتاح باشا ، وأنشأ معمل نسيج فتاح باشا في الكاظمية ،

وذلك في منتصف العشرينات ، وتخصص في نسيج القماش الصوفي والبطانيات ، وأخذ انتاج المعمل شهرة كبيرة جداً في أوروبا والشرق الاوسط ، وبالاخص (البطانيات) التي كان الناس يفضلونها على الأجنبية . فصناعتها كانت متقنة وصوفها خالصاً ، كما راجت كثيراً الاقمشة الصوفية المختلفة ، الصيفية والربيعية والشتوية ، خصوصاً عندما تسلَّم إدارة المعمل ولده البكر المرحوم نوري فتاح ، وتمكن بنشاطه الفكري وأخلاقه العالية من كسب الناس والأسواق ، وهو ما أوجب توسيع المعمل وتحديث المكائن وتحسين الانتاج . ولم يشترك معه أخواه سليمان ومحمود . فقد ذهب سليمان الى اسطنبول وأقام فيها يشتغل في تجارة العقار ، أما محمود ، فبرغم كونه مهندساً ، إلا انه كان فاشلًا في أعماله واعتكف من غير عمل يُذكر . وبعد نجاح معمل فتاح باشا واتصال العراقيين الزائد بالخارج ، توسع النشاط الاقتصادي واستوردت معامل كثيرة مختلفة ، لدرجة ان بعض اليهود استوردوا معملًا لاستخراج الراشي والشيرج من السمسم ، لأن اليهود يستعملون الشيرج كثيراً ويفضلونه على كافة الدهونات . وجُلبت مكائن جرش الشلب وتهبيشه ونُصبت في الكرخ بشارع الشيخ معروف ، كما جُلبت مكائن الطحين ومعامله ، كما جُلبت معامل الطابوق الميكانيكي ، وانتشرت المعامل الميكانيكية الصغيرة ، ونشطت الشركات المستوردة البريطانية الموجودة في بغداد . مثل : بيت لنج ، وبيت ستريك ، وفاولر ، وكذلك بيت بحوشي ، وبيت مشعل ، وغيرهم كثيرون . وكان من أكبر المشاغل الأهلية مشغل أسطى بشير قرب محطة باب الشيخ ، حيث يستخدم حوالي أربعين عاملًا متخصصين بأشغال المضخات الزراعية . ثم مشغل محمد صالح القزاز رئيس جمعية أصحاب الصنائع ، صاحب الخصومة الشديدة مع وزير الداخلية في حينه مزاحم الباجهجي ، الذي نفاه الى مدينة عانة وعيَّن محله السامرائي . وكان مشغل محمد صالح يستخدم نحو ٣٠ عاملًا ، هذا عدا عن مشغل السيد خليل والسيد اسماعيل أشقاء المرحوم ابراهيم شندل مدير الاطفاء .

وفي أواخر العشرينات تأسس محلج القطن العراقي في العيواضية ، وأسهم فيه العراقيون ، خصوصاً جماعة ابراهيم عطا باشي ، وثابت عبدالنور ، تحدياً لمحلج بغداد ومزاحمة له ولمديره إيستن ايستود . أما بقية المعامل ، فقد تأسست في أوائل الثلاثينات (ليس موضوع بحثنا هنا) ، ومن جملة هذه المعامل لغرض التذكير : معمل طابوق عبدالهادي وقد سمي عبدالهادي أبو الطابوق ، ومعمل طابوق سودا ي

الاسمر اللون ، وقد بنيت به كثير من بيوت اليهود في محلة البتاوين ، ومعمل طابوق الحجي وشاش ، ثم معمل كاشي السيد طه ، وسميَ أيضاً طه أبو الكاشي ، ثم معمل طحين الدامرچي ، ومعمل عيسى الحجي خليل العاني ، ومعمل عبدالهادي الچلبي ، ومعمل أحذية قمبر آغا ، ومعمل الحجي ياسين الخضيري لاشغال الصوف ، ومعمل تقطير المسيّح في الكرادة الشرقية في محلة سيد ادريس .

ولا بد من ذكر بعض الصناعات اليدوية الرائجة في تلك الايام ، ومن جملتها أعمال الخوص والمشربيات المفخورة ، واشتهر بصنعها سكان محلة الفناهرة وعمل التخوت والكراسي والأقفاص من جريد النخل . وكان مركز عملها في شريعة جامع القمرية ، وشريعة السيد سلطان علي ، لأن جريد النخل يجب أن يُنقع في الماء أياماً عديدة قبل صنعه ليكسب القوة والديمومة . واختصت هاتان الشريعتان أيضاً بعمل أجسام الزوراق النهرية (البلام) والقفف أيضاً . أما عمل أجسام الماطورات البخارية الصغيرة والجنائب ، فكان مركز صنعها في شريعة المسبح بعرصات الهندية ، أو في شريعة الجادرية . أما أعمال سوق الصفافير ، فلا حاجة لبحثها ، لأنها مشهورة ومعروفة لدى الجميع ، ولكن أعمال الفضة وصياغتها كانت مركّزة في شارع المستنصر عند الصابئة الذين اختصوا بهذا العمل ومهروا فيه . ولا بد للزائر أن يشتري شيئاً من صنعهم من الفضة المطعّمة بالمينا . والصابئة يتركزون في أعمالهم وسكنهم قرب النهر ، حيث كانوا يسكنون في محلة الكريمات في الكرخ قرب السفارة البريطانية ، وذلك لسهولة اداء فرائضهم الدينية المرتبطة بماء النهر . وكان رئيسهم في العشرينات هو الشيخ عنيسي الفياض ، وقد كان متحرراً حتى انه أجبر أخاه الصغير سعيد فياض ، وكان تلميذاً معي في الصف بالثانوية المركزية ، على دخول المدرسة العسكرية وتخرج منها ضابطاً ملازماً ، برغم معارضة شيوخ الطائفة .

ولا بد من ذكر معمل السجون الذي أُنشيء في بداية الثلاثينات لتشغيل المساجين بالاعمال اليدوية داخل السجن خلال مدة محكومياتهم وبأجور تُدفع لهم يقبضون مجموعها عند خروجهم من السجن ، وعندهم مهنة وشيء من المال . واشتمل تدريبهم على أعمال كثيرة ، مثل : النجارة وتجليد الكتب وفي حياكة السجاد ، حيث جلبت الحكومة العراقية من إيران عاملين ماهرين لتعليمهم صناعة السجاد ، وتمكنوا بعدئذٍ من انتاج سجاد من الأنواع الجيدة جداً . ويباع في الحال الحاضر عندما يحتفظ بقطعة منه بأسعار عالية جداً .

لقد ساعدت مدرسة الصنايع الرسمية في الباب الشرقي على تخريج أسطوات مهرة في الاعمال ،كالنجارة والكهرباء والميكانيك وغيرها . وقد صار كثير منهم مدرسين للصناعات في المدارس أو فنيين في دوائر الدولة .

الصحافة

نُشر الكثير عن الصحافة العراقية ، وأُلّف كثير من الكتب عنها ، وذكروا أسماءها وأسماء أصحابها واتجاهاتها بصورة مفصلة ، ولست في صدد تعدادها أو تصحيح ما جاء في بعضها ، ولكني أريد أن أذكر ما لبعض الصحف من التأثيرات الاجتماعية أو الادبية ، أو التي هزت ضمير وإحساس المجتمع البغدادي ، فكانت الصحف المعارضة هي الوحيدة التي يهتم بها البغداديون ، لأنها تدغدغ أحلامهم وأمانيهم في الاستقلال ومقاومة الأجنبي المحتل . لذلك لم يكن الناس يقرأون جرائد (الأوقات البغدادية) ، أو جريدة (العراق) ، أو (المفيد) ، وهي التي كانت تمالىء البريطانيين وتنقل كل ما يرد اليها من برقيات وكالات الأنباء العالمية ، والتي كانت مقتصرة على وكالتين ، هما رويتر الإنكليزية وهافاس الفرنسية . ولكن جريدة (الاستقلال) لعبدالغفور البدري ، وجريدة (دجلة) لداوود السعدي ، وجريدة (البدائع) لداوود العجيل ، وجريدة سليمان الدخيل ، كانت تُقرأ وتُطلب ، لأنها كانت معارضة للحكم البريطاني والحكم المحلي . أما مقالات ابراهيم صالح شكر ، فكانت تهز المجتمع البغدادي ، وكذلك جريدة (الشعب) لسان حال حزب الشعب ، ياسين الهاشمي وجماعته ، ثم جريدة (الامة) ، وجريدة الحزب الوطني ، وهي جرائد واسعة الانتشار كبيرة التأثير . وبعد ان اتحد الحزبان وشكل حزب الإخاء الوطني صدرت جريدة (الإخاء) ، وكانت معارضة وهي خارج الحكم . أما إذا تسلّم الحزب الحكم فتصبح لسان الحكومة . والجرائد الاخرى معارضة . أما جريدة (التقدم) ، التي أصدرها حزب التقدم ، وهو حزب عبدالمحسن السعدون وقبله جعفر العسكري ، فكانت حكومية ، ولكنها سرعان ما انهارت وانهار معها الحزب بعد انتحار السعدون على اثر المشادة بينه وبين النائب معروف جياووك في مقر نادي التقدم الذي كان محله في السنك مجاور لأوتيل سميراميس ، ولكنها مع ذلك تقوم بنشر الحوادث المهمة التي لا يمكن تجاهلها ، مثل : قدوم الدكتور عبدالرحمن الشهبندر الى بغداد والاحتفاء به وتكريمه والخطب والقصائد التي أُلقيت في جامع الحيدرخانة تكريماً

له ، وخصوصاً الشاعر البائس المرحوم كمال نصرت ، فكانت موضع الاهتمام . كذلك الحال يوم جاء فيلسوف الفريكة أمين الريحاني الى بغداد ، والفريكة هي قرية لبنانية مسقط رأس أمين الريحاني . والاحتفالات التي أقيمت احتفاءً به . وخصوصاً قصيدة المرحوم الرصافي التي مطلعها :

(إن العـــراق بعُـرْضِـهِ وبـرافـديـه وبـاسـقـاتِ نخيلـه)

ثم مجيء المستشرق الفرنسي الشهير (ماسينيون) والقائه محاضرتين في رويال سينما . ثم مجيء أحمد أمين وجماعة العلماء من مصر والاحتفاء بهم . كل هذه المواضيع كانت الصحف معارضة أو مؤيدة مجبرة على الاهتمام بأخبارهم ونشرها تفصيلًا أو مختصراً . والغريب ان وفاة الملك حسين ملك الحجاز الذي كان منفياً في قبرص لم تأخذ أي اهتمام في الصحف ولم يشعر الناس بوفاته بعكس الدعاية التي بثت له المبايعة خليفة على المسلمين في أوائل العشرينات وتوزيع صوره بالعمامة البيضاء مع المناشير الداعية لذلك .

وكان الشباب البغدادي مهتماً بالصحف والمجلات المصرية اهتماماً ملحوظاً . ففي أبوابها ومواضيعها وصورها ما يشفي غليل الشباب المحروم من أمثالها في بغداد . وكانت أهم المجلات التي نترقب وصولها مجلة (الهلال) الأدبية العامة ، ومجلة (المقتطف) ، التي كانت تعد علمية ، لأن أكثر مواضيعها تدور حول العلوم وتقدمها ، ومع ذلك فكانت مطلوبة ،لأنها كانت تنشر مسلسلات عن رحلات المستكشفين لمجاهل أفريقيا والقطب الشمالي والقطب الجنوبي ، وهي أخبار تثير المشاعر عندنا ، وخصوصاً أخبار المغامرين ستانلي واموندسين وشاكلتون . أما (الهلال) ، فكانت تنشر المسلسلات عن ثورة الريف وعبدالكريم الريفي ، وعن ثورة عمر المختار والسنوسي ، واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ، ومقابر الملوك ، ولعنة الفراعنة ، وموت المكتشف اللورد كارنافون بلسعة صغيرة داخل المقبرة ، وفيها أخبار وصور عن غاندي وصومه الطويل ، ومقاطعة الملح ، وعن ماكسويل الزعيم الإيرلندي واضرابه عن الطعام ووفاته ، وعن الفوضويين في العالم وقنابلهم .

أما المجلات المصورة ، فكنا ننتظرها بشوق ولهفة ، وأهمها (اللطائف المصورة) لصاحبها اسكندر مكاريوس ، رئيس الماسونية في القاهرة ، ومجلة (المصور) ، خصوصاً بعد وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ ، إذ كنا نعده زعيماً وطنياً كبيراً ، وكانت هذه المجلات تنشر بالتفصيل مواكب التشييع وحفلات التأبين ، كما

كانت تنشر تفاصيل اغتيال السردار (لي ستاك باشا) ، سردار الجيش المصري ، أي القائد العام وصور المتهمين الثمانية والحكم عليهم بالاعدام ، عدا واحد هو عبدالحميد عناية ، إذ أبدل حكم اعدامه الى الاشغال الشاقة ، لان حكم الاعدام قد نفذ بأخيه عبدالفتاح عناية . كما كانت تنشر تفاصيل الانذار البريطاني لحكومة مصر ودفع نصف مليون پاوند تعويضاً للقتيل ، وقدوم الاسطول البريطاني ، حيث احتل الاسكندرية والكمرك . وهناك مطاليب بريطانية كثيرة من المصريين . واضطرت الحكومة المصرية الى الاستقالة وجاء الدستوريون الى الحكم برئاسة محمد محمود باشا ، بعد زيور باشا ، والتهبت معارضة حزب الوفد ، وأصدرت الممثلة فاطمة اليوسف جريدة (روز اليوسف) ، وهي تهاجم الوزارة بشدة . ثم أصدر سليمان فوزي مجلة (الكشكول) يهاجم فيها الوفد . أذكر هذه التفاصيل ، لاننا كنا نتسلى بهذه المعارك الصحفية ونتعلّم أشياء كثيرة عن فضائح الحكم في مصر .

ثم بدأت جريدة (السياسة) المصرية تنشر مقالات متسلسلة عن الكتاب الذي ألّفه الدكتور حسين هيكل عن حياة محمد ، مع تسجيل كامل لمحاكمة قاتل (شيكوريل) أغنى أغنياء مصر وصاحب محلات شيكوريل المشهورة . وهكذا نصرف جميع ما عندنا من نقود على هذه المجلات والجرائد ، بشكل لا عقلاني ، ثم انتهى الأمر بأن توحدت كل الاتجاهات في بغداد وصارت تصب في مجرى واحد ، حين أصدر المرحوم أحمد حسن الزيات مجلة (الرسالة) في أوائل الثلاثينات واستقطبت جميع المتعلمين والقارئين في بغداد .

وبمناسبة الحديث عن المجلات والصحف أتطرق الى الكتب . فلم يكن في بغداد بيت خالٍ من الكتاب ، وكانت البيوت تحوي الكتب التي تناسب سكانها ومداركهم ، فتجد من جملة ما تجد دواوين الأشعار ، سواء للقدماء أو المحدثين ، وكتب التاريخ والسير . ولا بد من الكتب التراثية ، مثل كتاب الأغاني ، والعقد الفريد ، وكتب الجاحظ ، والطبري ، والمسعودي ، وابن الأثير ، وكتاب الكشكول ، وسياحة ابن بطوطة ، أو مقاتل الطالبيين ، أو الكتب الحديثة ، مثل كتب شكيب أرسلان ، وخيرالدين الزركلي ، وسلامة موسى ، ومحمد فريد حديد . وأحسن الكتب ما كان مطبوعاً في مطبعة بولاق ، أو مطبعة الفجالة ، أو عيسى البابي الحلبي ، وأخيراً مطبعة دار الكتب المصرية الحكومية . أما نحن الشباب ، فأهم ما نقتنيه ونعتز به هو كتاب العبرات والنظرات ، تأليف مصطفى لطفي المنفلوطي ، وكتاب مجنون ليلى،

وكليلة ودمنة ، والبؤساء ، وغادة الكاميليا ، أو المسلسلات البوليسية ، مثل مسلسل جونسون وميلتون توب ، ومسلسل طرزان ، وروبنسون كروزو ، أو أهوال الاستبداد ، وأخيراً الكتب المصورة للحوادث القريبة ، مثل كتاب ثورة الدروز وسلطان باشا الأطرش ، والثورة السورية ، وبطولات حسن الخراط وأحمد مريود ، ونسيب البكري ، وجميل مردم ، وغيرهم من أبطال الثورة السورية ، أو شهداء ايار الذين أعدمهم جمال باشا السفاح في ساحة البرج في بيروت ، أو ساحة المرجة في دمشق مع صورهم وتاريخ حياتهم ، أو مذكرات القادري العراقي عن حروب العراق ، علماً بأن المطابع العراقية كانت قليلة النشاط بالنسبة الى المطابع المصرية ، أو المطبعة اليسوعية (الجزويت) في بيروت . كما ان بيع الكتب في بغداد كان محدوداً ، إذ لا توجد سوى بضع مكتبات في سوق السراي ، وهي : المكتبة العربية ، والمكتبة العصرية ، ومكتبة الحيدري ، ومكتبة زاهد وعبدالكريم خضر فقط . وهناك مكتبة واحدة للكتب الإنكليزية ، وهي مكتبة (مكنزي) في شارع الرشيد خلف بيت لنج . وقد أفتتحت أخيراً مكتبة لتوزيع الكتب الدينية المسيحية لغرض التبشير وسميت المكتبة الإنجيلية ، وتقع في شارع الرشيد قرب مدخل شارع باب الشيخ ، ولكنها أغلقت بعد مدة لفشلها في ترويج مطبوعاتها .

لقد شجعنا على قراءة الكتب بمختلف أنواعها ، بعد أولياء أمورنا ، قسم من المعلمين ، أذكر منهم : عزالدين عَلَم الدين التنوخي ، وهو من أبرز أمراء الدروز وابن عم نجيب عَلَم الدين ، وكذلك الأستاذ درويش المقدادي ، وعبدلله المشنوق ، وعبدالعزيز الشواف ، ومحمد بهجت الأثري ، وحافظ جميل ، وابراهيم حيدر وهو ابن عم رستم حيدر مرافق الملك فيصل الدائم ، ووزير المالية أخيراً ، الذي قتله حسين فوزي في مكتبه بالوزارة أواخر الثلاثينات .

شارع الرشيد

قبل الدخول في الموضوع أحب أن أوضح ان خليل باشا حاكم بغداد وقائد الجيش العثماني ، حين قام بتوسيع وتعديل الطريق العام ، الممتد من الباب الشرقي الى باب المعظم وجعله شارعاً بأسم (خليل باشا جادەسي) ، لم يستحضر خارطة بغداد والمهندسين ويأمرهم بفتح شارع على وفق الهندسة والاستقامات ، ولكن القناصل الاجانب الذين كانوا ساكنين في الباب الشرقي على نهر دجلة وكبار القوم من محلة باب الشيخ ، كانوا يترددون على السرايا بالعربات عن هذا الطريق ، لذلك فان خليل باشا ، إنما قام بتوسيع الطريق وتعديل استقامته على قدر المستطاع ، وذلك لاسباب حربية وتسهيل حركة الجيش العثماني وعرباته ، فتم العمل في هذه الجادة بصورة مستعجلة إرتجالية ، لانه كان يصطدم بمعارضة العلماء ورجال الدين عند ظهور عقبة تتعلق ببروز أحد الجوامع على الطريق ، كما يصطدم بأملاك المتنفذين والأجانب المشمولين بالحماية على وفق الامتيازات الأجنبية . ولقلة المال المتوفر للاستملاك ، لذلك وجب حصول الانحناءات في الشارع تبعاً لهذه العراقيل . وبدأ بتهديم أملاك الفقراء والغائبين ، ومَنْ لا وارث لهم ، وأصبح الطريق ممهداً واسعاً تسلك فيه وسائط النقل بسهولة وسمي (خليل باشا جادەسي) . وكانت اللوحة المعدنية المؤشرة على ذلك معلقة على جدار جامع السيد سلطان علي الى ما بعد الخمسينات من هذا القرن ، وسمي هذا الطريق عند أهل بغداد بأسم (الجادة العمومية) ، ثم سمي (الشارع العام) ، وأخيراً عندما اجتمعت لجنة تسمية الشوارع والمحلات في بغداد ، أُطلق عليه اسم (شارع الرشيد) . وبقيت الانحناءات والنتوءات في الشارع على حالها ، إلا في حالة نقل رفات إمام طه (تمثال الرصافي) ليلاً وبصورة سرية الى سلمان باك ، حين كان أرشد العمري أميناً للعاصمة . وكذلك حين تهديم الحائط المائل من جامع مرجان بمواجهة البنك المركزي والبارز في داخل الشارع بحجة انه مائل الى الإنهدام وأرجع الى الخلف بضعة أمتار ، وبهذا توسع الشارع نوعاً ما .

ولمعرفة ما في شارع الرشيد في العشرينات ، نبدأ جولتنا فيه من باب المعظم الى الباب الشرقي . ونبدأ من الطاق الكبير المرتفع الى أكثر من عشرة أمتار وفيه الباب الحديدي الكبير لمدخل بغداد من هذه الجهة ، وعلى جانبيه بابان صغيران تحت الطاق المقوس لمرور السابلة . وفي خارج هذه الباب الصغيرة يجلس (دزدبانية) الضرائب ،ويقع جامع الأزبكية في أول الطريق العام ، ثم جدار القلعة وبابها المفتوح دائماً (وزارة الدفاع) . وبالمناسبة فانه قد سميَ جامع الأزبكية بمنارته القصيرة ، لأن أفراد شعب الأوزبكستان يتجمعون فيه مع دواليبهم ، حيث كانوا يمتهنون حد السكاكين ، وفي بغداد يسمونهم (الچراخين) ، وكانوا قد جاءوا مع الجيش العثماني عند فتح بغداد . وكانت ساحة القلعة ملعباً لكرة القدم ، وعلى جهة النهر السجن القديم والذي يسمى (سجن القلعة) ، ومحله الآن هو وزارة الدفاع (المقر) . كما كانت ساحة القلعة الواسعة محل استعراض كشافة المدارس الابتدائية . وحدث في هذه الساحة وبحضور الملك فيصل الأول والوزراء ان دخلت جاموسة هائجة من باب القلعة في الميدان وأثارت الفوضى والاضطراب الى ان تمكنت الشرطة من قتل الجاموسة وحكم على صاحبها بالحبس ، لأنه لم يتخذ الاحتياط اللازم ، وكانت العادة ان تُربط في ساق الجاموسة الأمامية المشتبه بها عصاً كبيرة تعوقها عن الحركة الزائدة أو الركض .

ثم تأتي مدرسة المأمونية ، بعد سلسلة من المقاهي الشتوية والصيفية في السطوح . وقد سجل الملك فيصل نفسه معلماً في المدرسة المأمونية ، وقد سميت بهذا الاسم ، لأن الاعتقاد كان سائداً ان البناء العباسي في القلعة كان إيواناً لقصر المأمون ، وقام الملك فيصل أيضاً بتسجيل ولي العهد غازي تلميذاً في هذه المدرسة ، وكانت له من الكشافة فرقة خاصة سميت فرقة الأمير غازي وانتخب أفرادها من الطلاب النابهين أولاد العوائل المعروفة ، وآخر مَنْ رأيت من الأحياء الأصدقاء المرحومين ظاهر حبيب ، وناظم سلمان الحمامي . وخلف المدرسة المأمونية يربض طوب (أبو خزامة) مع شموعه والخرق البالية فيه . ثم ساحة الميدان ، وقهوة خليفة التي تحتل نصف الشارع مقابل حديقة الميدان الصغيرة وسياجها الحديدي المسمى (القفص) . وكلمة القفص تعني الشتيمة ، لأن مَنْ يقترب من القفص أو يدور حوله يُتهم بالشذوذ الجنسي ، أو سوء السلوك على أقل تقدير . فالشتيمة الموجعة كانت أن يقال عنه (قفصلي ، أو ابن القفص) .

أما الجهة اليسرى من الشارع ، فكانت تبدأ بالبيت الذي ذكرنا انه احتوى على دائرة عسكرية وبعده ساحة لوقوف الدواب ولبيعها ، وقد شيد في محلها محطة بنزين بأسم محطة بنزين باب المعظم ، وهي الآن المكتبة المركزية العامة وبعدها ساحة تضم التكية الطالبانية ، وكان يديرها المرحوم علي الطالباني ، الذي حقق وطبع الديوان الشعري لجده الشيخ رضا الطالباني أشهر شاعر في القرن التاسع عشر باللغة العربية والتركية والكردية واشتهر بقسوة الهجاء . وبعد التكية ياتي خان (عَلْو) المشهور . وهو مركز العرباين والعربنچيّة ، ثم جامع المرادية ، وخلف الجامع يقع الزقاق المؤدي الى دربونة ومحلة رأس الكنيسة التي تعتبر أقدم كنيسة في بغداد . ثم مدخل طريق الصابونچيّة وعلى ناصيته البيت الفخم للوجيه الموصلي اسماعيل الحجي خالد ، الذي تركه في الثلاثينات ، لأنه لم يستطع العيش والسكن في الميدان ، المحلة التي تحتوي على محلات الشرب والدعارة . ثم نستمر في جولتنا بعد قهوة خليفة ، وقهوة البلدية ، فنصل الى سوق الميدان الكبير ، فأوتيل الهلال ، الذي تغني فيه بدرية السواس وجماعتها ، والذى غنَّت فيه أُم كلثوم أيضاً ، وبعده ياتي سوق الهرج الكبير ، مجمع اللصوص والمحتالين والمعدمين الراغبين في بيع ما عندهم أو شراء ما يحتاجون اليه من البضائع الحرام أو الحلال . وعلى رأس السوق ، وعلى الطريق العام مباشرة بيت عبدالحليم الحافاتي ، عدو الملك فيصل (لأنه لم ينتفع منه) ، ثم الشارع المؤدي الى حمّام الباشا ، وكراج (كوترل وكريك) . ثم قهوة أمين التي سميت قهوة الزهاوي ، ثم شناشيل أحمد القيماقچي أبو الدكتور احسان القيماقچي وغرفة استقباله المطلة على شارع الرشيد ، وكان مع أصدقائه وجيرانه يتناولون الناس بالغمز واللمز . ثم دكان (زبالة) أبو الدندرمة . ثم قهوة حسن عجمي ، ثم مدرسة شماش اليهودية ، ثم دكان الحلبي الحجي خيرو (برمبوز) أول مَنْ صنع شربت اللوز في بغداد ، ثم مطعم شمس ، ثم ديواخانة بيت رؤوف الچادرچي التي استأجرها حزب الإخاء الوطني مقراً له ، ثم الطريق المؤدي الى أمانة العاصمة ، وفي أوله يقع المعهد العلمي الذي كان يهيىء الجرائد للقراءة المجانية نهاراً ، وفي السماء ينقلب الى معهد لتدريس أصول التجارة ومسك الدفاتر . وفي الناحية الأخرى من الطريق كانت مدرسة الصوفية التي يرتادها جميل صدقي الزهاوي ، بعد ان يكون خادمه قد ربط حمارته الحساوية البيضاء المسرجة والملجمة جوار المعهد العلمي ، ويبقى في الجامع مدة ساعتين ، ثم ينصرف الى

حمارته يركبها بمساعدة خادمه ورجلاه تتدليان ويقدميه الكالة الإيرانية الحريرية البيضاء ، وبعدها شارع الاكمكخانة (المتنبي) ، والاكمك باللغة التركية تعني الخبز . وفي آخر هذا الشارع ومقابل قهوة الشابندر ، كان الفرن الكبير لصنع صمون العسكر في زمن العثمانيين ، لذلك سمي جادة الاكمكخانة . وعلى رأس هذا الشارع مخزن ومحل اسطوانات حوريش وابن عمهم مغني المقام العراقي يوسف حوريش . وعلى الركن الآخر من الشارع خرائب مسقفة بالگواني (الاكياس) ، وفيها كان بيت زماوي بائعة الكبة ، وأم جهاد بائعة خبز باب الآغا المشهور ، والذي يُضرب به المثل ، وقد عميت أم جهاد أخيراً واستلم جهاد الامر من بعدها ، ولكن خبز جهاد لم يكن مثل خبز أُمه ، فقد تغير الحال ، ثم عميَ جهاد ، كما عميت أمه من قبل . ثم يأتي بعدها حمّام كچو ، وبقالو باب الآغا ، وعبدو السوري الدمشقي ، أول مَنْ جاء بغداد لعمل الدندرمة السورية ، ثم رئيس البقالين في باب الآغا (جبارة أبو قنبورة) ، وذلك قبل ان يتولى أولاد الحجي أحمد گنو ، عبود وسلمان ، ورزوقي وعمهم مهدي گنو أبو صالح ، ومجيد زعامة سوق باب الآغا ، وقد هدمت هذه الدكاكين وأقيم محلها البنك اللبناني المتحد . وعلى زاوية الشارع أرض خراب اشتراها عبدالله مبارك الصباح زوج الشاعرة سعاد الصباح ، كما اشترى بيت عبدالهادي أبو الطابوق في طريق الأعظمية ، والذي صار دار سكن المرحوم عبدالحميد عريم . والى جهة اليسار من شارع الرشيد ، وابتداءً من بيت اسماعيل الحجي خالد توجد سينما العراق ، وهو مهمل لا يدخله إلا رواد محلة الميدان . ثم دربونة المبغى العام أو الكلْچيّة أو الكرخانة أو العمومخانة ، وكلها أسماء لهذا المحل . وكانت الحكومة قد أغلقت مدخله من الشارع العام وفتحته من الخلف ، والى أواسط العشرينات كان الاعلان المكتوب على الجدار الخارجي باللغة العربية والإنكليزية والهندية لم يزل ظاهراً . والطريف ان الاعلان بالعربية جاء فيه : (ممنوع الخشوش من هنانا) . ثم تأتي قهوة عارف آغا ، ثم جامع الحيدرخانة ، ثم دربونة الخشالات ، ثم سوق باب الآغا أبو الخضراوات ، ثم بائع الهريسة والسويكة ، ثم مدخل العاقولية ، ثم إمام طه الذي نقل أرشد العمري أمين العاصمة رفاته ليلًا الى سلمان پاك ، ثم ساحة الرصافي التي حلّت محله ، ثم قهوة فتاح وبعدها مباشرة دربونة الدشتي التي يسكن فيها آل گنو ، البقالون منهم وغير البقالين . ودربونة الدشتي هي الدربونة الوحيدة في هذه المنطقة التي ينظُم فيها موكب عزاء عاشورا (السباية) برئاسة عبود گنو وإدارة علوان مدرع

الشاعر الشعبي ، وكان مركز تجوالها نفس الدربونة مع الذهاب الى مدخل سوق الصفافير ، ثم ترجع الى محلة الإمام طه ، ثم في الأزقة التي تسمى الآن (عقد الجام) ، ثم تعود الى الدشتي وتتفرق ، ثم يأتي حمّام (پنجه علي) ، ويكاد يختص بأهالي وعمال سوق الصفافير والشورجة وسوق البزازين ، ثم خان فتح الله عبود ، ثم مدخل سوق الشورجة ، ثم جامع مرجان الذي كان جداره متصلاً بالشارع مباشرة ، وقامت الحكومة بهدمه بحجة انه مائل للإنهدام وكان مائلاً فعلاً وقيل ان البلدية سربت الماء الى الأساسيات ، فجعلته يميل ، ثم هدم وأرجع الجدار الجديد عدة أمتار الى الوراء ، فاصبح الشارع أكثر عرضاً وجعلت له رصيفاً واسعاً تجاه البنك المركزي العراقي . ولقد كانت المناوشات مستمرة بين الحكومة وأمانة العاصمة حول جامع مرجان الذي يدخل كالقوس في الشارع وحاولت تهديمه عدة مرات ، لولا وقوف مديرية الآثار العامة والعلماء والمثقفين في بغداد ضد هذه الفكرة . ومن الطريف ان أحد أمناء العاصمة عقد مؤتمراً صحفياً في قاعة الامانة وقال (اني أستغرب هذا الاهتمام الشديد بجامع عتيق خرب وأنا مستعد أن أبني مكانه بعد تهديمه جامعاً أكبر وأفخر ، فلماذا هذا الإلحاح والتمسك به ؟) . وهكذا فقد طلعم الجرائد في اليوم الثاني تشيد بذكاء هذا الأمين وثقافته وتمسكه بالمحافظة على التراث أكثر من تمسك (المس بل) التي رفضت تهديم جامع مرجان ، لانه أثر ثقافي تاريخي ، ومع هذا فقد أنعمت عليه الحكومة بأن نقلته الى وظيفة مهمة كبيرة أخرى في الدولة .

وبعد جامع مرجان تأتي بنايات ودكاكين حتى رأس القرية ، حيث المكتب التجاري الكبير لشركة عبد علي الهندي المستورد وصاحب معامل الثلج والصودا والنامليت والسيفون ، وتستمر الدكاكين والخرائب الى طريق العبخانة ، وكان على ناصيته الخياط الهندي (جي اس. فارما) الخياط الخاص للملك فيصل الأول وبعد طريق العبخانة وهو الشارع العرضاني الوحيد الواسع ، ثم السينما الوطني ، ثم شارع الميكانيك والمضخات الزراعية وموقف السيارات الذاهبة الى الصويرة ، وبعدها شركة عدس لبيع سيارات فورد ، ثم قهوة ابن ملا حمادي ، ثم شارع باب الشيخ ، ثم عدة بساتين صارت الآن محلة السنك ، ونصل الى حديقة الألعاب الرياضية التي أنشأها المصارع الخطاط المرحوم صبري بالتعاون مع المصارع يعقوب ، وكان الاشتراك الشهري في هذه الساحة ربية واحدة ، كنا أنا وصديقي وابن صفي المرحوم ناظم الطبقچلي من المشتركين فيها . ثم شركة دخان (لوكس ملوكي) ، التي كان يملكها

جماعة من الارمن . ثم الزقاق المؤدي الى شركة كتانة وشركة يوسف سعد ، ثم مدرسة الصنايع ، فالكنيسة الإنكليزية وهي آخر بغداد من الجانب الايسر من شارع الرشيد .

أما الجانب الايمن ، ونحن قادمون من باب المعظم ، فبعد شارع الدنگچيّة يأتي رويال سينما ، ثم النجارون في باب الآغا ودكاكينهم الواسعة جداً ، طولاً وعرضاً ويختصون بعمل الكواريك للأطفال والتوابيت وكراسي حبوب الماء وخزانات الثياب من خشب الصناديق الاعتيادي وتسمى (المرفع) ، ثم الصناديق الخشبية الصغيرة والكراسي الواطئة ، ثم شركة عزرا مير حكّاك ، وأشهر ما تستورد هو الدراجات والگرامافونات . ثم كراج نقليات الحجي أحمد الشيخلي لنقل البضائع الى الكوت والعمارة وقد اقتطع من الساحة الكبرى التي يشغلها باقر الكبابچي ، ثم سوق الصفافير ، ثم دكان الحلاق كاظم ومعاونه عبود ، وهو أشهر الحلاقين في هذه المنطقة وليس فيها مَنْ يزاحم الحجي كاظم بكشيدته ولحيته المقرنصة وحياصته الحريرية ، وهو حلاق جميع الموجودين في سوق الصفافير والبزازين وما جاورهم ، وهو يفتح في الصباح الباكر ، ولا يغلق إلا بعد الظلام ، لأن الصفارين يبقون يشتغلون حتى المساء ، ويبقى ينتظرهم الى ان يغلقوا دكاكينهم . وبعده يأتي مكتب نقليات حييم نثانيل ، اليهودي الشهير والذي له فروع في سوريا ولبنان وأوروبا ، ويكاد يماثل شركة توماس كوك في نقليات البضائع ، وبعد ان ترك العراق استقر في بيروت على الميناء في آخر شارع اللنبي واشترك معه في العمل بالأيام الاخيرة بعض العرب والعراقيين (تحت العباء) . والمشهور عن مكتبه في بغداد انه وقف ذري ، ولكنه انقلب الى ملك صرف على طريقة (كل مَنْ يدعي حق التملك) ، وبعدها تأتي الساحة الكبيرة الواسعة التي تقابل جامع مرجان وفيها يتجمع الباعة ليبيعوا لليهود العائدين الى بيوتهم مساء كل ما يخطر على البال ، وأولها (الششه والخرّيط) . أما الششة ، فهي مجموعة نقل وحامض حلو وباقلا يابسة وحمص وحب شجر . أما الخريط ، فهو قطع صغيرة من الطين الاصفر الأخضر ، ويقال انه من قصب البردي ، وليس له طعم ولا رائحة ، ولكن اليهود يتزاحمون على شرائه ، ولا بد من سبب لذلك . وفي هذه الساحة نُصبت أول ماكنة سيفون والجنجر والصودا والنامليت ، وكان قبل ذلك يُباع جاهزاً بالقناني المغلقة بالكرات الزجاجية والتي يجب أن تكبس باليد لفتح البطل ، وكثيراً ما كانت القنينة تنفجر فيصاب الإنسان بالجروح البالغة . ومن نهاية هذه الساحة يبدأ شارع البنك بخان (الاورطمة) ، أي

خان مرجان على جهة اليمين ، وخان علي صائب الخضيري على جهة اليسار ، ثم صارت بعدئذ مكتب صيرفة ادوار عبودي و (بنكو دي روما) في الثلاثينات ، وهو الآن البنك المركزي وبنك الرافدين . ثم دربونة فيها خانات تجارية تسمى دربونة (النملة) وتتصل بشارع المستنصر (شارع النهر) ، ثم محل بيت مسيح لبيع العرق ، وبعده دربونة جامع الخاصكي ، وبعد الدربونة مباشرة فُتح أول محل في العراق لكي الملابس بالبخار ، وقد جلبه الأرمني (توماس ميمريان) وسمّاه مكوى توماس ميمريان ، وكان عجباً عند أهل بغداد ، وأجرة الكي ربية واحدة ، وهو مبلغ محترم جداً في تلك الأيام . ثم محل الدكتور سموئيل اداتو في آخر ساحة الغريري وبعدها تطل على الشارع البناية الضخمة لشركة بيت لنج للنقل النهري واستيراد المضخات المائية المشهورة (رستن والخنزيرة تان جي) ، والدخول الى مقر الشركة من الباب الخلفي في شارع النهر مقابل دكاكين الصابئة . أما على شارع الرشيد ، فكانت دكاكينهم مؤجرة وأشهر المستأجرين كان (مكنزي) صاحب المكتبة الإنكليزية المشهورة في بغداد ، والتي أوصى بعدوفاته ان تسلّم هبة الى مساعده في الدكان المرحوم جواد المعروف بكريم مكنزي وبجواره الخياط البيروتي الشهير علي رضا . ثم تكية السيد البدوي وحديقتها ، وبعدها سنترال سينما الذي جرت فيه حفلة المصارعة المشهورة بين الهر گريمر الالماني والمصارع العراقي الحجي عباس الديك بتحكيم المرحوم أكرم فهمي والتي انتصر فيها العراقي حجي عباس ، وقد احترق هذا السينما مؤخراً وشيد مكانه سوق عبود ، وبعدها الزقاق المؤدي الى بيت الزئبق والپاچچي ، والتي اشتملت على المصورين أرشاك وعبوش ، وكازينو شريف وحداد ، وهما عبدالله شريف واسماعيل حداد ، اللذين كانا موظفين في كمرك بغداد وعملا سوية في هذا الكازينو . ثم يأتي بعدها على الشارع أوتيل مود (قبل أن ينتقل الى الكرخ) . وكان يديره المرحوم محمود النعماني وطباخه الإيطالي كوستا ، وتم أنشيء بدل هذا الاوتيل وما جاوره من العقارات أسواقاً ومحلات تجارية ومنها المصور (الدرادو) . ثم تأتي مباشرة الأرض الواسعة التي اتخذت كراجاً ومحلًا لتصليح وإدامة سيارات شركة نيرن وانقلبت مؤخراً الى بناية شركة أوروزديباك حتى ساحل نهر دجلة ، وبجوارها مباشرة جامع السيد سلطان علي ، وهو مركز رواد الطريقة الرفاعية ومقر عميدهم الشيخ ابراهيم الراوي ، ثم الطريق الى شريعة السيد سلطان علي ، وهي من أهم شرائع بغداد سعةً وازدحاماً ، ثم محلة الجنابيين . وعلى

شارع الرشيد كان دكان الإيراني البهائي الذي يبيع أحسن أنواع الفستق والبندق واللوز وبقية المكسرات . ثم دكاكين الارمن الذين يبيعون البسطرمة والكيك واللبن الرائب ، ثم البيت الكبير العائد للوجيه الارمني البغدادي القديم سركيسيان والذي اتخذ محلًا للمشروبات وللرقص كملهى ، وفيه أتهمت الفنانة المشهورة التي كانت تستأجر البيت وهي (صبيحة كسرى) بقتل إحدى الفنانات ، حين رمتها من السطح العالي الى الارض ، وقد برأتها المحكمة من هذه التهمة . وكان المعروف عن صبيحة كسرى (أم أكرم) شقاوتها ومراجلها وجمالها . ثم قصر النقيب الكبير على دجلة مباشرة ، ثم دار المقيم البريطاني الذي اتخذ محلًا لكمرك بغداد بعد انتقاله من دربونة الدخانية في سوق الصفافير . وكان مديره الإنكليزي المستر (مونك) ، وهو المشهور بعملية تهريبه موظفي الكمرك بواسطة الزوارق النهرية ، ذلك ان أكثر موظفي الكمرك كانوا يستدينون من المرابين النقود على أساس دفعها عند قبض الراتب . وتجمّع المرابون الدائنون في باب الدائرة بانتظار نهاية الدوام وملاقاة الموظفين المديونين لقبض بعض الديون ي وصادف ان كان حلول عيد الفطر . وحين علم المستر مونك بهذا التجمّع وأسبابه ، ورآه رؤية العين اتصل بالسلطات المسؤولة وأرسلوا له زورقين بخاريين من شريعة السيد سلطان علي وأركب فيها الموظفين وبعثهم الى بيوتهم قبل انتهاء الدوام وحرم الدائنين من قبض ديونهم لذلك الشهر . وبعده بستان الوقف الكبيرة التي بني فيها فندق السندباد وفندق سميراميس ، ثم عدة بساتين أتخذت مقهى كبير استأجرها (هوبي) ، وكان يغني فيها رشيد القندرجي ، وفي ركن منها مخزن لبيع الخشب . وبني في نهاية البساتين البيت الكبير لمناحيم دانيال ، الذي سكنه الملك فيصل الاول على اثر غرق البلاط سنة ١٩٢٦ . ثم القصر الذي كان يقيم فيه القنصل البريطاني ، ثم قائد القوات البريطانية . وقد بقي المدفعان وسارية العَلَم البريطاني المرفوع حتى الثلاثينات من هذا القرن ، ثم أتخذ مقرآ لوزارة الاقتصاد مدة طويلة . ثم القصور العائدة لعبدالقادر الخضيري ، والحجي ياسين الخضيري ، ثم قصر الباجهجي ، وهو نهاية شارع الرشيد ، حيث الكنيسة الإنكليكانية (الإنكليزية) .

والآن وقد انتهينا من جغرافية وتاريخ شارع الرشيد ، فنقول انه لم يكن يسمى شارع الرشيد ، بل سميَ أولًا خليل باشا جادەسي ، ثم سمي الجادة العمومية ، ثم الشارع العام ، وأخيراً اجتمعت اللجنة التاريخية الادبية لوضع أسماء الجادات ،

فاطلقت عليه اسم (شارع الرشيد) . كما أبدلت كل كلمات (الجادة) بآسم شارع ، مثل : (جادة الصالحية) ، و (جادة باب الشيخ) ، و (جادة علاوي الحلة) ، و (جادة الاكمكخانة) ، و (جادة السراي) ، وكلها صارت تسمى (شوارع) .
وكان شارع الرشيد مترباً غير مستوٍ ، إلا بضعة أمتار في منطقة الميدان ، فكان فيها بعض الطابوق المرصوف ، وكان الشارع منخفضاً في ساحة الميدان وأمام سوق الصفافير وجامع مرجان ورأس القرية ، لذلك كانت أشغال الحمالين أيام المطر رائجة في هذه المناطق لحمل الناس على الاكتاف لكي يعبر الشارع من جهة الى أخرى .
أما ازدحام العربات بأنواعها والحيوانات والسيارات ، فقد كان بالغاً ومزعجاً ، حيث كان هو المتنفس الوحيد لجانب الرصافة في بغداد ، وقد خصص للشارع بضعة أفراد من الشرطة تدربوا لتسهيل المرور في دورة خاصة فتحها (بريسكوت) مفتش الشرطة الاقدم لتهيئة شرطة مرور يساعدون الانضباط العسكري البريطاني (أم. بي) . وألبسوا الشرطة المذكورين في أذرعهم أكياس بيضاء مخططة بالأسود ، علامة على انهم مسؤولون عن النظام في الشارع . وفي أوائل العشرينات حصلت فوضى كبيرة في الشارع على اثر اعلان عن تبديل نظام السير من اليمين الى اليسار ، فقد كان السير سابقاً وفقاً للنظام البريطاني الذي يكون فيه مقود السيارة الى جهة اليمين ، كما هو متعامل الآن في أكثر أنحاء إنكلترا ، والبعض القليل من دول الكمنولث . وقامت شركة (كوترل وكريك) ، و (بيت يوسف سعد) ، و (الأسطى سلمان الميكانيك) (صار بعدئذ المسؤول عن ميكانيك سيارات الشفرولية) عند بيت لاوي ، والاسطى أحمد في الميدان بعملية نقل مقود السيارة من اليمين الى اليسار بنجاح غير كامل . أما الاضطراب ، فكان في العربات ، لان الخيل المعتادة في جهة اليمين من العربة ، لا تعرف كيف تتحرك وتسير إذا رُبطت على جهة اليسار ، وكذلك العكس . وحصلت المصادمات وسقطت الخيول في الشارع ، وبعد شهر أو أكثر استقام الحال واعتادت الخيول مرة ثانية على سحب العربة بسهولة ويسر . ولم يكن في شارع الرشيد شوارع فرعية ، إلا بعض الشوارع المؤدية الى نهر دجلة ، بل كانت هناك طرق مثل طريق الصابونچية في الميدان ، وطريق العباخانة في سيد سلطان علي وطريق باب الشيخ . وكانت المشكلة الكبرى تقع يومياً في الشارع أثناء عبور العربات على الجسور في أيام الفيضان ، حيث يكون مستوى الجسر أعلى من مستوى الشارع ، ولا يستطيع سائق العربة إيقاف الخيل

على مثل هذا المنحدر، حتى إذا استطاع وجذب اللجام بقوة، فان الخيل تتزحلق بسبب نعومة النعلجات تحت حوافرها، لذلك كان يحصل الاصطدام بالسيارات وبالناس، وذهبت ضحايا كثيرة آخرها قرب باب جامع الإمام الاعظم، حيث اصطدم (اوخ) العربة، وهي الخشبة الطويلة التي تربط الحصانين بالعربة بمؤخرة إحدى سيارات الباص الصغيرة وتهشم الزجاج الموجود بالجهة الخلفية من السيارة، حيث قُتِلَ صبيان ذبحاً بالزجاج وجُرح آخرون بالاوخ. وكانت المنطقة المحصورة بين باب الآغا ورأس القرية أكثر المناطق ازدحاماً بالناس والكدش والعربات والحمير المحملة بالبضائع والرقي والبطيخ من شريعة المحكمة، أو شريعة الجسر، لانها هي قلب المنطقة التجارية في بغداد. وقد حاولت الحكومة مؤخراً اصلاح الحال ومنع العربات والحمير من المرور في الشارع، ولكنها لم تفلح، وآخرها الامر الذي أصدره أرشد العمري، أمين العاصمة بأن على سواق الحمير والكدش بأن لا يقودوا أكثر من ثلاثة دواب في آن واحد، فإزدادت المشكلة تعقيداً بكثرة السوّاق ومعاركهم.

ثم بدأ بعد منتصف العشرينات مشروع تبليط شارع الرشيد، أيام كان (نشأت السنوي) أميناً للعاصمة، وبدأ التبليط بالتعديل أولاً، ثم فرش الرمل والحصو الناعم، ثم المشبك الحديدي (بي. آر. سي.)، ثم التبليط باليد وبالشيش الخشبي المدهون بالنفط الاسود، كي لا يلتصق بالجير، واستمر التبليط أشهر طويلة، وكان من ضحايا التبليط أمين العاصمة نفسه، حيث نُقل من منصبه الى محل آخر. وما ان انتهى التبليط حتى أصبح شارع الرشيد المتنزه الامثل لأهالي بغداد، وخصوصاً سكان الكرخ، والسعيد منهم مَنْ يحصل وقت العصر على محل خالٍ في تخت أحد القهاوي المشرفةعلى الشارع، ليتفرج على الرائحين والغادين من الناس الذين لا هَمَّ لهم سوى التفرج بعضهم على بعض، أو انتظار مرور عربات الغانيات من الميدان الى الباب الشرقي في عربات مكشوفة وهنَّ سافرات، ومن الطبيعي أن لا تخرج غانية منهن إلا إذا كانت ذات جمال، واشتهرت منهن (زهرة عجم)، التي قد تكون إيرانية من نسل بقايا عجم محمد الذي سيطر على بغداد في أيام العثمانيين هو وأمه واخواته الراقصات المغنيات، واشتهرت كذلك سليمة باشا، وصبيحة كسرى، وخديجة بيدي. وكانت الحكومة قد أصدرت أمراً يقضي بأن تلبس الغانيات ثياباً وعباءات وجواريب لونها أزرق غامق تميزاً لهن عن باقي النساء، كما أمرت أن يجلس خادمها بجانب العرينچي، وأن يلبس عرقچيناً أصفر اللون. واستمر

الحال أكثر من سنة وهن بهذا الزي حتى زال تدريجياً .

وبدأ الناس يعمرون أملاكهم الواقعة على الشارع ، إما بشكل مقاهٍ أو دكاكين أو مخازن (مغازات) ، أما في الاعياد أو في المراسيم الملكية أو في قدوم زائر أجنبي ، فليس من السهل أن يجد الإنسان موضع قدم ، إذ تكون بغداد باجمعها وسكان الالوية قد تجمعت في الشارع . أما التاكسيات فلم تبدأ العمل إلا في منتصف العشرينات ، وأول مَنْ بدأها سيارات الفيات الصغيرة ، ثم كثرت بعدئذ وزادت الشكوى من ضيق الشارع وعدم استيعابه لوسائط النقل ، ففتحت الحكومة مؤخراً شارع (غازي) الكفاح ، وشارع الأمين العرضاني للعبور من والى الكرخ ، وشارع العباخانة ، بعد ان هدمت البناية المقابلة لجسر مود تماماً والتي كان يشغلها بائع العرق الشهير يعقوب طيارة وبجانبه محل حافظ القاضي ، وقد اصطدمت مراراً العربات القادمة من الكرخ على جسر مود بدكاكينهم وبالزبائن ، ثم بلطت الحكومة شارع الميكانيك مقابل جامع السيد سلطان علي ، وشارع باب الشيخ ، والشارع المؤدي الى محطة قطار بعقوبة ، فخفَّ الضغط على شارع الرشيد بصورة نسبية . وحدثت المشكلة الكبيرة ، حين فتح شارع غازي ، ذلك ان أمين العاصمة أرشد العمري (وذلك في الثلاثينات من هذا القرن) ، قرر أن يكون شارع غازي واسعاً من ساحة قنبر علي حتى ساحة الصدرية . أما الجانبان الآخران ، فقد بقيا ضيقين ، بينما أصر المهندسون الذين أُستخدموا لهذا الغرض ان يكون الشارع عريضاً ذا ممرين من بدايته حتى نهايته تحسباً للمستقبل ، وأصر أمين العاصمة على رأيه ، وقال في مؤتمر صحفي : ان أهالي بغداد صاروا طماعين يريدون أن يقبضوا عن عقاراتهم المستهلكة مبالغ قد تصل الى مائة ألف دينار لكل طرف من الشارع ، وهو مبلغ باهظ لست مستعداً لادائه . وكان عنيداً بطبعه واستقال المهندسون احتجاجاً على هذا العناد الذي لا لزوم له وبرهنوا له انه سوف ما تقبضه الأمانة من بيع أملاكها على الرصيف يسدد مبالغ الاستملاك وأكثر ، وترك المهندسون العراق ، كما تركوا عنق الزجاجة في نهاية الشارع حتى اليوم . أما الباصات ، فلم تبدأ عملها إلا في نهاية العشرينات ، وقد بدأت بالباصات الكبيرة التي عُملت أبدانها في بغداد ، وكانت أجرة الراكب من باب المعظم الى الباب الشرقي آنة واحدة ، وصارت أربعة فلوس بالعملة العراقية الجديدة ، وكانت تعمل بين الباب الشرقي وباب المعظم فقط . وفي الثلاثينات ظهرت الباصات الصغيرة واشتغلت بين بغداد والكرادة والأعظمية ،

وبالرغم من فتح شارع غازي ، فقد بقي شارع الرشيد هو المتنفس الوحيد لبغداد ومركز نشاطها ومظاهراتها وهوساتها ومواكب العزاء والمسرات فيها . وكثرت السيارات في أواخر العشرينات ، وبقي نظام المرور غير مرتَّب ، وكانت السيارات تسير على وفق هواها والمنبهات والابواق و (الطواطات) المربوطة على جهة السائق تزعج الناس والعطل الدائم للسيارات والخيل الجانحة للعربات ، لذلك فقد صدرت أنظمة وتعليمات الى شرطة المرور في الشارع ، وكانت مؤلفة من مفوض شرطة وبضعة أفراد . وفي الثلاثينات صدر نظام المرور ، وزاد أفراد الشرطة وعيّن معاون مدير شرطة مرور لادارتها ، ونيطت بها أيضاً مهمة التصديق على متانة وسلامة اللوريات التي تنقل البضائع والركاب الى خارج العراق ، وبدأ امتحان سواق السيارات لاعطائهم الإجازة القانونية ، وكان الاختبار يجري في الزقاق الواقع خلف جامع السراي ، وقد اجتزت الامتحان في هذا الزقاق في سنة ١٩٣٢ ، إذ كانت عندي سيارة موريس رقمها ٣١٥ بغداد ، وأنا تلميذ في كلية الحقوق . أما السرعة داخل المدينة ، فممنوع أن تتجاوز ١٥ كيلومتر . أما خارج المدينة ، فتكون ٢٥ كيلومتر ، وكان معدل هذه السرعة في ذلك الوقت عالياً . ثم انتشرت شركات استيراد السيارات ، فكانت شركة شفيق عدس تستورد الفورد ، وشركة كتانة تستورد الدوج والبلايموث ، ويوسف سعد للبكارد والهدسن والناش ، وبيت لاوي للشفروليه وأخواتها ، وبيت داود ساسون للسيارات الإنكليزية موريس وأوستن وفنكارد وغيرها . أما السيارات الألمانية ، فكان يستوردها جورج عبديني ، وبالمناسبة فان رقم واحد بغداد كان للسيد حاج سليم ، مدير الشرطة العام الاسبق ، ورقم ٢ لجورج عبديني ، ورقم ٣ لعلي جودت ، ورقم ٤ لنشاة السنوي ، و ٥ لفخري الطبقچلي ، و ٦ جميل المدفعي ، و ٧ شهاب الدين الكيلاني ، و ٨ جلال بابان ، و ٩ رشيد عالي الكيلاني ، و ١٠ حسام الدين جمعة ، و١٢ تاجي السويدي ، و ١٤ انطوان شماس ، و ١٥ عبدالمنعم الخضيري ، و ١٧ رؤوف الجيبهچي ، و ١٨ ناجي شوكت ، و ٢٠ نوري السعيد ، و ٢٢ رؤوف البحراني ، و ٢٣ عبدالمحسن شلاش ؛ ومن الصعب تعدادهم كلهم ، ولكن لغرض الاطلاع ، فكان رقم ٣٠ بغداد لجلال خالد ، و ٣٣ الدكتور مظفر الزهاوي ، و ٣٥ تحسين علي ، و ٤٠ اسكندر اصطيفان ، و ٤٤ ناجي الخضيري ، و ٤٧ صالح جبر ، و ٤٩ عبدالرزاق فتاح ، و ٥٨ محمود صبحي الدفتري ، و ٥٩ توفيق السويدي ، و ٦٦ علوان حسين ، و ٧٠ السيد محمد الصدر ، و ٧٩ جميل

عبدالوهاب ، و ٩٠ ابراهيم كمال ، و ١٠٠ عبدالحليم السنوي ، و ١٢٠ عارف السويدي ، و ٣٠٠ عبدالهادي الدامرجي . أما في خارج لواء بغداد ، فلم يكن للمرور سوى مفوض شرطة واحدة في البصرة وآخر في خانقين ، والثالث في النجف ، ثم في كرنوك ، ثم في الموصل ، وكان رسم تسجيل السيارة ورسم إجازة السوق عشر ربيات ، أما رسوم العربات ، فهي نصف رسوم السيارات ، أما الدراجات الهوائية والبخارية ، فلم تكن تدفع الرسوم .

أما الشوارع العرضانية على شارع الرشيد ، فكانت أربعة ، ولم تكن تسمى شوارع ، بل تسمى جادات ، فأولهما جادة حمّام الباشا (خالد بن الوليد) ، ثم جادة الأكمكخانة (المتنبي) ، ثم جادة الدنگچيّة (المأمون) ، ثم جادة البنك (السموأل) . وكان شارع الدنگچيّة أكثر الشوارع إزدحاماً ، فهو طريق العبور من والى الكرخ ، فمجرد العبور الى جانب الرصافة تجد جامع الآصفية ومنارته ذات الحوضين . وكان المرحوم عبدالجليل جميل والد الشاعر حافظ جميل مدرساً فيه . ثم يبدأ سوق المولاخانة ، ودكان جبن حسون أبو الجبن وعسله وخام الاستشهاد المعلق في دكانه . (كانا هو ومكي الأشتري الحلاق يلبسان كفناً في المظاهرات لانهما يريدان الاستشهاد في سبيل الوطن) ، وقبالته دكان كباب المولاخانة ، ثم مطعم الحجي رضا بروجردي المزين بالمرايا ، ثم دكان الحجي سهيل مجهُز بائعي الأحذية والسراجين ، ثم خان الجبن ، وعلى الكرسي بباب الخان ترى المرحوم الأثري والد العالِم الأديب السيد بهجت الأثري أو شقيقه المرحوم عبدالقادر . ثم جامع العادلية الصغير على رأس دربونة الدخانية ، حيث خانات التتن وكمرك بغداد ، وبعد هذه الدربونة قهوة باقر ، حيث كانت تقف السيارات الذاهبة الى سوريا ، وبعدها دكان الأسطى ناصر مركُب الأسنان ، ثم دربونة الحزب الوطني الضيقة جداً ، حيث الخطب والاجتماعات وهتافات الحاج محمود رامز ، وسعيد الحاج ثابت ، وابراهيم عطار باشي المعارضين لكل حكومة تتشكل ، وعلى شارع الدنگچيّة هذا دكان الحلاق الوطني الشهير مكي الأشتر ، رفيق النضال واستشهاد حسون أبو الجبن ، حيث يلتقي دائماً عبدالأمير الناهض الكرخي ، ثم طبيب العيون الدكتور عبدالرحمن المفيد ، وصيدلية سامي سعدالدين ، ثم طبيب العيون والأبدان سامي سليمان (هكذا كتب على اللوحة) ، وفي الجهة المقابلة كان المتحف العراقي ، ووزارة المعارف التي احتلت بعض مباني المتحف ، حيث جرت المظاهرة ضد الوزارة في

قضية الأستاذ النصولي . أما الشارع الثاني المتفرع من شارع الرشيد الى نهر دجلة . فهو شارع البنك (السموأل) ، وهو مركز تجار بغداد وفيه مقاهي التجار وشريعة المراكب العائدة الى بيت الخضيري ، وبيت اللنج (شريعة المصبغة) . وكانت البنوك جميعها في هذا الشارع ، وهي بنك الإيسترن ، والبنك العثماني ، والبنك الشاهنشاهي ، وبنك زلخا ، وصيرفة إدوارد عبودي الذي أفلس أخيراً بصورة إحتيالية ، وفي أواخر الثلاثينات ، بدأ بنكو دي روما ، وكان محله على ناصية الشارع في المُلك الذي كان محلًا لتجارة علي صائب الخضيري ابن عبدالقادر باشا الخضيري ، وأذكر اني قد رافقت (الهر غروبه) وزير ألمانية المفوض في بغداد عند قدومه بعد ثورة مايس ، وكان عن طريق كركوك ـ انجانه ـ الخالص ، وأوصلته هو والوفد الى بيت المرحوم رشيد عالي الكيلاني في الصليخ ، وكان مع الوفد الإيطالي المرافق للوزير المذكور عشرون كيساً من الليرات الذهبية لإسناد (بنكو دي روما) . وقد أرجعوه معهم حين مغادرتهم بغداد حال انتهاء ثورة مايس ، وكان الشارع المذكور محطة لوقوف السيارات الذاهبة الى الكوت والعمارة وتقف على باب خان (الأورطمة) ـ خان مرجان ، كما كان ممر الكدش والعربات اليرشقة التي تنقل الأموال من دائرة الكمرك في المستنصرية من الجنائب القادمة من البصرة . وفي هذا الشارع قهاوي التجار ، مثل قهوة موشي ، وقهوة القيصرية ، التي كان يغني فيها المرحوم رشيد القندرچي ، علاوة على قارىء (القصخون) ، وقهوة السيد محمد رضا ، وقهوة الشط الفوقانية والتحتانية .

التبريد والتدفئة

كان التبريد والتدفئة يتم بطريقة بدائية بسيطة ، فمراوح الخوص ، أي المهافيف اليدوية ، شائعة الاستعمال لرخص ثمنها وتوفرها ، إذ تُصنع محلياً ، وأكثر الناس مهارة في صنعها هم سكان محلة الفناهرة من باب الشرقي خلف قهوة شكر مع مهارتهم في صنع المكانس وبقية أعمال الخوص . واستعملت المهافيف السقفية للمحلات العامة أو التجارية أو الحكومية أو البيوت الكبيرة ذات الخدم . ويختلف حجمها نسبة الى المساحة التي تتمكن المروحة من نشر هوائها فيها وعلى ساحب المروحة ، إما أن يجلس داخل المحل المراد تهويته ، أو في الخارج ، بعد ان يمد خيط السحب الى خارج المحل من فتحة في الجدار أو الباب . ولا بد أن يكون قماش المروحة من النوع السميك ليتحمل تيارات الهواء ، أولًا ، ويتحمل ثقل الحصو الموجود في ذيل المروحة لضبط الموازنة وتناسق الثقل ثانياً . ولسحب المروحة أصول وقواعد ويحتاج الى مهارة وتمرين ، لجعل توافق قمة المروحة الثابتة في خشبتها مع قاعدتها من القماش . فالسحب السريع يمزقها والبطيء لا فائدة فيه . وفي بعض المحلات التي تبذل من المال ، أو بعض الدوائرالحكومية يستعملون شبابيك العاقول ويرشونه بالماء بين وقت وآخر ، مع الحرص ان يكون الشباك مواجهاً تيار الهواء الشمالي أو الغربي . وحين توفر الماء بالاسالة الحكومية مدت أنابيب المياه في قمة شباك العاقول مع عمل عدة ثقوب في الانبوب ليتساقط الماء باستمرار على العاقول . وبهذا يكون رطباً دائماً ، على أن يبدّل العاقول ، كل شهر أو شهرين ، لأن الماء الدائم يجعل رائحته عفنة . وفي البيوت كان السرداب ، الواسطة الوحيدة للتبريد نهاراً . والسطح في الصيف ليلًا ، حيث يُرش ويبقى السطح بارداً طيلة الليل . وتُستعمل سلال الخوص الكبيرة غطاء لما تبقى من العشاء الى اليوم الثاني ، حيث يؤكل (البايت) ، وخصوصاً البامية البايتة والمحبوبة عند أكثر الناس ، ويوضع الماء في التنگ الطينية الخضراوية التي توضع على التيغة ليبردها الهواء وتُغطى بغطاء من الخوص أو بقماش خفيف من الململ ، منعاً من وقوع

الحشرات فيها . وفي النهار فان الحِبّ و (البواكة) تحته كفيلان بتبريد الماء ، خصوصاً إذا كان الحِبّ بعيداً عن الشمس . لكن الاغنياء كانوا يشترون الثلج ، الذي يباع بالوزن ، وباقي الناس لا يذوقون الثلج إلا في شهر رمضان ، حين يسمعون البائع ينادي (الليلة وَغْزة يا ثلج بوظ) ، وبوظ كلمة تركية معناها ثلج . وكان بائعو الثلج يغلفون قوالبه بالتبن كي لا يذوب سريعاً . وكنا في شهر رمضان نذهب الى محلة خضر الياس ، حيث ناخذ المياه الباردة من بئر في أحد البيوت ويسمى (ماء النبعة) ، وأعذب الابار كان مجاوراً لبيت الخوجة في خضر الياس . وقبل توفر الكهرباء ، تمكن الصنّاع العراقيون من صنع مراوح تُدار باليد بواسطة صندوق حديدي صغير يحتوي على (ديشليات) تحرك ريش المروحة بسرعة . وانتشرت هذه المراوح أولًا بسوق الصفافير ، حيث يجلس الصناع الصغار على الكراسي ويديرون هذه المراوح لتبريد أساتذتهم .

ثم انتشرت في البيوت وصار يصنعها معمل عبد علي الهندي . وبانتشار الكهرباء وتوفر المراوح الكهربائية الإنكليزية الأرضية والسقفية ، بطل عمل هذه المراوح وأُستعيض عنها بالكهربائية .

أما صناديق الثلج الخشبية ، فقد بدأ أستعمالها في الثلاثينات ، وصار يُحفظ فيها المأكولات والفواكه بعضها فوق بعض بدون جوارير . والمدمنون على الشراب في الليل اخترعوا طريقة للتبريد ، بأن يوضع قدح المشروب داخل (كَرُوزَة) من الطين فيها ماء . وحين مرور الهواء بالكروزة يبرد الماء ، وهذا بدوره يبرّد المشروب ، وهي طريقة ناجحة جداً وصحية . فالتبريد طبيعي وليس صناعياً .

أما التدفئة ، فتتم داخل البيوت بواسطة المناقل التي يُستعمل لاجلها ثلاثة أنواع من الفحم ، أولها فحم الكراجي المستورد من الهند من مدينة كراچي في باكستان الآن . ثم صار يُصنع في شمال العراق . والثاني ، فحم الشوك . وتخصص بصنعه سكان محلة الفحامة بجانب الكرخ ، وقد سُميت المحلة بأسمهم ، وأجوده هو الأسود اللون الكبير الحجم . أما غير الأسود ، ففيه دخان كثير حين الاشتعال ، لذلك ، فهو غير مرغوب فيه . والنوع الثالث ، هو تراب الفحم ، أي الفحم الناعم الذي يوضع دائماً تحت فحم الكراچي ، لانه يبقى متوهجاً لمدة طويلة . وكلما حرّكته يظهر عليه التوهج ، ويسمى (مِلّة) ، ويخدر عليه الشاي عادة ، لأنّ ناره خفيفة . ثم هناك حطب الشوك . ففي كل بيت موقد لحطب الشوك والطرفاء ، حيث يجتمع أفراد

العائلة شتاء حول الموقد ، خصوصاً إذا كان فيه حطب طرفاء كبيراً ، أو حطب الجزل ، أو (الغضا) الذي يُجلب من منطقة الغضا بين هيت والرمادي ، كما ان الشوك يستعمل دائماً في التنور لعمل الخبز .

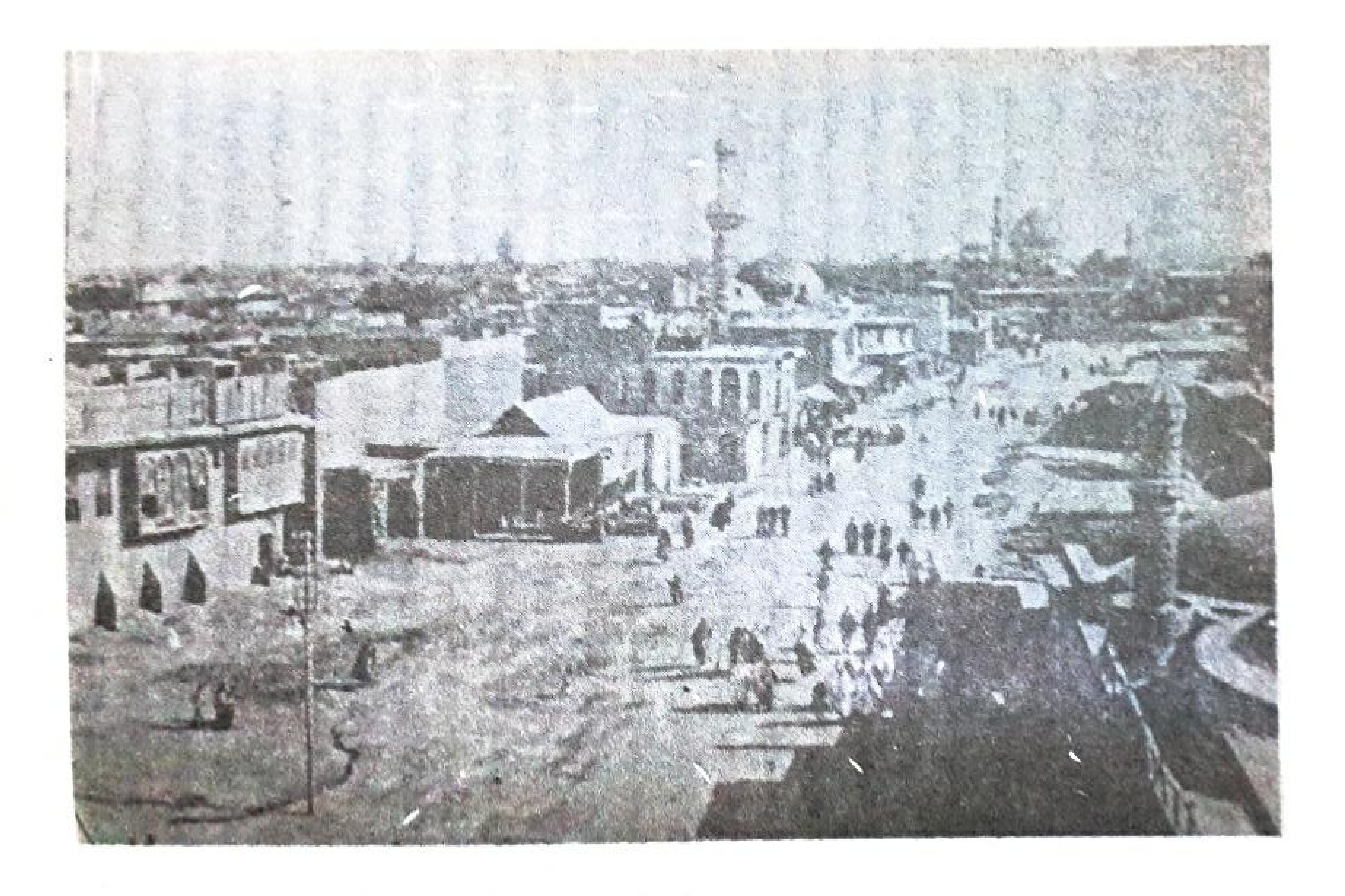
وفي الغرف فان اللحاف الاحمر المصنوع من الخام العوفي المصنوع في عانة ، هو وسيلة التدفئة للأطفال الذين يجتمعون تحت اللحاف يدفئهم تلاصقهم وتحركهم المستمر ، بسبب البراغيث التي كانت تمتص دماءهم ، وهذا طبعاً عدا عن الشفوف واللحف وغير ذلك من الأغطية الصوفية .

وعن الكانون ، وهو الموقد الإيراني ، فلم يكن شائع الاستعمال ، إلا عند بعض العوائل المتصلة بالأتراك أو الإيرانيين . والصوبات النفطية لم ترد الى العراق إلا بعد منتصف العشرينات ، ومن مستورديها الاوائل حسو إخوان ، وأوروزديباك ، وعزرا حكاك ومحمد تقي إيراني ، مع الإشارة ان سكان الكرخ لم يعتادوا في تلك السنين الصعبة على التسوق من هذه المخازن ، إلا في الثلاثينات وما بعدها .

الثياب والحذاء والحلاقة ، هو قراءتنا سورة ياسين التي لا بد من قراءتها على قبور الموتى ونقبض الإكراميات على هذه القراءة ونركض الى المراجيح ، ودواليب الهوا ، ونركب الحمير والكدش ، ونعبر الى جانب الرصافة ، حيث المراجيح فيالشيخ عمر ومقبرة الغزالي وفي محلة النصة بالسفينة بالاعظمية ، ومرقد السيد إدريس في الكرادة . وهناك عيد دورة السنة ، أي عيد النيروز ، وكنا نتساءل قبل حلوله على أي حيوان ستدور الأرض هذه السنة ، لان الأرض واقفة ، كما يقال في ذلك الوقت على قرن الثور . وفي كل سنة تدور على أحد الحيوانات ، حيث يقوم علم التنجيم بمعرفة أوضاع السنة القادمة ، مثل ما هو موجود الآن في المجلات تحت عنوان حظك هذا الاسبوع أو الشهر .

أما أعياد اليهود ، فهي كثيرة وأشهرها عيد الكبير (الكبور) الابيض ، وهو العيد المقدس ، ويسمى عيد الغفران ، وفيه تخرج التورات القديمة وتُقرأ الاناشيد مصحوبة بالرقص الديني ، ثم عيد العرازيل ، وهو تسعة أيام في أواخر أيلول ، وفيه تُنصب العرازيل ، أي المسقفات وتُعلّق الفواكه بانتظار أن تهطل بعض الأمطار ، وكانت تمطر بالفعل ، ولو قطرات قليلة ، وحين ذاك يغني اليهود (ربنا حبنا واعطانا مطر وقلب المسلم من جوه انفطر) . أما عيد المجلى ، فيقال فيه (طاب القعود في المحلة) ، أي ان الشتاء قد انتهى وطاب الخروج من البيت ، وفيه تُؤكل الشنشة ، وهي خليط من الموالح والسكريات والبقول اليابسة والخرّيط الأصفر لب القصب . أما في عيد الفطير ، فتؤكل الفطائر والخبز والبعابع غير مختمرة . ويقال في عيد الفطير (شيل جلالك وطير) .

أما أعياد المسيحيين ، فلم نكن نعرف عنها شيئاً ظاهراً احتفالياً ، إلا بعد الاحتلال البريطاني ، إذ رأينا الجنود يحتفلون بعيد الكريسمس ورأس السنة ، وكنا نخرج ليلة عيد الميلاد لنذهب الى الكنائس ، وخصوصاً كنيسة اللاتين ، وهي من أقدم كنائس بغداد للتفرج على الصلاة والقداس . أما ليلة عيد رأس السنة فنخرج الى شارع الرشيد ليلًا لنرى الجنود البريطانيين سكارى مغريدين في الشارع صابغين وجوههم بالألوان لابسين الملابس المختلفة المضحكة ماشين أو راكبين في العربات مع الغناء والرقص .



بغداد ١٩٢٠

بيوتنا ومعاشنا

كانت بيوتنا (الحديث عن الطبقة المتوسطة في الكرخ) ، ذات هندسة متشابهة ، فالباب الخشبي الكبير ذو الصفاقة الواحدة ترصعها المسامير الحديدية البغدادية ، والسقاطة المعدنية والدكة المرتفعة أو المنخفضة ، ثم المجاز ، وفيه دكة للجلوس والثرثرة مع الجيران ، أو اللعب مع أولاد الجيران ، أو لجلوس قارىء القرآن الأعمى وبصحبته الصبي الصغير الذي يقوده الى البيت . ثم غرفة الاستقبال أو غرفة المعيشة الشتوية ، وتسمى (أُورسي) المفروشة بالدواشگ والمخاديد على الأرض فوق الحصران والبُسُط والزوالي ، إذا وُجدت .

ثم ساحة البيت تتوسطه البالوعة . ثم الطرمة والرهرو أو الطرار ، وهو ساحة الأعمال . والتدفئة في الشتاء على نار الموقد بواسطة الشوك وفحم الشوك المحلي ، ثم السرداب ، أو (نيم سرداب) ، والتختهبوش الخشبي الذي يشرف على السرداب وهو للنوم وقت القيلولة صيفاً ، وفي إحدى زوايا البيت محل حبوب الماء والبواقات (البواگات) التي ينزل اليها الماء المقطر من الحِبّ للشرب ، وفي زاوية أخرى غير مرئية توجد الخلاء أو (بيت الماء) كما تسمى ، ثم البئر ، إن وُجدت .

وكان المطبخ بالجهة الأخرى من البيت مع غرفة للمنام أو الجلوس ، وغرفة كبيرة لمدخرات البيت من الأغذية وتسمى غرفة (المچيل) ، أي غرفة الكيل وفيها بساتيگ الدبس والطرشي والجبن الكردي ، أو الدهن الحُر وكوارات البرغل والحبية وجريش الحنطة وكيس التمن وكيس الجراد المسلوق المجفف وآنية الحمص والهرطمان والماش والعدس والكمأ المجفف والفاصوليا اليابسة مع الحبال التي يُنشر عليها الباذنجان والطماطة والبامية ، لكي تجف ، عدا عن معجون الطماطة المحفوظ في اليستوگة ، وكذلك عذوق التمر المعلقة بالبسامير وخصاف تمر الزهدي المسمى (كُرسي) والخستاوي المحفوظ في (الگيشة) ، وهي جلود الماعز من غير التمر اليابس الزهدي (الچِسِبْ) والأشرسي ، والبيدراية ، وإن كان عندهم أقارب

في البصرة ، فهناك تَنَكَة (صفيحة) من التمر البرحي المعسّل ، أي الممزوج بالسمسم وحبة الحلوة والغزنايج ، والخلال المطبوخ ، والجبن المظفور ، والكاري الهندي ، والروبيان اليابس .

أما المطبخ ، ففيه مواقد النار والقدور النحاسية على اختلاف أشكالها وأحجامها ، وكان أكبرها يسمى (القوشخانة) ، وهو لتسخين الماء لغسل الملابس والاستحمام ، ثم الطشوت على اختلاف أحجامها ، والصواني وعدد من الطاوات والچفاچير والچمچات ، والمواعين الفرفوري الاعتيادية التي تسمى (مشقاب) . أما الكبيرة منها المستطيلة فتسمى (البلم) ، والمدور منها العميق فتسمى (الألفي) . أما مواعين النحاس ، فالصغير منها يسمى (الطبشي) ، والكبير منها يسمى (قروانة) ، وهناك الإنجانات للعجين ولغسل التمن وتنقيعه قبل طبخه مساء ، إما بطريقة المصفي أو بطريقة (المطبگ) ، فالتمن لا يُطبخ عادة وقت الظهر ، بل وقت المساء ، لأن رب البيت يأتي مساء بعد أن ينهي أعماله . أما نهاراً فتؤكل المرقة مع الخبز . وفي المطبخ توجد مكينة اللحم والخواشيگ والسكاكين . والتختات والحطب اللازم للطبخ من نوع الطرفاء والغضا والجزل ، ويكون بعيداً عن الموقد حتى إذا توفرت البريمزات النفطية ذات العيون الثلاثة أو الأربعة في نهاية العشرينات ، انتهى استعمال الحطب للطبخ ، ولا بد لكل مطبخ من (سِمَايَة) في سقفه ، وهي فتحة للإضاءة ولتصريف الدخان ، ولا بأس ان يكون في البيت (تنور) للخبز ، إذا كان البيت واسعاً ، وإلا فالخبز عند الجيران حسب الاتفاق بينهم على تقسيم الاعمال ، وكان في كثير من البيوت (رحىً) لطحن الحبوب وجاون ، وميجنة ، ولقد كان الفطور في أيام الشتاء يتكون من الشوربة على الأغلب ، ومنها شوربة العدس ، أو الماش ، أو الهرطمان ، أو الجريش ، أو الچشچ(اللبن المجفف) ، أو الكمأ اليابس ، أو المثرودة ، وهي الخبز اليابس والبصل وحب الرمان اليابس مطبوخاً كله بالدهن ، وكانت الشوربة تؤكل بمواعين الطبشي في الشمس شتاء على السطح أو يكون الإفطار من الجبن الكردي والشاي ، أو جبن الاوشاري ، أو جبن السواجد المُحلى ، أو الجبن الحلو ، وقليلًا ما يُستعمل القيمر والبيض ، ولكن البيض يُستعمل مع التمر الخستاوي المكبوس والمقلي بالدهن ويسمى (الحنيني) ، وكثيراً ما يؤكل الخبز والدبس والدهن صباحاً أو ظهراً .

أما الطابق الفوقاني من البيت (إذا كان يوجد فيه طابق ثاني) ، ففيه غرف

المنام والفرش والزوالي والبُسُط ، إن وُجدت . أما خزائن الثياب ، فكانت خشبية وتسمى (المزفغ) ، وهو من عمل نجاري باب الآغا . أما عند الميسورين ، فكان هناك صناديق الهند الضخمة البديعة الصنع لحفظ الثياب شتاء وصيفاً ، مع وضع تراب التتن منعاً للعث ، بدلًا من النفتالين الذي لم نعرفه إلا مؤخراً .

وكانت خير التخوت للمنام هي التخوت المعدنية (القريولات) المسماة أُم الرمانة ، لوجود الرمانات الصفراء النحاسية على أركانها الأربعة العلوية التي عملت خصيصاً لتركيب الكلة لمنع البق والذباب .

أما اللحف ، فكان أكثرها من الخام الأسمر أو الأحمر المسمى (عوفي) والمليء بالبراغيث التي لا يمكن تميزها عن اللحاف ، فاللون واحد والدم الذي تمتصه البراغيث من أجسادنا واحد .

أما العشاء مساء ، فكان المرق والتمن للكبار ، أما الصغار ، فكان ألذ شيء عندهم هو (مضرب الطاوة) ، ويعني ان التمن حين يطبخ بطريقة المصفى لا يُسكب عليه الدهن إلا بعد نضوجه ، وكنا نحن الصغار ننتظر هذه اللحظة التي تتعمد فيها الأمهات بابقاء شيء من الدهن في قاع الطاوة ، وعندها تسكب قليلًا من التمن في الطاوة ليصبح التمن دهيناً ، وكان صغار العائلة يتعاركون على مضرب الطاوة أو يكون العشاء دولمة أو كبة حامض التي تعمل من التمن أو كبة البرغل التي يتعاون الجيران على عملها .

أما الدجاج والسمك فلا يدخل بيوتنا إلا في حالة مرض أحد أفراد العائلة ، فيسخن ماءالدجاج (ماء الفرّوج من الدجاج) ، لأجل إستعادة نشاطه واسترداد عافيته . أما بقية أفراد العائلة فيأكلون باقي لحم الدجاج وقليلًا ما تقوم ربة البيت بشواء الكباب أو التكة ، إلا في المناسبات أو الأعياد ، والزلابية والبقلاوة لا نذوقها إلا في شهر رمضان أو منتصف شعبان (المِحْيَا) ، أو صوم زكريا في أول يوم أحد من شعبان أو في الأعراس والختان وختمة القرآن ، حيث (تطش ويهليه) . كل هذا مع الطبقة المتوسطة المستورة في جانب الكرخ .

أما في الرصافة فان الوضع يختلف كثيراً عن الكرخ ، لان المدنية وعادات اسطنبول دخلت اليهم عن طريق الموظفين والضباط الأتراك الذين لا يعبرون الى جانب الكرخ إلا مضطرين ، كما لا يعبر الكرخي الى الرصافة إلا للضرورة . وكان يقال عن سكان الرصافة (أهل السنادين) ، وعن الساكنين في الكرخ (أهل الكروش) ،

وشتان ما بين سنادين الاوراد وقدور الكروش والپاچه .

وكان الاب والاولاد وزوجاتهم يعيشون في بيت واحد ، فليس في مقدور أحد أن يفتح بيتاً جديداً يسكنه هو وزوجته وأولاده إلا بصعوبة بالغة مع الحرص على بقاء الروابط العائلية وسلطة الاب غير مفككة ولا متراخية ، فهو المسؤول الأول والأخير عن العائلة يدفع تكاليف معيشتهم وما يحتاجونه من كسوة صيفية وشتائية .

وبعد تناول العشاء يذهب الكل الى الجامع للصلاة ، ثم الى قهوة الطرف للمسامرة ومناقشة أمور الحياة حتى الساعة العاشرة (الساعة الثالثة مساء ، حيث تستعمل الساعة القمرية للوقت) ، ثم يعودون الى بيوتهم تتقدمهم فوانيسهم ويدخلون درابينهم ويغلقون أبوابها على البيوت التي تحتويها الدربونة ويهجعون في فراشهم ولا يبقى من دلائل الحياة شيء سوى صياح (الچرخچي) ، أو (البصوان) . وهكذا كانوا يُسمون الحراس الليليون عدا عن نباح الكلاب ومواء القطط والهررة حتى يؤذن المؤذن لصلاة الفجر ، فيخرجون الى الصلاة ويفتحون أبواب الدربونة ليدخل اليها (اللمپچي) ، حيث يطفىء الفوانيس التي أشعلها بالأمس ، ثم يبدأ يوم جديد وحياة جديدة .

أما الأثاث والفرش ، فكان بسيطاً وأحسنه السجاد بأنواعه حسب ثراء صاحب البيت والبُسُط الإيرانية والعراقية وطاولتين ، أو ثلاث ميوزة (جمع ميز) وبضعة كراسي من الخشب أو خيزران مستورد من الهند ، ثم الكرويتات (جمع كرويت) ، وهي التخت الخشبي الذي يُفرش عليه الدوشگ ويغطى بالشرشف الأبيض الذي يُسند بالمخاديد المحشوة بالصوف وتسمى (مخدة تجو) ، وهي غير مخدة المنام وعلى سعة الدار أو الغرفة تُصَف هذه الكرويتات ، لكن جلوس النساء ، فهو على الأرض حيث الدواشگ والبسط بعد ان تفرش الأرض والحصران ، لئلا تنتقل الرطوبة والأملاح من الأرض الى السجاد ، ثم المنقلة النحاسية الصفراء (البرنج) ، ودلَّة القهوة ، وقناني شربت القهوة ، إذ كانت القهوة لا تُصنع إلا من شربت القهوة الخفيف المحفوظ في القناني ، وكانت الستائر ، إما من القديفة (المخمل) أو من الچيت الملون الخاص بالستائر (البردات) ، أو من الستائر التي كانت تنسج في مدينة عانة . وانتشرت عادة « القبول » عند النساء في أواخر العشرينات ، فكان لكل عائلة ميسورة يوم خاص في الشهر لقبول الضيوف ، حيث يقدُم الشاي والقهوة والكليچة ، والحب والحمص ، وخبز العروگ ، وكعك السيد من دكانه المجاور لجامع الحيدرخانة .

ومن نافلة القول ان أكثر الاحاديث النسائية تدور حول (القشب) ، وهو الإشاعات المغرضة بين امرأة وأخرى ، أو فضح بعض النقائص العائلية المستورة ، أو الحديث عن مشروعات زواج وان الشاب الفلاني زوج مناسب لصحته وماله وجماله ونقاء النسب فيه ، أو ان الفتاة الفلانية قد أخذت (تغسل) ، أي تغسل بعد العادة الشهرية ، وانها أصبحت خَدَيْتَة تصلح للزواج ، ولها من حسبها ونسبها ومالها وجمالها ما يهيؤها للزواج الناجح . ثم تنتهي أوصاف البنت بالقول : (انها نادرة ومعدلةوكل اصبع شكل وما طالعة من بيت أبيها وتستحي من عصافير النخلة) . وكانت السكاير تقدَّم من نوع المزبن رقم واحد والتي كان أحسنها يُباع عند السيد عباس الصندوق في باب الآغا مجاور سوق الأمانة .

وفي البيت أكثر من حِبّ واحد للماء ، ولكل حِبّ كرسي من الخشب المربوط بمشبك خشبي لمنع دخول العصافير أو القطط ، وتحت كل حِبّ يوجد بواقة (بواكه) ، وهي إناء من الطين المفخور ، وهي بشكل مدور تغطى بإناء من الفخار الصفير ولها عروة من جانب وفتحة من الجانب الآخر لصب الماء ، وماء الناگوط في البواگه هو الذي يُستعمل للشرب ، فهو ماء مقطر طبيعياً ، و لا بد ، كذلك من حبانة وكرسيها المعدني ، حيث يوضع فيها الماء المقطر وتُغطى بخام أبيض من الململ ، وكذلك المنشل يعلّق على الحبانة لأخذ الماء منها وإملاء التنگ بالماء ، حيث تُغطى بغطاء من الخوص يشبه العرقچين . وكان في البيت على الأكثر جاون من الخشب وميجنة لتهبيش التمّن إن لم يكن مهبشاً أو لدق البرغل أو الحمص وهاون كبير نحاسي لطحن الأشياء الناعمة ، مثل : البطنج والفلفل والكُركُم ، وفي إحدى زوايا البيت مكان للحطب والشوك الذي يُباع محمولاً على ظهور الحمير أو الحطّابات ، وربة البيت هي التي تختار الشوك وتختبره إن كان يابساً أو رطباً ، لان الشوك الرطب كثير الدخان ولا يصلح للتدفئة ويُستعمل للنور فقط . أما حطب (الطرفا) ، هو للطبخ فقط . وكان نادراً ما يخلو بيت من بيوتنا من العقارب أو الحيّات عدا الحشرات الأخرى ، خصوصاً في أيام الصيف يوم كان الأولاد ينامون على الأرض ، لذلك فان كل رجل في البيت كان يراقب الجدران والأرض لقتل العقارب ، حيث تخرج من أوكارها ليلاً ، والعقارب سامة وقد تكون قاتلة ، مثل عقرب مندلي (جرّار مندلي) ، فهو قاتل ويمتاز بلونه الفاقع وبذنبه العريض الثقيل الذي لا يستطيع رفعه الى الأعلى مثل العقرب العادي ، بل يجرّه وراءه جرّاً ، لذلك سمي (جرّار) ، وهو يكثر في جهات

مندلي وبدرة وجصان ، ويظهر ان تربة تلك الجهات وماءها تساعد على وجوده وتكاثره .

وبعد ان يقوم رب البيت بقتل العقارب وتصفيتها ، تقوم ربة البيت قبل منامها بقراءة التعويذة التالية : (يا عقربة عقربتي من التراب خلقتي محمد على ركبتي وعلي على ذنبتكي سور سليمان بن داود) ثلاث مرات مع ثلاث نفخات من الفم ، وذلك لصد العقارب عن الاولاد . أما الثعابين ، فتقوم الأم برش مسحوق البطنج الناعم على الارض باعتقاد ان الحيّة تكره البطنج ، كذلك تقرأ الدعاء التالي : (يا حيّة البيت لا تضرينا ولا نضرك) . وبعض الأمهات يضعن صحناً من الحليب لتشربه الحيّات وتكون صديقة لأهل البيت فلا تؤذيهم . أما الذباب والبق ، فكان هناك ورق مغطى بصمغ أصفر لاصق يوضع على الحائط ومتى ما وقف عليه الذباب أو البق ، حيث يجلبهم اللون الاصفر فيلصقون ولا يستطيعون خلاصاً .

أما الطبيخ ، فكان اعتيادياً ويتكون من المرق والتمن . وقد تُعمل الكبة من البرغل بمعاونة واشتراك الجيران . فعمل الكبة يحتاج الى دق بالهاون أو الجاون . فلم يكن لدينا مكائن ست البيت لهرس اللحم والبرغل . أما كبة الحلبوكبة الجريش، فتُعمل من غير مساعدة الجيران ، وقد يُعمل يخني البصل أو يغني التتخانة ، أو (آب گُشت) ، أي ماء اللحم للتشريب الابيض أو الأحمر ، وقد يعمل تشريب الباجيلا واللوبية اليابسة والكباب والمروگ والمخلمة وراس العصفور في شهر رمضان ، حيث يجوز استعمال اللحم بكثرة رغم غلائه نسبياً . فشهر رمضان هو شهر الطاعة والكرم في آخره يبدأ عمل الكليچة مشتركة مع الجيران وتستحضر أدواتها من الطحين والدهن الحر والتمر والجوز واللوز حسب نوعية الحشو بالكليچة .

ولا بد لكل بيت من قطة أو مصيدة لكافحة الفئران . أما الكلاب ، فكان وجودها محرماً ، لانها نجسة حسب العرف السائد ولا تُقتنى إلا للحراسة في الارياف . ولم يكن اللبن يُعمل في البيت ، بل يُشترى (بالكعنية) ، والكعنية هي الإناء الخشبي المدور الذي يُباع فيه اللبن وتختلف أحجام الكعاني من كبير الى وسط الى صغير . ولا ينسى البغداديون صورة حاملات الكعاني الممتلئة باللبن صباحاً ، ويطلق عليهن لقب (البطاويات) ، ويظهر ان أكثرهن من عشيرة البطة المجاورة لبغداد . والحليب يباع في الازقة من الابقار مباشرة ، ويقال له الحليب من الشطر (أي من ضرع البقرة) وقيمة البُطلْ آنتان ، أي ثمانية فلوس .

والنفط يباع بالبُطَلْ في دكاكين بائعي النفط وعلى المشتري ان يجلب معه البطل ليملاه نفطاً من البائع وتُغلق فوهة البُطل ، إما بقطعة من الفلين أو بتمرة واحدة من تمور الزهدي ، وهذا قبل ان تكثر عربات النفط اليدوية عند انتشار المطابخ النفطية . وكانت الإضاءة بالفوانيس واللالات والاويزات وعلى أُم البيت أن تنظف الشَيَشْ الزجاجية كل يوم وتمسحها من بقايا الدخان ، وتركب الشمسية على اللالة (اللمپة الكبيرة) . وقد قيل في الپستات (الوجه لاله يا جليلة) . ثم بدأت تنتشر مكائن خياطة سنجر ، وكانت مدرسات الخياطة (الإستات) يعلّمن البنات كيفية الخياطة بهذه المكائن ، وخلص الناس من الخياطة على طريقة (شْلال وكَفْ) ، وأصبح (البَكّل) بالمكنة شيئاً ميسوراً وعاماً . وقليل من البيوت كان فيها حمّامات للماء الحار والبارد . إنما كان الماء يسخّن بالقدور الكبيرة ويغتسلون جالسين على تختات الخشب . والأمهات يجلسن الأطفال في الطشت وتغسل لهم أبدانهم بالليفة والصابون . والذهاب الى الحمّام يكون مرة واحدة في الشهر على الأكثر في فصل الشتاء ويغتسل في الماء البارد بالصيف . وفي الأيام الممطرة تشعل ربة البيت نيران الموقد وتُسخّن الماء انتظاراً لقدوم الأب ، وقد تبلَّلَ بالماء وامتلأت رجله بالأطيان على طول الطريق من محل عمله الى بيته ، فيغتسل ويتدفأ ويتمتع ليلاً بما قسّم الله من الجوز واللوز ، أو التمر الأشرسي أو المدگوگة ، أو بما أحضر للأولاد من نومي أو برتقال أو رمان ، حسبما يتوفر لديه من مال حصل عليه في ذلك اليوم ، أو بصحن من العصيدة ، أو الحلاوة أو المحلبي التي تكون الام قد جهزتها لمثل هذه الليالي التي لا يخرج فيها الأب الى القهوة لقضاء السهرة ، انتظاراً لليلة أخرى يصحو فيها الجو وينقطع انهمار الأمطار .

كثير من البيوت كانت واطئة وسياجها من الطين المملوح (الطوف) ، ومنعاً لتسلق اللصوص فان أعلى الطوف أو الجدار الخارجي يمتلىء بالعوسج الذي يُبنى مع الطوف . والعوسج نبات شوكي ذو ابر طويلة حادة تدخل الجسم وتؤذيه ، فلا يستطيع اللصوص اجتياز هذا الحاجز ، لذلك يوصف الشرف المصون بأنه شرف معوسج . وإذا لم يكن هناك عوسج فتزرع القناني المكسورة في أعلى الجدار أو الطوف ورؤوسها الحادة الى الأعلى لتكون حاجزاً جيداً ضد المتسورين .

وفي بعض البيوت التي بها أطفال كثيرون كانت تُربى الخراف الصغيرة (الطليان) ذات الصوف الأبيض أو الأشقر . فالأسود غير مرغوب ليلعب معها

الاولاد ، ويدللونها غسلاً وتمشيطاً وتعليقاً للاجراس ، أو يربّون الماعز الشامي الاشقر اللون لاجل حليبها الوافر . ويعلق في ضرعها كيس من الخام الثخين لمنع الحيوانات الصغيرة ، مثل العرس (جريدي النخل) ، أو (الارول) ، أو (الثعالب) من امتصاص الحليب من ضرع المعزة ، كما لا بد من استعمال البخور مرة واحدة في الشهر على الاقل بشرط ان تكون ليلة الجمعة . وأحسن أنواعه هو البخور المكّاوي المستورد أساساً من جزيرة جاوة في اندونيسيا . ويحرق عادة مع الحرمل ، لئلا يُصاب أهل البيت بالعين والحسد .

ولغسل الملابس يوم معلوم ، إذ لا تُغسل كل يوم . وتُغسل بالصابون الابيض المسمى (صابون شماش) أو صابون هندية ، وإذا زاد وسخها أو قلَّ الصابون في البيت فتُغسل بالشنان اليابس ، وأحسن أنواع الكوي وأسهله يكون بطي الملابس ووضعها تحت الفراش .

وفي قليل من البيوت كانت البلابل في الاقفاص أو الببغاء المسمى (بيبي متّو) . وللترفيه عن ساكني البيوت كان يمر بين حين وآخر (القرداتي) لترقيص القرد أمام الأطفال أو أبو (صندوگ الوَلايات) ، وهو الدولاب الذي يحوي على مكبرة لرؤية الصور في داخل الصندوق بعد تحريكها من قبل العامل بما يشبه الفانوس السحري البدائي .



عباس بغدادي

أثرياء بغداد

في العشرينات كان الفقر يغلب على أكثر سكان بغداد للتخلف والانعزال والبُعد عن العالم ، لذلك كانت القوة الشرائية ضعيفة جداً ، وكان يعد ثرياً مَنْ يملك خمسة آلاف ليرة عثمانية ، أو مَنْ يملك بضعة دكاكين ، أو حمّاماً أو بيوتاً للايجار أو يأكل اللحم مع عائلته يومياً ، فانه يعد ثرياً أيضاً . وكان يقال للثري هذا (قارون) ، أو هذا (ابن دلّة) ، أي انه يتشبّه بعبدالقادر دلّة ، مالك خان دلّة المشهور في شارع السموأل والذي بناه في مطلع هذا القرن ، وكان مثلًا للخانات التجارية سعة وعمراناً ، واتخذ مقراً لمركز الشرطة أيام الاحتلال البريطاني وكان الأشهر في بغداد . وتعني كلمة انه في خان دلة التوقيف أو الحبس الاحتياطي . وبعد ان تركته الشرطة اتخذ خاناً تجارياً استأجر الناس فيه غرفاً ، وكان له بابان كبيران ، أحدهما يطل على شارع البنك (السموأل) ، والثاني على سوق (الجائف) ، الذي تُباع فيه الفوَط النسائية والخاوليات والمناشف ، ومن الذين اتخذوه مقراً لأعمالهم مدة طويلة ، التاجر جعفر الشبيبي ، والصيرفي باروخ عوبديه ، والتاجر الصيرفي عبود القطان ، ومن الطريف ان عبدالقادر دلّة هذا كان يعطف على قزم يهودي طوله أقل من متر مع حدبة في ظهره . فأفرز له دكاناً على حجمه ملاصقاً للباب المطل على الشارع . وكان أصغر دكان في العراق . ويبيع هذا اليهودي الدفاتر التجارية ، مثل : الدوافي والذمم والخرطوش واليومية ، ثم أخذ يبيع الطوابع المالية . وكان عبدالقادر باشا دلة من سكان منطقة باب الشيخ ، ثم شيد قصره الفخم المطل على نهر دجلة في شارع المستنصر وانتقل اليه ، ثم سكنه من بعده الاستاذ الفاضل السيد يوسف الكيلاني زوج حفيدة عبدالقادر دلة من زوجها ابن النقيب ذلك ان ابن دلة لم يخلف ولداً ذكراً . ولم يزل قصره قائماً حتى الآن بجوار غرفة تجارة بغداد . ويمتاز القصر بأعمدته المرمرية وبقاعاته المبلطة بالرخام الأبيض وهندسته الغربية المزاوجة بين الهندسة العربية والهندسة الهندية .

ومن أثرياء بغداد ووجهائها عبدالقادر باشا الخضيري ، وكان تاجراً أكثر من كونه ملّاك عقارات ، وكان له هو وأخوه عبدالجبار باشا شركة النقل النهري وبواخرها التي تنقل البضائع والناس بين البصرة وبغداد . وقصره في بغداد قرب الباب الشرقي ويطل على نهر دجلة ، ذلك بعد ان ترك هو وأخوه بيتهم الواقع في منطقة باب الشيخ (منطقة باب الشيخ تحتوي على عدة محلات مثل التسابيل والهيتاويين والعوينة وتبة الكرد وقسم من الصدرية والمربعة والسنك) ، وامتهنت عائلة الخضيري التجارة وامتلكت الأراضي الزراعية من سلمان پاك الى العمارة ، وأصبحوا وكلاء لشركة النفط البريطانية على طول نهر دجلة ، عدا محمد الخضيري الذي سكن الديوانية . والحديث عن وكالة شركة النفط البريطانية يدفعنا الى الحديث عن الوجيه الثري اسكندر اسطيفان ، وهو من مدينة النعمانية (البغيلة) ، وقد تسلّم وكالة الشركة من الوجيه الثري عبد الحمود رئيس عشيرة السليمانية في البغيلة ، وذلك بعد ان اختلف عبد الحمود مع أولاده الثلاثة لتبذيرهم الأموال ، فتنازل عن وكالة النفط الى اسكندر اسطيفان ابن بلدته ، وهذا بدوره أشرك بيت الخضيري معه في العمل ، وانصرف اسكندر الى التجارة والصناعة والعقارات ، وصار من كبار الأثرياء في بغداد . وقد بقي سنيناً طويلة وكيلًا عاماً لشركة الغزل والنسيج (معمل الوصي) يشتري لها الأقطان من المزارعين العراقيين .

ومن الأثرياء الذين سكنوا في سوق الجديد ، الحاج عبدالمحسن شلاش ، وقد استوزر في الحكومة العراقية مدة قصيرة ، وقيل ان بقاءه في الوزارة كان نوعاً من الإشراف على المصاريف الحكومية ، لأنه سبق أن أقرض الحكومة مبلغاً من المال لتدوير شؤونها ، ودفع رواتب موظفيها في سنة من سنين العسر . وكان قد تمّ استيزاره بارشاد من المستر (پارل بي) مراقب الحسابات العام البريطاني قبل أن يسلم العراقيون هذا المنصب الكبير الحساس ، ومنهم توفيق السويدي ، وعبدالعزيز القصاب ، لان مراقب الحسابات كان مسؤولًا أمام البرلمان وليس أمام الوزارة ، وكانت سلطته مطلقة .

ومن الاثرياء المعروفين في الكرخ عبدالرزاق قدوري المعروف بأسم (حطحوط) ، وهو لقب أُطلق عليه منذ صغره ، وهو عم الشاعر شفيق الكمالي ، وكان يتعاطى كل أنواع التجارة ، استيراداً وتصديراً وتمويلًا ، وهو الممول الأول لجماعة عگيل ، إذ يسلفهم الليرات الذهبية للاتجار ، ويطلق عليهم اسم (الچتافة) ، أي

الذين يشتغلون باكتافهم ، وفي نهاية السنة يقدمون حساب الأرباح والخسائر ولهم من الارباح ثلثها . ولحطحوط الثلثان ، ويا ويل مَنْ يغش أو يكذب ، فقد كان التعامل شريفاً وأميناً وبدون عقود ورقية ولا مكان للغشاش عندهم ، فسرعان ما يصبح منبوذاً لا يلتفت اليه .

وقد خسر القدوري مبالغ طائلة حين هوجمت قافلته التجارية ، وكان يملك أكثر أموالها وأباعرها من قبل الإخوان الوهابيين ، جماعة فيصل الدويج بعد منتصف العشرينات ، حيث نهبت القافلة وقُتِلَ جميع أفرادها من العراقيين ، عدا اثنين نجيا على الخيل باعجوبة ، وكان ذلك قرب مخفر (البصية) في البادية الجنوبية ، وكانوا من الوحشية انهم لحقوا بأحمد ابن خالتي وعمره أحد عشر عاماً وهو يركض هارباً من المذبحة ، فقبضوا عليه وذبحوه كما تُذبح الشياه ، وقد أُدرجت هذه التفاصيل بتقرير من (أبو حنيك) الذي قاد حملة التأديب عليهم بالاشتراك مع القوات السعودية ، وتمّ إعدام رئيسهم فيصل الدويش . ولم يقبض أحد من العراقيين تعويضاً غير القدوري ، وذلك بعد ان امتلات خزائن السعودية بأموال شركة الأرامكو بالاربعينات . وحين شيد بيته في سوق الجديد مقابل بيت أخيه ياسين الخضيري الذي شغلته مدرسة الكرخ الابتدائية ردحاً من الزمن وكلّفه التشييد خمسة وأربعين ألف ربية ، صار محطة فرجة لأهل الكرخ وانبهارهم ، ليس لفخامة البيت ، فهو بيت متواضع ، ولكن الانبهار كان للأربعين ألف ربية . وآل قدوري منتشرون في بغداد وألبو كمال ودير الزور مسكنهم الأصلي . ولقب عبدالرزاق الثاني هو الأطرش . وكان ثقيل السمع ، والنكات المروية عنه كثيرة حول سماعه الجيد لأخبار المال ورنين النقود . ويقال انه حين أُخذ للتجنيد في زمن العثمانيين اعتذر بالطرش ، وهي علّة تمنع من التجنيد ، وكان الضابط يعرفه ، فرمى على الأرض ليرة ذهبية خلف عبدالرزاق ، وسرعان ما التفت حين سمع الرنين ، وهكذا أسقط في يده واضطر أن يدفع عشرات الليرات الذهبية رشاوى للمسؤولين ، حين قرروا صحة ادعائه بالطرش وأعفوه من الخدمة .

ومن أثرياء بغداد بيت شعشوع ، وكان عميدهم خضوري شعشوع ، يتعاطى الاستيراد والتصدير وتجارة التمور التزاماً للبساتين ، أو تجارة داخلية ، ويملك عقارات وأراضي زراعية ، عدا عن قصورهم الثلاثة في طريق الأعظمية ، والتي أُتخذت بلاطاً للملك فيصل الاول . ومن أملاكهم المهمة ، الأراضي في الفلوجة وعلى شاطيء

دجلة في العطيفية ، والتي كانت تعود للسادة آل عطيفة وجهاء وملّاكي الكاظمية وأراضٍ وبساتين أخرى . ولم يبقَ الآن من أملاك شعشوع سوى البيت الكبير الذي كان يسكنه منشي شعشوع في شارع أبي نواس قرب أوتيل السفراء والذي التحق مؤخراً ببناته في كندا .

ومن أثرياء اليهود أيضاً ، بيت دانيال وعميدهم مناحيم دانيال . وكان مركز اقامتهم وعملهم سابقاً في الحلة ، ثم انتقلوا الى بغداد واشتغلوا بالصيرفة وتملك العقارات وتجارة الحبوب ، وقد امتلكوا أحسن الاراضي الزراعية بأرخص الاثمان ، تسديداً للغرامات والضرائب الكاذبة التي كان يفرضها الولاة الاتراك على العشائر بحجة الثورة والتمرد ، ولكن الحقيقة لاجل السلب والنهب . فاستفاد آل دانيال وامتلكوا الاراضي وكوّنوا الثروات من شرائها بأرخص الاثمان ثم بيعها مجدداً لاصحابها الاصليين بأفدح الاثمان . وذلك في الحلة وبغداد وديالى . ولما استقروا نهائياً في بغداد شيدوا بيتهم الكبير جداً في محلة السنك الذي سكنه الملك فيصل الاول بعد غرق قصر شعشوع في منتصف العشرينات قبل ان تقوم الحكومة باصلاح وترميم مدرسة الصنايع في الميدان على نهر دجلة ، حيث انتقل اليها الملك فيصل مع أخيه الملك علي الذي انتقل بعدئذ الى قصر مستأجر في كرادة مريم . وقد بقي مناحيم دانيال عضواً في مجلس الاعيان مدة طويلة ، وكان صديقاً مقرباً ومستشاراً عراقياً خاصاً للملك فيصل الاول ، ومن أملاكهم المشهورة في بغداد سوق دانيال قرب سوق الصفافير ، وكان خاناً قديماً مجاوراً لخان جغان وهو الآن أشهر أسواق البزّازين .

ومن العوائل اليهودية الثرية الاخرى ، بيت داوود ساسون ، الذين تركوا بغداد واستقروا في بريطانيا . ولبيت ساسون شهرة عالمية لم تزل قائمة حتى اليوم . وكان منهم ساسون حسقيل الذي كان من مؤسسي الدولة العراقية ، والعضو الفعال في مؤتمر القاهرة ، وقد تسلّم منصب وزارة المالية في الحكومة العراقية ، وبقيَ فيها مدة طويلة ، وهو الذي أنقذ العراق من الديون العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى ، بشراء سندات الدين مع ياسين باشا الهاشمي ، كما انه هو الذي استقدم الخبراء الماليين البريطانيين ، بيت (بيرنغ) ، (وهو الذي أفلس مؤخراً في سنغافورة) ، لاجل تنظيم ميزانية العراق وتثبيت أصول الحسابات فيها بعد ان كان التنظيم يجري على طريقة (اوسقان بك) الخبير التركي الارمني المشهور . وحاول الملك فيصل

في حينه استخدام بيت بيرنغ كمستشارين دائميين للحكومة ، لكن المستر (صوان) مستشار وزارة المالية ذلك الوقت وقف ضد الاقتراح وبقي هو المستشار الأوحد لوزارة المالية والحكومة العراقية .

ومن أثرياء بغداد ، التاجران الكبيران المستوردان للخشب والحديد ، وهما بيت سيمون غريبيان الساكنين في قصرهم على نهر دجلة في شريعة بيت لنج ، والحاج أحمد الكردي وأخوه . ثم التاجر الكبير جورج عبديني صديق رشيد عالي الكيلاني ، الذي صار في الثلاثينات وكيلًا عاماً للشركات اليابانية ، ثم وكيلًا لسيارات مرسيدس . وشفيق باشا حداد الذي جاء الى العراق مع الملك فيصل الأول ، وجلب معه سيارة فخمة جداً من نوع كريسلر تنتة خضراء اللون يسوقها بنفسه في بعض الأحيان بشارع الرشيد . وحين كان يمشي في شارع البنك (السموأل) كان يُلاحظ عليه عرج خفيف .

وفي أواسط العشرينات ، بدأ الثري الكريم عباس التميمي يشق طريقه نحو الثراء ؛ وكان عصامياً يبيع النفط في العربات وقد ظل سنين عديدة يحتفظ بعربة النفط وكرر انه عصامي وحصل على ثروة بكده وعرق جبينه ولم يرثها من أحد ، ولا يزال البغداديون يذكرون دعاوى اثبات النسب لولده سعد بعد ان أنكره أعمامه في استحقاقه للثروة التي خلفها له أبوه ، ويذكرون النزاع الذي وقع بين الدكتور مظفر الزهاوي والدكتور البير الياس حول رعاية عباس التميمي وخدمته في مستشفى (لندن كلينك) في لندن بالخمسينات والتي انتهت بانتصار الدكتور الزهاوي وانهزام البير الياس .

ومن أثرياء بغداد ، سارة الزنگينة (والزنگين لقب الأثرياء سابقاً وحالياً) . وهي نفس الفتاة التي أثارت الفضيحة المتعلقة بوالي بغداد المشهور ناظم باشا صاحب سدة ناظم باشا المعروفة في بغداد ، والذي أحبها ولحقها الى بومبي وعرض عليها الزواج ، ثم هرّبتها السلطات البريطانية الى فرنسا وبريطانيا ، وهي أرمنية بنت المرابي الشهير أوهانسيان . وكان هذا المرابي يقرض شيوخ العشائر الذين يُحكم عليهم بغرامات ثقيلة لا تدخل خزينة الوالي الشخصية . وكان أوهانسيان هو المشتري والبائع لاغنام الرؤساء ودوابهم وأراضيهم بالثمن البخس . ثم يعود ويبيعها لهم بعد ان يقبض الوالي ما يريد . وهكذا فهو كالمنشار يأكل صاعداً ونازلًا ، هذا عدا عن قيامه برهن الأراضي والبساتين وشرائها بعدئذ بأرخص الأثمان . فامتلك أخصب

الاراضي وأجود البساتين في محافظة واسط (لواء الكوت) وبغداد والحلة وغيرها من جهات العراق ، وأشهرها أراضي مقاطعة الدبوني في العزيزية من لواء الكوت ، وأراضي معسكر الرشيد والتي تسمى الان (كمب سارة) وقسم كبير من أراضي المسبح ، وقد سجلت جميع هذه الاراضي بأسمها حين تطبيق قانون تسوية حقوق الاراضي بمساعدة رئيس اللجنة المطاع وهو المستر (ديجبرن) ، ثم شيدت قصرها الفخم المنيف على أراضيها في المسبح . ولكنها كانت متلافة مبذرة عديمة التبصّر ، فاخذت تقترض بالربا والفائدة أكثر مما كان أبوها يتقاضاه ، فاكلت الفوائد أموالها وأملاكها ، وأضاف الى ذلك تبذير ولدها (پيرسي) ، الذي كان يلبس اسوارات ذهبية في يديه ورجليه وينثر أمواله جزافاً ، جزافاً ، في ساحات سباق الخيل ، وقد ترعرع ابنها في إنكلترا تحت رعاية (بيت لنج) ، لأن المستر كمبل مدير الشركة ووريث لنج قد تزوج بنت سارة ، وبدأت الام تبيع أملاكها تباعاً لتسديد الديون والفوائد وحُجز على قصرها في المسبح ، وتأجل بيعه في المزاد العلني عدة مرات بتأثير من نوري السعيد . وكانت تلجأ اليه كلما ضاق بها الحال ، ولم تفلح كل هذه الجهود . ورجع پيرسي الى لندن وبيع قصرها وأراضيها بما فيها مقاطعة الدبوني المشهورة ، وقد اشتراها المرحوم عبدالمنعم الخضيري بالاشتراك مع جابر الگاطع من أهالي الصويرة ، أبو أصحاب أسواق ميسلون في المنصور ، وذلك بعد إلحاح متزايد وضغط من الدائن التاجر كاظم مكية ، ثم هجرها كل الأصدقاء والمعارف ، ولم يبقَ لها ما تعتاش منه قبل أن يستطيع المستر كمبل انقاذها ونقلها الى لندن لتعيش في كنفه وكنف ابنتها .

ومن أثرياء بغداد ، محمود چلبي ابن محمد سعيد الشابندر ، وكلمة شابندر تعني رئيس التجار . وكانت أملاكه وثرواته تتوزع بين الحلة وبغداد والعمارة ، حيث كان وكيلًا للسلطان عبدالحميد ، ومن بعده على الأراضي التي تسمى (السنية) ، وهي الملك الخاص للخليفة العثماني الذي كان يختار هو أو الولاة أحسن الأراضي ويسجلها ملكاً صرفاً له . وكان قصر الشابندر في العمارة من أفخم القصور . ولما تشكلت الحكومة العراقية ورثت هذه الأراضي وعدتها ملكاً صرفاً للخزينة العراقية . لذلك كانت الحكومة العراقية تعلن عن إيجار هذه الاراضي بالمزايدة ، وكانت العملية تسمى (التزام المقاطيع) ، ومن الطبيعي ان تبدأ المساومات والمكافآت بين المسؤول والملتزم الذي يدفع للحكومة وحواشيها ما يقتضي لاعطاء المقاطعة

بعهدته ويزرعها شلباً الى ان بدأ تطبيق قانون تسوية حقوق الاراضي ، فأُعطيت سندات التمليك للمتصرفين في الارض وسجلت بقية الاراضي بأسم الخزينة العراقية . وقد حصل محمود الشابندر على مركز محترم متميز في بغداد ، وكان بيته خلف جامع السراي ويفتح يوماً واحداً في الاسبوع لعموم الناس ، وللخاصة في بقية الايام . أما الخان الموجود بشارع المستنصر جوار المحكمة الشرعية والذي كُتِبَ في أعلاه (خان محمد سعيد الشابندر ، فكان مركز أعماله وتجارته وهو الخان نفسه الذي تلقى فيه الرسائل السرية في بداية العشرينات) بأسم (فدية) ، وهي نوع من السلب المنظُم ، وجرى التحقيق في أمرها واتهم فيها المرحوم عبدالله سرية والسيد خليل الكروي ، ثم أُفرج عنهم ، ولكن لقب السرية لصق بعبدالله بعد هذا الحادث وصار لا يُعرف إلا بأسم عبدالله سرية . ومن أولاد محمود الشابندر الأديب القاص موسى الشابندر ، الذي كان يوقع مقالاته بأسم (علوان أبو شرارة) واشتغل في وزارة الخارجية العراقية ، ثم وزيراً للخارجية مع رشيد عالي الكيلاني في ثورة مايس وحكم عليه المجلس العرفي العسكري بمصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة . وكانت قيمتها تفي بالقسم الاعظم من الغرامة ، ولكنها لم تبع . وبقيَ قصره الفخم في شارع السعدون قرب مستشفى كمال السامرائي محجوزاً وغير مسكون مدة طويلة . ثم أُعيدت اليه أملاكه مؤخراً . والحديث هنا عن محمود وأولاده ، فان عائلة الشابندر عائلة كبيرة فيها الحاكم والطبيب والمحامي والتاجر ، ولكننا نقصر بحثنا على الاثرياء أصحاب النقد السائل ، ومنهم بيت السيد حسين يحيى السادة الأعرجي الذين جاءوا من الموصل وسكنوا بغداد في محلة (الدنگچيّة) في الزقاق الموصل بين شارع المتنبي وشارع المأمون الملاصق للمتحف البغدادي . وكانت بيوتهم عامرة واشتغلوا بتجارة صبغة النيل التي تدر الأرباح الكثيرة وامتلكوا الأراضي والبساتين ، ومنها قسم من مقاطعة الرضوانية بالاشتراك مع سليم الزئبق ، وأراضي في جرف الصخر وبساتين في طريق الاعظمية قرب الكسرة ، وبناية رويال سينما الفخمة والدكاكين المحيطة بها ، وخانهم الكبير في سوق الصفافير ، ومنهم الاخوة عبدالغني ، وعبدالعزيز ، وعبدالوهاب ، وعبدالكريم . وكان السيد عبدالوهاب أكثرهم ثروة ، وهو أبو السيد سلمان الذي سيرد ذكره في محل آخر . أما بن عمهم محمد سعيد يحيى ، فيسكن في البيت الملاصق لرويال سينما . ومن أولاده الدكتور حسن يحيى عميد الشرطة . أما أكبرهم فهو الاديب الصحفي عبدالهادي السيد حسين

يحيى ، وكان موظفاً في مديرية المحاسبات العامة ؛ ومنهم ، ولكن ليس في الغنى والثروة ، السيد كاظم يحيى ، وهو أبو السيد جواد والطيار زكي يحيى . ومن الطريف أن أذكر ، وكنت صغيراً ألتقي مع إخوتي الصفار في خان السيد حسين يحيى بسوق الصفافير ، ان استمعت الى أحدهم وهو السيد عبدالغني يحيى ، يحدث أخي السيد شاكر قائلاً : « عندما يضيق بي الأمر وتلبسني حالة من العصبية ألجأ الى صندوق خشبي صنع الهند وأفتحه ، وكان مليئاً بالليرات الذهبية وعلى قمتها ماعونان من الذهب الخالص ، فاقتنف باحدهما كومة من الليرات وأنقلها الى الماعون الاخر ، وهكذا دواليك من ماعون الى آخر . وأنا أستمع الى رنين الذهب المتساقط من الماعون فيذهب ضيقي ويزول همي . » .

أما أثرياء الاراضي والعقارات فكثيرون ، منهم آل الجميل (بيت جميل زاده) ، وبيت المدلل ، وبيت الأطرقچي ، وبيت عارف آغا ، وبيت غلام ، وبيت عطا ، وبيت الظاهر ، وبيت الچوربهچي ، وغيرهم كثيرون ، علماً بان كثيراً من الملاكين الجدد حصلوا على أملاكهم اعتباطاً عن طريق نشي اعلانات في الصحف التي لم يكن يقرأها أحد من أهالي بغداد ، أو لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أملاكهم أو عن أجدادهم وما خلّفوه ، أو ماتوا بدون عقب ، وكان الاعلان التالي الذي بقي سنين طويلة يُنشر في الصحف ، هو (كل مَنْ يدّعي حق التملك أو له علاقة بالدار أو الملك الفلاني أن يراجع دائرة طابو بغداد خلال شهر من هذا الاعلان مستصحباً معه الأوراق القانونية الثبوتية ، وإلا فانه يُسجل بأسم المدّعي فلان) . وحين لا يظهر أحد ، لان لا أحد يقرأ الجرائد إلا القليل ، يعلن ثانية ويُعطى مهلة خمسة عشر يوماً للمراجعة ، فإن لم يحضر يُسجَّل المُلك أو الوقف في الطابو بأسم المدعي الجديد الذي علم بتفاصيل المُلك المذكور ، وأن ليس له مَنْ يستحقه ، وذلك بمساعدة بعض موظفي الطابو ، أو بعض موظفي الأوقاف ، أو بسرقة حجج الوقف . وقد سجّلت أملاك مهمة صرفة وموقوفة في شارع الرشيد بأسم بعض المسؤولين حينذاك حتى ان بعضهم لم يصلوا الى بغداد ، لا هُم ولا أجدادهم ولم يكن في الطابو يومئذ غير دلالين اثنين هما المنادي عبدالوهاب الذي يسكن محلة إمام طه ، والمنادي حسون الأعرج الذي يسكن باب الشيخ . ثم جاء بعدهم دلالون آخرون ، وافتضحت هذه العملية حتى وصلت الى عصبة الأمم وتقارير المندوب السامي ، وذلك بمساعدة سكرتير مجلس الوزراء حسين أفندي افنان حفيد بهاء الله ، إمام البهائية وأخته بديعة افنان

الموظفة في عصبة الامم . وقد شملت هذه المعاملات بعض أملاكهم وعقاراتهم في بغداد وديالى في نفس الوقت الذي كانت فيه المنازعة قائمة على قدم وساق حول ملكية الحسينية في محلة الشيخ بشار بالكرخ بين البهائية الذين يدعون انهم شيدوها وانها تعود لهم ، ولكنهم لم يسجلوها بأسمهم في أيام الدولة العثمانية أيام النقمة الكبرى التي انصبت عليهم ، وبين الجعفرية الذين قالوا ان الحسينية ملك لهم وليس للبهائية شيء منها ، ورُفعت القضية الى المحاكم للبت في النزاع . ولكن الحكومة والملك فيصل الأول والمندوب السامي البريطاني أوقفوا النظر في الدعوى وأجّلوها الى أجل غير مسمى ، وبقيت غير محسومة نهائياً وظل البهائيون يدعون ملكيتها حتى الوقت الحاضر .

وفي أواخر العشرينات ظهرت فضيحة أخرى ، إذ حاول أحد رؤساء الوزارات ان يسجل بستاناً في كرادة مريم بأسمه عن طريق الشراء ، وأحضر الى الطابو شخصاً غريباً مدعياً انه هو مالك البستان ، وجاء يقر ببيعه أمام دائرة الطابو . وأحسّ به أهالي كرادة مريم وأصحاب البساتين المجاورة الذين يعرفون المالك الحقيقي واحتجوا لدى دائرة الطابوا ورفعوا الأمر الى الملك فيصل والى المندوب السامي . وطلب الملك من الرئيس ان يستقيل ، فرفض الاستقالة ، وقال للملك الجملة المشهورة : « استعمل حقك الدستوري ، فليس لك في الدستور يا صاحب الجلالة حق الإقالة » . واشتد النزاع بينهما وتدخل المندوب السامي وتمت التسوية وعين رئيس الوزراء مفوضاً خارج العراق (لم تكن هناك سفارات) وانتهت المشكلة بالتسوية وتبويس اللحى .

وفي الثلاثينات بدأت الثروات في الظهور ، وأطلّ على البلد أصحاب الالوف ومئات الألوف ، منهم (عدا اليهود) ناجي الخضيري ، وحسن المخزومي اللذين انصرفا الى المقاولات الكبرى . ثم عبدالهادي الجلبي بعد وفاة أبيه عبدالحسين . وهو مالك العقارات والاراضي في الكاظمية وما حولها ، واشتغل تاجراً كبيراً للحبوب ، خصوصاً أيام الحرب العالمية الثانية ، وأصبح وكيلاً عاماً لشركة « اندروير » البريطانية التي احتكرت شراء الأرزاق للجيوش البريطانية وتصدير المنتوجات المحلية ، كالحبوب والتمور والصوف والجلود ، فهي المشتري الوحيد بالسعر الذي تفرضه هي . وكانت الصكوك التي يدفعها الجلبي ثمناً للبضائع المشتراة صكوكاً مطبوعة في بريطانيا وعلى ورق خاص عليه شارة الامبراطورية

البريطانية . ثم لحقه الدامرچي بأملاكه وعقاراته ، ثم بيت بُنيّة ومبارك ومكية ، وكثيرون غيرهم من تجار الشورجة وأصحاب رخص الاستيراد والتصدير الممنوحة لهم من السلطات البريطانية من الهيئة المسماة (ي ، ك ، س ، س) حتى قاطرات التمور التي كان يوزعها المستر لويد مدير جمعية التمور وانه وزع قسماً من هذه الإجازات الى راقصات وأرتيستات نكاية ببعض تجار التمور الذين اعترضوا على تصرفاته .

نعود الى الذين صاروا أثرياء من بيع الاراضي داخل بغداد وما حولها ، ومثال ذلك بستان الجراح في محلة السنك . فقد بيع المتر الواحد منه في أوائل الثلاثينات بعانتين ، أي بثمانية فلوس ، وكان من جملة البائعين بهذا السعر عبدالرزاق المُلّا ياس الشيخلي أبو كمال الشيخلي صاحب المخزن في شارع المستنصر ، وحميد العبايەچي ، وأحمد شاكر البغدادي ، وما إن بنيَ أول بيت في السنك حتى ارتفع سعر المتر الى أربع عانات ، أي ثمانية عشر فلساً ، ثم الى ربية واحدة في الثلاثينات قبل صدور العملة العراقية ، كان للربيّة قوة شرائية كبيرة . وباع حسين أفندي سهيل أراضي الوشاش قطعاً بمساحة ألف متر ، كل قطعة بخمسين دينار ، ومن جملة مَنْ اشترى إحدى القطع هو المرحوم حضيري أبو عزيز ، وستوري الجاكي ، وكسار عبد علي وغيرهم . أما بيت غلام ، الذين يملكون مساحات واسعة في معسكر الرشيد ، فقد باعوا كل متر مربع برُبع دينار فقط . لكن بيت بحوشي لم يبيعوا ، بل اعتمدوا طريقة الإيجار الطويل ، ومن جملة أملاكهم بناية السفارة الأمريكية التي صارت مقراً للقوة الجوية العراقية ، وكذلك الأملاك والدور التي حولها .

أما اليهود في بغداد ، فلأن أعمالهم تتم ضمن نطاق السرية ، ولكن المعلومات تبقى تتسرب الى الخارج ، وعرف الناس ان اليهود الاثرياء في بغداد كثيرون ، ومنهم : خضوري لاوي ، وفرنك عيني ، وبيت مشعل ، وبيت طويق ، وشكر ، وبيت مكمل ، وابراهيم حبيم ، وبيت دنگور ، وبيت سوميخ ، وادوار عبودي ، وغيرهم كثيرون جداً . أما اليهود البغداديون المقيمون في الخارج ، فكانوا يبعثون الاموال للقيام بالاعمال الخيرية ، مثل : مير الياس الذي تبرع ببناء مستشفى مير الياس الكبير في محلة العلواظية ، ومسعودة شنطوب التي بنت المدرسة والتورات بأسمها ، وراحيل شحمون ، واليعازار خضوري صاحب المبرّات الكثيرة والمدارس ، مثل مدرسة شماش وغيرها .

ولا بد من الحديث عن الثروات المؤقتة أو الضائعة . فنظراً للمساحة الضيقة التي يتحرك فيها الاقتصاد العراقي في ذلك الزمن ، فقد كانت هناك تجارات تربح في سنين ، ثم تضيع كل تلك الارباح في سنة واحدة ، وأشهر تجارتين في هذا الباب ، هما : تجارة الصوف وتجارة المواشي ، ومعروف عن تجارة الصوف انها أخطر كل التجارات . فهي في سنة تغني وفي أخرى تُهلك . ومن التجار الذين تورطوا فيها ، فبلغوا القمة ، ثم انتهى أمرهم في سنة واحدة وهم : بيت الحجي علي الشيخلي واخوه الحجي أحمد ، وكانوا أشهر تجار بغداد عملًا واستقامة ،وعلى حين غرة انخفضت أسعار الصوف انخفاضاً كبيراً وأفلسوا هم وزبائنُهم في استراليا وإنكلترا ،ولم يحولوا اليهم ديونهم ، فارتبكت أحوالهم وتوقفوا عن الدفع وعرف الدائنون في بغداد ان أموراً قاهرة قد أوقفتهم عن الدفع وطلبوا منهم بالحاح اجراء التسوية والمصالحة وتقسيط الديون ، لكن الحجي علي وأخوه رفضوا ذلك واعتبروا التسوية والتقسيط إخلالًا بسمعتهم وشرفهم التجاري ، وتصوروا ان أملاكهم ستسدد ديونهم فباعوا ما يملكون من العقار والأراضي ، ومنها مقاطعة التويثة المشهورة في سلمان پاك ، ثم باعوا منقولاتهم ومتاعهم ، فلم يكفِ لتسديد الدين ، ولامهم الناس كثيراً ، لانهم لم يقبلوا التسوية ولزموا دورهم ومات الحجي علي كمداً وغماً ، وأغلق الحجي أحمد بيته ولم يخرج الى الناس ، وهو والد الاستاذ شهاب الشيخلي الموظف المستقيم والنزيه في مديرية ضريبة العقار سابقاً . أما أخوهم الاصغر ابراهيم ، فقد التحق بالوظائف الحكومية . وهكذا كان التجار قديماً يعدون ثروتهم في سمعتهم وسلوكهم ، وليس في دفاتر صكوكهم .

والمثال الاخر هو علي صائب الخضيري ابن عبدالقادر ، وقد ضاعت ثروته في الصوف وفي الشعير .

والتجارة الثانية هي تجارة المواشي ، ففي سنين الخير تنمو تجارتها وتزدهر ، ولكنها تذهب صفقة واحدة في سنة من سنين البلاء وسوء الأحوال الجوية ، كما حصل ذلك في سنة (لوفة) سنة ١٩٢٤ ، حيث نفق ٩٠٪ من مواشي العراق ، بسبب سقوط الثلج بكثافة على أكثر مناطق العراق . ومن أشهر تجار المواشي في ذلك الوقت الحاج ياسين الخضيري ، وعباس الجدوع ، والحاج موسى الجواد ، والحاج غالب ، وابراهيم العزيز ، وحسين سعيد . ثم جاء بعدهم اوهيب الفرج . وقد أكلت سنة لوفة اللحم والعظم .

وهناك ثروات طائلة أهدرت عبثاً أو بسوء تقدير ، والمثال الأول لذلك هو ثروة ابراهيم الارضروملي التي أضاعها ابنه قدري الارضروملي ، وكان ابراهيم الذي قدم أجداده من أرضروم بتركيا ،كما يدل عليه لقبه على ذلك ، ثرياً لانه استفاد كثيراً من التزامه رسوم الدفنية في الاماكن المقدسة أيام العثمانيين والحكومة العراقية . وملتزم الدفنية في العتبات المقدسة ، كان ينال من أموال الإيرانيين والباكستانيين وأهالي جاوة والإسماعيليين الذين يدفنون موتاهم في النجف الاشرف ، وهم الاغنياء طبعاً . لذلك فان المستفيد الاول ليس الدولة عن طريق الرسم القانوني ، بل الملتزم عن طريق الهدايا والرسوم غير القانونية ، وعلاوة على هذا ، فقد كان بستانه (بستان الارضروملي الذي يحيط ببغداد من جهة الكرخ يدر عليه أموالًا طائلة من زراعة الخضراوات التي تمون بغداد) . وقد رفض في حينه أن يجعلها بستاناً للاشجار المثمرة التي تدر إيراداً سنوياً فقط . لكن إيراد الخضراوات إيراد يومي . وبعد وفاته صارت البستان منطقة سكنية وباشر قدري ابنه ببيعها بالامتار ودخلته فلوس وأموال من حيث يدري ولا يدري ، أضاعها كلها وأضاع أملاك عمته خلال بضع سنين ، انفاقاً على أصدقائه ، وكان أكثرهم من أصدقاء السوء وعلى المقامرة والخيل . وأذكر انه عندما شيد سينما الارضروملي في علاوي الحلة ، وكان ذلك أيام الحرب ، رفض أن يتسلّم الشيلمان والمواد الإنشائية من الحكومة ، بل اشتراها من السوق السوداء باضعاف ثمنها ، بحجة انه لا يريد أن يمد يده الى الحكومة . كما انه كان مؤدباً خجولًا لدرجة انه لا يستطيع حتى ان يعاتب مَنْ يسرقه ويبتزه من الاصدقاء الذين التفوا حوله . وحين نفق المال الذي لديه وضاقت عليه السبل وتفرق عنه كل مَنْ كان حوله من الاحباب والمخلصين الكاذبين ، توسط نوري السعيد وعينه مستخدماً في شركة النفط بكركوك . وبقي هناك ، ثم عين في البصرة مديراً في مضمار سباق الخيل الذي كان هوايته المفضلة . وحين تحسنت أمور ابنه ابراهيم المالية في لندن رحل اليه وعاش في كنفه في بحبوحة حتى توفي في الايام الاخيرة .

أما الثاني الذي أضاع ثروة كبيرة ، فهو السيد سلمان السيد يحيى ، وهو ابن السيد عبدالوهاب يحيى أثرى اخوته الستة . وبيت السيد حسين يحيى سادة قدموا من الموصل واشتغلوا بتجارة صبغة النيل الازرق وامتلكوا الاراضي الخصبة والعقارات . ولقد أضاع ثروته في أمور لا تستحق أن يُضاع فيها فلس واحد ج

ومن أثرياء جانب الكرخ جعفر چلبي البغدادي تاجر الجلود والصوف ، وهو

أبو عبدالعزيز البغدادي ، وكان خانه قرب ساحة الشهداء ، وقد اختص بتجارة الجلود ، ثم الصوف ، ولم يلتفت الى بقية التجارات عدا شراءه بعض العقارات هنا وهناك ، بعكس عبدالعزيز الذي كان مهتماً بتجارة العقارات . وقد كان يصف الثري في بغداد ويقال عنه انه (قارون) باعتبار ان التاريخ لم يذكر شخصاً أغنى من قارون ، أو يقال في وصفه انه (مال ونخل حمّال) ، لأن بساتين النخيل تعتبر ثروة طائلة . وفي بغداد كثير من الاثرياء الذين قد تزيد ثروتهم على ما ذكرنا ، ولكننا اقتصرنا بحثنا على المشهورين منهم الذين يتداول الناس أسماؤهم . أما أصحاب الليرات الذهبية الكثيرة والمدفونة في الارض ، كما هي العادة آنذاك ، فانهم خارج الموضوع .. أما أصحاب الثروات من المرابين (الفايدة خورية) ، فلا أريد التطرق اليهم وفضح أسمائهم . عفا الله عنهم .

التعليم في بغداد

كثيرة هي التقارير التي صدرت عن التعليم في العراق ، إبتداءً من تقرير مس بل ، حتى دخول العراق عصبة الأمم ١٩٣٢ . ولكن هناك بعض التفاصيل من الواجب أن أتطرق اليها . فلم تكن هناك بنايات للمدارس ، بل بيوت تؤجرها الحكومة . ولكنها لا تفي بالحاجة . فليس فيها ساحات لعب ولا مراحيض ولا صفوف كافية وصحية . فالغرف صغيرة ومزدحمة . ثم بدأت الحكومة بناء المدارس للأولاد والبنات على قلّتها ، واهتمت بالتعليم ، لدرجة ان الملك فيصل الأول سجل نفسه معلماً في المدرسة المأمونية الابتدائية بالميدان ، وسجل ابنه الامير غازي في فرقة كشافة المدرسة المذكورة ، وسمّوها فرقة الامير غازي . وقد ضمت ثلاثين تلميذاً من بين أولاد العوائل المعروفين . أما الثانويات فلم تكن في بغداد سوى اثنتين ، أحدهما الثانوية المركزية ، والثانية الثانوية الشرقية في محلة السنك . وكانت الثانوية على أربعة صفوف . الصف الأول والثاني وبعده امتحان البكالوريا المتوسطة ، ثم الثالث والرابع وبعدها امتحان البكالوريا النهائي . وتجري امتحانات الثانوية في قاعة أو ساحة الثانوية المركزية . أما امتحانات البكالوريا الابتدائية فتجري في قاعة دار المعلمين الابتدائية بالكرخ . ولما كانت الحاجة ملحة للمعلمين ، فقد افتتحت الحكومة ثلاث مدارس للمعلمين ، هي دار المعلمين الإبتدائية ، والدراسة فيها سنتان بعد الابتدائية ، ويتخرج فيها معلمون للمدارس الريفية ، والثانية دار المعلمين الابتدائية ، والدراسة فيها أربع سنوات ، والمتخرجون فيها يدرّسون الابتدائيات .

ثم فتحت دار المعلمين العالية ، والدراسة فيها سنتان ، ويدرُس المتخرجون فيها المدارس المتوسطة والثانوية ، وعلى مر السنين زادت أعداد مدارس الذكور والإناث . وأشهر مدارس البنات ، هي المدرسة المركزية للبنات . والمتخرجون فيها يدرسون في مدارس البنات الابتدائية والمتوسطة . وقد صدر قانون يسمح بتعيين المعلمات بعمر ست عشرة سنة ، بدلًا من ثماني عشرة سنة ، وهو الحد الأدنى للتعيين بالوظائف الحكومية ، وبتوجيه من المرحوم الاستاذ المربي ساطع الحصري

مدير المعارف العام وصديق الملك فيصل الاول ، والذي قام التعليم على أكتافه في العشرينات . تعاقدت الحكومة مع معلمين من سوريا ولبنان وفلسطين ومصر ، ومنهم على سبيل المثال : نجيب مشرقي ، ولبيب الاسكندراني ، وادوارد جرجي ، ودرويش المقدادي ، وفريد السعد ، وجلال زريق ، ويوسف أبو ابراهيم ، وعزالدين عَلَم الدين التنوخي ، وعزت دروزة ، وعبدالله المشنوق ، ويحيى اللبابيدي ، وشارل دباس ، ومحيي الدين ، وأنيس النصولي ، وغيرهم . وتوزعوا على المدارس الثانوية . وكان في الثانوية المركزية مرسماً كبيراً لتدريس الرسم مع المدرس شوكت سليمان . ويذكره الرسامون الاحياء ، مثل الرسام الدروبي ، فقد درس على يديه . وفي قاعة المدرسة أيضاً بيانو ويقوم المعلم جاك سوفير بتعليم التلاميذ العزف على البيانو . وفيها مختبر كيمياوي كبير قام بالتدريس فيه ابراهيم اسماعيل ، وفرج الله ويردي . وقاعة لتدريس الفلك للصف الرابع الثانوي مع تلسكوبات صغيرة ، ويدرسه أحد اللبنانيين ، وهو يوسف أبو ابراهيم . أما الألعاب الرياضية فتجري في ساحة المدرسة المكشوفة .

وحين رجع العراقيون من بيروت يحملون الشهادات الجامعية تبرع المرحوم الأستاذ ابراهيم اسماعيل ، فعلَّمنا لعبة كرة السلة ، وكان من أبرز المبرزين في هذه اللعبة المرحوم الطيار كاظم عبادي .

أما شقيقه أركان عبادي ، فكان بطلًا في رمي الحديد (الرمح) . ثم افتتحت الكليات . ففي الرستمية فُتحت كلية الزراعة ، والدراسة فيها سنتان ، وكلية الهندسة في الرستمية أيضاً وتقبل خريجي الثانوية من القسم العلمي ، والدراسة فيها أربع سنوات . وكان يديرها الأستاذ جلال زريق ، ومن مدرسيها المرحومون : علي مظلوم ، ومحمد علي مصطفى . وكلية البيطرة ، والدراسة فيها سنتان . وقد يُرسل قسم من خريجها الى الهند لاستكمال الدراسة فيها . أما المدرسة الحربية (لم تكن تسمى كلية) ، فقد قبلت في بداية تأسيسها طلاباً من الصفوف الأولى الثانوية ، إذا كانوا ذوي أجسام مميزة ، أو من خريجي الدراسة المتوسطة . ولما كثر الراغبون فيها ، نظراً للرواتب المغرية ، حيث يتناول الضابط راتباً شهرياً مقداره ٢٠٠ ربية ، وهو مبلغ ضخم في تلك السنين . فصار شرطاً ان يكون المتقدم من خريجي الثانويات . وصارت الدراسة فيها أربع سنوات ، بدلًا من ثلاث . وكانت المدرسة في الكرادة الشرقية بالقرب من مرقد السيد ادريس . وكانت لا تقبل إلا خريجي الثانوية ، حتى

جاء بكر صدقي الى الحكم وقبل فيها تلاميذ المتوسطات . وقد انتهى هذا العهد الذهبي ، لكثير من الشباب وذهب بذهاب بكر وعهده العسكري الشوفيني .

أما الحقوق ، فبدأت في العهد العثماني ، وتجددت في العشرينات وقبلت في صفوفها حتى الذين يتقدمون بشهادات من العلماء والفقهاء بأنهم كانوا تلاميذهم . وكثير من الحقوقيين قبلوا وتخرجوا اعتماداً على هذه الوثائق . وكان من الذين أعطوا هذه نلشهادات ، المرحومين الشيخ شكر ويوسف العطا . أما الكلية الطبية ، فقبل فيها خريجو الثانوية الذين يحسنون اللغة الإنكليزية . وأول بنت في العراق قبلت في الكلية المذكورة ، هي مَلَك ابنة الأستاذ رزوق غنام صاحب جريدة (العراق) بعد ان داومت شهرين في كلية الحقوق ، إذ لم تعجبها الدراسة فيها ، فتحولت الى الطب . وقد كُتِبَ الكثير عن الكلية الطبية ، ولكن المهم هو حاجة التلاميذ الى الجثث لتشريحها ، وكان يوفرها المرحومان الملا عبد والملا خضر ، المستخدمان في المستشفى الملكي ، ذلك ان الأموات كثيرون فيه وليس هناك مَنْ يسأل عنهم . ومن السهل جداً الحصول على جثة لتشريحها ، ما دام الملا عبد والملا خضر موجودين و (الربية موجودة) .

وفي منتصف العشرينات أسست جامعة آل البيت في الأعظمية قرب المقبرة الملكية ، ولكنها لم تدم كثيراً . وأول عميد لها هو المرحوم فهمي المدرس . أما المدارس الاهلية ، فكان أشهرها مدرسة التفيض ، والمدرسة الجعفرية ، والحسينية ، ومدرسة الالينس وشماش لليهود . ثم مدرسة مسعودتز شنطوب . أما المدارس الأهلية المسيحية ، فكان أكثرها ملحقاً بالكنائس ، ولكن اشتهرت مدرسة الكلدان ، ومدرسة اللاتين ، ومدرسة الأرمن في الكمپ ، ومدرسة الامريكان في بداية شارع باب الشيخ . وهناك مدرسة (شرافت إيرانيان) الفارسية في جانب الكرخ قرب مركز الترمواي .

وهناك مدارس دينية في الجوامع ، مثل : مدرسة عبدالوهاب أفندي النائب ، ومدرسة محمود شكري الآلوسي ، ومدرسة يوسف العطا ، ومدرسة عبدالسلام أفندي الشواف ، ومدرسة الشيخ گمر ،ومدرسة السيد حيدر الحيدري .

كانت طبقة المعلمين في الثانويات متفتحة اجتماعياً وثقافياً ، وهم الذين قادوا حركة السفور والحجاب في العشرينات ، ومنهم : عوني بكر صدقي ، وشفيق سلمان ، وعبدالكريم جودت ، وناصر عوني ، ونوري ثابت ، ويحيى قاف ، وعباس

فضلي خماس . وكان أشهر مدير في الثانوية طالب مشتاق . ولدار المعلمين يوسف عزالدين الناصري . وللابتدائية سعيد بهجت ، وللبنات أمت سعيد . وفي أواخر العشرينات تسلّم خريجو الجامعة الامريكية في بيروت مهمة التدريس في الثانويات ، ومن أوائلهم المرحومين : حافظ جميل لآداب اللغة العربية ، وفؤاد التكرلي للأحياء ، وشيت نعوم للفيزياء ، وكاظم الخضيري للإنكليزية ، وابراهيم اسماعيل للكيمياء ، وعلي حيدر سليمان لتاريخ أوروبا .

واستمرت البعثات بالذهاب الى أوروبا وأمريكا على وفق أحوال الدولة المالية ، وتبعاً لمزاج وزراء المعارف ، الذين كانوا يريدون شراء الدعاية لهم عن طريق إرسال البعثات الى أوروبا . أما الإنكليز في المعارف ، فكنا لا نعرف غير المستر سمرفيل مفتش المعارف العام ، والمستر براير مدرس اللغة الإنكليزية في الثانوية . وأذكر ان أشهر الفراشين في الثانوية كان (عمران) ، وهو من محلة الخشالات في الحيدرخانة . وأشهر فراش في دار المعلمين (مرجان) ، وكان أسود يلبس العقال المقصب . وأشهر بقال في الثانوية هو خليل القهوجي ، قبل أن ينتقل الى دار المعلمين . وأشهر لاعب كرة قدم هو أكرم فهمي ، وقدري الارضروملي ، وأشهر مهرج في مسابقات كرة القدم هو عبود توما . وأشهر مصارع هو عبدالجليل مصطفى الخليل . وأشهر أشقياء هو محمد جميل الشيخلي في الثانوية والسيد كمال نصار في دار المعلمين . وأشهر (دزّاخ) هو المحامي عبدالكريم جواد . وأشهر ممثل هزلي هو عبدالله العزاوي . وأطول تلميذ في الثانوية هو مدحت علي مظلوم ، وأقصر تلميذ هو حبيب الخطيب ، وأشهر المدرسين فكاهةً هو ناصر عوني ، وأشهر مدرس للرياضيات هو رزق الله اوغستين ، الذي أبدل اسمه الى محمد رزق الله اوغستين ، وكان هاوياً لسباق الخيل ويعمل القرعة في احتمالات فوز الخيل على أعواد الشخاط التي يحملها في جيبه ! ومن صفاته الظاهرة رحمه الله ذهوله الدائم وسيكارته التي لا تفارق شفتيه . أما مراقب التلاميذ العام في الثانوية المركزية ، فكان الدكتور سلمان فائق في الصف الرابع المنتهي قبل التحاقه بكلية الطب . وكان في مدرسة التفيض الاهلين سرداب كبير فيه كل أدوات النجارة ، ويدرّسنا فيها المرحوم نورالدين الاجودي . وقد تعلّم كثيرٌ من التلاميذ أعمال النجارة ودخلوا مدرسة الصنائع في الباب الشرقي ، والتي كانت تدرس فيها الحدادة والسمكرة وبقية الصنائع وتخرج فيها صنّاع ممتازون . وكان المدرسون في الابتدائية يستعملون الالفاظ التركية . ففي

الصباح تجري (اليوقلمة) ، أي التفتيش . وإذا أجاد التلميذ فانه يأخذ (أفرين) ، وتُكتب على السبورة . أما الاول والثاني في الصف ، فهما البرنجي والاكنجي ، أما الاخير ، فهو (دومان) . وكانت الدرجات من عشرة وليس من مئة ويوضع له إشارة (+) مع العشرة دليل الامتياز . وعن السعي في الدروس يقال (المجالشة) ، فيقال جالش ويجالش .

ونادراً ما يدخل المعلم الى صفوف الابتدائية بدون مسطرة أو عصا صغيرة ، عدا المدارس المسائية ، فتلاميذها كبار في السن . وكان الأهالي ينتظرون نتائج الامتحان . فإذا نجح ابنهم فان الهلاهل تدوي في المحلة علاوة على انهم (يطشون عرب وبهلية خطار وبهلية) على رأسه ورأس صبيان المحلة . والحلويات هي الحامض حلو وملبس أبو الهيل وكركري صغير وذروق العصفور ، وهي حبّات من الغزنايج أو الحبة الحلوة المغلفة بالسكر الملون الاحمر والاخضر والأزرق ، ولم نكن نسمع أو نعرف ما هو التوفي والچوكليت والنستلة ، كما لا نعرف ما هو الكيك والكاتو والبوني فور والكرواسن ، بل كنا نعرف الكليچة ، وخبز العروگ ، وخبز العباس . وما كان ألذه وأطيبه ، إذ لا ناكله إلا بالمناسبات السعيدة . أما ألعابنا ، فهي ألعاب صبيان المحلة في كل مكان ، ومنها الكّسار في العصي أو المعاچيل ، والمعچال هو (المقلاع) الذي يستعمله الآن شبان فلسطين ، ومعارك الحجارة والعصي لا تجري إلا في ساحات المقابر ، إذ تُتخذ القبور ستاراً وحماية من أحجار الخصوم ، وتنتهي المعركة بالجرحى ، وتبدأ المعالجة وإيقاف سيلان الدم بوضع (عطّابة) توضع على الجرح مع قليل من الرماد . هذا عدا عن ألعاب الطفولة المعروفة مثل الدُعْبُلْ ، والمصاريع ، والجُعَاب ، والحمّام ، وطفيرك يا گمر ، وهذه شمسك يا يهودي . وفي أوائل الثلاثينات بدأت الالعاب الرياضية الاصولية . وعرفنا ألعاب الساحة والميدان بكل أنواعها وألعاب الجنباز وتسمى ألعاب (البرليل) ، ثم استقدمت الحكومة من مصر معلمين لتعليم الجنباز والتدريب على ألعاب الساحة والميدان وبقوا مدة سنتين فقط .

أما الاناشيد صباحاً ، فكانت كلها تدور حول الوطنية والاستقلال ، ومنها (وطني والحق سينجده) ، و (يا ظلام السجن خيم) ، و (نحن خوّاضو غمار الموت) ، و (أشرقت شمس النجاح) . وأذكر ان المرحوم نجيب الراوي نقيب المحامين الاسبق وكان معلماً ، علّمنا نشيداً وطنياً وألحق بالابتدائية بالتعاون مع

المدرس المرحوم بدري النقشلي مع كمجته ، وقد توفي النقشلي وهو شاب بسبب لوثة أصابته . وقراءتنا كانت الخلدونية التي ألّفها ساطع الحصري وسماها بأسم ابنة خلدون . أما اللغة العربية ، ففي كتاب الشيخ مصطفى الغلاييني . وفي الثانوية كان لكل درس معلم خاص وصف خاص . فالحساب في الصف الاول الثانوي يدرّسه رزق الله ، وفي الثاني يدرّسه علي مظلوم ، والرابع يدرّسه محمد علي مصطفى . أما للغة العربية والآداب ، ففي الصف الاول عزالدين عَلم الدين التنوخي ، وهو درزي من الامراء التنوخيين . وفي الصف الثاني محمد بهجت الاثري ، وفي الثالث والرابع عبدالعزيز الشواف والشاعر حافظ جميل . أما التاريخ القديم في الصف الاول ، فيدرّسه عوني بكر صدقي . أما التاريخ العربي الإسلامي ، فدرويش المقدادي ، وتاريخ أوروبا علي حيدر سليمان ، وممدوح زكي . وهكذا بقية الصفوف . أما المدرس الوحيد للرياضة ، فهو توفيق الشيخ داود ، ولدرس الدين كان محيي الدين الناصري . أما المرحوم نوري ثابت صاحب جريدة (حبزبوز) ، فكان يدرّسنا الجغرافيا .

ولأول مرة في العراق أجرى المرحوم ساطع الحصري اختباراً للذكاء في الثانوية المركزية ، حيث جمعنا في قاعة المدرسة الرئيسة ووزع علينا أوراقاً مطبوعة فيها خمسون سؤالًا مختلفاً ، وطلب منا الإجابة عليها ، وعيَّن لها وقتاً محدوداً ، فمن يخرج قبل الوقت المعيَّن يسجّل اسمه مع الوقت ، أما الباقون فتؤخذ منهم الاوراق ، وتكون الإجابة طبعاً على الورقة المطبوعة نفسها ، لدراستها ومعرفة مدى صحتها ، ولكننا لم نُبَلَّغ بالنتائج ، ولم نعرف رسمياً مدى ذكائنا ، ومَنْ هو أذكانا ؟

وللطرافة والتاريخ ، فان أول اضراب وأول مظاهرة يقوم بها طلاب صغار في الابتدائية ، كانت في سنة ١٩٢٢ في مدرسة الكرخ (تطبيقات دار المعلمين) ، فقد سرت إشاعة ان اثنين من المدرسين حاولا الاعتداء على أحد تلاميذ الصف الرابع الابتدائي ، فجاءت أمه الى المدرسة صباحاً تصرخ وتولول ، وثار طلاب الصفين الخامس والسادس الابتدائي بقيادة أستاذي الاديب خالد الدرة ، وهجموا على الاستاذين وتبعهم طلاب بقية الصفوف وهجموا على غرفة مدير المدرسة المعمم الشيخ ابراهيم عثمان ، وكان صوفياً على الطريقة القادرية ، وهرب المعلمان بعد ان ضُربا وخرجنا نحن التلاميذ نهوس في الساحة وفي خارجها الهوسة المشهورة (أويلاخ كرادة قَتَلَمْ المُـلا شِجَز) ، وجاءت هيئة من الوزارة ، وهرب بقية المعلمين ثم استبدلوا ، أما المعلمان المسبّبان ، فقد تركا التدريس وسافرا الى إنكلترا وحصلا

على شهادة عالية ، وعادا الى العراق وأشغلا وظائف حكومية مهمة . واستقال عدة معلمين احتجاجاً على هذا الوضع ، فدخل أثنان منهم الى المدرسة الحربية وصارا من كبار الضباط ، وأحدهم هو محمد علي جواد قائد القوة الجوية الذي قُتل في الموصل مع بكر صدقي ، وأثنان دخلا كلية الحقوق ، وكانا من الادباء المعروفين وصار أحدهم وزيراً وتفرق الباقون . أما الشيخ ابراهيم عثمان ، وكانت له غرفة خاصة يسكنها في الطابق الثاني من مسجد الشيخ عبدالقادر الكيلاني باعتباره أحد المريدين ، وقد توفي بعدئذ ولم يشعر به أحد الى ان انتشرت رائحة جثته رحمه الله .

وفي أواسط العشرينات قامت جماعة من المثقفين ، يرأسهم الوطني الموصلي ثابت عبدالنور بتأسيس المعهد العلمي المسائي لتعليم بعض الشباب الأصول التجارية الجديدة ومسك الدفاتر القانونية ، وكان يكفي أن يحمل التلميذ شهادة الابتدائية واستأجروا البيت الملاصق لقهوة البرلمان مقابل جامع الحيدرخانة وانتمى اليه بعض الشباب ، مثل : عبدالغفور اليونس ، وعبدالستار قدوري ، وعبدالجبار بغدادي ، وسليم زلوف ، ومصطفى الدرة ، وداوم فيه السيد قاسم حمودي بضعة أيام ، ثم ترك لانشغاله بأعمال العلاوي ، وكانت أجرة الدراسة عشر ربيات شهرياً ، أي (٧٥٠ فلساً) . ومن جملة المدرسين فيه ، الأساتذة : انطوان شماس ، ويوسف غنيمة ، وفيكتور عيسائي ، ويوسف الكبير ، وحجي كمال ، وتوفيق السويدي وغيرهم .

وكانت في الطابق التحتاني للمعهد قاعة للمطالعة للجميع لقراءة الصحف ، وتزدحم القاعة هذه يوم وصول الجرائد السورية ، وهي : (بردى) ، و (قاسيون) ، و (الشهباء) . وكنا نطلع فيها على أخبار الثورة السورية ، وبطولات ابراهيم حنانو ، وحسن الخراط ، وعصام محمد مريود ، وآل دندش ، وفيصل العسلي ، وفوزي الغزي ، كما نطلع على أخبار ثورة الدروز وبطولات سلطان باشا الاطرش ، وشكيب وهاب ، والمير محمود الفاعور ، وبقية زعماء الدروز ، كما كنا نطلع على الجرائد البغدادية ، وهي : جريدة (الشعب) لسان حال ياسين الهاشمي ، وجريدة (الامة) لسان حال الچرچفچي ، وبقي المعهد قائماً بضع سنين ، ثم أُهمل أمره وترك ثابت عبدالنور الوطنية ، وانصرف الى المزرعة التي حصل عليها بجوار ناحية العزيزية ، وحاول الزراعة الفنية ، ولاول مرة في العراق زرع نبات (الجلجل) ، وهو القنب الذي ينبت بكثرة في بنكلاديش ، ولكنه فشل أخيراً وباع المزرعة الى الحجي عبدالحسين البحراني ، ولم نعد نسمع عنه شيئاً .

أما الجرائد المصرية ، فلا يصل منها إلا (الاهرام) ، و (المقطم) ، وفيها كنا نطلع على أخبار الملك فؤاد والإنكليز وخلافاتهم مع حزب الوفد وبقية الاحزاب الوطنية الاخرى ، خصوصاً بعد مقتل الجنرال الإنكليزي السردار (لي ستاك باشا) قائد الجيش المصري . كما اطلعنا بالتفصيل على الضجة الادبية والدينية في مصر بعد صدور الكتابين المشهورين ، وهما : (الإسلام وأصول الحكم) لمؤلفه علي عبدالرازق ، العالِم الازهري الذي فصل من الازهر بسبب هذا الكتاب ، والثاني هو كتاب (الادب الجاهلي) للدكتور طه حسين ، والذي ناقش فيه الشعر الجاهلي والمعلقات السبع ، حيث عمت الضجة الادبية كافة البلدان العربية . هذا عدا عن الكتب التي ألّفها سلامة موسى ، ومقالات اسماعيل مظهر ذات الآراء الجريئة والحديثة .

الــدواوين

بغداد في العشرينات صغيرة مساحةً ونفوساً ، لاجل تناقل الاخبار ، ومعرفة ما يجري في بغداد من حوادث وأمور اجتماعية واقتصادية وعسكرية وغيرها . ولعدم وجود الجرائد ، كان الناس يرتادون المقاهي لتبادل المعلومات والاحاديث ، أو للدواوين الموجودة في بيوت الوجهاء والعلماء والبارزين من الناس . فالديوان ، ندوة والمقاهي لا تشبع رغبة الناس في المعرفة أو معاشرة المتميزين ، لذلك أُسست الدواوين ، فكان منها الادبية والتجارية والسياسية والترفيهية والمختلطة . ومن الطبيعي أن يملك صاحب الديوان بيتاً (حرم وديوهخانه) ، ليكون الزوار بعيدين عن العائلة على وفق الاصول المتبعة ، كما يحتاج الى مَنْ يخدم الضيوف ويقوم بأمرهم ، فالبحبوحة المالية وحُسن الاستقبال وحلو الحديث من أهم مستلزمات صاحب الديوان . ففي جانب الكرخ كان ديوان بيت السويدي في محلة خضر الياس وصاحبه يوسف السويدي ، العالِم والسياسي ومن رجال الثورة ومؤسسي الدولة العراقية . وكان قصره يطل على نهر دجلة مباشرة ويرسو على شاطئه زورقه البخاري . وكان مجلسه يضم السياسيين والوجهاء وعلى رأسهم صديقه الحميم السيد علي السامرائي والد السيد هاشم السامرائي مدير التجنيد العام السابق . وكان أولاده ، وهم : ناجي ، وتوفيق ، وعارف يشاركون في استقبال الناس حين يكونون في بغداد . أما ابنه ثابت ، فقد استشهد في معارك القفقاس قبل الحرب العالمية الأولى ، وأصغرهم وهو الدكتور شاكر ، فقد نقل من بغداد الى العمارة لسبب من الأسباب .

وللسويدي ابنة تزوجها الحجي حسن الخضيري وأنجبت له كامل الخضيري واخوته : خالد ، وابراهيم ، ومحسن ، ومحمد ، وبنت أخرى تزوجها عبدالعزيز المظفر . وفي بداية الحكم الوطني صار يوسف السويدي رئيساً لمجلس الاعيان ، وناجي وزيراً ، وتوفيق رئيساً للوزراء ، وازدحم الديوان بشكل غير عقلاني بطلاب الحاجات المشروعة وغير المشروعة ، مما اضطره أخيراً الى اغلاق الديوان ، بحجة وجوده في المجلس أو في البلاط الملكي ، ولم يفتحه إلا يومين في الأسبوع .

ولما توفي وانصرف الاولاد الى أعمالهم ويئس الناس من المنافع المرجوة انقطعوا عن ارتياد الديوان تقريباً .

أما الديوان الثاني في الكرخ ، فكان ديوان المرحوم الظريف عبدالمجيد الشاوي ، وزلمته المشهور (بانوس) ، وكان مفتوحاً للادباء والظرفاء وبعض رجال السياسة . أما الثقلاء ، فلا محل لهم ما دام بانوس موجوداً . ومن رواده الدائميين الملا عبود الكرخي ، وخيري الهنداوي ، ومحمود مصطفى الخليل ، وعبدالرحمن البنا ، وقاسم العلوي ، ومحمود الشيخ علي . وكان عبدالمجيد بك هاوياً للخيل . وقد توفي في بيروت ، وكان قد نُقل اليها للمعالجة الطبية ، وخلفه ولده المرحوم سعدون بك الشاوي .

وفي الكرخ ديوانان يغلب عليهما طابع العلم والفقه ، وهما ديوان المجتهد الكبير الشيخ شكر ، ومريده الدائم الحجي جواد الشكرجي . وديوان الشيخ أحمد الظاهر والد عبدالهادي وعبدالرزاق ، وبينهما ، وبرغم صداقتهما نوع من التحدي . فالشيخ شكر أقرب الى الزهد ، وأحمد الظاهر أقرب الى الزعامة حتى تنازع الأولاد ، فقتل حسن ابن شيخ شكر برصاص ابن أحمد الظاهر .

وهناك ديوان آخر فقهي وعلمي ، وهو ديوان عبدالسلام الشواف أبو القاضي محمود عزة عبدالسلام . وديوان آخر هو ديوان بيت هويدي عبدالغني وسعيد . وديوان الوجيه السعودي الدمشقي الحاج نايف سليمان الصالح الأديب العالمي . ويقع بيته في الطريق المؤدي الى قهاوي عكيل قرب بيت خضر أفندي ، أي بيت السيد هاشم العلوي مدير الشرطة العام الأسبق والذي كان يسمى هاشم العلوي آل خضر أفندي . وقد ترك الحجي نايف بغداد الى دمشق في أواخر العشرينات ، وترك وراءه مكتبته الكبيرة وولديه اللذين سكنا في محلة العاقولية . وكان لا ينبت الشعر لا على رأسهما ولا أهدابهما ولا جفونهما ولا وجهيهما ، ثم هاجرا أخيراً الى دمشق .

ومن دواوين الكرخ ، ديوان السيد منير القاضي في محلة الشيخ بشار ، ويرتاده المعممون من محبي الأدب واللغة العربية ، ومنهم طه الراوي ، وآل القصاب ، ومحمد الهاشمي ، وتوفيق الفكيكي ، وقسم من بيت الشَواف . ولا بد من ذكر ديوان بيت اللاحم الذين صاهرهم الشيخ ضاري المحمود وديوان بيت الزئبق القريب منه ، وبعض الدواوين الاخرى التي يضيق المجال بتعدادها ، مثل : ديوان عبدالله الخضير في الفحامة ، وديوان علي ناصر الجبوري ، وديوان باقي عبدالرزاق منير ، وديوان

مجيد يتيم مقابل حمّامه (حمّام أيوب) ، وحمودي الوادي ، وديوان محمد سعيد مصطفى الخليل ، وديوان محمد وجارالله ، وبيت حسن السليمان ، وبيت حمدان ، وبيت الخنيني ، وبيت جمهور ، ودواوين الجبور ، ومنهم بيت المختار .

وهناك ديوان ابراهيم الأرضروملي في قصره المطل على نهر دجلة في محلة باب السيف ، وزواره معلومون ومحدَّدون وأكثرهم أصحاب طرب وفرفشة ، ومنهم : نوري السعيد ، والملا عبود الكرخي ، كما ان منهم أصحاب مصالح تتعلق بالتزامات وأملاك ابراهيم أبو قدري . وكنا نسمع أخبار هذا الديوان من ولده قدري الذي كان ينقل لنا يومياً أخبار ما يدور في بيته ، إذ كان تلميذاً معنا في مدرسة تطبيقات دار المعلمين في الكرخ . وهناك ديوان صغير يقع بين قصر المندوب السامي البريطاني ، وبين جسر مود ، وهو ديوان الحجي أحمد الكردي تاجر الشيلمان والحديد . وأكثر رواده من أقربائه الأكراد الفيلية أصحاب المصالح . وقد ينعقد ديوانه هذا في محله التجاري الواقع في شارع المستنصر قرب قصر الدكتور جوبنيان مقابل مجلس الطائفة الإسرائيلية .

وفي الرصافة دواوين كثيرة ، منها : ديوان الأديب المؤرخ عبدالله اثنيان وأخوه عبداللطيف ، وكان ديوانه في بيته الواقع في سوق الصفافير في الشارع الأول الى اليسار للداخل الى السوق من شارع الرشيد . ومجلسه في الديوخانة المبلط بالمرمر الأبيض مع حوض الماء والنافورة ، وهو قريب جداً من خان السيد حسين يحيى حيث محل تجارة أشقائي . فكنت أجلس على (الكرويت) مع أولاد الزائرين ونستمع الى مجادلاتهم وأحاديثهم الأدبية والتاريخية ، ولم يخلف عبدالله ولداً ، بل ان يحيى اثنيان ابن أخيه عبداللطيف حاول طبع كتب عمه عبدالله في مصر ، ولا أدري هل تم ذلك أم لا ؟

ثم ديوان الحاج داود أبو التمن ، ويكاد يكون حزباً سياسياً اقتصادياً . وكانت مختلف طبقات المجتمع في ضيافة وكرم الحجي داود عم جعفر چلبي أبو التمن . هذا وقد أنفق الحاج داود ثروته على الناس وعلى الحركة الوطنية .

وديوان الحاج أمين الجرجفچي ، وديوان طاهر چلبي محمد سليم (الراضي) في محلة الصدرية . ويلتقي فيه الظرفاء والوجهاء ومحبي الأدب ، مثل : حبيب العبوسي ، والقصصي محمود أحمد السيد ، والسيد اسماعيل الخطيب ، وعبدالرحمن الجلجلوتي ، وعبدالوهاب ملوكي ، ومنير عباس ، ومكي الدروبي

وغيرهم . وكان طاهر چلبي مثلًا في الأناقة والوسامة ، وكانت عربته (اللاندون) تجلب أنظار الناس في شارع الرشيد برونقها ولمعانها ، وندر أن يكون وحده في العربة ، بل لا بد من صديق أو رفيق . وقد خلف أولاداً كراماً ماتوا مع الاسف متسممين بمرض إنسداد الكلى .

ثم ديوان بيت عارف آغا خلف قهوة عارف آغا ، وأكثر روادها من الاتراك المتقاعدين أو من وجهاء بغداد وملاكيها . وكان ابنهم التلميذ معنا في مدرسة التفيض الأهلية ينقل لنا أخبار ديوانهم ، وقد أكرمونا وأكرموا هيئة التدريس عدة مرات إكراماً لابنهم . ومقابل قهوة عارف آغا ، كان ديوان أحمد القيمقچي ، وهو ديوان فكاهة وفرفشة ، وأكثرهم جيران له ، مثل : الدكتور فائق شاكر ، واسماعيل الصفار ، وجلال العزاوي . وكانت أحاديثهم تسمى (شقشقيات القيمقچي) ، وكان الشخص الفكه المحب للنكتة يسمى (شَقَنْدَجِي) ، لذلك أطلق عليه القيمقچي الشقندحي ، وهو أبو الدكتور احسان والدكتور أنور . ولا يتحداه في ذلك غير الفكه الآخر الدكتور فائق شاكر . وفي آخر الزقاق وبالقرب من جامع السراي ، كان ديوان محمود چلبي الشابندر ، وفيه ترى الوجهاء والتجار وملتزمي مقاطيع العمارة والمتنازعين من التجار ليفصل بينهم . ومقابل جامع الحيدرخانة ، جوار المعهد العلمي ، كان ديوان رؤوف بك الچادرچي ، قبل أن ينتقل الى لندن ويسكن فيها ويموت . وهو الذي أجَّر بيته ليكون مقراً لحزب الاخاء الوطني بعد ان فتح له باباً مقابل جامع الحيدرخانة .

أما ديوان بيت مامو وعميده القانوني الشهير حمدي صدرالدين وأخوه الأستاذ سالم مامو ، فكان في الزقاق المقابل لقهوة الزهاوي . وبالقرب من النادي العسكري كانت مدرسة وديوان الفقيه المرحوم الشيخ أمجد الزهاوي ، ويضم الفقهاء والقضاة وطالبي الفتاوى ، وهو مفتوح يومياً ، وعلى رأس سوق الهرج في شارع الرشيد وفي الطابق الفوقاني ديوان عبدالحليم الحافاتي ، ويرتاده مَنْ يحسن (القشبة) ويختلق المثالب ويجيد الشتائم ، خصوصاً إذا كانت ضد الملك فيصل الاول ، أو أحد الوزراء ، لأن عبدالحليم لم يستفد من الملك فيصل أو من وزرائه ، لا مادة ولا معنى . وفي أواخر العشرينات شيد يوسف عزالدين ابراهيم باشا بيته الكبير في طريق الاعظمية وفتح ديواناً ليوم واحد في الأسبوع ، وقد استوزر في زمن بكر صدقي للمرة الأولى والأخيرة ، ثم أغلقه على الناس وعلى نفسه ، وفي الأعظمية كان ديوان الكليتدار المعمم السيد ناجي (الأعرج) مقابل جامع أبي حنيفة ، وهو مفتوح يومياً

كديوان ومحل عمل . وبالقرب من جسر مود ، خلف كازينو شريف وحداد كان ديوان سليم الزيبق والد عيسى وماجد الزيبق ، وأكثر ما يستقبل موظفي الحكومة والنواب وزائري بيت الباجهچي المجاور له . وفي باب الشيخ كان ديوان ومدرسة المرحوم يوسف العطا في الطابق الثاني من مسجد الكيلاني ، وكان ديواناً فقهياً خالصاً قليل الرواد ، نظراً لعصبية وحدة المرحوم يوسف وانشغاله بطلابه وفي الطابق نفسه .

ثم ديوان النقيب في قصره بالسنك على نهر دجلة ، ويستقبل فيه الأصدقاء المقربين الذين لا يرتادون مقره في (الدارگاه) الذي كان ديواناً لأعماله ، وهو أكبر دواوين بغداد مساحة وأكثرها رواداً . وفي آخر شارع الرشيد ديوان الحاج ياسين الخضيري في قصره المطل على دجلة ، ويرتاده مختلف طبقات الناس من مزارعين وتجار وموظفين ، ويستمتعون بحكايا ياسين الخضيري وشتائمه التي لا تنقطع على العدو وعلى الصديق والتي كان يتقبلها الجميع بالرضا والمرح . وفي محلة الفضل كانت مدرسة وديوان العالِم الأديب الشيخ عبدالوهاب النائب ، وكان مفتوحاً في جامع الفضل . أما في محلة قمبر علي ، فكان ديوان بيت (جميل زادة) ، وهو البيت الذي كان يتبارى مع بيت النقيب في المجد والجاه . وكان أكثر رواده من الذين كان ودهم مفقوداً مع بيت النقيب .

كانت هناك دواوين خاصة بالنساء ، وهي تختلف عن أيام القبول ، فالديوان الدائم شيء ، والقبول الأسبوعي أو الشهري شيء آخر ، سواء في نوعية الوافدات أو الاحاديث التي تدور فيه والتي يغلب عليه طابع الجد والحشمة . ومن أشهر دواوين الكرخ النسائية ، ديوان الشقيقتين عواشة وخديجة ابنتي علي الجواد ، وهما عمات المرحوم الصحفي قاسم حمودي ، وكن خطيبات مفوهات ، وغالباً ما يُطلب اليهن خطبة إحدى البنات أو الذهاب الى مجالس التعزية أو التهنئة ، أو لحل بعض المشاكل العالقة بين عائلتين . وكنت تسمع دق هاون القهوة من بعيد اعلاناً بافتتاح الديوان . والديوان الآخر ، هو ديوان تاجة الصقير في الفحامة ، وهي أُم عبدالعزيز الصقير تاجر الجمال (ليس عبدالعزيز الصقير السعودي) . وكان ديوانها مفتوحاً في الليل والنهار وقهوتها جاهزة . وكانت تستشار في كثير من الأمور التي تحدث في محلة الفحامة وما جاورها من محلات الكرخ . ثم ديوان حصة المطرود في محلة عطا بالكرخ ، وترتاده أكثر نساء عگيل ، وهي جدة الدكتور محمد البغدادي طبيب الأعصاب ، وحين قتل ابنها من قبل فيصل الدويش وجماعته من الوهابيين في

مذبحة (البصية) في منتصف العشرينات أغلقت ديوانها واعتكفت حزناً على ولدها الوحيد .

وفي الاعظمية ديوان (أم مصطفى) ، وهي أم السادة مصطفى وحمدي وابراهيم وأحمد الاعظمي . وكان لها ديوانان ، أحدهما في بستان السيد أمين المشهورة ، والتي أصبحت محلة السفينة جزءاً كبيراً منها . وديوانها الآخر كان في بيتها . وفي بغداد أيضاً ، كان ديوان خجة خان بنت عبدي باشا ، آخر والي في بغداد قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان في محلة جديد حسن باشا . ويرتاده الأتراك من موظفي الحكومة العثمانية القدماء ومن رفاق زوجها . وكانت مشهورة بقسوتها وعنفها .

واستكمالاً للبحث ، فان ديوان محمود صبحي الدفتري المسمى (صالون الجمعة) ، فقد اشتهر في الثلاثينات وليس في العشرينات . أما ديوان حكمة سليمان ، الذي كان في حديقة مقبرتهم خلف أمانة العاصمة ، فلم يكن يستقبل فيه غير أصدقائه ، وخصوصاً في أيام خلوه من الوظيفة والمنصب واتخاذه موقف المعارض . أما في أيام الحكم ، فلا يستقبل أحداً .

وفي بغداد بيتان مشهوران يلتقي فيهما الناس ، ولكنهما ليسا من الدواوين الاجتماعية ، بل هي دواوين مؤقتة لعمل معيّن ، أولهما ديوان بيت شيخ گمر قرب الشيخ عمر ، وبيت الشيخ گمر ، بيت معروف ومحترم ، ويلتقي فيه طبقات الصوفية وقراء الأذكار والأدعية من السادة الصوفيين ، ويقصده كذلك المرضى الذين يأملون نوال الشفاء بشفاعة هذه العائلة أو التعاويذ والرقى التي يكتبها لهم رئيس العائلة ، وكثيراً ما يذهبون الى الارياف لمداواة الناس وعمل التعاويذ لهم .

أما البيت الثاني ، فهو بيت السادة ابراهيم الشبل ، وهو سيد محترم في قومه شجاع في أيامه وله صلة صداقة بالملك فيصل الأول وياسين الهاشمي ، وكثيراً ما كانوا يكلفونه بحل إحدى المشاكل أو القيام بعمل سياسي لاستقطاب جماعة من الناس لبعض الأهداف السياسية ، ثم ينتهي ديوانه ويظل ينتظر تكليفاً آخر من الملك فيصل أو الهاشمي .

وفي الكرخ دواوين مختصرة يرتادها أهل المحلة فقط ، مثل : ديوان الحجي رشيد دراغ ، وعلوان الطرفة ، وبيت حمدان ، ويندر أن يرتاد هذه الدواوين أُناس من أطراف بغداد أو من المحلات البعيدة .

لقد كان قسم كبير من محلات العبادة يقوم مقام الدواوين وأكثر . فالحسينيات المنتشرة في بغداد ، كانت ملاذاً لكثير من الناس . ففيها يجتمعون ويتناقلون الاخبار ويفضون مشاكلهم ، علاوة على التفقه في أمور الدين والدنيا يحدثهم عنها المجتهد أو المؤمن الموجود بالحسينية ، لذلك لم تكن هناك حاجة ماسة الى دواوين ، ما دامت الحسينيات مفتوحة ليلًا ونهاراً تلبي حاجات الناس ومطالبها . ومع هذا كانت هناك دواوين للوجهاء في المحلات ، مثل : ديوان أبو التمن ، وديوان السيد محمد الحيدري ، وديوان الشيخ شكر ، وديوان الشيخ أحمد آل الظاهر ، وديوان أمين الجرجفچي وغيرهم كثيرون .

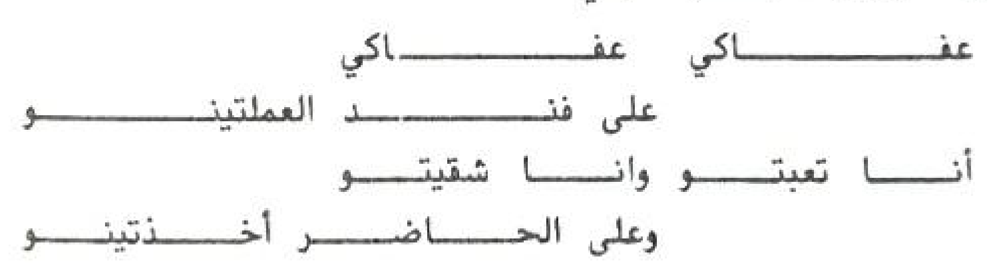
كانت الاحاديث في الدواوين ذات شقين ، الأول ، حول أوضاع بغداد الاقتصادية والاجتماعية وعن أصول العوائل وغيرها ، وذلك حسب نوعية المجتمعين في الديوان . والشق الثاني ، يتناول الحكومة العراقية وموظفيها وأحوالها ، فلا هي استمرار للحكم العثماني ، ولا حكم إنكليزي صرف ، ولا هو حكم عراقي عربي . فالناس حائرون والموظفون كذلك . وكان البحث يدور حول موظفي الحكومة ومحاسنهم ومساوئهم ، ومَنْ هو المتسلط والنافذ الكلمة ، ومَنْ هو التافه منهم ، بما فيهم الوزراء . ففي البلاط الملكي ، كان الحديث يدور حول نفوذ الشيخ عبدالله المسفر (المضايفي) . بعد رستم حيدر . وقد حصل عبدالله على أراضٍ واسعة في ناحية (كاسل بوست) بآخر مدينة بغداد الجديدة ، وهو أبو عبيد المضايفي مرافق الملك . أما في مجلس الوزراء ، فكان الحديث يدور حول نفوذ حسين افنان حفيد عباس عبدالبهاء زعيم الطائفة البهائية . أما في الوزارات ، فبصرف النظر عن المستشارين البريطانيين أصحاب الكلمة العليا ، كان بعض العراقيين يتمتعون بنفوذ واسع داخل أروقة الوزارة ، وأشهرهم : علي العزاوي فراش وزير الداخلية ، وعلاوي الخشالي فراش وزير المالية (إذا لم يكن الهاشمي وزيراً) . وقد عدا نفسيهما مدراء لمكتب الوزير ، يقرّبون مَنْ يشاؤون ويبعدون مَنْ يشاؤون . وفي وزارة الدفاع كان أحمد المناصفي لصداقته مع نوري السعيد ، وفي وزارة العدل كان المتنفذ في أروقة الوزارة هو كاتب العدل عبدالغني ، حتى جاء صبيح ممتاز فاستولى على النفوذ والسلطة . وفي الخارجية كان باهر فائق متمكناً ، وحين عيِّن فاضل الجمالي مديراً عاماً للخارجية حاول تقليم أظافر باهر ، ولكنهما اصطدما بعنف كلامياً وجسدياً . وفي وزارة الزراعة كان درويش الحيدري ، لخشونته . أما في وزارة المعارف ، فكانت الكلمة

الاولى والاخيرة الى السيد حسام الهادي ، رغماً عن أي وزير جاء الى المعارف . وفي وزارة الاشغال والمواصلات كان سليم ترزي متسلطاً على البرق والبريد ، وشوحيط على السكك الحديدية . وفي مجلس الاعيان والنواب ، كان محمود شويلية هو المتسلط . وفي الشرطة العامة ، كان الشاب الوسيم جوري اسطيفان مترجم وسكرتير الكرنل بريسكوت . أما الاهلين من ذوي الكلمة النافذة عند الحكومة ، فكان دائماً يرد اسم نافع المصرف ، ويوسف العطا (خصوصاً بعد مجيء الملك علي) ، وداود چلبي أبو التمن ، وأمين الچرچفچي ، والشيخ شكر ، والسيد ابراهيم الشبل ، وابراهيم الارضروملي (صلته بنوري السعيد) ، وغير هؤلاء كثيرون . وقد بقيت الدواوين وحتى أصحاب الدكاكين والباعة في الاسواق تتحدث عن قصيدة معروف الرصافي في حكومة جعفر العسكري منتصف العشرينات والتي هرب لمدة سنتين على أثرها ، وهي :

في الكـرخِ من بغـداد مـرَّت بنـا
يـومـاً فتـاةٌ من ذواتِ الحجـاب
تمشي الهـويـنـا في جـلابيبِهـا
مشيـة إحـدى المـومسـات القحـاب
قـال جليسي يـوم مـرَّت بنـا
مَنْ هـذه الغـادة ذات الحجـاب
قلتُ لـهُ تلـك لأوطـانـنـا
حكـومـة جـاد بهـا الانتـداب
ظـاهـرهـا فيـه لنـا رحمـة
والـويـل في بـاطنهـا والعـذاب

ولم يكن لليهود دوارين ، إلا ديوان واحد في مدينة عانة لصاحبه سلمان عزير ، وهو يلبس العقال والبشماغ . وله ديوانان ، أحدهما بيت شَعر كبير وفيه القهوة والمنقل ، وبيت للضيوف المدنيين . وكان سلمان صاحب علاقات زراعية وتجارية كثيرة على طول خط نهر الفرات ، من عانة الى حلب ، وهو الذي أتاح لي فرصة رؤيا طقوس الصلاة اليهودية في العيد الكبير (الكبور) من على شرفة داره المطلة على الكنيس اليهودي في محلة الشريعة ، كما يَسَّرَ لي رؤية بعض أجزاء من التوراة

القديمة المحفوظة في اسطوانات فضية ذات رأس مدبب ، وقد رأيت أحد الأجزاء وكان مكتوباً على جلد غزال رقيق جداً باللغة السريانية . وقد هاجر هو وأولاده وسكن حلب في أواخر الثلاثينات . أما بقية البيوت في بغداد ، فكانت مفتوحة لاستقبال ذوي المصالح والحاجات ، مثل : بيت مناحيم دانيال وابنه عزرا ، وكانا عضوين في مجلس الأعيان ، وبين النائبين في المجلس النيابي الياهو العاني وروبين بطاط . أما بقية وجهاء اليهود فيستقبلون جماعتهم أيام السبت ، وذلك لقضاء بعض المصالح أو الواجبات ، أو يذهبون لزيارة رئيس الطائفة وأعضاء المجلس الجسماني في بيوتهم . أما مركز تجمعهم يوم السبت (عطلتهم) ، فكانت في قهوة موشي بشارع البنك ، حيث تكتظ بالرواد والباقون يتوزعون على مقاهي الطرف (المحلات) . وفي بقية أيام الاسبوع ، فان محلاتهم التجارية الكبيرة تقوم مقام الدواوين . ومن الملاحظ ان اليهودي البغدادي يتمتع داخل بيته بكل النِعَم والاطايب المتوفرة ، فهو داخل بيته ليس مثله في خارجه ، وحفلات الأفراح عندهم كثيرة وأهمها أفراح الختان ، وهم لا يؤخرون ختان الأولاد أكثر من ثلاثة أشهر رعاية للطفل وابعاد الأذى والألم عنه . والثاني ، أفراح الأعراس . ولقد دعيت مع أخي في منتصف العشرينات الى عرس رحمين بن سمحة أُم الأزر ، وهي حائكة أزر لنساء اليهود ، وليست غنية ، بل متوسطة الحال . ولقد ذهلت وبهرني ما رأيت من إمارات البذخ والترف ، وبما في البيت من الأثاث والرياش . وقد حضر في العرس القارىء رشيد القندرچي ، ويوسف حوريش ، وسلطانه يوسف ، والموسيقيون عزوري ويوسف بتو ، والحاج يوسف كريلائي ، وسمعت في هذه الحفلة الأغنية التقليدية التي تطلب أُم العريس غناءها عتباً على العروس التي سلبت منها ابنها ، وغنّاها يوسف حوريش باللهجة اليهودية البغدادية ، وهي :


عفـــــــاكي عفـــــــاكي
على فنـــــــد العملتينـــــــو
أنـــــا تعبتـــو وانـــــا شقيتـــو
وعلى الحـــاضـــر أخـــذتينـــو

وحين خرجت من الحفلة ملأت سمحة جيوبي من المكسرات ، كالفستق واللوز والجوز ، مع كيس من الحلويات ، لم تزل (لذتها جوه اسنوني) . كما يقول المثل البغدادي . وكان اليهود في بغداد يحتكرون وحدهم أربعة مهن ، هي : أولاً ، صياغة

النهب ، فلم يكن هناك أي مسلم أو أرمني يقوم بهذا العمل ، ثانياً ، بيع وشراء الاشياء البيتية المستعملة ، ويقال لهم في جانب الكرخ (أبو بيع) ، وفي الرصافة (أبو ايسكي) . وثالثاً ، عمل الصيرفة على الماشي وفي المكاتب . ولكن ظهر في أواخر العشرينات صرافون مسلمون ، هم : عبدالأمير الصراف ، والسيد حسن الكاظمي أبو عدنان ، وجابر الطحان ، وعبود قطان . ورابعاً ، أعمال المقايضة مع الفلاحين في المزارع والقرى القريبة من بغداد ، فتراهم يركبون الكدش ويلبسون العقال واليشماغ . ويبادلون الابر للخياطة والمعاضد الزجاجية للبنات وغيرها من المسائل الرخيصة ، وذلك مقابل البيض والدجاج وبعض الحبوب ، مثل السمسم والاذرة . وتراهم مساءً وهم راجعون محملين بما حصلوا عليه في ذلك اليوم .

أما المسيحيون ، فليس عندهم دواوين ، ولكن الناس يزورون علماءهم ووجهاءهم ، مثل : بيت سركيس ، أو يوسف غنيمة ، وجورج جورجي ، أو القس في الكنيسة ، حيث ديوان الأب انستاس الكرملي وغيره . أما الصابئة ، فانهم يزورون رئيسهم الشيخ عنيسي الفياض في دكانه الكبير جداً في شارع النهر مقابل بيت لنج لقضاء مصالحهم ، كما كانوا يزورون عالِمهم الكبير الشيخ زهرون ليزدادوا علماً بشعائر دينهم واداء طقوسهم .

المجادي والمجاذيب

كانت أزقة ودرابين الكرخ تموج بالمجادي وقت المساء ، وأكثرهم من الإيرانيين المنقطعين ، وزوار العتبات المقدسة في كربلاء والنجف والكاظمية ، وحيث ان سبل الرزق في العراق قليلة لأهلها حين ذاك ، فكيف للغرباء العجم المكروهين من أهالي بغداد ، ولان موعد طبخ الرز في المساء ، بسبب عودة رب البيت من عمله ، فتراهم يحملون الكشكول أو العليجة التي يضعون فيها ما يحصلون عليه من صدقات أو طعام ، وينادون بصوتٍ عالٍ : (مِنْ مالِ الله والسخي حبيب الله) ، و (الصدقة تدفع البلاء) ، و (حسنة قليلة تدفع بلايا كثيرة) . ويقابلهم الناس والأطفال بالقول الإيراني الخالد : (خُدَا بدا) ، أي الله يعطيك ، وهي أول الكلمات الإيرانية التي تعلمناها ونحن صغار .

وكانت الناس تخشى أن تفتح أبواب بيوتها لهم . فالمشهور عنهم انهم خطّافو أطفال ، إما للإتجار بهم ، أو لشق بطونهم واستخراج أكبادهم ، لأن أكباد الأطفال ، كما يقال في ذلك الزمن علاج ناجح لمرض (الآجلة) ، أي السرطان ، وكانت الأم تخيف أطفالها بقولها : (جاك الخناگ) ، أي الذي يخنقك ويستخرج كبدك . والمجادي أيضاً موجودون في الشوارع والمقاهي ، سواء من العجم أو بقايا الأتراك أو أكراد الشمال في أيام القحط ، خصوصاً في سنة لوفة المشهورة .

أما المجادي الثابتون ، وهم قلة ، فكانوا يتخذون محلات مختارة ، إما على أبواب الجوامع ، أو على طريق السراي الحكومي ، أو الطرق التي يكثر فيها السابلة ، وكل واحد منهم يحتل موقعاً ولا يدع أحداً آخر يحتله مهما كلّف الأمر .

وأشهر هؤلاء المجادي ، رجل تركي عجوز يهز رأسه دوماً ويتظاهر بالشلل ويحتل مكانه الدائم على إحدى دكّات بناية القشلة ، في مواجهة غرفة الساعات بجامع السراي ، قرب أمانة العاصمة ، وكان نداءه الذي لم يتبدل لفظاً أو نغماً ، وهو (يا اهدو يا سمدو يا مجيد) ، ويعني يا أحد يا صمد يا مجيد . أما نحن طلاب

المدرسة الثانوية المركزية ، وبقية المدارس في تلك المنطقة من بغداد ، كطلاب المدرسة المامونية والتفيض الاهلية وصغار الموظفين في القشلة وأمانة العاصمة ، فكان هذا المجدي مجال العبث واللهو والتحرش به رائحين وغادين مستقبلين شتائمه وفشاره باللغة التركية بفرح وسرور ، ولكن لا أحد منا دفع له بيزة واحدة في يوم من الايام .

والمجدي الثاني ، واسمه (أبو القيق) ، وكان يفترش مفترق الطرق في الزقاق الموصل بين شارع الرشيد وأمانة العاصمة ، وعلى حائط مقبرة والد حكمة سليمان ، والمرور بهذا الزقاق دائم لا ينقطع ، لانه يقع على طريق دوائر الدولة وأمانة العاصمة والمحاكم وسوق السراي ، وأول ما يتحرش بالمار قوله : (افندي الله وياك يا ولدي ... أحچي وياك) . وحين لا يرد عليه يعلن بصوت عالٍ : (إيه ... باچر قيق إذا جاك منكر ونكير) ، (باچر يسويلك قيق) ، لذلك سميَ أبو القيق . وكان يحتفظ ببضع حجارات خلفه وتحته ، وحين كنا نتمشى أمامه ونصيح أبو القيق ، أبو القيق يتناولنا بالحجارة والشتائم . أما إذا كانت المارّة امرأة ، فتتصدق عليه إن لم تكن تعرفه ، ولكنه يبدأ حسب الاصول بقوله : (بنتي الله وياچ ... أم حجول ... بنتي يا محناية مو باچر قيق وين تروحين) . وهكذا تبدأ فصول هذه الرواية كلما طلعت الشمس وغربت ، وهو ملازم محله ونحن وإياه بين جذبٍ وشدّ .

ومن المجادي المحترمين الذين لا يلحفون في الطلب ، المُـلّا عبد الفوال ، وهو شيخ يلف على رأسه عمامة غاب لونها من كثرة الأوساخ ، ويحمل في عبه عدة كتب ، وبيده كتاب ممزق وينادي : (فوّال ، فوّال من القمري للروبية) ، أي ان أجرتي تبدأ من القمري (الآنة الهندية وهي تساوي أربعة فلوس ، الى الربيةالتي تساوي ٧٥ فلساً) ، والذي تعطيه ، ليس لأنه فتح لهم الفال ، بل حسب ما اشتهر عنه انه ابن عم عبدالحسين الچلبي وزير المعارف . وان عقله قد لاث وترك أهله الأغنياء واتخذ مهنة قراءة البخت وأخذ الفال ستاراً للجدية . وتبدأ منطقة عمله في شارع السموأل وتنتهي بالميدان والشوارع المتفرعة من هذه المنطقة .

وهناك المجدي الحجي فرج الأسود اللون الطويل القامة جداً ، والمتسربل بالگواني الجديدة ، فهو يلبسها حول خصره وجسده ويرمي گونية أخرى على كتفيه ، بدلًا من الچاكيت وگونية أخرى يلفها على رأسه ، فيصبح وكأنه مجموعة گواني . ولم يكن يلبس نعلًا ، بل كان حافي القدمين صيفاً وشتاءً ، وكان نظيف اليد والوجه ،

مبتسماً دائماً ، صامتاً دائماً ، ومهما ضايقه الاطفال ، فان جوابه الوحيد وبصوت هامس (لا يا بلّاع الصمون) . ولم يكن يمد يده لاحد مستجدياً ، بل كان الناس يعطفون عليه ويلبسونه الكواني الجديدة ويدعونه للغداء معم ، ولم يكن منظره كريهاً ، بل كان مريحاً للعين . وكان يختفي يومي الخميس والجمعة ، حتى صار اختفاؤه عقيدة عند الناس بأن الحجي فرج وليّ من الاولياء يذهب كل خميس للعمرة بمكة المكرمة ، ويعود منها صباح السبت ، حيث تحمله الملائكة في الذهاب والإياب ، وكانت منطقة عمله وتجواله الدائم بين ساحة الميدان وجامع مرجان .

أما المخبول الآخر المجدي ، فهو رؤوف أبو الصحن ، ومن طريقة لباسه وحديثه ، يبدو انه تركي الاصل ، ويعتمر طربوشاً ويمشي راضكاً دون ان يستطيع أحد اللحاق به . ومنطقة عمله محصورة أيضاً بين جامع مرجان وباب المعظم . ولكن أكثر نشاطه ينحصر في محلة الميدان وأسواقها ، وكان النداء الوحيد الذي يثيره هو (بالصحن ، بالصحن) ، ولا أدري ما هي قصة (الصحن) ، ولكن الصغار والكبار يلحقون به ويصيحون بالصحن ، وهو يركض أمامهم ، وحين تضيق به الحال يرتد عليهم بالحجارة يقذفهم بها شمالاً وجنوباً ، وهو يصرخ . أما رواد المقاهي والجالسون على الطريق فيشتركون في هذه المعمعة صائحين بالصحن ، بالصحن . وبعد أن يتعب رؤوف يتغيب ولا يلبث أن يظهر في صباح اليوم الثاني ، وتبدأ عندها ملحمة الصحن ، كما كان في اليوم السابق .

وهناك أثنان من المجاذيب المشهورين والخطرين ، لانهم يرمون الناس بالحجارة وبقسوة وأينما اتفق على المعتدين وغير المعتدين من المارة وأصحاب الدكاكين ، وهم : أولاً ، (حجي موت) ، والذي يلبس كل يوم لباساً خاصاً مزيناً بالعقود والمسابح والخرز والثياب الملونة ، ويوماً تطول لحيته ويوماً تقصر ، ويوماً يحمل جرة من الماء ، لكي لا يقال انه مجدي ، بل انه يبيع الماء ، ويوماً يلبس ملابس الدراويش بكل تفاصيلها ويتمشى في الشارع بكل وقار ، لكن صغار بغداد لا يعرفون إلا (حجي موت) ، مهما بدل زيه أو عمله ، ويبدأ الصياح وراءه وتتكسر الجرة ويبدأ برمي الحجارة كيف ما اتفق . وقد يضطر أحد أصحاب الدكاكين المتضررين الى النزول عليه وضربه وإبعاده أو يضربه أحد المارة الذين أصابتهم حجارته بطريق الصدفة .

والثاني ، وهو الأخطر والاكثر إيذاء ، ويسمى (حنتوش كس ببيبي) ، وكان

ضخم الجثة بشع المنظر مخيفه ، وكان الاولاد يركضون وراءه ويصيحون (حنتوش كس بيبي) ، ولكن على بعدٍ كافٍ ، خوفاً من حجاراته وهجومه الكاسح . وهو يوجد أيضاً في المنطقة المحصورة بين باب المعظم وجامع مرجان .

أما المجذوب الآخر ، وهو (صالح عتعت) ، وكان طويل القامة مع لحية بيضاء خفيفة ، ويلبس دشداشة بيضاء صيفاً وشتاءً ، وكان لا يستجدي ولا يؤذي أحداً ، إنما كان يمتهن سحق وتنعيم يمنيات بغداد (القبلورط) ، إذ لا يمكن أن تُلبس إلا بعد تنعيمها وتلميسها لعدة أيام من قبل صالح عتعت الذي يتمشى بها في أسواق بغداد ضاحك الوجه مسروراً معلناً للناس انه يقوم بعمله بشوق واخلاص ، وبعد ان ينتهي من تمليس زوج من اليمنيات ، كان ينتظره زوج آخر من اليمنيات ، ليبدأ دورة عمله الجديدة ، وكان يكرم على هذا العمل حسب كرم وبخل صاحب اليمني ، ويتناول غداءه عند أصحاب الدكاكين حين يمر بهم أو يدعى الى تناول لفة من الطعام ليأكله وهو ماشٍ .

والمجذوب اليهودي الوحيد ، هو (حواوه) ، وكان يتمشى في أسواق البزازين وينادي : حواوه ، حواوه ، فإذا ناداه أحد الصبيان أو الناس ، وقالوا حواوه ثار وأخذ يبصق عليهم ويشتمهم . وكان يلبس الطربوش الأحمر بغير حصير ، وكثيراً ما كان الأولاد يسلبونه منه ويمزقون دشداشته ، واضطر اليهود أخيراً الى حبسه في أحد البيوت ، ولم نعد نراه بعد هذا .

وفي جانب الكرخ ، لا أذكر من المجادي أو المجاذيب أحداً ، إلا امرأتين ، وهما : بلبل أم رشودي ، وننه ، وكانتا هادئتين ساكنتين تبدآن صباحهما مشياً في الأزقة والدرابين وتنهيان اليوم بالمبيت في إحدى البيوت ومع إحدى العجائز . وكانتا تتجولان بين محلات سوق الجديد وسوق حمادة ، وجامع عطا ، وعلاوي الشيخ صندل ، والدهدوانة . ولا بد من ذكر المجديّة المجذوبة (عيشة طيري) . وكانت تتجول ما بين شارع البنك والميدان وجانب الكرخ ، وتحمل في جيوبها بعض الحجارة . وكان الأطفال يعرفونها ويعرفون وقت مرورها ، إذ كان لها وقت معلوم تبدأ فيه الجولة وتنهيها ، وكانوا يصيحون وراءها (عيشة طيري ، عيشة طيري ، ضيعتي چفچيري ، ضيعتي چفچيري) . فتلحقهم بالحجارة ركضاً ورجماً ، ثم تستريح في أحد البيوت وتنال منهم ما قسم الله من طعام ، ثم تذهب لحال سبيلها بعد ان تكون قد رمت كل الحجارات . وحين كانت تمر في الأسواق ، ولا ترى أحد يلحقها تتناول حجاراتها وتحدّث نفسها : (وينكم ، وينكم ، يا مكاميع ، يا مكاميع) . وحين لا يرد

عليه أحد ترمي حجارتها على الأرض وترجع الى بيتها خائبة .

أما اليهود في بغداد ، فكان فيهم كثير من المجادي ، ولكنهم لا يستجدون علناً ، فكل تاجر يهودي يضع طاسة من الصفيح على مكتبه ويملؤها (بيزات) ، والبيزة تساوي ربع عانة . وكان جموع الفقراء من اليهود تمر كل يوم جمعة على التجار اليهود والباعة (قبل أن يبدأ الشبّات ، أي السبت باللغة العبرانية) ، وبسكون وهدوء يتناول البيزا ، أو القرش من التاجر ، أو البائع ويذهب لحال سبيله بعد ان يكون قد جمع من القروش ما يكفيه للأسبوع .

أما المسيحيون ، فكان المجادي يوجدون بالكنائس وعلى أبوابها ، خصوصاً في أيام الأحد ، حيث تُقدم وتوزع عليهم النذور والصدقات .

وهناك تجمُع للمجادي في المقابر بانتظار الجنائز ، حيث يتناولون (السابگة) من الجرك والخبز والنقود . وتكثر هذه الصدقات السابقة (السابگة) ، وتقل حسب ثروة المتوفى ووجاهته . وأكثر التجمّع كان في مقبرة الشيخ معروف ، لانها أكبر من مقبرة الشيخ جنيد . والتجمع نفسه في مقابر الأعظمية والشيخ عمر والغزالي .

وهناك تجمعات أخرى في عيد الفطر وعيد الأضحى أمام الجوامع لتسلّم الصدقات ، وأمام أبواب الأغنياء الذين يقدّمون صدقات لكسب الأجر والثواب ، أو لكسب سمعة حسنة بين الناس . واعتادت هذه الطبقة من الشحاذين أن تحمل (عليجة أو كشكول) تضع فيه ما تحصل عليه من شغل النهار ، ومثلها مثل الدروايش .

وفي الكرخ رجل مشهور اسمه (حاوي) ، وعده بعض الناس من الشحاذين . وهذا خطأ ، لا حاوٍ لم يكن شحاذاً ، بل كان طفيلياً ، وكان (أشعب) القرن العشرين . فلم تكن تغيب عنه وليمة كبرى أو دسمة أو متوفى ثري ، فيركض وراء الوليمة أو وراء السابقة ، وقد التف حوله كثير من الطفيليين وتزعمهم وصار مركزاً للاستعلامات يذيع عليه الأخبار المناسبة ويوزعهم على الولائم والمقابر ، لقاء مكافاة منهم من دجاج أو سمك أو حلويات نادرة أو كليچة ممتازة ، لانه لا يستطيع أن يحضر وليمتين أو ثلاثاً في وقت واحد . وقد لوحظ في هذه الأيام الاخيرة كثرة مقلّدي حاوي ، وكثر المال المتداول عند الناس ، وعدت الولائم الدسمة التي تحوي على ما لذّ وطاب علامة على الوجاهة ورفعة المقام الاجتماعي ، أو للتباهي بالثروة وكثرة الاموال .

الألقــاب

لقد خلف الحكم الفارسي والعثماني عادة اطلاق الالقاب التي تدل على المنصب أو الرتبة العسكرية أو المقام الاجتماعي . ومن الالقاب المعروفة في بغداد ، لقب (باشا) . ولم يكن في بغداد باشاوات كثيرون ، سواء كانوا عسكريين برتبة لواء فما فوق أو مدنيين . وأشهر الباشوات ، هو محمد فاضل باشا الداغستاني ، من داغستان في القفقاس ، كما يدل عليه اللقب .وهو حفيد شامل باشا الثائر المعروف المطالِب باستقلال القفقاس من الحكم الروسي . وكان يسكن في محلة الطوب (باب المعظم) في بيت منيف يتناسب ومركزه . وكان يحتفظ بعدة حيوانات في بيته ، ومن جملتها الأسود . واشترك فاضل باشا في الثورة العراقية ، وتاريخه في موقعة الشعيبة مع المجاهدين العراقيين العرب والاكراد واستشهاده معروف . وكان يعد بغدادياً أكثر تن كونه داغستانياً . وقد خلف ولده داؤود بك ، الذي سكن واستقر في مزرعة الربيضة مقابل الصويرة وانشغل بالصيد والقنص وتربية الخيول ، وولده الآخر غازي الداغستاني ، الضابط الكبير في الجيش العراقي ، وهو الذي لطم أمين العاصمة في إحدى الحفلات العامة ، كما خلف بنتين . وقد بيعت جميع المزارع الخصبة التي كان يملكها في الربيضة والقطنية وزوية الزرع في ناحية العزيزية من قبل أولاده وبناته . وقد بقي من جماعة ابنه داؤود بك عوائل سكنت في الصيرة واستقرت فيها ، وهي الآن عربية عراقية ، ولكن لم يزل (الچيچان) ، أي الشيشان يلحق بهم .

أما الباشا الثاني ، فهو عبدالجبار باشا خياط ، وهو لقب مدني لا أدري كيف حصل عليه ، ولم يكن له أثر يُذكر في بغداد ، لا قبل اللقب ولا بعده ، ثم حمدي باشا بابان ، وكان عميد الأسرة البابانية ، وأعتقد انه خلف ابنتين ، اسم إحداهما منيرة ، وكانت تسكن مع أمها وأختها في محلة السفينة بالاعظمية في أحد القصور الصغيرة . ثم عبدالقادر باشا الخضيري ، وكان عميد الأسرة الخضيرية النجدية الاصل ، والتي هاجرت من جبل شمّر في نجد في القرن الثامن عشر واستقرت في

منطقة باب الشيخ وفي البصرة أيضاً . ثم انتشر ال الخضيري على طول نهر دجلة وامتهنوا الزراعة والتجارة ، وأخيراً توزيع نفط شركة النفط البريطانية على المضخات المنصوبة على نهر دجلة بالاشتراك مع اسكندر اسطيفان بعد الوكلاء السابقين ، وهم بيت بني وعبدالحميد . وكان عبدالقادر وجيهاً محبوباً ، وقد أُطلق لقب باشا على أخيه قاسم باشا ، الذي تولّى منصب رئاسة غرفة تجارة بغداد ردحاً من الزمن ، وأفلت منه اللقب بعد ذلك بعد ان أفلتت منه ثروته وتجارته ، وهو أبو المرحوم عبدالودود الخضيري ، الذي تسلّم إدارة (بيت لنج) في الأيام الأخيرة . أما عبدالقادر باشا دلّة ، فَلُقِبَ لثروته وضخامة أملاكه ، ويوم يكن له دور شعبي أو رسمي خلال حياته . ومنهم فتاح باشا والد نوري وسليمان فتاح ، وهو الذي أسس معمل نسيج فتاح باشا في الكاظمية مع صهره الحجي صالح باني مسجد الحجي صالح في الأعظمية . وقد نجحت منسوجات فتاح باشا والبطانيات واكتسبت شهرة عالمية ، وطُلبت في إيطاليا وإنكلترا ، وفي سوريا ولبنان . وكان ابنه نوري تاجراً محترماً كريماً . وبعد ان تامم المعمل سكن بيروت ، وكان بيته في الروشة ديواناً لكثير من العراقيين ، وتوفي في بيروت . أما أخوه سلمان ، فكان ضابطاً في الجيش ، ثم تقاعد وترك العراق وسكن اسطنبول واشتغل بتجارة العقار . أما أخوهم الأصغر ، فكان مهندساً ، وحاول أن ينشىء معملًا وجاهد في سبيل ذلك ، إلا انه فشل في مساعيه وتقوقع على نفسه بعيداً عن الناس .

أما ياسين الهاشمي ونوري السعيد وجعفر العسكري ومولود مخلص وغيرهم ، فكانت ألقابهم عسكرية استحقوها أثناء خدمتهم في الجيش العثماني ، أو في جيش الملك حسين في الحجاز . ووجد في بغداد باشوات آخرون ليسوا من سكان بغداد ، بل سكنوا فيها مؤقتاً لسبب من الأسباب ، ومنهم عزت باشا الكركوكلي ، وكان وزيراً يمثل الأكراد في الوزارة النقيبية . ومنهم طالب النقيب المشهور ، وهو من سكان البصرة وجاء الى بغداد ، برغم كراهيته لأبناء عمه نقباء بغداد سعياً وراء الملكية ، بدلًا عن فيصل ، ثم استقر وزيراً للداخلية . وقد اشتهر طالب باشا النقيب باعماله الخارجة على القانون ، فبعضهم يصفها مثل أعمال روبن هود ، يأخذ من الأغنياء ليعطي الفقراء ، وبعضهم عدّها أعمال شقاوة وسلب . ويبدو انه جمع بين الصفتين ، فكان يكرم ويصرف على جماعته وأعوانه من الأموال التي يستولي عليها من التجار والاثرياء ، أو من الشيخ خزعل أمير المحمرة ، أو أمير الكويت . وكان مغالياً في تقدير

امكانياته وتأثيرها في السياسة الى ان وقع في الخطأ الكبير الذي قضى على حياته السياسية ، ثم توفي متشرداً على اثر خطابه الشهير في حفل تكريم مراسل جريدة التايمز اللندنية ، حين قال انه يعتمد على خمسين ألف بندقية ، وأشار الى أمير ربيعة محمد الحبيب ، وسالم الخيّون رئيس عشيرة بني أسد . فقُبض عليه ونفي الى الهند وبقي ضائع المجد والجاه بين مصر والهند والعراق . ومنهم عبداللطيف باشا المنديل ، وهو من ملاكي وأثرياء البصرة وسكن في بغداد وزيراً في الوزارة النقيبية . وكان محبوباً لكرمه وحسن سلوكه وضيافته الباذخة ، وعاد الى البصرة بعد وزارته وغاب عن الشهرة ، لكن عائلته بقيت في البصرة تلقى الاحترام والتقدير نفسه . وبقي أهل بغداد يذكرون عجمي باشا السعدون ، برغم كونه في منفاه الاختياري في تركيا ، وذلك لجهاده في الحرب العالمية الأولى ضد الإنكليز ، ولم يحضر الى العراق ، إلا في ثورة مايس سنة ١٩٤١ ، وكان ابنه الوحيد مطشر مديراً للشرطة في العراق حتى أواسط الستينات . ولقب بعض رؤساء العشائر الكبار بلقب الباشا ، خصوصاً بعد تعيينهم وزراء بدون وزارة ، ومنهم : عجيل باشا السمرمد رئيس عشيرة زبيد ، وعجيل باشا الياور رئيس شمر جربة ، وقبله عمه فرحان باشا . أما لقب البيك ، فيُطلق على أبناء البشوات ، مثل : ناجي بك شوكت باشا ، ويوسف عزالدين بك ابراهيم باشا ، الذي صار وزيراً في عهد بكر صدقي ، وداؤود بك ابن فاضل باشا الداغستاني ، ويُطلق كذلك على كل موظف كبير أو شخصية نافذة مهمة ، مثل : صبيح بك نجيب ، والحاج سليم بك مدير الشرطة العام الأسبق ، وفخري بك جميل زاده ، وصالح بك المِلّي ، وابراهيم بك كمال ، وحكمت بك سليمان ، وجميل بك المدفعي وغيرهم ، وكانت الاصول تقضي باضافة لقب البيك على الوزير حتى في الخطابات الرسمية . أما رؤساء عشائر العبيد من عائلة الشاوي ، فكانت ألقاب البيك تُطلق عليهم ، مثل : مظهر بك الشاوي ، وعبدالمجيد بيك الشاوي ، وابنه سعدون بيك . أو على رئيس قبيلة عنزة فهد بك الهذال ، وابنه محروث بك الهذال . أما الالقاب العائلية القديمة ، فقد بقيت على حالها ، مثل لقب الشوربجي ، والقيمقجي ، والشوخدار ، والكتخودا ، والباجهجي . ويطلق لقب الافندي على مَنْ يلبس الملابس الإفرنجية ، أو مَنْ كان موظفاً في الحكومة ، ولكنه يطلق في الوقت نفسه على علماء الدين الكبار والادباء ، مثل : أمجد أفندي الزهاوي ، وعبدالوهاب أفندي النائب ، وشكري أفندي الالوسي ، ويوسف أفندي العطا ، ومعروف أفندي الرصافي ، وجميل

صدقي أفندي الزهاوي . كما كان يُطلق على خليفة آل عثمان زيادة في الاحترام . فكان يقال بعد جملة (السلطان ابن السلطان والخاقان ابن الخاقان سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين أفندينا عبدالمجيد أفندي) . وتضاف كلمة الغازي إذا كان الخليفة قد حارب أحد أعداء الدولة العثمانية .

أما لقب الجلبي ، فيُطلق على تجار بغداد ووجهائها وملاكيها الكبار مثل : عيسى چلبي ، وكامل چلبي الخضيري ، ومحمود چلبي الشابندر . كما صارت كلمة الجلبي لقباً لعائلة كلها مثل عبدالحسين الجلبي وابنه عبدالهادي وأولاده ، وداؤود الجلبي في الموصل ، ومحسن الجلبي في الحلة ، وبيت الجلبي في الناصرية وغيرهم . أما لقب الشيخ ، فبغض النظر عن شيوخ العشائر ، فكانت كلمة الشيخ تُطلق على بعض المجتهدين من العلماء مثل : الشيخ شكر في الكرخ ، والشيخ كاشف الغطاء ، والشيخ أحمد الظاهر . أو يُطلق على أرباب الطرق الصوفية وهو الغالب ، مثل الشيخ سعيد النقشبندي ، والشيخ ابراهيم الرفاعي ، والشيخ عيسى البندنيچي ، والشيخ أحمد الداؤود وغيرهم ، وقد عرف عن عائلة مسيحية بغدادية تُلقب بـ آل الشيخ ، ويبدو ان جدهم كان رئيساً لملاحي إحدى السفن . وكان يُطلق عليه لقب (شيخ المركب) .

أما لقب الملا ، فيُطلق على معلِّمي الكتاتيب ، نساءً ورجالًا ، وعلى الشعراء الشعبيين ، مثل : الملا عبود الكرخي الشاعر القمة في الشعر الشعبي ، والذي لم يبزه أحد حتى الآن . والثاني هو الملا سلمان ، وكان مختصاً بالقراءة في العزاءات ، وخصوصاً في مواكب عزاء عاشورا بجانب الكرخ ، أو في موسم زيارة سلمان پاك . ثم الملا الحاج زاير . وقد طبع ديوانه في ثلاثة أجزاء ، وكانْ مبدعاً في الزهيريات وفي شعر (الهچع) ، وشعر (الميمار) . ثم الملا عباس العبدلي ، والملا عبود مدرع المشهور بمربعاته في سلمان پاك ، وكان من محلة الدشتي في باب الآغا . ويُطلق اللقب أيضاً على كتّاب شيوخ العشائر الذين لم يكن بعضهم يحسن القراءة والكتابة . وكانوا يتصرفون بأموال الشيوخ وأحوالهم ، كما يحلو لهم وكأنهم هم الشيوخ ، وقد يتخذ لقب الملا لقباً للعائلة كلها ، مثل بيت الملا حويش في بغداد وعانة . ومثل بيت الملا أحمد في الكرخ ، والملا حرز قرب جسر ديالى .

أما لقب الآغا ، فكان يُطلق في زمن العثمانيين على المختار أو المتميز في القرية أو أصحاب الجاه والثروة ، مثل : بيت عارف آغا الملاكين في بغداد ، وبيت

حسون آغا في الكرخ وبستانهم المشهورة بأسم بستان حسون آغا . وبيت محمد آغا القلمچي ، وآغا بابا اليهودي الذي سكن الفلوجة ، وبيت قنبر آغا التجار الصناعيين المعروفين ، وبيت آغا جعفر في بغداد والبصرة والذين كانوا نواباً في المجلس النيابي . أما لقب الخان ، فلم يكن يُطلق على العرب من سكان بغداد ، بل يطلق على مَنْ كان أصله فارسياً أو هندياً ، ومنهم حميد خان أبو زوجة الدكتور ضياء جعفر وأخوه مصطفى خان أصحاب الأملاك في كربلاء وبغداد والنجف ، وهم أولاد عمة آغا خان المشهور رئيس الطائفة الاسماعيلية . ولم يزل كمال خان ابن مصطفى خان وكيلًا رسمياً لزعيم الطائفة الحالي كريم خان ، وذلك في الشرق الأوسط وأفريقيا . ويُطلق لقب الخان أيضاً على بيت النواب حسين خان ومجودي خان ، وهم من نسل اتيال الهند وراجاتها الذين هجروا الهند الى بغداد بعد خلافهم مع راجات الهند في أثناء غزو الجيش البريطاني للهند . وقد خصصت لهم الحكومة البريطانية رواتب شهرية من خزينة الهند ومن إيرادات أملاكهم . وكان كبيرهم أبو عبدالله يسكن في قصره على نهر دجلة قرب ساحة الغريري ، وأما محمد حسين أبو مجودي ، فكان يسكن في قصره بجانب الكرخ الذي هدم وأقيم محله مستشفى الولادة بالكرخ .

ومن أحفاد عائلة النواب المعروفين في بغداد الدكتور ضياء النواب والرياضي السباح علاء النواب . أما الخان الآخر ، فهو أشرف خان ابن الأمير حسين قولي خان والي (پشتكوه) ، الذي سجنه البهلوي الكبير ، فقتله وهو سجين في طهران ، مما اضطر ابنه الكبير الى اللجوء الى بغداد ، ثم سكن أخيراً في قضاء علي الغربي القريب من جبال پشتكوه ، وخصصت له الحكومةالعراقية راتباً شهرياً . وكان أبوه الوالي حسين قولي خان قد أوصى قبل وفاته أن لا يزوجوا ابنتيه إلا لسيد هاشمي كريم ، لذا تزوجت إحداهن من نقيب أشراف مندلي السيد عزالدين النقيب ، والثانية من العلامة السيد بحر العلوم عضو مجلس التمييز الشرعي . وقد ادعى أشرف خان ملكية مقاطعة (البكسابة) بين الشيخ سعد وعلي الغربي بحجة انها ملك لأبيه ، وأن اسمها هو (باغ شاهي) . ولكن لجان التسوية لم تعطِهِ هذا الحق ، لأنه لم يسبق ان تصرف بها فعلًا ، ولم تكن مسجلة بالطابو . وفي بغداد بيت يسمى (كسبرخان) ، وبيت (مريم خان) ، وهؤلاء حصلوا على هذا اللقب من إيران أيام اضطهاد البهائية واعدام الباب ، حين ذهبوا الى ملكم خان الأرمني الذي كان مديراً لشرطة طهران في زمن ناصرالدين شاه يتوسطون عندالارمني طلباً لعونه .

وكان آخرهم في بغداد يوسف كزبر خان والخياطة نجية مريم خان . وفي الكرخ عائلة تسمى بيت (بابا خان) يملكون البيت الذي اشتراه وسكنه الحاج ابراهيم الدرة والد الأستاذ خالد الدرة . وكان لقب الخان يُطلق على النساء أيضاً ، وهو غير لقب الخانم . فكانت فاطمة خان بنت محمد باشا الداغستاني شقيقة اللواء غازي ، ومنيرة خان بنت حمدي باشا بابان ، وخجة خان بنت عبدي باشا والي بغداد قبل اعلان الحرب العالمية الأولى . وقد اتخذ الأديب المرحوم خلف شوقي الداودي اسم خجة خان في مقالاته الانتقادية الظريفة تحت عنوان مذكرات خجة خان وتوقيع (بابو چتر بنارجي) في جريدة (حبزبوز) .

ويُطلق لقب الأسطى على كل عامل ماهر في الصنعة ، أو رئيس لعمالها . والكلمة تحوير لكلمة الأستاذ . أما مساعد الأسطى ، فيقال له (خلفة) ، ويُطلق لقب (الإيسته) على معلمات الخياطة والتطريز لصغار البنات .

ولم تكن محلة من محلات بغداد تخلو من (إسته) ، لعدم وجود مدارس للبنات ، وان تعليم الفتاة الخياطة والتطريز خير من تعلمهن العلوم . وكانت البنت المخطوبة توصف بالشطارة والمهارة في أعمال الخياطة والتطريز .

أما الألقاب الأخرى ، فتُطلق على نوعية العمل الذي يقوم به الشخص أو العائلة ، كالحداد ، والنجار ، والصباغ ، والقاضي ، والمفتي ، والشواف ، والخطيب ، أو الى عشيرته ، كالزبيدي ، والعزاوي ، والجنابي ، أو الى مدينته ، كالعاني ، والموصلي ، والنجفي ، والعسكري ، أو على عمل فقهي أو أدبي أو تاريخي مشهور ، مثل الجواهري ، وكاشف الغطاء ، وبحرالعلوم ، وقد تُضاف كلمة (أبو) الى اللقب ، مثل أبو التمن ، وأبو الشعر ، وأبو السِعِد ، وأبو الحيص ، وأبو كحلة ، كما كان يلقب العميد شاكر أبو كحلة مدير حسابات وزارة الدفاع سابقاً ، وأبو طبيخ في غماس . وأذكر من غرائب الألقاب ، لقب (بيت أبو طيط) ، وكانوا مشهورين بعمل الطرشي في الأعظمية ، وذلك حين جاورتهم في سنة ١٩٢٤ .

أما اليهود ، فكانوا يلقبون بكلمة (خوجة) ، والمحترم فيهم يقال له (خواجة) . أما رجل الدين ، فيقال له (رابي أو مُعَلِمْ) . وكلمة خوجة تُطلق في جانب الرصافة على الامرأة التي تدرِّس القرآن للأولاد الصغار . وينادى على المجهول (أبو فلان) ، أو (الله وياك) ، أو بكلمة (بأدبية) ، عندما يُراد الحديث معه . ويقال للمعمم من (الروزاخونية) كلمة (شيخنا) . وكان من عادة المدارس

العسكرية في زمن العثمانيين اطلاق لقب المدينة على بعض تلاميذها ، فلا يُعرفون إلا بأسم المدينة ، مثل المرحوم عارف عانة (عارف قطان) ، وسعيد سقارية ، ومحمد علي بعقوبة أبو اللواء حسن محمد علي ، وشاكر قمبر علي أبو الضابطين التوأمين حامد وماجد ، ومحمد علي كاظمية أبو القاضي نوري الهاشمي ، وتحسين استانة (تحسين قدري) ، وشاكر شواكة (الأوقاتي) . واستمر طلاب المدرسة الحربية في بغداد على هذا المنوال . فأطلقوا فيما بينهم ، وهم في القسم الداخلي ، ألقاباً على بعضهم . وبقيَ قسم منهم لاصقاً بهم حتى بعد تخرجهم ، مثل : (ابريق) ، و (طماطة) ، و (تك) ، و (سكراب) . أما عبدالكريم قاسم ، زميلنا في الثانوية المركزية ، ويسبقني بصف واحد ، وكان لقبه كريم (قَنَوْجَة) واستمر اللقب هذا مدة طويلة وهو ضابط حتى وصل رتبة عالية ، وعُرف عنه الاندفاع ، ولذلك سمي كريم المخبل .

وإيضاحاً لبعض الالتباس الذي يقع في الألقاب ، مثل لقب (النقيب) ، الذي جاء من زمن الخلافة العباسية يوم تأسست نقابة الطالبيين في القرن الرابع الهجري ، وتولّاها الفطاحل ، أمثال الشريف المرتضى ، والشريف الرضي ، ومعناه نقيب الأشراف ، لذلك أُطلق النقيب على عائلة الكيلاني أولاد الصوفي الكبير الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، أو الجيلي ، وصار يستعمل بثلاث كلمات مختلفة كلها تدل على العائلة . فالسيد سلمان النقيب عميدهم المشهور ، وعبدالرحمن النقيب وبعض أولاده لقبوا بالنقيب . وبعضهم الآخر تلقبوا بالكيلاني ، مثال ذلك السيد عبدالله الكيلاني وهم من عائلة عبدالله النقيب ومجدالدين النقيب نفسها . وفي بعض الحالات يلقبون (التكرلي) ، وذلك بعد الدعوى التي أقيمت في المحكمة لإثبات النسب ، ومنهم عبدالجبار التكرلي وزير العدل السابق ، وعبدالقادر التكرلي أول مستشار عراقي قانوني لشركة النفط البريطانية ، وحسيب رشيد التكرلي وأخوه منير التكرلي . وهناك عائلة أخرى كانت تسمى (بيت فيزي) أخذت لقب الكيلاني بعد صدور قرار المحكمة المذكورة أعلاه . ولقب النقيب ليس مختصاً ببغداد ، بل في البصرة أيضاً ، ومنهم طالب النقيب ، وهاشم النقيب ، وسعيد النقيب . وفي مندلي اللقب نفسه يلقب بأشراف مندلي ، ومنهم : السيد الياس النقيب ، وعزالدين النقيب . وفي أربيل عائلة يُطلق عليها النقيب ، وكذلك في الموصل وفي كربلاء وفي النجف . أما لقب (الكلي تدار) ، فيُطلق على رئيس سدنة الروضة المقدسة ، وهو المسؤول الأول عن

المرقد المقدس ، ويرأس السدنة ومفردها سادن . أما المختص بالضريح وخدمته ، فيسمى سادن الضريح ، تميزاً عنهم . والكليتدارية وراثية وعددهم محدود ، فهم في العتبات المقدسة بسامراء والكاظمية والاعظمية والشيخ عبدالقادر وصحن الحسين وصحن العباس في كربلاء وصحن الروضة الحيدرية في النجف .

أما في بقية المراقد المقدسة ، فيسمى (القيِّم) ، ولا يسمى كليتدار ، مثل قيِّم القاسم ، وقيِّم السيد محمد ، وقيِّم علي الشرقي .

وبمناسبة الالقاب ، وحين كثر الباشوات الذي مُنحوا هذا اللقب من قبل الأمير عبدالله أمير شرق الاردن قبل ان يقدم عريضة رسمية نشرت في الجرائد يطلب فيها من ملك إنكلترا وما وراء البحار وامبراطور الهند ، كما كان يُلقب تعيينه ملكاً على الاردن . وقيل في هذه الالقاب شعراً عامياً بعنوان (يا باشا منهو البشونك) ، ثم منح فخرالدين جميل وجميل الراوي لقب الباشا من الامير عبدالله وجاءا الى العراق يفتخران بهذا اللقب ، وكانا مكروهين من ياسين الهاشمي ، وساءه أن يُطلق عليها لقب الباشا كما يُطلق عليه . لذلك أصدر قانوناً بتحريم استعمال لقب الباشا على العموم واستبداله بلقب السيد . وهكذا حرمهما وحرم نفسه من اللقب . وكان هذا العمل من جملة الأسباب التي جعلت فخري الجميل شريكاً فعالًا في انقلاب بكر صدقي وإسقاط وزارة ياسين الهاشمي ، حيث كان بستان (الدازكيات) في ديالى والعائد الى فخري جميل مقراً رئيساً لاجتماعات حكمت سليمان وجماعته والتخطيط للانقلاب ، وعادت الألقاب الى ما كانت عليه بسقوط وزارة ياسين الهاشمي .

وعلى كل حال فان أشهر لقب في بغداد والعراق كله ، هو لقب (أبو ناجي) تعبيراً عن الإنكليز . كما يُعرف الأمريكيون بالعم سام . وكان سكان بغداد يهتمون باللقب أكثر من اهتمامهم بالاسم أو العائلة ، فكثير من الناس الاعلام في بغداد ومن العوائل المشهورة لا يُعرفون إلا بألقابهم ، مثل السيد حسين جبرلنكي ، مع انه معروف ومن عائلة كريمة ، والسيد فلان الشبلي ، لا يُعرف إلا بأسم (بق بق) ، وخليل اسماعيل باسم خليل لالو ، وعبدالله ابراهيم بأسم عبدالله سرية ، وصاحب الخيل والمدرب المشهور السيد ناجي الباجهچي ، يُعرف بأسم ناجي قاص فيص . والمشهور جداً في بغداد وهو مدير الاطفاء السيد ابراهيم مهدي ، لا يُعرف إلا بأسم ابراهيم شندل . وقد ورث ابنه عبدالكريم هذا اللقب وصار يعرف ، أو هو يعرف نفسه

بأسم كريم شندل . والدكتور عباس حلمي الحلي لا يعرف إذا لم نقل عباس سيفون .
وكانت هناك ألقاب للمقاتلين ، مثل : المقاتل فلان دلق ، والمقاتل جحا ، والمقاتل حركاتك ، والمقاتل طماطة ، والمقاتل ابريق ، والمقاتل الاغا ، والمقاتل عنيفة والاعمى ، والمقاتل رفس ، والمقاتل سكراب . أما النساء فالالقاب للغانيات ، وليس للمخدرات ، مثال ذلك : حنينة وأختها نعيمة شاول لا يعرفن إلا بأسم بنات المجدي مع ان شاول ليس مكدياً ، إنما هو بائع قرطاسية قرب مدرسة الاليانس . وكذلك ألقاب جميلة دُنگُر ، وسدية لقلق ، وفخرية قيچو ، وزكية برمبوز ، ونعيمة ابراهيم التي لا تُعرف إلا بأسم نعيمة بنت جريق ، برغم انها كانت تتمتع بنفوذ وسلطة واسعتين ، وذلك في أواسط الثلاثينات ، يوم كانت ذات علاقة حميمة بأحد كبار موظفي الدولة آنذاك . أما جليلة سلمان ، وهي أحسن مَنْ قرأ المقام العراقي من النساء حتى الآن اداءً وصوتاً وصورة ، فلا تُعرف إلا بأسم جليلة العراقية أم سامي . وقد نظمت فيها إحدى البستات ، وهي (الوجه لاله يا جليلة) ، واللالة هي الضياء النفطي الذي كانت بغداد تستنير بها قبل وصول الكهرباء . وقد حضرت آخر حفلاتها في منتزه كرد الباشا الذي أقامته حكومة بكر صدقيّ في جزيرة كرد الباشا وسط دجلة ومدت اليها الماء والكهرباء وربطته بمعبرين عريضين بشاطىء النهر ، وبعد هذه الحفلة تركت الغناء وتزوجت وحجت الى بيت الله الحرام واستقرت مع زوجها في سامراء حتى وافتها المنية .

هذا ، ولا يُعرف لماذا أُطلقت هذه الالقاب ، ومَنْ أطلقها ومتى ، سواء للرجال أو للنساء ؟ ولكن الناس تناقلتها بدون أن تسأل عن مصدرها أو أسبابها إلا القليل منها .

وكان للبغداديين ولع غريب وعادة أصبحت ثابتة وقاعدة أصيلة في اطلاق الالقاب والكنيات على الأسماء ، فكل مَنْ اسمه علي يطلق عليه اسم أبو حسين ، وبالعكس ، ومَنْ اسمه ابراهيم يقال له أبو خليل ، وخليل أبو اسماعيل ، وسلمان أبو داود وبالعكس ، وصالح أبو مهدي وبالعكس ، وعباس أبو فاضل وبالعكس ، وخضير أبو ياس وأحمد أبوشهاب وبالعكس ، ومحمود أبو شاكر وبالعكس ، وطه أبو ياسين وبالعكس ، وخطّاب أبو عمر ، وخالد أبو وليد ، وعيسى أبو موسى ، ويوسف أبو يعگوب وبالعكس ، وعبدالرزاق أبو وهيب وبالعكس ، وعبدالحميد أبو مجيد وبالعكس ، ومحمد أبو جاسم ، وجاسم أبو نصيف ، وصادق أبو جعفر ، وعبدالرحمن

أبو عوف ، وحسن أبو فلح ، وعبدالله أبو نجم ، ونجم أبو سهيل ، وغيرها من الألقاب ، حتى أصبح قاعدة عند الآباء أن يسموا أبناءهم على وفق هذه الألقاب والكنى ، ولا يخرجون عنها ، إلا إذا كان له أكثر من ولد واحد . ولكن لا توجد ألقاب للاناث ، بل هي مختصة بالرجال ، لأن النساء مخدرات لا يخرجن من بيوتهن حتى تُطلق عليهن الألقاب لأجل مخاطبتهن .

السفر الى سوريا

كان السفر الى سوريا ولبنان يتم ، إما بواسطة الجمال أو قوافل البغال والحمير سالكة طريق الرمادي ، هيت ، كبيسة ، تدمر ، ثم الى حمص ودمشق . أو من تدمر الى دير الزور ، فحلب . أو يتم عن طريق العربات من الرمادي الى عانة الى ألبو كمال ، فدير الزور ، فحلب . وهو برغم وعورته أكثر أمناً ، لأن القرى موجودة على طول الطريق ، والماء متوفر في نهر الفرات الذي يحاذي الطريق . وكانت المسافة بين المدن متساوية . فبين بغدادوعانة كانت (٣٢٠ كم) ، وبين عانة ودير الزور (٣٠٥ كم) ، وبين دير الزور الى حلب (٢٩٠ كم) . والسبب في تساوي هذه المسافات بين المدن الكبير ، هي انها كانت محطات استراحة للقوافل التي لا تستطيع أن تقطع أكثر من ٥٠ كيلومتراً باليوم ، إذ يجب عليها الاستراحة والتقاط الأنفاس . وكل خمسة أو ستة محطات صارت المدينة الكبيرة محل استراحة طويلة . فالقول ان طرق الشرق الأوسط وقراها ومدنها قد هندستها البغال والحمير قبل الإنسان هو قول صحيح .

لما كثر استعمال السيارات ، طرأت فكرة استعمال السيارات لقطع البادية الى دمشق من بغداد . وتقدم السيد حمد البسام ، الوجيه السعودي الساكن في بغداد ، بطلب الى الحكومة في أوائل سنة ١٩٢٤ لمنحه امتيازاً في اكتشاف الطريق المناسب مع امتياز آخر لاستخراج الذهب من منطقة (القعرة) القريبة من الرطبة التي تأسست كمركز للهجانة (راكبي الذلول) ، فمنحته الحكومة الامتياز وفتح طريق السيارات من الرمادي الى كبيسة ثم الى تدمر ، ثم حمص والشام وجرّب طريق الرمادي الرطبة ، ثم تدمر ، فلم ينجح فيه لكثرة الرمال وصعوبة سير السيارات . كما فشل في استخراج الذهب . فترك الامتياز في الوقت الذي تقدم فيه البريطاني (المستر نيرن) الذي مسح الطريق الأسلم بواسطة طائرات الجيش البريطاني (امبريال إير ويز) ، ومنح امتياز النقل عن طريق الرطبة أبو الشامات دمشق . وهو أقصر الطرق للوصول الى دمشق ، بدون المرور الى تدمر . ولكثرة الرمال في الطريق

احتمال ضياع العلامات ، خصوصاً بين الرطبة وأبو الشامات ، فقد استحضر سيارات كبيرة مصممة ضد التراب وفتح محطة لاسلكي خاصة بشركته ، علاوة على محطة لاسلكي الشرطة الهجانة الموجودين في محطة الرطبة بإمرة ضابط الشرطة المشهور محمد الياسين (كان البدو يطلقون على محطة الرطبة اسم حكومة ابن ياسين) ، ومحطة لاسلكي أخرى في الرمادي ، وذلك تحسباً لانقطاع وضياع السيارات في الصحراء ، أو تعرضها الى العطل أو السلب . لذلك نظمت هذه الشبكة اللاسلكية ، علماً أن ليس من المسموح به خروج سيارة واحدة ، بل بقافلة من أكثر من سيارتين . وافتتح نيرن مقراً له في الصالحية في بغداد ، وبساحة المرجة بدمشق ومحلة الزيتونة في بيروت . ثم أقدم بعض أصحاب السيارات على تأسيس شركات لنقل الركاب بين بغداد ودمشق . وكان منها شركة قوتلي وطويل ، وشركة الطباع ، وشركة دبش وعكاش ، وشركة صواف وسيدا . أما العراقيون ، فقد أسسوا شركة س.غ. أي سعيد وغني هويدي . وشركة الانكرلي ، والشركة المتحدة . واستخدمت هذه الشركات سيارات الصالون (التنتة) من ماركة البكارد ، والناش ، والهدسن ، لسعتها ومتانتها . وكان موقفها في شارع المأمون (الدنگجيّة) برأس الطريق المؤدي الى الكمرك قبالة المتحف العراقي . وكان واجباً عليها أن تحمل في سفرها أربع مطارات ماء من القماش الثخين الذي لا يرشح مع تنكة بنزين وتنكة ماء للمحرك ولا تحمل أكثر من خمسة ركاب . أما الحقائب وأغراض المسافرين فتُحمل خلف السيارة على قاعدة حديدية (سيباية) وعلى جوانب السيارة . وتبدأ السير بشكل قافلة ترافق سيارات نيرن كي لا تضيع أو تتعطل ، وبرغم هذا فقد كانت بعض السيارات تتوه في الطريق بسبب السائق الذي قد يختار طريقاً غير المطروق ابتعاداً عن الرمال ، ثم يحار في أمره حتى تصل النجدة من نيرن . وكثيراً ما كانت القافلة تُسلب ويُطلق عليها الرصاص . وآخر حادث سلب وقع سنة ١٩٤٦ ، وسلبت أموال الركاب وقُتل أربعة منهم وأُعطيَ الخبر باللاسلكي الى حكومة بغداد ودمشق واستطاعت قوة من الجيش الفرنسي القبض على السالبين وأُعدموا علناً في ساحة المرجة بدمشق .

كان أشهر السواق العراقيين (أميرة) ، وهو من سكان علاوي الحلة بجانب الكرخ . ثم الارمني (گريگور) في شركة نيرن ، و (أبو فياض) في شركة دبش وعكاش . وكان المسافر أول ما يسأل عن السائق الذي يأخذه الى دمشق ليطمئن الى

خبرته ومهارته ، وعلى المسافر أيضاً أن يأخذ طعامه معه . أما شركة نيرن فانها تجهز الركاب بالطعام والمشروبات والرعاية الصحية . وكانت مستعدة لنقل المصابين بالطائرات البريطانية الى مستشفيات الرمادي أو دمشق . وأول ما يترجل المسافر العراقي وينزل في ساحة المرجة ، يستقبله المرحوم السيد محمد الاقچم ، وهو عراقي مقيم في دمشق ، وعلى إستعداد طوعي للقيام بكل الخدمات وتسهيل الامور للعراقيين ، بدون أن يسأل عن ذلك أجراً . ولا يتم الحديث عن طريق الشام بدون الحديث عن (ابن ياسين) ، لان الرطبة كانت جنة المسافرين بالنسبة للبادية ، لانهم اطمأنوا ان نصف الطريق قد انتهى وان نصف الخوف والرعب قد زال ، وهم لم يزالوا على قيد الحياة ، خصوصاً حين يلقاهم محمد الياسين ، بلطفه وحلو حديثه وكرمه (طبعاً الماء والشاي) ولا أكثر ، لانه لا يملك الأكثر . وفي الرطبة مقهى صغير فيه خبز وبيض وشاي وبضعة تخوت للمنام من غير غطاء . ومحمد الياسين هذا سامرائي لم يتخرج في مدرسة ، بل في مدرسة الحياة ، علاوة على قابلياته الفطرية التي منحه الله إياها ، وهو خبير بالبادية وعشائرها وطبائعها ولهجاتها وكيفية التعامل مع كل عشيرة صغيرة أو كبيرة ، لأنه عالم بأحسابها وأنسابها ، وتتألف قوته من الهجانة راكبي الجمال ، قبل أن تتوفر لديه السيارات المسلحة ، وكان المخفر يحتوي على قوته ، وتسمى (الجيش) ، وهو الاسم الذي يطلقه البدو على كل تجمع مسلّح ، وأكثرهم من الذين حاربوا مع ابن رشيد وهربوا بعد استيلاء ابن سعود على المملكة وطرد ابن رشيد من حائل . وعند توفر السيارات المسلحة نقلوا الى عانة هم ولوازمهم . وقد رأيت قدورهم وأعلامهم في مخفر شرطة الشريعة في عانة ، ونظراً لمعرفتهم التامة بالطرق بين عانة وتدمر ودير الزور وسنجار ، فقد بقوا في سلك الشرطة ، ومن أسمائهم الغريبة صعيجر بن صنيهاد ، وعبدالله المهدرس وأخو زعرة ، ومن الطريف ان وزارة الداخلية عقدت اجتماعاً في الرمادي للنظر في أمور الأمن والبادية بعد المعارك التي حصلت بيت عشيرتي الدهامشة وعنزة . فان رؤساء البدو لم يقوموا بتحية الوزراء أو المتصرفين ، بل اكتفوا بتحية محمد الياسين ، وقالوا انهم لا يعرفون إلا حكومة ابن ياسين .

وكان من الجائز ان يكون ابن ياسين هذا نداً لابي حنيك وقلبي ، لو كان لديه الإمكانات المادية وسلطة كبريطانيا تدعمه ، كما تدعم أبو حنيك (راعي البويضة) ، كما يسمونه في البادية ، لانه لا يركب إلا ناقته البيضاء . وكان البريد

يُنقل سابقاً بهذا الطريق أيام الشتاء لوجود مياه الأمطار والناقلون هم من العگيل الكرخيين لمعرفتهم التامة بمسالكه ومحلات مياهه . وأشهر العارفين بهذا الطريق هو المرحوم سليمان الخضير والد المحامي عبدالرحمن الخضير ، والدكتور عبدالله الخضير . وكان أدلاء البادية الخبراء يعتمدون على النجم القطبي (الجدي) نقطة الشمال الثابتة التي إذا واجهها الإنسان يكون متجهاً شمالاً ويمنه شرقاً وهكذا ، أما إذا كانت الغيوم تغطي السماء ، فيكفي الدليل حفنة من العشب الجاف يفركها ويشمها ليعرف أين يقف . فكل أرض تنبت نوعاً من العشب . أما في النهار فينطلق من معرفته رؤوس التلال وامتداداتها ، ويسمونها في البادية (الرجم) ، وهي تلال ثابتة لا تحركها الرياح ، وبمناسبة الحديث عن نيرن ونقلياته ، ففي ثورة مايس ١٩٤١ ، أمرت السفارة البريطانية رعاياها في بغداد بالمغادرة الى سن الذبان . فقدم نيرن جميع سياراته للركاب وللحمل مع السيارات الكبيرة العائدة للقوة الجوية البريطانية في الحبانية . واجتمع في مطار بغداد (المثنى) كل من السفير كورنواليس ، وحسام الدين جمعة مدير الشرطة العام ، ومدير شرطة بغداد . وكنت حاضراً هذا التجمع ، فدهشت ، إذ لم أكن أصدق مطلقاً لو قيل ان الرعايا البريطانيين الموجودين في بغداد يبلغ عددهم ٢٢٠ شخصاً من مختلف الطبقات ، فمنهم مَنْ يلبس الكشيدة ، ومنهم مَنْ يلبس السيدية الخضراء أو السوداء ، ومنهم المعمم ولابس العقال أو الجراوية . أما اليهود ، فمنهم التاجر وبائع الطرشي واللوبية والبزاز والصائغ والخياط ، ولفيف من الباعة في سوق حنون ، وبعض الأكراد بلباسهم التقليدي ، وثلاثة من الفنانات اللواتي أعرفهن ، نعيمة بنت المجدي ، واختها حنينة ، ونجية بنت رجينا المعروفة في بغداد والتي ذهبت الى فلسطين ولم تعد الى العراق ، وهي التي أقامت الدعوى على ورثة صباح نوري السعيد في لندن بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ، أملاً بالحصول على بعض المال ، وحيث لم يكن لدى ورثته ما يدفعونه ، فقد تبرع قسم من العراقيين وبعض المصريين وأعطوها بعض المال ، فتنازلت عن الدعوى وعادت الى فلسطين .

كانت شركة نفط العراق قد أنشأت محطات ضخ مساعدة لايصال النفط الى طرابلس في لبنان وحيفا في فلسطين ، وعدت كركوك بداية الضخ وسمتها (كي وان) ، أي كركوك ، ثم بيجي (كي تو) ، ثم حديثة (كي ثري) . وفي حديثة أنشئت محطة ضخ كبيرة وقسّمت الانبوب الى قسمين : قسم الى طرابلس ، وأعطه

المحطات اسم (تي وان ، تي تو ، تي ثري) ، تي : أي طرابلس . أما خط حيفا ، فاعطت المحطات علامة (أيج (أي حيفا) . وكانت محطة ايج ثري قرب الرطبة ، وايج فايف قرب حيفا . وقد مدت مع الانابيب ، أنابيب للماء أخذته من الفرات من الفحمي قرب القائم القديم ، ومدت خط التليفون أيضاً ما بين المحطات . ثم قامت الحكومة العراقية بتبليط طريق الرمادي دمشق على يد المقاول حسن المخزومي . ولا بد من ذكر محطات الضخ القائمة وسط الصحراء قد توفر فيها كل وسائل الراحة والترف والبذخ ، فكانت غرف منام المديرين لا تقل فخامة وروعة عن غرف نوم أوتيل كلاريدج أو سافوي في لندن ، وهما أشهر الاوتيلات في لندن المبنية على الطراز الفيكتوري . ولقد أقمت في بعضها عدة أيام ، يوم كنت أقوم بأعمال القائم مقام ، وبزمن مدير الشركة المشهور في حديثة المستر كنج . وقد اتخذت محطة ايج ثري عدة مرات مركزاً للجيش العراقي غربي العراق .

مطاعم بغداد (اللوكندات)

الوافدون الى بغداد من قريب أو من بعيد ، يتناولون طعامهم عند بائعي الأطعمة الموجودين في الشوارع ، وذلك إن لم يكونوا ضيوفاً على أقربائهم في بغداد ، أو عملائهم . وكان باعة الأطعمة يتجمعون في الأسواق المكتظة بالناس ، وتُباع في الصباح الشوربة والهريسة والپاچه . أما ميسوري الحال ، فكان الكاهي والقيمر فطورهم الشهي ، وهم حين رجوعهم الى الريف ، يتحدثون عن أطايب ما أكلوا في المدينة . وكان الكاهي الممتاز يُصنع ويُباع في بداية سوق الهرج الملاصق لجدار المدرسة المستنصرية . وكانت أواوين المدرسة القديمة مقتطعة كدكاكين وأفران لعمل الكاهي . وكانت الكاهية الواحدة لجودتها ورقتها ، انها ترتفع من باطن الماعون على شكل الهرم ، ليعلن الصانع عن جودة الصنع ، وسوق المصبغة المجاور لجامع الخفافين ، هو المحل الثاني لبيع الكاهي الجيد ، وقيمة الكاهية الواحدة مع القيمر الذي يضاف اليها نصف ربية ، أي ثمانين وثلاثين فلساً . أما الباجلة والهريسة ، فكانت تباع على رؤوس الأزقة ، للوافدين ولسكان المنطقة . وأشهر محل لبيع الهريسة في بغداد ، كان في باب الآغا على رأس الطريق الذاهب الى العاقولية ، وقد دخل في استملاكات ساحة الرصافي ، وكان في دكانه قدرين كبيرين على شكل تنور مربع مبطن بالفرفوري الأبيض مع فتحة بقدر فتحة التنور ومغرفة من الخشب للهريسة ، وعلى سطح التنور كاسات الطين المفخور ، وكاسات الدارسين والسكر ومقلى الدهن الحُر (الطاوه) . وذلك كله من لوازم الهريسة ، إذ يُرش على وجهها الدهن ثم السكر والدارسين . وكانت أكثر تجمعات الباعة في الكرخ ، هي ساحة جامع الشيخ صندل في العلاوي ، وهي ساحة تجمع الفلاحين وبائعي الخضراوات وأصحاب العلاوي ، ودكاكين الفحامة .

أما التجمع الثاني ، فكان في ما يسمى الآن ساحة الشهداء ، حيث علوة المخضر في الكرخ والساحة الكبرى أمامها تجمع لسواق الحمير والجمال التي تنقل المحصولات من المزارع لبيعها في الكرخ . وفي شهر عاشوراء ، تكون هذه الساحة

ليلاً مركزاً لمواكب العزاء الذاهبة الى بيت النواب محمد حسين خان ، ومن هنا يكون تفرق الموكب .

أما التجمع الثالث ، فكان في علاوي الحلة قرب سوق الشواكة ، حيث يزدحم القادمون من الفرات والذاهبون اليه ، عدا أصحاب الدكاكين والعلاوي والخانات .

أما في الرصافة ، فكان أكثر تجمع الباعة في ساحة المرادية مقابل وزارة الدفاع (القلعة) ، وكذلك في مدخل سوق الهرج الكبير في الميدان ، قاطعين الطريق على بيت عبدالحليم الحافاتي ، المعمم المشهور ، والذي لم يستطع ، رغم شتائمه وتهديده بعصاه ، أن يبعد هؤلاء الباعة عن بيته ، خصوصاً حين يستنجدون برواد الميدان ولصوص سوق الهرج ، لدفع أذى الحافاتي . وفي باب الشيخ كانت الشوربة توزع مجاناً على كل الناس ، وذلك في (الشوربة خانة) بالزقاق المقابل لباب الجامع والملاصق لجدار (الدارگاه) ، مقر نقيب الاشراف الرسمي .

والتجمع الآخر الكبير في ساحة العوينة ، حيث يتجمع رواد سوق الدهانة والصدرية والعوينة ، إذ يبلغ الازدحام أشده لكثرة الوافدين من المزارع المجاورة لبغداد ، علاوة على سكان المنطقة والمجاورين .

ولا بد من ذكر ان قدور الدولمة ، كانت تُصَفّ مع قدور الشوربة للجياع الذين يفضلون الدولمة مع رغيفين من الخبز على الشوربة ورغيف واحد .

أما دكاكين بيع الكباب ، فالمشهورة في كبابها هو كباب باقر الإيراني في مدخل سوق الصفافير على شارع الرشيد . وباقر هذا إيراني ذو لحية كثة ، وكان يقدّم مع الكباب الطرشي المدبس ، إذ يضيف الدبس الى كاسة الطرشي ، حين تقديمها مع كأس من الإسكنجبيل ، الذي كان يتقن صنعه ، ثم كباب المولهخانة في مدخل سوق السراي الثاني من جهة (عقد الصخر) وجامع الآصفية . وكان يشتهر بالجرس المعلق فوق المنقل إيذاناً للعاملين ان شواء الكباب قد انتهى وعليهم أن يحملوه الى الزبائن ، وكان محله بطابقين . لذلك فالجرس يُقرع مرة واحدة لعمال الطابق الأرضي ، ويُقرع مرتين لعمال الطابق الثاني . ولم يكن يقدّم الطرشي للزبائن ، بل كان يجاوره بائع طرشي يتكفل بتقديم الطرشي للزبائن لقاء جعل معلوم يحصل عليه من بائع الكباب وفق (فيشة) من التنك ،كما هو الحال مع المقاهي والفنادق في الحال الحاضر . والكباب الآخر المشهور جداً هو كباب (الصابونچيّة) قرب الميدان . ومن أهم أسباب شهرته ، عدا جودته ، ان موظفي الدولة وضباطها وهم قريبون منه نشروا

له هذه الدعاية بغير قصد منهم ، وفي آخر قائمة المشهورين كباب الكاظمية في سوق الاستربادي ، وكان صاحبه إيرانياً ، وهو يقدم الإسكنجبيل أيضاً ، تمشياً مع العادات الإيرانية .

أما المطاعم ، أو ما يسمى (اللوكندة) ، تحويراً لكلمة لوكندا الإيطالية . وكان أشهرها مطعم الحجي رشيد أمهر طباخ في بغداد ، وهو أستاذ الطباخ المرحوم أحمد سمينة ، حيث تتلمذ على يديه ، وكثيراً ما يستدعى الى الطبخ في البيوت عند إقامة الولائم المهمة في الاعراس أو الختان أو المناسبات الأخرى ، التي تستدعي كما يقال (تبييض الوجه) . وكان آخر محل للحاج رشيد هو سوق السراي في الخان الصغير المقابل لفتحة سوق السراجين ، حيث اتخذ هذا الخان مطعماً ليتسع لزبائنه المزدحمين على طعامه . وثانيهما ، مطعم (شمس) في شارع الرشيد مقابل الحيدرخانة ومجاوراً لمدرسة شماس اليهودية . وكان صاحبه إيرانياً ، أما طبّاخه فتركي ، وكان يعرض طعامه التركي والإيراني وراء زجاج نوافذ المطعم الكبيرة للاعلان عنها وفتح شهية المارين للأكل ، تشبهاً بمطاعم شارع (بيه‌اوغلو) في اسطنبول ، والثالث ، مطعم (الحاج رضا بروجردي) في شارع (الدنگچيّة) بالقرب من سوق السراي . وقد دخل الآن في بناية الكراج الكبير ، ولأول مرة في بغداد رأى الناس مطعماً مزيناً بالمرايا على طول جدرانه وأعمدته . والحاج رضا هذا إيراني من مدينة بروجرد المشهورة بتصدير اللصوص الى كل أنحاء إيران والدول المجاورة ، وظهر بعدئذ انه من الهاربين من إيران هو وابنه ، ثم هربا من بغداد بعد ان انكشف تاريخهما للحكومة العراقية . أما في الكرخ ، فلم يشتهر فيه سوى المطعم الإسلامي في سوق الشواكة بالقرب من باعة الجبن والسمك في الحال الحاضر ، وقد كتب في أعلى الدكان جملة (للإسلام فقط) ، وكل العاملين فيه من الإيرانيين ، وأكثر ما يطبخه إيراني المذاق ، ويطبخ بكؤوس صغيرة من الفافون ويعرض مكشوفاً على الناس كي يروه ويتاكدوا من حسن طبخه ، وهو المطعم الوحيد الذي استخدم عاملاً يقف على باب المطعم ، ويعلن بلهجة إيرانية (أكل عجمانة ، أكل عجمانة) ، ويرتاده عادة أهالي كربلاء والنجف والحلة ، الذاهبين والقادمين من والى العتبات المقدسة . وفي الأخير افتتح مطعم العاصمة (ابن تايه في محلة الميدان مقابل أوتيل الهلال) ، وهو أول مطعم يقدِّم الطعام الإفرنجي مع الطعام الشرقي والمقبلات ، على وفق القائمة المسماة (ليستة الطعام) . أما أول مَنْ قدم الطعام على الطريقة الإيطالية واليونانية واللبنانية ، فكان مطعم مود الكبير المجاور لمخازن

أوروزدبياك ، والذي انقلب أخيراً الى أوتيل متروبول ، ثم الى سوق تجاري ، وقد افتتحه المرحوم محمود النعماني البيروتي الاصل ، الذي جاء الى العراق بعد مجيء الملك فيصل ، وذلك لصلة عائلته النعماني المعروفة في بيروت بياسين باشا ، وجلب معه الطباخ الإيطالي المشهور (كوستا) ، والذي كان من أصل يوناني ، انتقل مطعم مود بعد هذا الى جانب الكرخ في بداية الطريق المؤدي الى المندوب السامي البريطاني . أما محمود النعماني ، فقد أفلس ، لان مطعمه الإفرنجي لم يسدد تكاليفه ، وسكن العزيزية وكيلًا عن ياسين الهاشمي في مزرعته بمقاطعة (الدير) ، ويبدو ان هذا الاسم جاء بسبب وجود دير قديم ، كما هو معروف عن انتشار الاديرة قرب بغداد . وقيل في بعض الروايات ان الشاعر الكبير المتنبي قد قُتل في هذا المحل بين بغداد والنعمانية .

والحديث عن الطعام يدفعنا الى الكلام عن الكبة ، وأشهرها في بغداد ، هي كبة جامع (القبلانية) الواقع في آخر سوق الحصران والفرش المتفرع عن سوق البزّازين بائعي الكماليات ، وكبته نوعان : الكبيرة منها ، وتباع بقران ، أي ثمانية عشر فلساً ، وهي بحجم الرمانة المحشوة باللحم والكشمش واللوز مع اللِّيَّة . أما الصغيرة منها ، فكانت تُباع بعانتين ، وبحساب العشرينات ، فقد كانت هذه الاسعار باهظة ، ولكن أصحاب الدكاكين والمحلات كثيراً ما يحملون الاواني الى بائع الكبة ليملأها من مرق الكبة ، حيث يمكن أن يثرد فيها رغيف من الخبز بما يكفي لغذاء جيد لذيذ . وبعدها في الشهرة ، كبة (زمّاوي) ،وهي امرأة موصلية اسمها زمزم ، وتسكن في باب الآغا بجوار سوق الأمانة قبل أن يُعمَّر السوق ، وكانت تحمل قدر الكبة على رأسها فوق (الچعچة) ، التي تفصل القدر الحار عن رأسها وتنادي نداءها المعروف بين الجميع ، وهو (برغل ولحم غنم) ، ولا تزيد عن ذلك شيئاً ، وهي معروفة جداً في المنطقة وترتدي دشداشة طويلة وتتحزم بحزام عريض يتدلى من وسطها الى قدميها مع سفيفة طويلة ،وهي تبيع الكبة من الصباح حتى الظهر بمقدار قدرين من الكبة . وكان زوجها واسمه حسين يعاونها في صنع الكبة ، لذلك ارتبط اسميهما . وكان يقال (زماوي وحسين أبو الكبة) . والكبة الثالثة ، هي كبة رزاقة هرمز . ورزاقة هذا يحتكر بيع الكبة في قهوة حسين أبو علي بشارع أبي نواس على الطلبة والشباب من رواد المقهى ، ومقهى كزار أيضاً . ثم ينتقل الى قهاوي الصالحية مثل قهوة هوبي الذي يتحول في نهاية الشتاء من السنك الى الصالحية ، وقهوة ناصر عتيشة قرب جسر

مود ، وهي قهوة خاصة للطلاب . وكان يرافق بائع الصميط المشهور (جلّوب) ، وعنده أجود أنواع الصميط الخالي من الحموضة ، والصميط الواحدة تُباع بآنة ، أي أربعة فلوس ، والكبة الواحدة بآنتين ، لذلك كنا نتعشى ونشبع بثلاث آنات وندفع آنة واحدة للقهوة ، فنكون قد دفعنا أربع آنات ثمناً لعشائنا وسهرتنا ، وكان جلّوب بائع الصميط صديقاً لأكثر الطلاب ، رغبة منه في التعلّم . وكان يستمع دائماً الى مذاكراتنا في الدروس ، حيث تعلو أصواتنا بالجدل والنقاش ، ويقف جلّوب مستمعاً مركِّزاً كل حواسه ليتعلّم شيئاً مما يقال ، فإذا استوعب وفهم ما يقال ، فانه يرفض قبول قيمة الصميط ويقول : لقد استفدت منكم بأكثر من قيمة الصميط .

أما (الياغلي بورك) ، أي البورك الدهين ، فأحسن ما يُعمل منه كان دكان في سوق الهرج وفرنه من زمن العثمانيين ويصنعه على نوعين : المدور منه والمستطيل ، ويحشوه باللحم والبصل والكرفس ، وثمن البوركة آنة واحدة . وهو عدا الباعة المتجولين يوزع صناعته على المدارس في دكاكينها المسماة الحانوت لقضاء حاجات الطلاب الجياع .

أما باعة اللوبية المسلوقة ، فقد تجمع المشهورون منهم من اليهود في مدخل سوق البزّازين مقابل جامع مرجان ومقابل خان كبة ، ويبيعونها وهم يفترشون الارض ، ولكل واحد منهم مقعد خاص بباب أحد الدكاكين بعد الاتفاق معه . وتقدّم اللوبية مع كاسة من طرشي الفلفل دارة المسلوقة بالخل مع طماطة مفرومة فرماً ناعماً . ولقد أعلمني أشهر بائع لوبية ، وهو (شنطوب حردون) ، الذي هاجر مبكراً هو وأولاده الى الصين ملتحقاً بعائلته العراقية المشهورة (حردون) في مدينة شنغهاي ، عن كيفية صنعها واخراجها بهذا الشكل ، وقال : انه ينتقي الناعم منها ويصفه بانتظام في القدر ويغمره بماء يغطيه فقط ، ولا يعلو على اللوبية ولا يضع شيء من الملح ويغطيها بگونية ثخينة لكي يساعد بخار الماء المتكاثف تحت الگونية على إنضاجها ، كما ويجب أن تُسلق في قدر نحاسي وعلى نار الحطب الهادئة .

وتُباع عند اليهود أيضاً الفطائر المسماة (سنبوسك) ، و(بعابع) المحشورة باللحم ، أو الجبن ، واليهود لا يسمونها بعابع ، بل يلفظونها (بعيبع) ، ولم يكن لبائعي الباچه في الأسواق ذكر . غير ان پاچة ابن طوبان قد اشتهرت بالكرخ ، وتُباع للبيوت أيضاً . وكان يجاوره بائع الطرشي (حنانش) ، الذي لا يوازي

طرشي خان جغان جودة ، أو طرشي الكاظمية المفعم بأنواع التوابل والمكبوس على الطريقة الإيرانية ، المخلوط دائماً بثوم العجم المستورد من الأحواز . وفي مقابل جامع الخفافين وعلى رأس شارع البنك يُباع سمك الجرّي المقلي بدهن السيرج ، ويبيعه اليهود الذين يحسنون صنعه ، خصوصاً ما يُقلى منه تحت ثقل الاغطية الفخارية الصغيرة . أما (الابيض وبيض) ، فالحديث عنه سيأتي في محل آخر . وفي الكرخ ، وفي ساحة علوة المخضر (ساحة الشهداء) ، بيّاع مشهور يبيع (الحميس) ، وهو الفشة البيضاء من المعلاق والقلب المقلي بدهنه ، أو دهن اللحم ، لذلك فان رائحته تصل الى جانب الرصافة ، إذا هبّت الرياح من الغرب . ومن أشهر زبائن بائع الحميس المرحوم الشاعر مهدي مقلّد ، إذ كان يفطر بالحميس قبل عبوره الى جانب الرصافة من مسكنه في سوق الجديد ، وكان يدّعي بأن الحميس يقوّي البدن ، ذلك انه رحمه الله كان يدعي الفتوة والشقاوة ، لأنه كان صديقاً لكريم السيد عبود (ابن أخت إبليس) . وكان هذا قبل أن يسافر الى دمشق لدراسة الحقوق .

أما الفشافيش والمعلاگ ، فلم تكن قد اشتهرت في العشرينات ، بل في الثلاثينات ، وهو خارج بحثنا . ومن المفارقات ان المعلاگ كان يُعلّق خارجاً على (گنارة) القصاب لتأكله الزنابير ، أو يعطى للفقراء صدقةً ، أو يُباع بآنة أو آنتين . أما الفشة ، فتُباع بآنة واحدة لصانعي الحميس أو فطور الحمالين في شريعة المصبغة ، فتكون قيمة المعلاگ الكامل ثلاث آنات ، حسب حجمه ،وحسب عادة القصاب في المعاملة .

وفي بغداد مطاعم صغيرة منتشرة في الأسواق والمحلات التجارية ، مثل : العوينة ، والسيد سلطان علي ، والميدان ، والشورجة ، وعلاوي الحلة ، ورأس الجسر ، وذلك لسد احتياجات أصحاب الدكاكين والمحلات التجارية ، حيث لا يذهبون الى بيوتهم ظهراً لتناول الغداء . وكان في شارع الرشيد مطعمان صغيران مشهوران ، هما : مطعم مهران الارمني ، ومطعم ماجستيك ، وكان يقدمان الطعام المشوي ، علاوة على تقديم المشروبات الكحولية ،مثل : بيرة أم البنت ، والستاوت السوداء ، والكونياك ، والعرق البغدادي ، ولم يكن البغداديون يشربون الويسكي إلا نادراً . وأخيراً أقدم الموظفان المفصولان ، عبدالله شريف واسماعيل شريف حداد ، على فتح مقهى ومطعم بأسم (شريف وحداد) على رأس جسر مود (جسر الاحرار) .

الحمّامات في بغداد

في جانب الكرخ حمّامات ثلاثة مشهورة ، أولها ، حمّام شامي ، ويقع في علاوي الشيخ صندل في الطريق المؤدي الى الفحامة من ناحية محلة الفلاحات ، وهو قديم جداً أنشىء في القرن السادس عشر ، وقد حاولت جاهدة دائرة الآثار وقف تهديمه حين استملاك وفتح شارع حيفا ، لكونه أثراً تراثياً . ولكن جهودها باءت بالفشل ، فهدم الحمّام وأدخل ضمن استقامة شارع حيفا .

كان المستحم ينزل الى حمام شامي بسلّم حجري ذي ست درجات ، برغم انه منخفض في الأساس عن سوق العلاوي بأكثر من مترين . وكانت العادة في بغداد أن توضع ستارة ثخينة من قماش الچوادر المزينة بالرسوم والالوان والاشكال الهندسية مع ثقل حديدي أو خشبي في أسفل الستارة ، لكي تمنع الهواء من تحريكها ذات اليمين وذات الشمال . وهذه الستارة موجودة في جميع الحمامات . وكان صاحب الحمام أو مديره يجلس على يسار أو يمين الداخل على لوج مرتفع تحيط به المناشف ولوازم الحمام الاخرى ، كالصابون والپشتمالات (الازار الذي يُلف على وسط الإنسان وخصره) . وكانت المناشف الممتازة والخصوصية الجديدة لمَنْ يدفع . وعلى محيط حوش الحمام الداخلي دكك (جمع دكة) حجرية مبنية بعلو متر تقريباً مفروشة بالحصران أو البسط ، لغرض الجلوس عليها قبل الاستحمام ، وبعد الانتهاء منه ، لكي ينزع المستحِم ملابسه ويلبسها بعدئذ ، حالما يكمل نزع ملابس الاستحمام ، ويبقى في اللباس الداخلي يتقدم اليه العامل ويلف على النصف الأعلى من بدنه وزرة سمراء ويعطيه قبقاباً خشبياً لرجليه ، فيدخل القاعة الوسطى من الحمام ، حيث الدكة العالية المستديرة ليتمدد عليها الزبون لغرض عملية التعرق . والدكة تستوعب عشرين مستحماً . وعندما يتم التعرق وتسيل قطرات العرق يدخل المستحم الى مكان الغسيل ، وهي باحة مستديرة تنتشر على جدرانها أحواض الغسيل الحجرية الصغيرة ، وعلى كل حوض حنفيتان للماء الحار والبارد ، مع طاستين من النحاس الاصفر . أما إذا كان المستحم يطلب أحد الدلاكين ، فتبدأ

عملية التدليك بالكيس الأسود المعروف ، وذلك على دكة التعرق ، وعند الانتهاء من التدليك لكل الجسم يأخذه الدلّاك الى الحمّام الداخلي لغرض غسله بالليفة والصابون مرتين أو ثلاث ، ثم يتسلم المستحم الليفة والصابون لغسل ما بين فخذيه ، ذلك ان المدلك لا يقوم بهذه العملية . وعند انتهاء المستحم تماماً يطرق على حافة الحوض الحجري طرقتين أو ثلاث بالطاسة النحاسية ، حسب الاتفاق مع المدلك ، ليقدم له ، إما مناشف الحمام أو المناشف الخاصة التي جلبها معه من بيته ، ويلف المناشف حول وسط الخصر وعلى كتفيه ورأسه قبل كلمات (حمّامك عوافي) . وعندما يصل الى باحة الحمام الامامية ويجلس على البركة التي نزع عليها ملابسه ، تُغسل قدماه بالماء البارد (حصانة من الرشح) . ثم يقدم اليه الشاي أو الدارسين على الأغلب ، ثم يلف ملابسه القديمة في البقچة (اللفة) التي جلبها معه من البيت ويبدأ بتسليم الإكراميات الى الدلاك وعامل الحمام والچايچي ، وفي الأخير الى متولي الحمّام ، والأجرة معلومة لمَنْ يخدمه من العمال . أما العمال الذين يخدمونه فتُدفع لهم الإكراميات حسب خدمتهم وحسب كرم الشخص .

والحمّام الثاني في الكرخ ، هو حمام (يتيم أو حمّام أيوب) ، وكلاهما شخص واحد اسمه أيوب يتيم . وهذا الحمّام لا يختلف عن حمّام شامي بكل التفاصيل التي ذكرناها ، غير انه يحتوي على حوض كبير جداً يرتفع عن قاعة التعرق بأقل من متر ، يصعد اليه بسلّم ، ثم يُنزل الى الحوض الكبير على قدر ما يستطيع .

والثالث ، هو حمّام الجسر ، وموقعه في ساحة السيارات العائدة الى التقاعد العامة ، على رقبة جسر المأمون وبجوار مشهد بنات الحسن ، ولذلك سميَ حمّام الجسر . وكان يديره ويملكه آل الحمامچي ، ومنهم الدكتور محمد حسن سلمان . والحمامات الثلاثة المذكورة لا تقبل النساء للاستحمام .

وفي الرصافة حمّامات أكثر من جانب الكرخ ، لانه أكثر إزدحاماً بالسكان الذين كانوا قد اعتادوا على إرتياد الحمّامات أكثر من الكرخيين . ومن الحمامات المشهورة ، حمّام حيدر في شارع المستنصر بجوار ساحة الغريري الآن . وكان يقبل دخول النساء يومين في الأسبوع . ويشتهر حمّام حيدر بادارته الحسنة ونظافته ، ولم يزل قائماً حتى الآن .

ثم حمّام الشورجة ، ويقع في الزقاق المؤدي الى مدرسة الاليانس اليهودية ، ثم الى سوق حنون . وبناؤه أحدث من بقية الحمامات ، ويمتاز بكونه يحتوي على غرف

خاصة للغسيل ، ابتعاداً عن الباحة العامة المفتوحة . ثم حمّام (پنجة علي) ، ويقع في شارع الرشيد مقابل سوق الصفافير على رأس الطريق المؤدي الى زقاق بيع الألبسة المستعملة . ويكاد يكون حكراً على عمال سوق الصفافير وتجار الرواق ومَنْ جاورهم ، ولا يدخل اليه النساء . ثم حمّام (كچو) ، الواقع في باب الآغا بجوار سوق الأمانة . وقد شيد بمكانه البنك اللبناني الذي تملكه عائلة صعب اللبنانية ، وهو حمّام صغير نسبة الى الحمامات الأخرى . ثم حمّام الباشا مقابل شرطة بغداد على ناصية سوق الهرج ، وقد شيد محله المصرف الزراعي . وكان واسع الساحة والوحيد الذي يقبل النساء يومين في الاسبوع ، ويوماً ثالثاً خاصاً لبائعات الهوى القريبات من الحمّام . ثم حمّام المالح ، وقد سميت المحلة بأسمه . وكان القائمون عليه يلقبون الحمامي ،وكان عميدهم سلمان أفندي الحمامي معاون مدير كمرك بغداد في العشرينات ، وهو والد الضابط ناظم واخوته وعم اللواء المتقاعد رشاد الحمامي .

وهناك حمامات أخرى ، مثل حمّام عيفان ، وحمّام المفتي . ويوجد حمّام آخر يسمى حمام الشورجة أيضاً ، ويقع في منتصف الشورجة قريباً من محلة (جدا الطاق) . وقد هدم وبُنيت مكانه أسواق الفرفوري ، ثم حمام السيد محمد قرب بيوت عبدالقادر وياسين الخضيري ، قبل انتقالهم الى قصورهم في الباب الشرقي .

ولقد رأيت حمّامات دمشق وبيروت والقاهرة واستنبول ، وهي لا تختلف عن هذه الحمامات بشيء مهم . وكان الماء الحار لحمامات بغداد يأتيها من الخزان الكبير المسمى (صِفْرِيَّة) ، والتي تستعمل أوساخ بغداد المنثورة في (الطمّة) الملحقة بالحمام لتسخين الماء ، وذلك قبل بداية استعمال النفط والإبريموس . وكان الماء المسخَّن بنيران الطمة ألطف لمساً وأكثر دفئاً من الماء المسخَّن بالنفط ، لأن نار الطمة ، نار هادئة تسري ببط الى الماء ، لذلك كان ماؤها حاراً لذيذاً غير لاسع . وكانت طمة حمّام الباشا أكبر الطمّات في بغداد . وكان يتم شواء الشوندر والشلغم فيها ، الذي يباع مشوياً غير مسلوق . وأشهر مَنْ باعه في بغداد ، اخوة أربعة من اليهود اسمهم أولاد شمّة ، ويستفاد من رماد الطمة أيضاً لخلطه مع النورة في عملية البناء ، عوضاً عن الاسمنت ، إذ لم يكن متوفراً بكثرة في بغداد . وخلط النورة مع الرماد يعطي المزيج صلابة أكثر من صلابة الاسمنت ، مع عدم ظهور الاملاح في هذه المونة ، وأكثر البنايات في بغداد القديمة جداً مبنية بالنورة والرماد ، وقد مضى على

قسم منه أكثر من ألف سنة وهي في المتانة نفسها . ولخلط النورة عمال مختصون بكميات الخلط ومدته ، وفي الطمة خارج الحمام يجلس العامل المسمى (المُشعِلْچي) ، وهو المكلف بإشعال نار الطمة تحت الصفرية الكبيرة التي تجهز الحمام بالماء الحار .

والحمّام يعد محل تكريم ، ويؤخذ اليه العريس ، أو مَنْ كان لديه مجلس فاتحة في اليوم السابع . وفي الحالتين تُدفع مصاريف الحمّام من قبل أصدقائه تكريماً له ، إذ (يصيحون عليه الوير) . وفي بعض الحمامات غرف خاصة لازالة الشعر بواسطة ما يسمى (دوا الحمّام) ، وهو خليط من النورة والزرنيخ ومواد أخرى يطلى به الشعر الكثيف في جسم الإنسان ويبقى الطلاء دقيقة أو أكثر ، ثم يُغسل الجسد بالماء والصابون ، وقد زال عنه الشعر . ودواء الحمّام يُباع عند العطارين ، وعند القائم بامور الحمّام . أما الحجر البركاني الاسود ، فلا يُستعمل لحك أقدام الرجال ، بل هو للنساء فقط . أما راكبو الخيول (الجوكية) ، فلهم دلّاكون خاصون يستخرجون منهم (البسينة) ، وهي الدهن الزائد المتراكم تحت الجلد لكي يبقى وزنهم ثابتاً عند ركوب الخيل . والبسينة يستخرجها دلّاك متمرس يعرف كيف وأين يعتصر مسامات الجلد الدهنية ويستخرج منها الزائد ويبقي القدر المعقول رعاية لصحة الجوكي .

وكان من عادة النساء عند الذهاب الى الحمّام ، أن يستخرجن كافة ما يلزمهن من الفراش والصابون واللّيف وحجر الأرجل ، علاوة على الاكل . مثل الكباب والكبة وخبز العروگ والفواكه ، خصوصاً النومي الحلو ، ذلك انهن يقضين يومهن الكامل في الحمام بالاحاديث والقال والقيل ، ولا يرجعن الى بيوتهن إلا عصراً تنفيساً لبقائهن في بيوتهن شهراً كاملاً أو أكثر ، لا يخرجن منه إلا للجيران أو الاقرباء .

أما الحفلات الكبرى في الحمام ، فتكون ابتهاجاً بمناسبة انتهاء مدة النفاس البالغة أربعين يوماً وقيام الوالدة النفساء سالمة غير متوفاة .

الباعة المتجولون

اعتاد الباعة المتجولون منهم ، أو أصحاب الدكاكين على الاعلان عن سلعتهم بعبارات وجُمل خاصة يعرفها الناس لتكرارها ، ولكل من الباعة نغم خاص بإيقاع خاص ، فمَنْ يسمع جملة (ليه ولوز) ، أو كلمة (يا كريم) ، فمعناها كبة البرغل . ولكن بائعة الكبة الشهيرة (زماوي) ، وهي امرأة مصلاوية ، كانت تبيع الكبة في منطقة باب الآغا ، حيث كانت تسكن ، وفي سوق الصفافير ، وكانت تعلن عن الكبة بجملتها الخالدة (برغل ولحم غنم) وبإيقاع خاص . ولكن الاكثر من باعة الكبة يعلنون عنها بكلمة (يا كريم) . حتى ان المشترين لا يقولون اعطيني كباية ، بل يقولون اعطيني (يا كريماية) . أما بائع الأبيض وبيض المتنقل ، فيعلن بكلمتي (بيض وجمة) ، لأن لفة الابيض وبيض كان يُخلط معها رقائق خفيفة من الكمأ في موسمه قبل ان تكثر البطاطا ، حيث أُستعيض عن الكمأ بها . أما صاحب (چمبر) الأبيض وبيض الشهير الذي يعرفه أكثر سكان بغداد الآن من الكهول والشيوخ والذي كان يرابط في مدخل العاقولية قرب تمثال الرصافي الآن ، فكان لا يعلن عن بضاعته بالنداء ، بل بالزينة التي يزين بها الچمبر ، وبكاسات الطرشي المجانية وأضوية اللوكس في الليل ، مع إضافة الطماطم والخضرة والبطاطة بقدر ما يريد المشتري ، وكل هذا بدرهم واحد . والبائع الآخر المشهور واسمه عباس والذي يرابط على رصيف أوروزديباك في السيد سلطان علي . أما بائعو (الچرك) ، فاعلانهم (بقصم چرك) ، أو (چرك فتيت) ، أو (عمولة چرك) ، وهو نوع من الچرك على شكل مضلع أو مدور تبلغ ثخانته عشرة سنتيمترات تقريباً محمص على الوجهين يشبع الرجل للغذاء وسعره آنتان ، أي عشرة فلوس وأحسن مَنْ يصنعه فرن في سوق الهرج بالميدان .

وكان يُصنع الكاهي ، بنوعيه المدور والمستطيل ، المحشو بالكرفس واللحم ، ويُنادى عليه (ياغلي بورك) ، أي البورك الدهين . والبغدادي يعرف السلعة حين

يسمع نداءها الخاص بها ، مثل : (مالح وطيِّب لبلبي للحمص المسلوق) ، و (حب يا لوز لحب الركي ، أو الشجر) ، و (طرشي حامض للطرشي المكبوس بالماء والملح وليس « بالخل ») ، و (مال الجمري يا طوش) . وهو التمر قبل أن يكون خلالاً ، وكان يُدفن بالرمل لاجل ان يكون ناعم المأكل وأحسنه هو طوشي تمر (الاشرسي) حجماً وطعماً . والجمر هو الدفن بالرمل . أما الخيار الصغير الذي يقلع من أرض الشواطىء قبل أن تعلو مياه الفيضان ، فيعلن عنه (مال المقلع يا خيار ، أو شماطة يا خيار) ، ويباع عادة لربات البيوت لكبسه بالخل .

أما الحلويات ، فيعلن عنها (چقچقِبر يا معجون) ، و (عمبرلي شكر) ، بالوانه الوردي والأبيض والأصفر ، و (بيض اللقلق يا ولد) .

أما البائعات النساء ، فيعلن عن العلكة البيضاء المسماة (علج) وبجملة (جيرة يا بنات جيرة) ، كناية عن القار الأسود السيالي الذي يباع مع العلكة للبنات ، لغرض إزالة الشعر ، ويبعن كذلك دواء القملة ، ولكن بدون اعلان ، وهو خليط من المواد ، ومنها الزئبق لقتل القمل وأفراخه في الرأس .

أما عن الثلج إذا توفر ، فينادي (الليلة وغرة يا ثلج) . أما الباعة في الدكاكين ، فلكل بقال نداء خاص به ، ولكن كثير منهم يشتركون في نداء واحد : (ياس يا بامية ، حمرا يا طماطة) ، أو (مال الوشاش يا لوبية) ، حيث كانت تُزرع على شاطىء نهر الوشاش ، الذي كان يصل اليه الماء عن طريق منخفض المسعودي في غرب بغداد ، و (يا الأسود أبو الهمايم يا أسود) عن الباذنجان ، و (مال زرير يا بطيخ) ، و (فريدوني يا بطيخ) ، أو (مال الزبير يا بطيخ) . وكان البطيخ الجيد يأتي من سامراء من منطقة زرير ، ومن الزبير البطيخ الأصفر العنجور الحلو المذاق . أما نداءات الفاكهة ، فكانت (لاوي الوزيري يا تين) ، واللاوي تعني ان قمة التينة الواحدة قد لوت رأسها ، وذلك دليل نضجها وحلاوتها ، أو (تين أرجاو يا تين) ، وأرجاو قرية من قرى سنجار المشهورة بالتين . وعن التفاح (أبيض ومقصور يا عجمي) ، والمشهور في العراق هو تفاح إيران بلونه الوردي الزاهي ورائحته الزكية وطعمه اللذيذ قبل ان يردنا التفاح الأمريكي . وعن الحيوة (السفرجل) ، يقال (حيوة اصفهان) ، وهي من أحسن أنواع الحيوة في العالم . وكانت تُستورد بصناديق خشبية كبيرة وتُغلف كل واحدة منها بالقطن في محاولة لعدم سريان العفن من واحدة الى أخرى ، ولكنها مع ذلك تصل وقد استشرى العفن فيها ،

ولكنها كانت تؤكل ، فرائحتها الزكية ولونها الأصفر الفاقع تثيران الشهية . وعن الخوخ (مال الجادرية يا خوخ) ، أي من منطقة الجادرية بالكرادة . أو يقال (محنّى وعال يا خوخ) ، وذلك عن الخوخ المحلي الاحمر اللون ، أو (مِسْكي وعالي يا خوخ) ، والمسكي هو الخوخ الاصفر المسكي الرائحة والطعم . وعن العنجاص (حجي أحمد العنجاص) ، وهو العنجاص الاحمر الصغير الحجم قبل أن تُزرع الانواع الاخرى من العنجاص . وعن التكي الاحمر (تكي الشام يا شربت) . وقد انقرضت أشجار تكي الشام تقريباً ، وكان أحمر اللون غامقاً كثير الماء ،ولا يؤكل باليد ، إنما يؤكل بشوك السعف (السِلّي) ، لانه يصبغ الأيادي بلون أحمر لا يزول إلا بصعوبة . وكان آخر محل لبيعه في بغداد صباحاً بالكؤوس الطينية في شارع المصبغة تحت سوق الخفافين . وعن العنب ينادى (بلداوي العنب) ، وهو العنب الابيض المدور ، ويسمى الآن عنب شَدَّة ، وأحسن مناطق زراعته مدينة بَلَد قرب سامراء ، أو يقال (أبو الهيل العنب) . أما عنب ديس العنز والعجمي والبهرزي ، فلم يكن يعلن عنه لقلة وجوده في العشرينات . وعن التكي الأبيض يُنادى (بارد العنب بارد) . أما نداءات المشمش ، فيقال (حموي يا مشمش) ، أي انه من بذور مشمش حماة السورية والذي يعد أحسن أنواع المشمش ، لطعمه اللذيذ وخلوه من الخيوط الداخلية وغزارة مائه . لذلك فان أحسن أنواع قمر الدين ، هو القمر الدين الحموي . وعن الباقلا اليابسة ، يُنادى (باجلة منگوعة الباجلة) ، تمهيداً لسلقها ، لأن الباقلاء لا تنضج ما لم تُنَقَع بالماء ، لكي تنتفخ متشبعة بالماء . أما باعة الطرشي المكبوس بالماء والملح ، فنداؤهم (للدوخة يا حامض) ، وعن (الشاترك) ، وهو حشائش طبية تشبه الشبنت المستعمل مع الباقلاء ، ولكنه مُر الطعم جداً ويستعمل دواء لما يسمى (داء الحرارة) ، لذلك ينادى عليه (يطفّي الحرارة والنار يا شاترك) .

أما الكُبَر النبات الصحراوي الأحمر اللون ، فيُعلن عنه (أكلك منافع يا كُبَر) ، وبالرغم من اني أكلت كثيراً من الكُبَر ومن شجرته قبل طلوع الشمس ، فلم أشعر بتحسن أو منفعة ظاهرة ! وعن الكما ، يعلن (حنطاوي الجمة) ، وهو النوع الاسود منه . ويقال كذلك (حنطاوي يا مال الغيث) ، لأن محصول الكما لا يكون فاخراً إلا بعد المطر والغيث المبكِّر المصحوب بالرعد والبرق ، كما يقول علماء الزراعة والتغذية الآن بأن البرق والرعد يوفران الآزوت للأرض فيحسن انتاجها للكما نوعاً وكمية . وعن

التمر الذي يباع في العذوق (عرموط يا قص العثق) . وهناك نداءات (كشار خشب) ، لتكسير الخشب وجذوع الاشجار الى قطع صغيرة لاجل المواقد أو الطبخ . أما الازبكية ، فيعلنون عن شحذ السكاكين بقولهم (چراخ ، چراخ) . أما بائعو كراسي المكوى الحديدية الصغيرة (سكمليات أوتي ، خوش فاسات قَنْد) . وفاسات القند هي لتكسير السكر القند الذي يستورد بشكل إهرامات مغلفة بورق أزرق ، إذ لم يكن السكر الناعم شائع الاستعمال . وكان الباعة اليهود المتجولون ، إما أن يبيعوا اللوبية المسلوقة بقدور يحملونها على رؤوسهم ، أو يبيعوا الخام والچيت ، بربطات يحملونها على ظهورهم وبيدهم الذراع البغدادي أو ذراع استنبول أو الذراع الكبير حسب نوعية القماش وكيفية بيعه ، وكانوا يجولون في الطرقات وينادون بكلمة (بيع ، بيع) مع مد حرف الياء ، وتعني شراء كل شيء مستعمل .

وفي جانب الرصافة يعلن عنها بكلمة (أسكي) ، وتعني باللغة التركية عتيق . لذلك فان هذا اليهودي يسمى أبو بيع بالكرخ ، وأبو أسكي بالرصافة . وإذا سمعت كلمة (بوزلي) ، أو (قيماغلي) ، فهذا معناه بائع الدندرمة . وعن الخس يعلن (أبو الطوبة يا خس) . أما جملة (مايع ، درمان الصدر) ، فأعلم انه الشلغم المسلوق . أما إذا سمعت (تُونُش يا لوز) ، فمعناه بائع الحب والحمص والباسورك ، وإذا سمعت كلمة (فْتِيْت) ، فمعناه الچرك ، أو (بادملي شكر) ، وهي قطع مدورة تُصنع من السكر واللوز المطحون . وإذا سمعت (حار يچوي) ، فمعناه بائع الصمون . وكلمة قنديل معناها بياع الرمان . وكلمة (أوْيَه) ، فتعني بياع الكشاكش والتنتنا التي تُخيط بنهايات الثياب النسائية أو أكمامها أو رقبتها . وإذا سمعت (شغل الحلبلي ، أكل المكتيلي) ، فأعلم انه بياع اللوزينة . أما الخضراوات الصغيرة ، فيُعلن عنها بجملة واحدة هي : (كراث ، رشاد ، تازة الكرفس) . ولم يكونوا يبيعونها في الدكاكين ، بل يتجولون بها في الأزقة . وإذا سمعت كلمة (چاووش العَشا) ، فأعلم انه الفجل . ومن الجدير بالذكر ان اليهود في بغداد يطلقون على المشمش الناضج جداً كلمة (زِرْدَالي) ، وهي الكلمة التي استعملوها يوم قدوم الوصي عبدالإله وصحبه من الاردن ، بعد توقف القتال بين الجيش العراقي والبريطانيين ، ويعنون بذلك ان الجيش العراقي أصبح مهترئاً كالمشمش الزردالي . وفضلًا عن هذه النداءات كانت سينمات الرشيد والوطني والزوراء في شارع الرشيد وجميعها لليهود ، تطلق أغنية أم كلثوم (افرح يا قلبي) بأعلى صوتها شماتة وتشفياً ، مما سبب الاضطرابات الدموية في بغداد باليومين التاليين .

الحرائق والاطفاء

كان أول ما رأينا من سيارات الاطفاء ذلك في حريق بيت النواب بالكرخ ، وكان يشغله القسم الطبي في الجيش البريطاني . وبيت النواب هذا دخل الآن في عمارة مستشفى الولادة بالكرخ . وكان حريقاً كبيراً اشترك في إطفائه الجيش البريطاني وسيارة واحدة حمراء للاطفاء ، وزورق الاطفاء النهري ، الذي كان مرابطاً في القشلة تحت برج الساعة . وكانت السيارة ضخمة ومن ماركة (دنيز) . أما دواليبها ، فكانت من المطاط الأصم بدون (چوب) ، وكان المطاط بثخن عشر سنتيمترات والجرس الكبير معلق على الجهة الثانية من السائق ، وله قارع خاص يمتاز بالقوة ، لثقل الجرس وثقل مدقته . وكان ماء الاطفاء يُسحب من النهر بواسطة الزورق البخاري المطلي باللون الاحمر أيضاً . وانتقل بيت محمد حسن خان النواب أبو مجودي خان الى محلة جامع عطا ، حيث استأجر بيت يوسف العطا لمدة سنتين ، وأخذت السبايا في عاشوراء تصل الى هناك ، حيث اعتادت مواكب عاشوراء أن تنهي مسيرتها في بيت النواب حسب التقليد الذي كان سائداً . وقد عاد النواب الى بيته بعد ان أكمل تعميره .

وبعد سنة من هذا الحريق شبَّ الحريق الاكبر في المستودع العام للجيش البريطاني الذي يضم مخلفات الجيش المختلفة في السيف الكبير (سيف داؤود باشا) في محلة باب السيف ، والذي شيدت على أرضه مديرية التقاعد العامة ، وكان حريقاً كبيراً دام عدة أيام ، وبقي زورق الاطفاء مرابطاً في شريعة باب السيف طيلة أيام الحريق . أما رائحة المحروقات والمطاط ، فقد ملات أجواء الكرخ شمالاً وجنوباً وفقاً لهبوب الرياح . ثم أفرغ السيف بعد شهر وسُمح لاهالي الكرخ بالتقاط ما يعثرون عليه من بقايا الحريق ، مثل التنكات أو الحديد أو البضائع التي تركها البريطانيون .

والحريق الثالث الكبير ، هو حريق مخزن أوروزديباك (عمر أفندي) في سوق المصبغة مقابل سوق الخفافين والملاصق لخان الباجهچي وباعة البرنوطي . وللمرة

الأولى نرى سيارة حمل الماء ببرميل كبير مركّب خلفها على غرار سيارات الرش . وسلّطت على الحريق كميات كبيرة من الماء بمعاونة الزورق البخاري الذي رابط على رصيف المستنصرية بالقرب من محل الحريق . وحيث ان منطقة المصبغة كانت منخفضة ، فقد بقيت ممتلئة بالماء لاكثر من أسبوع وانتقل المارون الى جهات أخرى من السوق . وبعد الحريق انتقل أوروزدبياك الى شارع النهر (المستنصر) مجاوراً لحمّام حيدر خلف ساحة الفريري ، وبقي في ذلك المحل الى ان شيد المخزن الجديد بجوار جامع السيد سلطان علي ، وهو الموجود حالياً . وقد كانت الأرض كراجاً ومعملاً لتصليح سيارات نيرن . وأظن انها وقف من أوقاف بيت (قره‌علي) . وبالمناسبة فانه كان يسمى أوروزدبياك عمر أفندي في كل من سوريا ولبنان ومصر وفلسطين واستنبول ، ذلك لان الامتياز حين أعطي من قبل الخلافة العثمانية الى الشركة الفرنسية كان المفاوض في العملية اسمه عمر أفندي ، فاشترط أن يلحق اسمه بأسم أوروزدبياك ، مثل ما عمل الارمني (كلبنكيان) ، و (دارسي) في اتفاقيات النفط . والى بضع سنين خلت كانت لوحة المخزن في بيروت والقاهرة واستنبول مكتوب عليها عمر أفندي ، أما في دمشق ، فقد شُطب الاسم ، لان المخزن في كل الاحوال لم ينجح تجارياً في دمشق .

والحريق الرابع ، هو حريق مخزن عيسى العمران في شارع المستنصر مقابل الطريق المؤدي الى مجلس الطائفة اليهودية وقصر چوبنيان ، وعيسى العمران ، هو أول مَنْ استورد السدارة العراقية من النمسا وبعدها تبعه الآخرون .

والحريق الخامس الكبير ، هو حريق خان السيد حسين يحيى في سوق الصفافير . واستمرت النار مشتعلة فيه أربعاًوعشرين ساعة . وكان الحريق مفتعلاً ، إذ ثبت ان الاخوين شلومو واسحاق نامردي ، اللذين أمّنا على محلهما في الخان بمبلغ خمسين ألف ربية لدى شركة فاولر للتامين ،ولكن الشركة لم تدفع لهم شيئاً . وكانا قد هربا الى إيران . علماً بأنهما من عائلة النمرودي المشهورة نفسها في نضيحة إيران غيت ، وقد اقترح بعض النواب في المجلس النيابي طلب تسليمهم من إيران ، ولكن المحاولة لم تنجح لعدم وجود معاهدة تسليم المجرمين بين العراق وإيران . وفي الثلاثينات حصلت حرائق كثيرة مثل حريق خان الزرور ، وخان الدجاج . ومن الحرائق المفتعلة في العشرينات أيضاً ، حريق قسم من الطابق الثاني لخان دلّة الشهير . وقد افتعله التاجر السوري عبدالله حجار الذي هرب الى دمشق بعد

انكشاف أمره ، حيث عُثر على الخيوط المشبعة بالنفط والملصقة بنهاية الشمعة التي بقيت آثارها بعد اطفاء الحريق . وكان المحل مؤمناً أيضاً لدى شركة (الالايناس) الفرنسية اليهودية .

وبعد انتهاء عقدالمستر فيشر مدير الاطفاء ، تسلّم المسؤولية الاسطى علي وأخوه ابراهيم شندل ، وكانا معاونين للمستر فيشر ، ولقب عائلتهم (بوشناق) ، وهو ما يسمى البوسنة في الحال الحاضر . وكان أجدادهم قد جاؤوا الى العراق ضباطاً في جيش السلطان مراد الرابع الذي أنقذ بغداد من الفرس الصفويين واستقروا في بغداد ، وعُرفوا بالشجاعة والكرم والذكر الطيب . والاسطى علي هو الأخ الأكبر لخمسة إخوان ، وهو المندفع دائماً لاداء الواجب ، وهو الذي أصيب بحروق أقعدته عن العمل في الحريق الكبير الذي شبَّ في مخزن النفط بباب الشيخ ثاني يوم ١٤ تموز ، ١٩٥٨ . وكان المستر فيشر هذا أحد الضباط البريطانيين المشهورين بالصلافة وشراسة الخلق . والآخرون ، وهم : المستر ايستن ايستوود مدير المجلج العراقي في الشيخ جنيد بجانب الكرخ ، والذي صار رئيساً لجمعية السيارات العراقية مدة طويلة من الزمن ، ثم المستر جستن الجاسوس المشهور الذي قُبض عليه في ثورة مايس وهو يوزع مناشير السفارة البريطانية في زورق السفارة البخاري ، وقد أُطلق سراحه بعد انتهاء الثورة . ثم المستر استن رئيس تسوية حقوق الأراضي العراقية ، وكان رئيساً للمخابرات البريطانية . وكان من مهام المستر فيشر في بداية العشرينات اختبار سواق السيارات في الزقاق الواقع خلف جامع السراي لمنحهم الإجازات ، وفي الثلاثينات أُعطيت دائرة الاطفاء صلاحية التحقق من ان سيارات الركاب والحمل بين سوريا والعراق صالحة للعمل ، لكي تنال بذلك إجازة السفر لكل سفرة على حدة . بعد انتهاء عقد المستر فيشر ومغادرته العراق ، تسلّم الأسطى علي وأخوه ابراهيم شندل إدارة الاطفاء .

الاشقياء في بغداد

للشقاوة في بغداد تاريخ طويل يمتد الى الدولة العباسية ، حيث كانوا يسمون بالشطّار والعيّارين ، وقد تدخلوا بمعارك الامين والمأمون . وذكرت التواريخ باسهاب وتفصيل أعمالهم ونجاحاتهم . وقد كان من علو المركز والمهابة في بغداد أن يُوصف الرجل بالشقاوة . والشقاوة نوعان ، شقاوة الشهامة والنخوة ومساعدة الضعيف على القوي . وشقاوة الإجرام ، كاللصوصية والسلب والاعتداء على الغير ، ضعيفاً كان أو قوياً . وفي أيام ثورة العشرين اشتهر في بغداد ، بشقاوة الشهامة والنخوة ، المرحوم عبدالمجيد كنة عم المرحوم خليل كنة ، وخصوصاً في محلته السيد عبدالله والمحلات الأخرى المجاورة ، ثم في أوساط الثوار في بغداد . وقاوم الإنكليز مقاومة عنيفة وأردى بعضاً منهم قتلى ، ووزع المناشير الداعية الى الثورة ومقاومة الاحتلال . فشددت السلطات البريطانية الخناق عليه ، وتمكنت من إلقاء القبض عليه . وفي محاكمة سريعة قضت باعدامه ، فأُعدم ودُفن في تشييع مهيب بمقبرة الشيخ جنيد بالكرخ . ولم تزل غرفة ضريحه قائمة وعلى جدارها الداخلي صورته المكبرة مرتدياً العقال واليشماغ وزبون البُتّه . ومن أشقياء بغداد ذوي النخوة والشهامة ، موسى أبو طبرة . وكان وسيماً بسطة في الجسم مصارعاً . وكان يتبعه حين يمشي عدد من التواقين الى الشجاعة والمراجل . ولكي يقال عنهم ويشتهرون بانهم من جماعة موسى أبو طبرة ، سواء كانوا من المسلمين أو اليهود . وكانت منطقة نفوذهم جانب الرصافة من حدود محلة الفضل الى باب الشيخ . وكان موسى من هواة سباق الخيل . وقد حصل خلاف بينه وبين أحد الهواة الآخرين من الأشقياء المحترفين في سباق الخيل ، وهو أحمد الشنان . وهذا الخلاف هو أمر اعتيادي بين أصحاب خيول السباق . وأدى هذا الخلاف الى مصرع موسى أبو طبرة على يد شقي من جانب الكرخ اسمه جواد الاجلگ ، حين كانا يتعاطيان الشراب في أحد البارات في محلة المربعة . وافتعل جواد مشاجرة مع موسى ، فطعنه بالسكين في رقبته طعنة قاتلة . وكان لهذا القتل وقع سيء ، لان القتيل من عائلة كريمة محترمة . وحكم على القاتل بالسجن .

وكرد فعل لهذه الجريمة ، قام الشقي المشهور والقاتل المحترف الحجي شاكر بمساعدة شريكه في الشقاوة عزيز الاقچم بالهجوم على أحمد الشنان في الاسطبل الذي يملكه في محلة باب الشيخ ظهر يوم جمعة وقت صلاة الظهر ، وأطلقوا عليه الرصاص وقتلوه . وخرجت الناس مذعورة من مسجد الكيلاني ، وتراكضت الشرطة ، فاصطدمت بهما ، وبعد المقابلة بينهم قُتل مفوض في الشرطة وعريف وجُرح آخرون ، وتراكض الناس خلفهم وصعدوا الى السطوح يرمونهم بالطابوق . ولما نفد عتاد عزيز الاقچم استسلم وألقي القبض عليه وعلى الحج شاكر ، وجرت محاكمتهما وحكم عليهما بالاعدام شنقاً . وقرر وزير الداخلية والعدلية تنفيذ حكم الاعدام علناً في ساحة الكيلاني . وكنت ممن حضروا عملية الاعدام مع الآلاف من سكان بغداد . وانهار عزيز حين صعوده سلّم منصة الاعدام ، فرفعه السجانون (الوردانية) وشنقوه ميتاً ، كما اعتقد الناس . أما الحجي شاكر ، فقد صعد متباهياً غير آبة وظل يترنح على حبل المشنقة عدة ثوان . وقد سبق للحجي شاكر قبل اعدامه ان اعترف بقتله أشخاص سبعة بعد ان صدقت محكمة التمييز على حكمه وأصبح نهائياً .

أما قاتل موسى أبو طبرة ، الشقي جواد الاجلگ ، فقد خرج من السجن بعد انتهاء محكوميته ونواله العفو القانوني . فقد كان يلتقي في قهوة حسن عجمي في الحيدرخانة لشرب النركيلة . وفي أحد الايام وقف صبي صغير على حائط أحد الأعمدة المقابلة للمقهى . وحين غادر جواد المقهى تصدى له هذا الصبي وأوقفه قائلا : (قف يا جواد أنا ابن موسى) ، وأطلق عليه أربعة عيارات نارية قتلته في الحال . وبقي منتظراً قدوم الشرطة فسلّمهم المسدس . ثم حكم عليه بقضاء مدة قليلة في الاصلاحية لصغر سنه . وخرج هذا الشاب من اصلاحية الاحداث ، لا ليكون شقياً ، بل انصرف الى الاعمال الحرة وصار تاجراً محترماً كبقية أفراد عائلته السامرائيين . (وقد اتهم شخص ثالث مع الحجي شاكر ,وهو جاسم أبو الهبزي ، وقد برىء . وسنتكلم عنه في باب شخصيات بغدادية) .

ومن الأشقياء القَتَلَة المحترفين في بغداد ، عبدالامير العجمي في جانب الكرخ . وكان يلوذ بحماية مظهر بك الشاوي . كما هو شائع بين الناس ، يؤويه في بيته بجانب الكرب قرب ساحة الشهداء ، أو مزرعته بين المحمودية والصويرة . واستمرأ عبدالامير في الإجرام ، وعده مهنة رابحة ووصل به الامر الى حد الجرأة على سيده مظهر الشاوي وعلى ضابط شرطة الكرخ علي كمال (نائب السليمانية في

العهد الملكي) . وحاول أن يغتاله ، لولا حذره ويقظة مرافقيه من الشرطة . وكان لا بد أن يموت عبدالامير قتلًا ، وفقاً لقانون الشقاوة القائل : ان لكل شقي قاتل شقي آخر محترف أو مبتدىء في الشقاوة يريد أن يقال عنه انه قتل شقياً مشهوراً . فقُتل عبدالامير على قيد خطوات من باب بيت مظهر الشاوي خلف جامع غنام . وكان القاتل مجهولًا حسب الاصول .

ومن الاشقياء القَتَلَة المحترفين ، محمد الاعور ، وقد قُتل في مقبرة الغزالي ، حين كان يتربص في قتل أحد الاشخاص . ومن الاشقياء ، كذلك ، عبدالامير الاسود من محلة الشيخ بشار بالكرخ . ولكن اسمه قد اختفى فجاة ولم يعثر له على أثر ، ولا يُعرف إن كان قد قتل أو هرب الى إيران ، وانقطعت أخباره بعد ان لمعت فجاة أضواء شقاوته في سماء عالم الإجرام واختفت فجاة .

ومن الاشقياء (كزكه) الفويلي من محلة الصدرية . وكان الوحيد في بغداد الذي قيل (مبالغة) انه يحمل في سبايات عاشورا مشعلاً يحتوي على مئة فانوس وفانوس من محلة الصدرية الى محلة التسابيل ، ويقف ويبرمه عدة مرات ولطول المشعل وثقله كان يسنده أثنان من أقوياء البدن لمنعه من السقوط حين إنزاله الى الأرض لتجديد الوقود في الفوانيس . وفي الحقيقة لا يوجد مشعل يحتوي على مئة فانوس وفانوس ، لأن ذلك يعني ان الخشبة التي يتكون منها المشعل يزيد طولها على ستين متراً . وهذا غير ممكن . وعلى الاكثر فان أكبر مشعل لا يحتوي على أكثر من واحد وأربعين فانوساً بحساب المسافات بين كل فانوس وفانوس . وقد رأيت ذلك بعيني وتحققت منه حين ذهبت سنتين متتاليتين الى محلة الصدرية والتسابيل ، لارى كزكه ومشعله الطويل الذي كان شائعة وليس حقيقياً ، بل هو نوع من المبالغة عند الناس .

وقد كثرت اعتداءات كزكه على جماعته من سكان محلة الصدرية ، وما جاورها . وحاول أن يتشبه بالشقي الفيلي المسمى ابن شاهية ، والذي قُتل في محلة سويدان في الرصافة . فقد كان شرساً غليظ الاخلاق . وقد قُتل كزكه ضرباً بالقامات تشفياً وانتقاماً منه .

وبهذه المناسبة ، فان كثيراً من الاشقياء الذين اشتهروا ، هم من الاكراد الفيلية ، مثل : ابن عبدكه ، وابن شاهية ، وكزكة ، وجوامير النكه ، وآخرهم جبار الكردي وإخوته . والفيلية هم سكان جبال اللر ، وفي بغداد يسمى جبل بشتكو مقابل

علي الغربي . وكانت عشائر اللر ، قد استولت على بغداد مرتين في القرن الرابع الهجري تحت رئاسة بجكم ومرداويج الجبل . وفي بغداد امتهنوا التجارة وبيع الحبوب والمواد الغذائية في علاوي الشورجة والصدرية والتحميل في الخانات .

وفي بغداد أشقياء اشتهروا بالمعارك اليدوية لا بالقتل . وهم كثيرون ، ومنهم ابراهيم الأسود ،والذي كانت الأوتيلات مجال عمله وتحرشاته بالجنود البريطانيين الذين كانوا يرتادون المشارب ليلًا . وامتهن أخيراً طريقة الابتزاز وأخذ الخاوة والاعتداء على الناس كيفما اتفق . وكان ان ألح على الشاب الشيخلي حسن ، حتى التقيا في يوم من أيام الربيع ونهر دجلة في طغيانه ، ونحن التلاميذ نذاكر دروسنا في مقهى أبو علي بشارع أبي نواس ، وابراهيم الأسود يتربع ملكاً على تخت المقهى يأكل الخس ، إذ مرَّ من أمامه حسن فاستدعاه وأهانه على ملأ من رواد المقهى .

فما كان من حسن إلا ان طعنه بسكين أُم الياي ، وفتح بطنه على مصراعيها ، وكان بطيناً ، فقفز الى نهر دجلة بدون شعوره وطافت أمعاؤه في الماء حتى تمكن بعض المارة وصنّاع المقهى من انتشال جثة الشقي ابراهيم الأسود . وبعد هذا الحادث أصبح حسن من الأشقياء ، حسب قانون الشقاوة المتعارف عليه وهو ان مَنْ يقتل شقياً يكون هو شقياً .

ولا بد من ذكر الأشقياء الذين كانت بغداد تتحدث عنهم ، ولو ان أعمالهم لم تكن داخل مدينة بغداد ، بل بضواحيها والمدن القريبة منها ، وأشهرهم هو ابراهيم عبدكه ويسمى ابن عبدكه فقط ، وهو من الأكراد الفيلية . كان مطلوباً بجرائم قتل في زمن العثمانيين ، وفرَّ منهم الى خارج بغداد وأصبح (كرفت) ، أي هارب من وجه العدالة . وفي الاحتلال البريطاني والحكم الإنكليزي جدد نشاطه بين بغداد وديالى ، واتخذ من القتل والسلب وسيلة للعيش . وفي أثناء محاصرة بعض البريطانيين وعوائلهم في لواء ديالى أقدم ابراهيم على حماية النساء البريطانيات وأوصلهن سالمات مكرمات الى بغداد . وهذه العملية هي التي أنقذته من تنفيذ حكم الاعدام عليه الذي أصدرته عليه المحكمة الكبرى في بغداد ، وكان يرأس المحكمة البريطاني المستر بريجالد قبل ان يتسلّم رئاسة محكمة التمييز . وقد أوعز اليه مستشار وزارة العدلية المستر دراور بتخفيف عقوبته ، لذلك فقد أبدل حكم الاعدام الى السجن المؤبد . وبعد مدة خرج من السجن وصار حارساً في الآثار القديمة خارج بغداد ، ثم في داخل بغداد ، وأعفي من الخدمة لكبر سنه وعجزه . وبينما هو في المقهى يدخن

تقدم اليه أحد الشباب وأطلق عليه الرصاص وقتله بحجة ان ابن عبدكه قد قتل ابن عم له . ولم ينل هذا القاتل لقب الشقاوة ، بل احتقره كل الناس . لانه قتل رجلًا عاجزاً لا يستطيع الدفاع عن نفسه .

ومن الأشقياء الذين دوخوا أطراف بغداد ونواحي ديالى . وكانت تصل أخبارهم الى بغداد ، حيث اشتهرت سمعتهم والخوف منهم . ومنهم محسن العبجل ، وجوامير النكه ، وأولاد جواد باوي . وقد انتهى أمرهم ، إما الى الاعدام أو القتل . وكانت بساتين ديالى لكثافة أشجارها ، ولكونها مسورة ، فهي واسطة سهلة للاغتيال من وراء طوف البستان أو من وراء الأشجار . ولكن المتعارف عليه في ديالى ان الانتقام يجب أن لا يطال الأشجار ، فلا تقطع شجرة أو تجتث من أصولها ، كما هو الحال في كردستان ، حيث يكون الانتقام بقطع الاشجار .

هناك شقيقان مشهوران كانا حديث الناس في بغداد زمناً طويلًا . ولم يزل يضرب المثل بأحدهما حتى الآن . وهما كامل البطيخ ، ومحمود محمد الأحمد . أما كامل البطيخ ، فهو من عشيرة شمر طوكة من المجايلة الذين يسكنون مقاطعة الشاعورة الملاصقة لمقاطعة الدبوني في ناحية العزيزية ، وانه من رؤساء العشيرة . وكان جده بطيخ رئيساً للمجايلة ، وكان طاغية . وامتد نفوذه الى إيران من جهة بدرة . وان المثل (ولاية بطيخ) المشهور جاء نتيجة تصرفات بطيخ اللامعقولة ، والتي لم تكن تخضع لأصول أو قواعد ، بل كان المزاج اليومي الكيفي لبطيخ هو الذي يدير حياته .

وقد ارتكب كامل في شبابه جريمة قتل وطُلب الى العدالة ، وفرّ هارباً يقطع الطريق سلباً وقتلًا بين بغداد والكوت ، هو ومساعده إيدام المنصور . وتمكنت قوات الأمن بعد جهد من القبض عليه ، ثم إعدامه والحكم بالحبس على مساعده إيدام ، حيث أنصرف الى الزراعة بعد انتهاء محكوميته ، وتوفي في الخمسينات ولم يزل آل بطيخ يسكنون مقاطعة الشاعورة في العزيزية .

أما الشقي الآخر ، فهو محمود محمد الأحمد ، الذي قتل كاظم ابن الحجي ناجي ، صاحب المس بل المشهورة ، سكرتيرة المندوب البريطاني ومالك البساتين في الجادرية . وهرب محمود وظل يقطع الطريق متخذاً من السلب والقتل وسيلة للعيش الى ان قُتل في الطريق المؤدي الى قضاء الحي ، بعد ان تعاونت العشائر مع الشرطة في عمل الكمين اللازم له للتخلص من شروره .

وفي بغداد أشخاص أُتهموا بالشقاوة ، ولكن لم يقم دليل مقنع على ذلك . ففي العشرينات ظهرت جمعية سرية تبعث بالرسائل الى التجار والاغنياء تطلب منهم الأموال بالتهديد . وكما يقال (بلاك ميل) . وكان ان وصلت إحدى هذه الرسائل الى محمود چلبي الشابندر ، التاجر الوجيه ، وعلمت السلطات بأمر الرسالة وجرى التحقيق ، وأوقف المرحوم عبدالله سرية والسيد خليل . وقد سمي عبدالله بأسم سرية ، نسبة الى هذه الرسائل التي وصلت الى الاثرياء (وهي غير قضية الرسائل السرية التي أُرسلت الى الملك فيصل واتهم فيها مزاحم الباجه‌چي وجماعته) ، ورغم كل التحقيقات والضغوط ، فلم تثبت التهمة على عبدالله والسيد خليل . ولكن شهرة عبدالله بالشقاوة قد طارت واتهم بجريمة قتل وزير الداخلية توفيق الخالدي ، كما اتهم آخرون . ولكن التهمة لم تثبت . وصارت كل جريمة سياسية تُرتكَب يرد فيها اسم عبدالله سرية لدرجة انه اعتقل خلال الحرب العالمية الثانية ، لمجرد انه عبدالله سرية ، وبعد ان بلغ من العمر متجاوزاً السبعين اعترف أمامي انه بريء من هذه التهم التي أُلصقت به وعزاها الى شخص آخر . والملاحظ في بغداد ان تهم القتل هذه وغيرها ، وخصوصاً المشهورة منها تلصق بأناس مشهورين . ففي مقتل الخالدي أُتهم عبدالله سرية ، وحسن حراسة ، والضابط شاكر القره‌غولي ، وكان مرافقاً لجعفر العسكري . وقيل انه قتل الخالدي بتحريض من خصمه اللدود نوري السعيد . وبالمناسبة فان شاكر القره‌غولي كان يرافق جعفر العسكري حين ذهابه لمواجهة بكر صدقي ، وجرى اغتياله هناك . وكان فريق من الضباط قد أنزلوا شاكر القره‌غولي في خان بني سعد وأخذوا جعفراً وحده وقتلوه . أما في مقتل الكومسير سلمان أفندي ، كومسير شرطة خان دلّه ، وكان يهودياً متجبراً أذاق الناس صنوف العذاب والتسلط يسنده الإنكليز . وفي يوم من الأيام ترك عمله قرب منتصف أحد الليالي وذهب الى بيته بدون حرس استهتاراً ، وحين وصوله الى الزقاق المؤدي الى جامع المصلوب أُطلقت عليه النار وقُتل ، ولم يُعثر على جثته إلا في اليوم التالي . وأُلصقت التهمة كذلك بالمشهورين في بغداد وأعلنت الحكومة عن رصد جائزة مالية مقدارها عشرة آلاف ربية لمَنْ يدلي بأي معلومات تؤدي لمعرفة أحد القاتلين . فلم يتقدم أحد .

وللأشقياء طريقة خاصة في الملبس وهي الچراوية المنحدرة الى الكتف ، وتسمى (العَدَامْ) ، أي أن لابسها يسير الى طريق الاعدام . أو تُلبس الچراوية على

الرأس ، وهي ملفوفة بغير عناية أو هندام . ولبس الگيوه البيضاء بالرجل واللباس الابيض الطويل الذي يجب أن يصل الكاحل ، مع عرقچين أبيض ذي قبة مدببة عالية ، وسكين أم الياي في جيبه مع إبراز صدره الى الامام والتبختر في المشي . وفي الشتاء يلبسون الدميري الطويل .

ونحن نذكر الاشقياء ، لا بد من التطرق الى أشقياء اليهود . وكان هناك طبقة من أشقياء اليهود المعاركين ، وليس القَتَلَة ، وأكثرهم يحوم حول الاشقائية المسلمين للتظاهر بانه من مريديه ، وان الشقي المسلم هو (عرّابه) . وكانوا أكثر ما يلتفون حول المرحوم موسى أبو طبرة ، وانهم مطمئنون ان موسى ليس بقاتل ، وان لا خوف من الانتماء اليه ، بل يزيده قوة على قوة .

ومن أشقياء اليهود المشهورين (خضوري سويكا) ، وهو مكوي ملابس ، يقع دكانه بمواجهة باب جامع الحيدرخانة الجانبي . وسمي سويكا ، لأنه يتعاطى تتن السويكا القذر ، الذي يوضع في اللثة ، ثم يُبصق على الارض عندما ينتهي مفعولة المخدر . ويُعمل من خليط تراب التتن والنورة ومواد أخرى ، وقد انقرض الآن نهائياً لبشاعته وضرر تعاطيه . ومن الأشقيائية الآخرين (شلومو أبو السوتلي) ، وأُطلق هذا اللقب عليه ، لانه كان دلّالاً في السوق يتعاطى ببضائع السوتلي والقنب السوري أو الهندي المستورد . وكان محل عمله في القيصرية بشارع السموأل . ثم توقف عمله وركن الى دكان ولديه مقابل باب مخزن حسو إخوان ، حيث كانا يبيعان الكراسي القش والمكانس وغيرها . ثم هاجر الى لندن . وقد لقيته لاحقاً في لندن في مطلع الثمانينات ، وبقي يحتضنني ويجهش بالبكاء ، لأنه فارق بغداد رغماً عنه لاحقاً بولديه .

وظهر الأشقياء اليهود علناً الى السطح ، عندما انفجرت أزمة الغابيلة في العشرينات بين الطائفة الإسرائيلية . والغابيلة ، هي رسوم الذبيحة عند اليهود في مسالخهم الخاصة بهم ، لانهم لا ياكلون إلا لحم الكاشير بعد فحصه من قبل الحاخام المختص بفحص الحيوانات المعدة للذبح في المسلخ اليهودي ، ولهم رسوم خاصة . ويعد التزامها مصدر ربح كبير وإيراد للطائفة . واحتج قسم من اليهود على رئيس الطائفة الحاخام ساسون خضوري واعتدوا على رجاله ، فرد الاعتداء بمثله واشتدت المعارك اليدوية بين الطرفين ، وخشي قسم من اليهود الظهور من بيوتهم وأغلقوا محلاتهم التجارية ، وبعد تدخل الحكومة وضغط سافر من دار المندوب

السامي البريطاني ، انتهت المشكلة بالتراضي . وبقي ساسون خضوري رئيساً للطائفة الإسرايلية وعَوَّضَ خصومه الآخرين تعويضاً مالياً ، أو بانتخابهم أعضاء في مجلس الطائفة . وهكذا ربح أهل بغداد بانكشاف هؤلاء الاشقيائية ، وربح الأشقيائية مالًا وهيبة بين الطائفة ، ونال رؤوسهم تعويضهم المالي أو الادبي . كما ربح ساسون خضوري ، إذ بقي رئيساً للطائفة .

ولا بد من ذكر الأشقيائية من النساء ، الفنانات طبعاً . لأنه لا توجد امرأة محترمة مخدُرة تتعاطى أعمال الشقاوة . وعلى رأس الفنانات الأشقياء ، صبيحة كسرى أُم أكرم ، والتي أتهمت يوماً من الأيام بقتل إحدى العاملات عندها في أوتيلها المقابل لشارع باب الشيخ . وأودعت في السجن عدة أشهر ، لأنها رمت العاملة عندها من السطح الى أرض الأوتيل . وبعد الاستئناف بُرئت ساحتها . وقد سكنت بعدئذٍ وتزوجت واستكانت محترمة في ليتها حتى توفيت .

وهناك أثنتان من الأشقيائية النساء ، هما : خديجة بيدي . وقد جرحت أحد أصدقائها بطعنة بالسكين لخلافها معه ، ولم تكن تمشي بدون أن تحمل سكيناً . والأخرى أُم فوزية چيچان ، وكانت تسمى فطومة أُم خنجر ، لانها لم تكن تمشي بدون أن تعلق الخنجر في حزامها وتهدد به مَنْ يعترض طريقها . وعلى عينك يا تاجر .

ايام عشناها

بعد ان بحثنا الامور السالفة وأعطينا بعض الفكر عن بغداد في العشرينات ، وإكمالًا للبحث ، أذكر بعض تفاصيل المعاملات وتكاليف المعيشة وأحوال الاسواق والتعامل فيها . فان العملة المتداولة بين الناس هي الربية ، العملة الهندية المفروضة بعد الاحتلال البريطاني علينا وعلى كافة إمارات الخليج التي كانت تسمى الإمارات المتصالحة عدا عُمان . فقد كانت تتعامل بالعملة النمساوية المسماة ماريا تريزا . وكانت مقبولة وغير مرفوضة في أنحاء الجزيرة العربية ، خصوصاً جنوبها . وقد سميت عملة ماريا تريزا لوجود صورة الامبراطورة ماريا تريزا ، امبراطورة النمسا سابقاً عليها نقشاً وكتابة . والربية الهندية تساوي واحد من ثلاثة عشر تقريباً من الباون الإنكليزي ، الذي كان يساوي عشرين شلناً . أما الجنيه البريطاني ، فيساوي واحداً وعشرين شلناً . والربية عملة معدنية من النيكل الممزوج بقليل من الفضة ، مدورة الشكل تشبه الريال العراقي تقريباً ، وهي مقسمة الى اثنين وثلاثين قرشاً . والقرش يساوي بيزتين . إذ ان البيزة هي أصغر عملة وهي من النحاس الاحمر منقوش عليها ، وعلى كافة العملات المعدنية صورة الملكة فكتوريا ، أو ادوارد السادس ، أو جورج الخامس ، وفي ظهرها علامة الامبراطورية ، وهي الحصانان وبعض الكتابة . وكل أربع بيزات أو قرشين تساوي آنة واحدة تشبه الأربعة فلوس العراقية . وكل أربع آنات تساوي قراناً واحداً ، وهو من النيكل وحجمه بقدر الخمسة وعشرين فلساً . والنصف ربية تساوي قرانين وهي بقدر الدرهم . أما العملة الورقية ، فقد ظهر في بادىء الأمر عملة الربية الورقية ، ولكنها اختفت من السوق لصعوبة التعامل فيها ، ولأنها سريعة التلف . وعليه سُحبت من السوق وظهرت العملة النقدية ذات الخمسة ربيات والعشر ربيات والخمسين ربية . ثم ظهرت الورقة النقدية ذات المئة ربية ، ولكنها اختفت من السوق لصعوبة التعامل بها لحجمها الكبير وعدم ملاءمتها الاعمال اليومية . وكان مرسوماً على هذه الأنواط عملات النيكل متداخلة ببعضها على مختلف أحجامها .

هناك عملات أخرى متداولة ، وبالسوق بشكل تجاري ، لا بتعامل يومي ، مثل : التومان الإيراني ، والقران الإيراني ، والشاهية ،وهي أقل سعراً من البيزا . ثم البشلغ ، والمجيدي ، وعملة ماريا تريزا . وكلها تُباع وتُشرى كبضاعة ، أو تُستبدل بالعملات الهندية ، حسب سعر السوق . والمهم انها مقبولة عند الطرفين وليس عند الباعة والدكاكين . ثم العملات الذهبية ، وهي الليرات العثمانية ،المجيدية ، والحميدية ، والرشيدية ، نسبة الى سلاطين بني عثمان ، وسعرها يحدده السوق ، ولكنها بقيت طيلة العشرينات تتراوح بين اثني عشر وخمسة عشر ربية . وأخيراً ، وفي سنة ١٩٣١ ، أصبح قانون العملة العراقية نافذاً ، واستند الدينارالى الپاون الإنكليزي ، بإسناد بنك إنكلترا . وقد ظهر الى الأسواق في صباح يوم افتتاح المعرض الزراعي الصناعي في باب المعظم . (الذي سمي بعدئذ بحدائق المعرض ، لأن أصحاب الملاهي استأجروا قطعاً منه وأقاموا عليها الملاهي الليلية والحدائق . أما أكبر وأجمل بناء أقيم عليها ، فهو عمارة مكتبة الأوقاف العامة في أول طريق الأعظمية . وكانت على الطراز الاندلسي الذي جاء به المرحوم ساطع الحصري عند عودته من زيارة الأندلس في نهاية العشرينات ، وعند إكماله أشغلته وزارة الخارجية لجمال بنائه الخارجي والداخلي ، ثم أشغلته بعدئذ مديرية إسالة ماء مدينة بغداد) . وبقيت العملة الهندية رائجة ومقبولة بالاسواق بشكل قانوني ، مثلها مثل العملة العراقية ، وذلك لمدة سنتين ، ثم أُلغيت .

أما الأوزان في بغداد ، فلم نكن نعرف الكيلو ، ولا نستعمله ، بل كنا نستعمل الاوقية ، وهي على نوعين : الأوقية الكبيرة ، وتعادل ألف غرام تقريباً ، والثانية أوقية اسطنبول ، وتعادل ثمانمائة غرام تقريباً . ثم النصف أوقية ، ورُبع الأوقية ، ونصف الرُبع ، والستة دراهم ، والثلاثة دراهم . وهذه الأوزان الصغيرة تُستعمل لوزن الشاي والبهارات والهيل وغيرها من السلعة الخفيفة ، مثل القيمر وجبن الأوشاري . ثم تأتي الحقة ، وهي أربع أُوقيات ، سواء كانت حقة كبيرة ، أم حقة اسطنبول . والچارك ، وهو حقة ونصف ، والرطل ، وهو ثلاث حقق . والمَـنّ ، وهو ست حقق ، والوزنة ،وهي نوعان أيضاً : ثمانين أوقية ، ومئة أوقية ، حسب البضاعة ، لان لكل بضاعة وزن خاص يعرفه القبانچية والتجار جيداً . والطغار ، عشرون وزنة . ولم يكن يُستعمل الطن ، وهو عشر وزنات ، أي نصف الطغار . والتعامل بالحبوب كلها بالطغار .

أما الأوزان البريطانية ، كالپاون والأونسة والليبرا ، فلم يعرفها البغداديون ، ولم

يستعملوها .

أما المعادن الثمينة ، فتوزن ، إما بالمثقال ، كالذهب والفضة والبلاتين ، أو بالقيراط ، كالالماس واللؤلؤ والعقيق ، والمثقال يساوي أربعاً وعشرين حباية ، علماً ان استعمال الاوزان المذكورة ومقاديرها يختلف من مدينة الى أخرى . فطغار الموصل غير طغار البصرة أو بغداد . وحقة أربيل ودهوك غير حقة بعقوبة وكربلاء . فان لبعض المدن العراقية تعاملاً خاصاً ووزناً خاصاً ، والتجار يعرفون ذلك جيداً . وهناك بضائع لا تُباع بالوزن ، بل بالعدد ، كالصوف ، مثلاً ، فيُباع بعدد الجزز ، حسب لونها ونظافتها . والدهن يباع بالعكك (جمع عكة) ،وهو الجلد الصغير الذي يوضع فيه الدهن . وجلود الحيوانات تُباع بالعدد أيضاً حسب نظافتها وجودة سلخها ، وخصاص التمر أو الكيش ، أو تنكات الدبس ، فتباع بالعدد أيضاً ،لان معدل وزنها معلوم وثابت .

أما القياسات ، فهي بالاذرع . والذراع أنواع . فمنها ذراع بغداد ، ومنها ذراع حلب ، والذراع الكبير ، وذراع اسطنبول ، والذراع الشامي . وكل بضاعة لها ذراع خاص . أما الاطوال ، فكانت حسب الاطوال الإنكليزية ، وهي الميل ، والياردة ، والفوت (القدم والإنج) ، أي البوصة . واللبتر والغالون ، أما القياسات الفرنسية ، أي المتر وأقسامه ومضاعفاته ، فكانت قليلة الاستعمال ، ولكنها انتشرت بعد انتشار المدارس وتعلّم الناس حساب القياسات بالامتار .

أما نفقات المعيشة وتكاليفها ، فكانت قليلة نظراً لقلة النقد عند الناس . فكانت أوقية اللحم تُباع ، إما بقران ونصف أو بنصف ربية ، حسب المواسم . ففي موسم الامطار الجيدة يرتفع سعر اللحم ويعلو ، لان الاغنام تخرج للمراعي ، فتقل الماشية المعدة للذبح . أما أيام القحط ، فتُباع الاغنام بارخص الاسعار تفادياً لموتها جوعاً ، إذ لا أعشاب للرعي ، ولا علف لها . وإذا لم يستطع القصاب بيع اللحم كله منذ الصباح ، فانه يعرضه عند الضحى مقطعاً على طبق من الخيزران ، ويتنقل في الازقة معلناً عن بيعه بسعر أرخص من سعر الصباح ، حتى لا يبقى الى اليوم الثاني ويتلف ، حيث لا ثلاجات ، ولا مجمدات . وكان (الطِلي) الجيد الوسط يباع بين خمس عشرة وخمس وعشرين ربية . أما المعلاگ ، فان القصاب يعلقه على باب دكانه هدية للزنابير كي تاكله . أما إذا كان جيداً وكبيراً وصحيحاً ، فانه يُباع بنصف قران الفشة والقلب .

أما الخضراوات والفواكه ، فتتراوح أسعارها للأوقية الواحدة من آنة واحدة حتى القران الواحد ، حسب نوعيتها وموسمها ، ومثال على ذلك فان سلة الطماطة الكبيرة ، ووزنها ثلاثون كيلو ، كانت تباع في أيام المعجون ما بين خمس الى سبع ربيات . وأوقية الخبز تباع في باب الآغا ، وخبزه مشهور ، وهو وخبز السيد سلطان علي بقران واحد . أي قيمة الرغيف الجيد أقل من آنة واحدة . ولم يكن الصمون معروفاً ومنتشراً في بغداد ، خصوصاً في جانب الكرخ ، إلا في بعض المحلات من الرصافة ، مثل الميدان ، وباب المعظم ، وعگد النصارى ، وباب الشيخ ، حيث يسكن الأفندية هذه المناطق . ولكن صمون العسكر الأسمر ، كان متوفراً ، وكل صمونتين بآنة واحدة نشتريه من الأكمكخانة (المخبز) في شارع المتني مجاور سوق السراي . والسميطة الواحدة الصغيرة المدورة بآنة واحدة . أما الكبيرة المستطيلة فبآنتين . ورغيف المريس الواحد بآنتين مع قطعة صغيرة جداً من جبن الكرد توضع فوقه . أما الحنطة الجيدة الكردية ، والتي تسمى (حنطة قراج) ، فكانت الوزنة منها تباع بستة ربيات بالأيام الاعتيادية ، وليس في أيام القحط والقلّة . وفي أيام الأزمة العالمية أواخر العشرينات بيعت وزنة الحنطة بثلاث ربيات والشعير بربية واحدة . ثم عادت الأسعار الى المتوسط الاعتيادي في أوائل الثلاثينات عند انتهاء الأزمة العالمية . أما الرقي الجيد وأكثره يأتي من سامراء ، فكان يباع بسعر ربيتين للمَنّ الواحد . وكان الرقي يسمى عند الناس (معاش الفقير) . وان أرخص الفواكه سعراً هو التمر ، وخصوصاً الزهدي منه . أما وزنة تمن عنبر المشخاب ، أو عنبر الشامية (عمبربوه) ، فكانت الوزنة تباع بسعر يتراوح بين خمسة عشر وعشرين ربية . أما بقية أنواع التمن ، مثل : تمن النعيمة ، أي الشنبة ، والحويزاوي ، والنگازة ، فكانت تُباع بسعر أقل بكثير من هذه الأسعار ، إلا ان تمن نگازة العمادية ، فانه يباع بسعر جيد وسط بين العنبر والنعيمة . وكان سعر الغداء في المطعم ، وهو ماعون مرق وماعون تمن ، حوالي نصف ربية ، حسب نوعية الطعام ونوعية المطعم ، إلا إذا كان الغداء ماعوناً من التمن يرش عليه بعض المرق ، فيكون سعره حوالي قران ونصف . أما الكباب ، فكل ثلاثة أشياش بقران واحد ، عدا الخبز والطرشي والإسكنجبيل . ولفة (ساندويش) الأبيض وبيض ، برغيف خبز كبير فسعرها قران واحد . أما نصف اللفة بنصف رغيف وثلث بيضة ، فبنصف قران .

أما الكبة ، فهي ثلاثة أحجام صغيرة وقيمتها آنة واحدة ووسط وقيمتها آنتان .

أما الكبيرة ، وهي المحشوة باللحم واللوز ، فقيمتها قران (عُملة) واحد ، وكانت تباع في باب جامع القبلانية ، وبسوق البزّازين مع طبشي من مرق الكبة ، إذا طلب المشتري ذلك ، والطبشي هو الماعون النحاسي الصغير . أما ماعون اللوبية المسلوقة مع رغيف صغير من الخبز بقران واحد . وماعون الهريسة الصغيرة بآنة واحدة والوسط بآنتين من غير دارسين وسكر ودهن . أما الكاهي الجيد المصنوع في رأس الجسر القديم (الشهداء) ، فسعر الواحدة نصف ربية مع الشيرة وقليل من القيمر . وماعون الباجلّة (الباقلاء) المسلوقة من غير الخبز بقرش واحد ، علماً ان أكثر العمال والناس الذين ياكلون خارج البيت ، كانوا يجلبون معهم أرغفة الخبز من بيوتهم صباحاً حين يخرجون الى العمل . أم الدجاج الفروج ، وكان يتعاطاه المرضى ، إذ يوصف ماء الدجاج ، وكان يسمى (مي فرّوج) ، فسعره بين القران ونصف ربية ، حسب حجمه وسلامته . أما الدجاج البيوض ، فكان سعره نصف ربية فما فوق ، و (كمنية) اللبن (الإناء الخشبيّ المدور والذي كان اللبن يباع فيه)، فالصغيرة منها بقران واحد والوسط بنصف ربية . أما الكبيرة ، فيكون سعرها بالاتفاق بين البائع والمشتري ، علماً ان هذه الأسعار هي أسعار اللبن الجيد الأبيض النظيف الحلو . أما إذا انتصف النهار ولم يبع ، فانه عند الظهيرة يباع بسعر أرخص بكثير من الصباح ، لأن المرأة البطاوية التي تبيع اللبن لا تستطيع إرجاعه الى بيتها خوفاً من فساده وخوفاً من زوجها ، أو ولي أمرها ثانياً ، لأنها فشلت في بيع اللبن . والبطاوية لقب أُطلق على بائعات اللبن ، لأن أكثرهن من عشيرة البطة الساكنين حول بغداد يربون الجاموس . أما البورك ،وكان يسمى (ياغلي بورك) ، أي البورك الدهين ، فسعر الصغيرة آنة واحدة ، والكبيرة آنتان . أما أجور المقهي ، فهي آنة واحدة . ولكن بعض المقاهي رفعت السعر الى آنتين ، لانها كانت تسقي الزبائن قهوة مُـرّة عدة مرات . والحلويات المعمولة للصغار ، مثل الكركري ، والعنبرلي ، وبيض اللكلك ، فكان سعر القطعة الواحدة بيزة ، وأوقية الزلابية والبقلاوة والحلقوم والساهون ، فبنصف ربية . أما مَنّ السِمَا الاصلي ، مع اللوز ، فتُباع الاوقية بربية واحدة . ولكن مخلّط المحيا بمناسبة نصف شعبان فيباع الاوقية بنصف ربية .

والأسعار الاخرى لمختلف الأشياء ، فكانت آنة واحدة للجريدة اليومية ، وآنة واحدة لصبغ الحذاء ، خصوصاً عند الصباغين المشهورين ، كريم الكردي في شارع السراي مقابل القشلة ، أو عند حسين الاربيلي في آخر ساحة الغريري (حالياً) .

وكان دكاناهما مزدحمين دائماً . وأجرة العربة اللاندون من باب المعظم الى الباب الشرجي وبالعكس قران واحد . والباصات الكبيرة الخشبية ، التي ظهرت في أواخر العشرينات ، فكانت أجرة الراكب الواحد خلال شارع الرشيد آنة واحدة . والعبور بالبلم من جانب الى آخر أثناء فتح الجسر لمرور البواخر آنة واحدة . وأجرة عامل البناء ، تبدأ من القران للاولاد الصغار الى الروبية الواحدة ، حسب عمر العامل ومهارته . والشغل يبدأ من الصباح الباكر حتى غروب الشمس . أما الخَلَفَات الكبار وأساتذة البناء الماهرين (الاسطوات) ، مثل : ابراهيم العبطة والد المرحوم محمد العبطة ، وكذلك الحجي حسين الداحي والد المرحوم الحجي محمود الداحي سكرتير وزير العدل السابق ، والاسطى وهيب القيسي ،وجاسم الكظماوي ، فياخذون أجورهم حسب الاتفاق . وكانوا عادة يتناولون الغداء عند الذين يبنون بيوتهم . ولم يكن بناء البيت يكلف كثيراً . فقد أنجز بناء وزارة العدل القديمة بتكليف مقداره من خمسة وأربعين ألف ربية قبل الاضافات عليها مؤخراً . وقد بناها الحجي حسين الداحي ، وبناؤها بالطابوق الاحمر . لكن بناء القصور له حساب آخر .

وفي أعمال النجارية في البيت ، كان النجار ينتقل مع أدواته ومعاونيه الى البيت ، ويبقى فيه حتى ينتهي من عمله ، مع تناول الغداء والعشاء يومياً . وقيمة القربة الواحدة من الماء قرش واحد . ويؤشر السقاء ذلك بخط على الحائط بجوار الحِبّ . أما الاحذية ، فيتراوح سعرها من ربيتين ، إذا كانت (جَلَب) ، أي رديئة النوعية ، الى عشر ربيات ، حسب نوعية الجلد والعمل . وخياطة الزبون ، أو الجاكيت ، أو الدشداشة ، فتتراوح بين خمس ربيات الى عشر ربيات ، حسب مهارة الخياط ونوعية الخياط والدرز . وخياطة البدلة ، فَمِنْ ثمانية ربيات الى خمسة وعشرين ربية ، حسب مهارة الخياط . وقيمة السدارة ربية واحدة ،الى ان وصلت سداير صيون شمعون ، فصارت السدارة بربيتين . وراتب الشرطي ثلاثون ربية شهرياً . والفرّاش خمس وعشرون ربية . أما المفوض (الكومسير) ، فيبدأ من خمسين ربية شهرياً . والوزير ألفان من الربيات ، عدا وزير الداخلية طالب النقيب ، حيث رُفع معاشه الشهري الى ألفين وخمسمائة ربية خوفاً من بطشه . ورسوم البريد تبدأ من القرش الواحد ، حسب بُعد المسافة ونوعية البريد ، بحراً أو براً ، ثم أخيراً جواً . وسعر بُطل الحليب من ضرع البقرة آنتان .

إن إيجار البيوت أو الغرف ، وتسمى (النزِلْ) ، فيبدأ من ربيتين في الشهر ،

الى عشر ربيات وأكثر ، حسب نوعية البيت وموقعه وحجمه . وقد استأجرنا في سنة ١٩٢٤ قصر الوقف في محلة السفينة بالاعظمية . وكان فيه حديقة كبيرة مثمرة بمبلغ ألف ربية سنوياً لمدة سنتين من مديرية الأوقاف العامة التي اشترطت دفع إيجار السنتين مقدماً ، خوفاً من إخلائنا القصر قبل دفع كل الأجرة .

أكتفي بهذا القدر من الارقام والمعلومات ، وأعتقد ان فيها ما يكفي لاعطاء فكرة واضحة عن الأحوال المعاشية وتكاليفها ، وكيف عشناها والتي ذهبت ولن تعود .

وعلى ذكر الايام التي عشناها ، لا بد أن نتوقف عند أيام طفولتنا وصبانا ، وكيف أمضيناها . فقد كانت على العموم (وأتحدث خاصة عن جانب الكرخ) ، أيام شقية غير سعيدة . فأول ما يولد الطفل يُلف بالقماط لفاً ، لا مجال فيه لان يتنفس الطفل . وقد رأيت بنفسي أطفالًا زُرق الوجو ه ، لان القماط كان قوياً جداً ، حيث احتقن وجه الوليد ، ولم يستطع التحرك نهائياً ، وكأنه قطعة من الخشب ، وكثيراً ما كان يسترجع الحليب الذي شربه ويقذفه ، لأن معدته لا تستطيع الإمتداد والتوسع لفسح المجال للحليب ، وليس للطفل متسع أو مجال للحركة ، إلا حين يُفتح القماط لاجل تنظيفه من محتوياته ، فترى الطفل وهو يتحرك بشغف زائد . وحين تسأل الامهات عن سبب هذا الشد ، تقول انه لتقوية الأعصاب والعضلات ، والحال تهديم العضلات وتخريب الأعصاب . لذلك يخرج الشباب بعدئذ نزقين ، عكري المزاج من تأثير الطفولة ، ولا يستريح الطفل من هذه الحالة المؤسفة ، إلا بعد الفطام . حيث يستطيع الحركة والاكل براحة ، فإذا بلغ مرحلة المشي والحركة والركض ، خرج ليلعب مع أطفال الجيران والمحلة ، حسب عمره . وكانت الالعاب بسيطة وفطرية . فلم يكن لدينا ألعاب للأطفال نلهو بها ، مثلما هو الحال الآن ، وغاية ما هناك لعبة عروس من القماش تخيطها الأم لابنتها لأجل ان تلعب وتلهو بها . أما الأولاد ، فلا شيء لهم . ولكن حين يكبر قليلًا عليهم أن يلعبوا مع أولاد الجيران والمحلة ، وهم حفاة ، حسب الاصول ، أما في الدربونة ، أوفي الطريق العام ، هي لعبة النط على بعضنا بعض بما يشبه القفز على الحصان الخشبي ، حيث ينحني أحد الاطفال الذي تصيبهم النوبة ، وعلينا أن نقفز من على ظهورهم ، بشرط ان لا نوقعهم على الأرض ، أو نصطدم برؤوسهم ، ونحن نغنّي (سنبيلة السنبيلة ، على النبي صلينا ، صلينا ما بنينا ، بنينا الحلواني ، حلواني الجكجكاني ، چكچكاني البقرة الى آخره) . أما ما هو المعنى فلا ندري ، وحتى الآن لم أستطع تفسير هذه الكلمات . أو

نلعب طفيرك يا كُمر ، أي القفز العريض العادي . أو نلعب (هذه شمسك يا يهودي) ، أو نلعب (الشنطرة والحاح) ، وهي عصا صغيرة توضع في حفرة صغيرة ورأسها ظاهر ، ثم نضرب الرأس ، فتُرفع الى أعلى ، ثم ضربها ثانية ، فإن لم يصبها يكون خاسراً ، وإن أصابها فالى أي بُعد تصل . وهذا ما يصل اليها الطفل . أو نصيد الزنابير الحمر الاناث منها التي لا تلسع ونعرفها من ذنبها العريض ذي الفتحتين . وكنا نلصق التمور على الحيطان ، كي يتجمع الزنابير عليها ، ثم نصطاد الاناث منها ونضعها في القناني (عندما تمتلىء نخرجها من القناني ونضع في مؤخرتها ريشة صغيرة ناعمة كي تطير بها ، فنهلل ونصفق لها . وقد انقطت الآن هذه الزنابير ولم أرَ لها أثراً) . أو نلعب (جعاب) ، العظم الصغيرة التي تربط بين المفصلين في عظام الأغنام . ونصفّ العظام هذه بشكل متوازي وعلى بُعد خمس خطوات ، نبدأ برمي العظم الكبير التي نحتفظ به ونسميه (الباكوط) ، ونزيح أي عظم يسقط بواسطة الرمي ، فإن لم يسقط أحد العظام ندفع غرامة قدرها عظم واحد . أو نلعب المصراع ، وهو من الخشب على شكل (الكمثرى) ، وفي ذنبه قطعة معدنية مدببة الرأس ، ونلف عليها الخط لأجل أن تبرم حين وقوعها على الأرض . والمصاريع نوعان ، الأول ويسمى (ونّاني) ، أي ان له أنين ، وذلك بأن تُعمل فيه فتحة صغيرة فتخرج منه الأصوات حين يُبرم . والثاني ، يسمى (الناعوري) ، وتكون الفتحة كبيرة فتخرج منها صوت يشبه صوت الناعور . فإذا كبر الأولاد يبدأ لعب العراك بين أولاد المحلة والمحلات المجاورة فأما بالعصي ويسمى بالكسار ، أو بالمعاجيل ، أي الرمي بالحجارة ، كما يفعل الآن فتيان فلسطين ضد سلطات الاحتلال الصهيوني . وهذه تكون عادة بين القبور التي تكون ساتراً للمقاتلين ، ولا بد في الحالتين من اندحار أحد الفريقين ، فنلحقهم حتى بيوتهم ، وكنا نغني (عليهم جيت ورماح عليهم دق السلاح) . ثم بدأت لعبات المدارس والكشافة وتركنا هذه اللعبات الى اللعبات المدرسية . أما البنات ، فكانت لعبتهن الوحيدة هي النط على الحبل ، وهي لعبة معروفة وعالمية ، أو لعبة (التوكي) ، وهي رسم مستطيل طويل على الأرض بالتباشير ، ثمّ تقسيمه الى عدة مستطيلات ، وتوضع حجارة صغيرة عليها ، وعلى البنت ان تكون حافية وتقفز على رِجل واحدة ، لنقل هذه الحجارة الصغيرة من مستطيل الى آخر ، بشرط ان لا يقع على الخط الفاصل أو تجتازه الى مستطيل آخر ، فتكون خاسراً . أو يلعبن الدعبل والخرز بما يناسب كونهن بنات .

والاختلاط ممنوع إذا كبر الاولاد . وكانت هناك ألعاب أخرى بسيطة لا تستحق أن يكتب عنها بالتفصيل .

أما الضرب باليد أو بالعصا ، فحدِّث عنه ولا حرج ، وكانت هي الطريقة الوحيدة لتأديب الاولاد ، أما التقريع فنادر جداً . أما أناشيد الاطفال أو أغانيهم ، فالكل كانوا ينشدون الاغنية الكلاسيكية ، وهي طلعت الشميسة ، حين تصحو السماء بعد المطر ، وهي (طلعت الشميسة على گبر عيشة ، عيشة بنت الباشا ، تلعب بالخرخاشة ، صاح الديج بالبستان ، الله ينصر السلطان ، وشموسنا غابت وارواحنا ذابت ، يافاطمة بنت النبي اخذي كتابج وانزلي على صدر محمد وعلي) . وهذه الانشودة يشترك فيها الاولاد والبنات . أما الانشودة الخاصة بالبنات ، فهي : (يا خشبة نودي نودي . سلمي لي على جدودي ، وجدودي بطارف مكة ، جابو لي ثوب وكعكة ، والكعكة وين أخفيها ، أخفيها بالرازونة ، جاء الديج ونقرها جاء الواوي أكلها) ، (لگلگ لگلگ أمك تطلگ جابت واوي اسمه عليوي بواگ الصابونة من فوگ الرازونة). الى آخره من هذا الخلط الذي ليس له معنى على الأكثر ولا ربط . كما ان للبنات أغنية خاصة أيام المطر ، وهي : (مطر مطر عاصي ، طَوَل شَعَر راسي ، راسي بالمدينه ، ياكل حبه وتينه) ، أو يقلن حين تتلبد السماء بالغيوم ويقترب وقوع المطر : (يا ربي مطرها . على عناد العلوچي ، العلوچي بيده ليرة ، ما يحب الخير لغيره او علوچي بيده فاسة ، يمشي ويدگ براسه) . كان العلوچي هو المسؤول عن انقطاع المطر وغلاء أسعار الحنطة (رغيف الخبز) . هذه الأشياء كانت في جانب الكرخ حين عايشتها . أما في الرصافة ، فاظن انها متشابهة مع بعض التفاصيل الاكثر رقياً ، باعتبار ان جانب الرصافة أكثر مدنية من الكرخ ، لوجود الحكام الاتراك والرعايا الاجانب والطوائف غير المسلمة ، حيث كانت الحياة الاجتماعية على الأكثر متباينة مع الكرخ الذي بقي عشائرياً أكثر مما هو مدنياً . وكان الاختلاف ظاهراً في الماكل والملبس والحياة الاجتماعية والمعرفة العامة ، لذلك كان يلقب سكان الرصافة باهل السنادين (أي سنادين الورد) ، أما سكان الكرخ ، فيُلقبون بـ (أهل الكروش) ، أي انهم أكلة كروش الغنم . والكرشة هي معدة الاغنام ، حيث تُطبخ في الكرخ وتؤكل مع الپاچه ، أو يُعمل منها (كِبايات) ، أي قطع محشوة بالتمن واللحم .

ومن نافلة القول ان ألعابنا كانت تتم ونحن نلبس الدشاديش حتى في المدارس الابتدائية ، خصوصاً الصفوف الاولى . وكنا نرجع الى بيوتنا من اللعب أو من المُـلّا أو

المدرسة ، ودشاديشنا وأرجلنا مليئة بالطين والأوساخ ، لأن الطرق كانت كلها غير مبلطة ، ونحن حفاة على الاكثر ، فكثيراً ما كنا نزلق على الارض وتمتليء دشاديشنا طيناً وسخاً وكذلك أجسامنا ، وحين وصولنا الى البيت بهذه الحالة المزرية نلقى من التانيب والضرب ما تشتهي الأنفس وتلذ الاعين .

عفا الله عن تلك الايام . ومن الواجب أن أذكر ان تلفزيون وإذاعة بغداد في شهر رمضان تذيع الأغنية المشهورة (ماجينا يا ماجينا ، حلّي الچيس وانطينا ، تنطونا لو ننطيكم لبيت مكة نوديكم) . وهذا خطأ ، فنحن نستجدي ولا نعطي ، والصحيح هو : (اعطونا الله يعطيكم لبيت مكة نوديكم) ، لأن الله هو العاطي وليس نحن . أما الكلمة : نتكربس ، فمعناها اننا نهرب ونتساقط بعضاً فوق بعض ، فيما إذا خرج علينا ربّ البيت غاضباً لانزعاجه . وأود لو يصحح هذا القول ، وكنت أستغرب ، ففي الآلاف المؤلفة من المستخدمِين في الاذاعة والتلفزيون ، لا بد ان يوجد بينهم مَنْ له أب أو جد أو عم سبق له ان غنّى هذه الأغنية في رمضان المبارك .

العگيل في بغداد :

هضبة نجد ، هي المصدر الرئيس للموجات البشرية التي قدمت الى العراق من الجهة الغربية ، ولا عجب فنهر الفرات والماء الدائم يجذب كل سكان الصحراء الذين يتشوقون الى الماء ، فمنهم مَنْ يبقى ويستقر في العراق ، كما هو الحال في البصرة وسوق الشيوخ وبغداد ، التي كانت مركز الجذب الرئيس . وكان الولاة الأتراك يستعينون برؤساء العشائر لحمايتهم من تمرد الجنود الانكشارية . والاتراك في بغداد . وقد سبق لهم ان استعانوا بعشائر السعدون والخزاعل وغيرها واستقر قسم كبير من عشائر العگيل في بغداد وسكنوا جانب الكرخ في محلات سوق حمادة وجامع عطا والعنازية وطرف بارودة والدهدوانة والحضّانة والمحلات المجاورة ، وتجمعوا في المقاهي المسماة قهاوي عگيل ، وهي أربعة مقاهٍ متجاورة تقع على ناحية الطريق المؤدي الى سوق حمادة والشيخ علي . علماً بان أكثر هؤلاء العگيل قد جاؤا من نجد من قريتي بريدة وعنيزة القريبة من الحدود العراقية السعودية تجاه الناصرية أو السماوة ، وكان أكثرهم مسلحين بالبنادق والسيوف ، فإما ان يكونوا تحت إمرة وخدمة الوالي التركي لارهاب أعدائه وخصومه من أفراد الجيش التركي ، وإما إطاعة لرئيسهم . وأشهرهم سلمان الغنام . وكان أكثرهم تاثيراً في الحياة البغدادية ، ولم

يزل جامع غنام موجوداً في جانب الكرخ . وقد دخل سلمان في نزاع طويل مع الولاة . فيوماً استعان أحد الولاة بالمقيم البريطاني في بغداد وقصف جانب الكرخ بالمدفعية عبر طريق الباخرة الحربية المتوقفة أمام القنصلية البريطانية في الباب الشرقي سابقاً . وفي حالة وفاق رئيس العگيل مع الوالي ، فيكون صاحب الشأن في إدارة بغداد ، أو يكون متمرداً على الوالي وعندها يستجير بالعشائر المجاورة لبغداد ، مثل عشيرة زوبع ، أو بني تميم أو العبيد . وقد امتهن العگيل بواسطة جمالهم الكثيرة مهنة النقل التجاري بين العراق والدول والمجاورة ، مثل إيران ، وتركيا ، وسوريا ، والاردن ، ومصر ، والسعودية ، ودول الخليج العربي ، أي ما يسمى سابقاً (الإمارات المتصالحة) . وقد ملكوا آلاف الجمال وتجمعت هذه الآلاف بالخانات المسماة (خانات الاباعر) ، فلم تكن تسمى اسطبل مثل الخيل ، ولكن تسمى خانات أباعر ، ولم يكن يُطلق اسم الجمل على الحيوان ، بل يقال له بعير وجمعه أباعر أو بعران ، وللذكر اسم ذلول ، وللانثى اسم الناقة ، ولكن عموماً يسمى البعير . وكانت خاناتهم واسعة جداً ، لكي تستوعب هذه الاعداد الكبيرة من الحيوانات الضخمة ، وكان محلها في محلة العنازية المجاورة لقهاوي عگيل . والجمل أو الناقة تحمل ما تيسر من المواد على قدر قابليتها ، عدا الذلول (الجمل الذكر) ، حيث يعد رئيس القافلة وقائدها ، فهو لا يحمل إلا الاجراس الكبيرة المعلقة في رقبته ، لكي تسير القافلة على أنغام الاجراس ، علاوة على ما يوضع على ظهره من البسط الثمينة والكراكيش وغيرها من الالبسة المزينة إكراماً له . ومن العادة أن تمشي الجمال على نسق واحد ، لذلك سميت القطارات بأسمها . وكان العگيل ينقلون البضائع والأموال من العراق الى الدول المجاورة ، كإيران ، والسعودية ، وسوريا ، ومصر ، وساحل الخليج العربي . فإما أن يتاجروا بأموالهم الخاصة أو يتاجروا برأس المال المدفوع لهم من قبل تجار بغداد ، ويسمى (الصرماية) ، على ان يكون الربح مثالثة ، أي ثلثان لرأس المال والثلث للعامل العگيلي ، ويسمى (چتاف) . وقد يبقون بالتجارة سنين ثم يأتون ويحاسبون التاجر على أرباحهم ، علماً ان الامانة والثقة متوفرة ، ولا يستطيع العگيلي أن ينكر شيئاً من الارباح . وهم على معرفة تامة بالطرق والمسالك ومحلات المياه . ولما لم تكن في العشرينات سيارات أو بواخر لنقل الناس الى الحج في الديار المقدسة ، فكانت أباعر العگيل تنقل الحجاج الى الديار المقدسة . وفي موسم السفر تمتلىء محلات جانب الكرخ بالعديد من الناس للتوديع أو للتفريغ . وتتجمع الاباعر

في محلة جامع عطا قرب قهاوي عكيل ، ويركب على كل بعير أثنان من الحجاج مع متاعهم وزادهم ، فإذا كانا زوجين فيركبان على الهودج ، ولا بد ان يكون حمل الحاج خفيفاً لا يتجاوز ملابسه وزاده للطريق وبعض الاشياء الاخرى الخفيفة الوزن ، لذلك يضاف الى حمل البعير (قربتان) من الماء ، خصوصاً في الصيف ، علاوة على خمسة أو ستة أباعر تبقى فارغة لحمل الماء فقط . وعلى كل بعير خمسة قِرَب ، اثنان على كل جهة ، والخامسة فوقه خوفاً من انقطاع الطريق وقلة الماء ، عدا الذلول ، فلا يُحمَّل إلا بقربتين خاصتين له . مع العلم ان هذه القرب من الماء تُملأ في محطة (عرعر) في بداية طريق زبيدة الذي عملته السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد . وقد تكون في الآبار التي عملتها بعض المياه المتبقية من الشتاء .
أما السفر في الشتاء ، فهو أقل صعوبة ، إذ ان (العكامة) ، وهم أدلاء القافلة يعرفون أين يوجد الماء ، ويعلمون الطريق السهل اليها . ويبدأ سير القافلة في طريق الحج البري في الصيف بدءاً من الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر ، حيث تخف حدة الحر ويستمر السفر طوال الليل الى ضحى اليوم الثاني ، حيث يكون الجو حاراً ، فتُنصب الخيم للاستراحة حتى العصر ، ويبدأ السير ثانية ، وهكذا يكونوا قد مشوا في اليوم الواحد نحو ٧٠ أو ٨٠ كيلومتر ، فيصلون الى الحدود الحجازية ، أو الى تبوك خلال عشرة أو اثني عشر يوماً . والماء عندهم يكفي لذلك . أما الرجوع فيكون بعين الطريق ، إلا انه في الشتاء أسهل من الصيف ، لتوفر المياه وطيب الجو والمناخ ، لذلك يحمل البعير من البضاعة أكثر مما جاء به من العراق ، لأن الحجاج يشترون من الديار المقدسة أشياء كثيرة للحاجة أو للهدايا ، وينتظرهم الناس في ساحة الشيخ معروف ومعهم الدفوف والاعلام ، وهم ينشدون (يا هلا بحجاج مكة يا هلا) ، أو (مرحبا بحجاج مكة مرحبا) . وتقام الولائم والافراح مع المآتم والتعازي لمَنْ لم يرجع ، لوفاته في الديار المقدسة ، إما بمرض معدٍ سارٍ ، كسبه من الحجاج القادمين من الهند أو أفريقيا ، أو انه قُتل في الطريق من قبل عصابة لسلب الحجاج ، لذلك لم يكن يسافر الى الحجاز ، إلا بعد أن يوصّي الوصية الشرعية قبل وفاته في الديار المقدسة .

ولا يفوتني أن أذكر ان أشهر مَنْ عرف البادية ومسالكها ، وخبر طرقها ومفاوزها ، هو المرحوم سليمان الخضير ، والد الدكتور المرحوم عبدالله الخضير ، ووالد المحامي عبدالرحمن الخضير . واستمر العكيل عائشين بنعمة لا يحتاجون

لشيء حتى جاءتهم الضربة القاتلة مفاجأة ، وذلك سنة ١٩٢٤ ، حين فاجأت قافلتهم الكبرى القادمة من إيران الى بغداد وسقط عليهم الثلج الكثيف في غير موسمه ، حتى في بغداد قتل الحيوانات والمواشي والزرع ، وتسمى سنة (لوفة) ، وهي على جبل (پاي طاق) في كرمنشاه ، وفي قمته . وظلت الثلوج تتساقط في غير موعدها ، ولمدة ثلاثة أيام وبكثافة ، ولم يكن في الجبل مغارات يلجأون اليها ، وليس فيها محلات يستترون بها ، وزلقت الاباعر على صخور الجبل ، ومتى انزلق البعير وكُسر عظمه ، فانه لا يشفى أبداً ، بل يجب قتله ، أو تركه حتى يموت . وحاروا ماذا يعملون ؟ هل يتركون جمالهم تموت ؟ أم هم يموتون ؟ أم ترك بضائعهم للنهب والسلب . ولكن الشاطر منهم استطاع أن يجد ملجأ صغيراً له ، واستطاع منهم أن يترك البضائع وينزل مع الجمل الى سفح الجبل خوفاً من موته . وهكذا ، فقد تمزقت القافلة شر ممزق . ولم ينج منها إلا القليل من الجمال والناس وبعض البضائع ووصلوا بغداد وهم بحال يرثى لها ، عكس الحيوانات المفترسة التي شبعت من لحوم الجمال أياماً طويلة ، كما شبع اللصوص من البضائع التي نهبوها من على ظهور الجمال وبيعت داخل إيران بأبخس الاثمان ، واستقبلهم الناس في بغداد بالبكاء والنحيب ، ولكنهم مع هذا ظلوا متمسكين بكبريائهم وشموخهم ، ودواوينهم مفتوحة على مصراعيها ، مثل ديوان بيت الدخيل ، وبيت اللاجم أصهار الشيخ ضاري المحمود ، ودواوين بيت الحسن وآل حمدان ، وآل الحسيني ، وآل جمعة ، وبيت بسام مدرب الخيل ، وغيرهم كثيرون لا يمكن عدهم . وبعد هذا الحادث ولتوفر السيارات الكثيرة وسير القطار من قصر شيرين الى خانقين وغيرها خفّت أعمال عكيل في النقل ، ولم يبقَ لهم سوى النقل الى السعودية والجزيرة العربية ، وجاءتهم الضربة الثانية في هذه الاثناء ، أيام ثورة فيصل الدويش والاخوان في سنة ١٩٢٧ ، إذ قام فيصل الدويش بمهاجمة قافلة عراقية كبيرة جداً مع رجالها في مخفر البصية العراقي قرب الناصرية وقتل كل رجالها ، عدا اثنين منهم تمكنا من الهرب على ظهور الخيل ، ثم ذبح رجال الشرطة العراقيين الذين كانوا يبنون مخفر البصية . ومن جملة مَنْ قُتل من رجال القافلة أثنان من أقاربي ، وهم : الصبي الصغير أحمد عبدالله المطرود ابن خالتي . والثاني ، هو علي بن أبو الخيل . وقد ذُبح بعد ان قاومهم مقاومة شديدة . فقد كان شجاعاً باسلًا . وبهذه الحادثة انتهى أمر العكيل وبروزهم في جانب الكرخ كجماعة مهمة قوية ذات موقع اجتماعي ممتاز ، فالشباب سافروا الى السعودية ،

والباقون تخرجوا في الجامعات وصاروا موظفين في الدولة علماً بان قسماً من عوائل العگيل هاجرت الى الكاظمية ، إما هرباً من التسلط التركي ، أو لرعي جمالهم تحت حماية عشيرة تميم في الكاظمية ، ومن بقاياهم بيت العگيلي في الكاظمية .

ولم يبق للقليل منهم شغل في بغداد فحتى الذهاب الى الديار المقدسة صار عن طريق السيارات الى دمشق ، فإما أن يذهبوا بواسطة سكة حديد الحجاز من دمشق ، وإما أن يذهبوا الى بيروت ومنها الى جدة ، فالديار المقدسة . وبقي قسم قليل من الجمال ، وهي تنقل الحاصلات من المزارع الى العلاوي في بغداد ، حيث لا تستطيع السيارات الوصول الى العلاوي ، إما لانها ممنوعة ، وإما لأن الطريق صعب جداً للوصول اليها .

وفي أواخر الثلاثينات أكملت الحكومة العراقية مع السعودية تهيئة طريق كربلاء ـ عرعر ـ السعودية ، ثم الديار المقدسة ، وسافرت أول قافلة عراقية بالسيارات الى الديار المقدسة في سنة ١٩٣٨ . وتم فحص جميع الباصات فحصاً دقيقاً لمعرفة متانتها مع موادها الاحتياطية ، وذلك في النجف الأشرف قبل تحرك القافلة التي ضمت مضمدين اثنين من الرجال ، واثنتين من النساء . وسافر قسم من طلاب الكليات أيضاً ،ومنهم المرحوم الصحافي خالد الدرة ، والمحامي أمين الرحماني ، والمحامي عبدالعزيز النقيب البصري ، وأعطيت إمرة القافلة الى اللواء العسكري المتقاعد الحاج رمضان . وعادت القافلة مرتاحة بعد عشرين يوماً ، واعتاد الناس على السفر الى الديار المقدسة بواسطة السيارات مباشرة ، واختار بعضهم طريق الكويت ، فالرياض ، ولو انه أبعد من طريق عرعر ، ولكنه أكثر متعة وأكثر عمراناً . ولم يبقَ للعگيل بعد هذا شأن مهم يُذكر ، فالكهول ماتوا والشباب دخلوا المدارس العراقية وتخرجوا فيها أطباء ومحامين ومدرسين وغير ذلك . ولم يبقَ للعگيل هموم سوى هم الوراثة ، حيث ان لآبائهم وأجدادهم أملاكاً في السعودية في قرى عنيزة وبريدة ، كما ان العگيلي كان يتزوج في كل مكان يبقى فيه أكثر من شهرين أو ثلاثة ، ذلك انهم متمسكون بالشريعة ، لذلك ترى العگيلي وقد خلف أولاداً في السعودية أو الأردن أو مصر أو في الكويت والخليج . والمشكلة الكبرى ، هي كيف يحصل الوارثون على حصتهم من تركة آبائهم ، برغم القيود الكثيرة على تحصيل القسامات الشرعية وقبض ما يستحقونه ، إلا بواسطة أشخاص آخرين وبطريق غير قانوني . ولم تزل مشكلة الوراثة وتبقى استحقاقاً لورثتهم قائمة حتى الآن ، ويبدو

انها لن تنتهي أبداً .

هذا وأرجو أن لا يغرب عن البال ان العگيل ، ولو انهم اختصوا بالنقل على الجمال ، إلا انهم كانوا يتعاطون بعض الأعمال الاخرى التي تناسبهم ، فعدا عن مهمة نقل الحجاج الى الديار المقدسة ، كان قسم من عوائل العگيل تختص بنقل البريد السريع الى دمشق عن طريق البادية ، وذلك أواخر أيام العثمانيين ، وفي أشهر الشتاء فقط . وكان المشهور منهم ابن رشيد العگيلي وآخر من بيت حجيلان نسيت اسمه وابن حجيلان كان سفيراً للسعودية في فرنسا ثم أميناً عاماً لمجلس التعاون الخليجي ،وهما من سكان محلة جامع عطا في الكرخ . أما صاحب الديوان الكبير المزدحم بالناس ، فكان المرحوم محمد الوفي ، وهو جد الدكتور صلاح عبدالله طبيب الأسنان في بغداد ، فقد كان متعدد الاختصاصات ، فكان عكاماً مشهوراً يقود قوافل الحجاج ، وكان أشهر رجال عگيل الذين يطلون الجمال بالقطران (النفط الأسود) ، حين يصيبها الجرب ويقع الوبر من على جلدها ، وكان هو أمهرهم في ذلك ويعرف محل الداء ونقطة الدواء . والجرب كثيراً ما يصيب الجمال وهو مرض معدٍ ، وكانت الناس تلجأ اليه لبراعته ، بان يمسحه بالقطران ولكن بمهارة وخفة . أما الاختصاص الثالث له والذي يقصده الناس من جهات بعيدة ، هو انه كان أكثر الناس مهارة في الكي (كما يقول المثل آخر الدواء الكي) . وكان الناس يقصدونه ، سواء من مسلمين ، أم غير مسلمين ، وهو ماهر وأخصائي في هذا ، لذلك ترى ديوانه في بيته بسوق حمادة مليء بالناس . وقد مات رحمه الله في منتصف العشرينات . أما المهنة الأخرى التي امتهنا العگيل ، فهي تربية الخيول العربية الأصيلة وتصديرها الى الهند لبيعها هناك ، أو لأجل تركيضها في مضمار سباق مدينة (پونا) مصيف بومباي ، حيث يجتمع أصحاب الخيول واللوردات الإنكليز والراجات الهنود هناك ، ومن أشهر العوائل التي امتهنت هذه التجارة ، هي عائلة حسن السليمان ، والابن الكبير صالح الحسن وشقيقه الطبيب البيطري المعروف عبدالرزاق الحسن السليمان الخبير العربي في أحوال الخيل . وكان يذهب دائماً الى الخليج العربي لاخذ رأيه من قبل الشيوخ والأمراء في أصل ونسب الخيل التي يشترونها .

ومن تجار الخيل أيضاً بيت جماس ، وبيت الجويلي ، وبعض بيوتات عشيرة الجبور والدليم . وانقطع تصدير الخيل الى الهند بأمر الحكومة ، فصاروا يذهبون بها الى بيروت ومصر ، وكنت ترى قرى بيروت ملئى بالعگيل تحت أشجار الصنوبر ، حيث

يبيعونها بأسعار طيبة للأثرياء من اللبنانيين ، مثل بيت العسيلي ، ومحمد فستق ، وغيرهم . علماً بأن أشهر جاكي للخيل في الهند ، كان عراقياً ومن العگيل ، وهو مَنْ يسمى (ابن عبيد) واسمه عبدالكريم ، ولكنه عُرف بأسم أبيه ، لذلك يقال له ابن عبيد . وقد بقي مدة في الهند وحاز على شهرة عظيمة في ركوب الخيل ، وقد أخذه أحد اللوردات الى فرنسا وإنكلترا ، حيث ركب خيوله هناك ، ولكنه وفي أحد سباقات الداربي في لندن لم ينجح في الركوب وحين نزل اكتشفوا انه كان مخموراً وهذا هو عيبه الكبير ، لانه كان مدمناً على الكحول فمنعوه من الركوب في إنكلترا . وجاء الى بغداد ، وقد طعن في السن وركب عدة مرات ، ولكن لم تكن له تلك القابلية الأولى ، فترك ركوب الخيل ومات بعد ذلك . والثاني العگيلي النجدي المعروف ببغداد كان الجاكي (منفي) الذي كان مشهوراً ، لانه جاكي الوصي عبدالإله . وكان العامل الرئيس المشجع لهجرة الشباب العگيل من بغداد الى السعودية ، هو الملحق الصحفي السعودي المشهور عبدالعزيز الصقر ، إذ استطاع أن يقنع كثير من الشباب بالذهاب الى السعودية ، فذهبوا وتسلموا الوظائف وتقدموا فيها ، فصاروا من كبار رجال الدولة ، ومنهم عدة وزراء ، مثل : ابن الرواف ، وابن سلمان ، وكثير من السفراء ، مثل عبدالعزيز الكحيمي ، السفير السعودي في بغداد ، وابن عجيلان السفير في فرنسا ، والآن هو أمين مجلس التعاون الخليجي ، فعائلة ابن عجيلان معروفة في جانب الكرخ ، وأحمد الكحيمي السفير الآن في لبنان ، وغيرهم كثيرون جداً . وتولى أحدهم مديرية الشرطة العامة في السعودية في زمن الملك عبدالعزيز بن سعود .

وفي هذه العجالة يجب أن أذكر بقاياهم في جانب الكرخ ، فدواوينهم بقيت مفتوحة حتى بعد هجرتهم وسفرهم . وكان الشيوخ منهم الذين لم يسافروا يتبخترون في دروب محلة جامع عطا والدهدوانة وسوق حمادة وطرف بارودة ، مستمتعين بكبريائهم وشموخهم السابق ، حتى قيل عنهم المثل (عگيلي يتبختر في الدهدوانة) . والدهدوانة ، هي أعلى محلة في جانب الكرخ ، ومن سكانها المشهورين بيت الكحيمي ، وبيت حسن السليمان ، الذين كانوا يربطون خيولهم داخل بيوتهم خوفاً عليها وحرصاً . وقد كان كثير من الناس يعتقدون ان العگيل كلهم من عشيرة عنزة في السعودية . وهذا غير صحيح ، لانه كثير منهم كانوا من عشائر أخرى ، مثل الضفير والعجمان وغيبية والصقور . ولكن كثرتهم كانت من عشيرة عنزة ، ولكثرتهم وتجمعهم في جانب الكرخ ، فلم يكن يسمى إلا صوب عگيل ، أو الصوب الصغير .

أما جانب الرصافة ، فيسمى الصوب الكبير ، عند رجل الشارع البغدادي ، وكلمة الرصافة والكرخ ، لم ترد على لسان رجل الشارع ، إلا بعد انتشار الجرائد والكتب وزيادة المعرفة المدرسية . هذا وان العگيل في بغداد كان لهم مصاهرة مع العائلة المالكة السعودية ، فعائلة حسن السليمان كانت لها مصاهرة مع الملك عبدالعزيز ، لان سلطان بن عبدالعزيز تزوج بنت عبدالعزيز الكحيمي ، السفير السعودي في بغداد ، وان أحد شباب آل البسام من بغداد تزوج من أميرة سعودية في الخمسينات .

وبمناسبة الحديث عن صوب الكرخ والعگيل المقيمين فيه ، كانت فيه جماعة كبيرة من غير العگيل ، مثل السامرائيين ، ويسمونهم السوامرة . وقد تجمعوا في محلة سوق الجديد ، والست نفيسة . ولم يكن لهم شأن يذكر في الحياة الاجتماعية أو السياسية ، إلا بعد ثورة العشرين ، حين هبت عائلة خلف الجواد ، والسيد علي السامرائي للدفاع عن المرحوم يوسف السويدي ومقاومة جيش الاحتلال ، حين جاءوا للقبض عليه ، وتمكنوا من تخليصه بعد معركة قُتل فيها بعض السوامرة ، وجُرح آخرون . ومن بعدها أصبح لهم اسم ظاهر ونفوذ في جانب الكرخ ، خصوصاً بزمن صبار الخلف الجواد صاحب الفرس السباقة المشهورة (عسيلة) .

أما التكارتة ، فقد تجمع أكثرهم في محلة التكارتة التي سميت الآن (سوق حمادة) . وبرغم ثرائهم ووجاهتهم في الكرخ ، ظلوا متقوقعين على أنفسهم وأقاربهم . ومن عوائلهم المشهورة بيت الريس ، والوسواسي ، وبيت محو ، والناصري ، والحاج وهيب ، والحاج ياسين ، وعبدالرزاق منير الذي صار رئيساً لبلدية بغداد (جانب الكرخ) ، بعد ان قسمت بغداد الى مدينتي الكرخ والرصافة في أوائل العشرينات . وكان منهم ضباط معروفون ، مثل : مولود مخلص ، وسعيد التكريتي ، وجميل قبطان ،ومكي التكريتي ، وغيرهم . وكانوا يتجمعون عادة عند دكان بائع السكائر المشهور (گنو) ، فهو مركز استعلامات التكارتة . وفي محلتهم كان هناك شخصان اشتهرا في بغداد ، وهما حنانش أبو الطرشي ، وابن طوبان صانع الپاچه .

أما الجبور ، وهم أكثر العشائر انتشاراً في البلاد من الموصل حتى البصرة ومن خانقين حتى الرطبة وحتى في المنطقة الكردية . وهناك يسمون أنفسهم الجمور ، بدلًا من الجبور . فكانت منطقتهم الرئيسة أولًا في ناحية الدورة ، ثم تجمعوا أخيراً في سوق حمادة القديم ، وسوق اللبن ، والشيخ علي ، والرحمانية ، انتهاءً بالجعيفر ، مجاورين بذلك لقصر السيد محمد الصدر ، ومنهم : بيت دراغ ، ولكثرة بطونهم

وأفخاذهم وتشعباتها ، صار الناس يقولون (إن ضاع أصلك فقل آني جبوري) ، لصعوبة معرفة أصل الشخص وصعوبة التمييز بين فخذ وفخذ ، أو بطن وبطن .

أما الباقون من سكان بغداد ، فان أسماء محلاتهم تدل على أصلهم العشائري ، مثل : محلة العَزّة لأفراد عشيرة العزة ، ومحلة القراغول ، ومحلة بني سعيد ، ولو ان فيها تجمعاً لقسم من العانيين الذين تجمع أكثرهم في جانب الكرخ ، وألبو شبل ، والفناهرة في الباب الشرقي الذين اختصوا بعمل الفخاريات والمكانس والمهافيف ، وبرم الحبال ، والكريمات ، والهيتاويين ، وغيرهم .

كما سكن الاكراد الفيلية في محلة الصدرية وتبة الكرد . أما الفويلية ، فاكثرهم جاءوا من مسكنهم الاصلي في جبل پشتكوه ، المسمى علمياً (جبال اللر وعشائر اللر) ، وسكنوا بغداد . كما سبق ان حكموا بغداد قديماً أيام بچلم ومرداويج الجبل ، واختصوا في بغداد بالعمل في علاوي الشورجة لبيع المواد الغذائية المختلفة ، مثل تمندار وغيره ، وقسم اشتغل بالتجارة ، مثل الحاج أحمد الكردي تاجر الحديد المشهور ، واشتغل قسم منهم في التزام وحراسة الخانات التجارية والعامة ، منهم اشتغلوا حمالين للأشياء الثقيلة . وكان من وجهائهم والمقدمين منهم المرحوم حاجو قلي ، وهو والد الدكتور عزيز الحاج . فقد كان في العشرينات حمال باشي كمرك بغداد ، والحمال باشي يعتبر في ذلك الزمن مدير الأمن ، فهو الذي يراقب الأموال الداخلة والخارجة ، وهو مسؤول أمام التجار ومدير الكمرك ، وكانت أجوره رسمية ، إذ تدرج على قائمة المطلعجي بصفة مصاريف رسمية ، علاوة على ما يأخذه من جعل من الحمالين الذين يشتغلون تحت رئاسته في دائرة الكمرك . وكان منظره المهيب المحترم ، وهو يجلس على السجاد الإيراني المفروش على أرضية الكمرك في دربونة الدخانية ويراقب بعين الصقر الداخلين والخارجين . (ويجالسه على الدوام المرحوم الحاج محمد علي الفويلي تاجر السجاد الشهير وهو عم عباس فويلي وأخيه حميد ، وليس أباهم ، كما يعتقد البعض .

وقد مارس كثير منهم تجارة السجاد ، مثل محمد علي فويلي ، وعباس حميد ، والحاج ابراهيم ، والحاج عبدالامير قيطاز . كما مارسها بعض الإيرانيين المقيمين في بغداد ، مثل : الحاج رشيد جنكي ، والحاج رضا قولي . أما البغداديون ، فكان أشهرهم الحاج حسين الطعان ، والحاج طه السعيد . أما اليهود ، فلم يشتغلوا بتجارة السجاد ، عدا بيت كاشي . وبالمناسبة فان أشهر جامعي السجاد وهواته في

العشرينات ، كان عباس الطعمة ، ونوري فتاح باشا ، وتوفيق السويدي ، وجواد جعفر .

والافريقيون في محلة الجوبة قرب محلة الفضل ، من العشائر الذين سكنوا متجاورين وسميت المحلات بأسمهم .

أما تجمعات اليهود كانت في أبي سيفين ، وأبو دَوْدَوْ ، والشورجة ، وتحت التكية ، ومحلة التوراة ، وفرج الله ، وسوق حنون ، وقمبر علي ، وباب الآغا ، وجامع المصلوب .

والمسيحيون تجمعوا حول كنيسة اللاتين ، وفي محلة رأس القرية ، وعگد النصارى ، والعمّار مع الجنابيين ، والسنك ، والمربعة .

والأرمن تجمعوا في كمپات الأرمن ، وأكثرهم في كمپ الباب الشرقي ، وهي أرض موقوفة يتولى إدارتها بيت الچوربهچي . والكمپ الآخر ، فهو على نهر دجلة مقابل قهوة ابن ملا حمادي ، أي خلف عمارة الأرمني سركيسيان . والتي كانت فيها دكاكين الأرمن الذين يبيعون اللبن والپاسطرمة ، ومحلة المربعة . وكان قسم من الأرمن من القدماء في بغداد ، أي قبل هجرتهم من تركيا قبل الحرب العالمية الأولى ، يسكنون في محلة رأس الكنيسة في الميدان ، ويقال انها من أقدم الكنائس في بغداد . وقد بنيت بموافقة السلطان مراد الرابع ، حين دخل بغداد . وكان أحد رجال المدفعية في جيشه أرمني بارع في استعمال المدفعية واسمه تازاريان ، ويقال عند العوام من البغداديين ان محلة گوگنظر هي بأسم تازاريان .

وأكتفي بهذا القدر من التفصيل ، فالشرح يطول ويحتاج الى كتاب خاص بالموضوع .

أما الصابئة في بغداد وأكثرهم من طائفة (المندائيين) ، فقد تجمعوا في محلة الكريمات في الكرخ ، قرب السفارة البريطانية ، وعلى إمتداد ساحل نهر دجلة ، لسهولة القيام بطقوسهم الدينية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالماء . أما أعمالهم ، فكانوا متخصصين بصياغة الفضة مع المينا ، وتجمعوا في شارع النهر (المستنصر) ، تجاه بناية بيت اللنج . وكان أكبر دكاكينهم هو دكان رئيسهم الديني في العشرينات الشيخ عنيس الفياض . فقد كان دكانه على سعته مجمعاً لأفراد الطائفة . وكان عنيس متحرراً لدرجة انه أدخل أخيه سعيد فياض الى المدرسة العسكرية ، وتخرج فيها ضابطاً ، وكان الصابئة على العموم أناساً مسالمين مهذبين .

وأشهر ما كتب عنهم هو كتاب (مدام دراور) زوجة المستر دراور مستشار وزارة العدل . إذ قضت في ديارهم نحو خمسة عشر عاماً وكتبت عنهم بكل تفصيل . ثم نقل الاستاذ غضبان الرومي وصاحبه قسماً مما قالته المسز دراور ، فعرف الناس عن طريق هذين الكتابين شيئاً من أحوال الديانة والطقوس الصابئية . أما الآن فلهم معبدهم الكبير في محلة القادسية ، وأشهر شخصاً في الحال الحاضر ، هو الشاعر الكبير عبدالرزاق عبدالواحد . وكان الصابئي قديماً يُعرف بلحيته وبعقاله اللف الجوزي اللون .

المحتويات

أَصداء وثناء ٥

سيرة ذاتية ٨

حوادث متفرقة في بغداد ١٣

استعراض الجيش البريطاني ، تعديل المعاهدة العراقية ، غرق مركب ، غرق بغداد ، مأساة الفوج السابع ، محاكمة الشيخ ضاري ، مظاهرات الطلبة ، فضيحة التعرفة الكمركية ، الإفلاسات ، الانتخابات ، قدوم فيصل ، منازعات المياه والحراسة ، انتحار السعدون ، مشاكل صحفية ، الجراد والثلج ، أيام زمان ، تطور المفاهيم ، وصول شاه إيران ، أهل الجربيات ، نفط بابا كركر ، النزاع اليهودي حول الغابيلة ، الهيضة في بغداد ، امتحان البكالوريا .

شخصيات بغداد شعبية ٤٠

توفيق أجانص ، جاسم أبو الهبزي ، أحمد بنّية ، عرب ، شيخان ، عباس حلاوي ، شفتالو ، خليل القهوچي .

الطب في بغداد ٤٧

مهن وصنائع اندثرت أو كادت ٥٢

التجارة في بغداد ٦٣

مهن نسائية ٧٧

التمثيل والملاهي ٨١

الطرب والغناء والاعياد ٨٨

مقاهي بغداد ٩٥

التجار ١٠٦

النقليات ١١٥

الأسواق والعلاوي ١٢٤

الألبسة وملحقاتها ١٣٩
سباق الخيل (الريسز) ١٤٨
المرطبات والحلويات ١٥٧
قصور بغداد ومغانيها ١٦٢
السكاير والتدخين ١٦٦
الجسور في بغداد ١٧٠
النوادي والجمعيات ١٧٤
الـمُـلالي ١٨١
كرة القدم ١٨٥
السبايات ١٨٨
المقابر والمزارات ١٩٣
الصناعات والمعامل ٢٠٠
الصحافة ٢٠٥
شارع الرشيد ٢٠٩
التبريد والتدفئة ٢٢٣
بيوتنا ومعاشنا ٢٢٨
أثرياء بغداد ٢٣٧
التعليم في بغداد ٢٥٠
الدواوين ٢٥٨
المجادي والمجاذيب ٢٦٨
الالقاب ٢٧٣
السفر الى سوريا ٢٨٣
مطاعم بغداد (اللوكندات) ٢٨٨
الحمّامات في بغداد ٢٩٤
الباعة المتجولون ٢٩٨
الحرائق والاطفاء ٣٠٢
الاشقياء في بغداد ٣٠٥
أيام عشناها ٣١٣

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة - شركة عامة

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ٢٠٠٠

الاشراف الفني
نهلة محمد عبد الوهاب

السعر: ٢٠٠٠ دينار

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة - شركة عامة